إحسان عبد القدوس

شيءٌ في صدري

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي الفجالة

سعيد جودة السحار وشركاه

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي





الراسمالية والعذاب

اكثر شيء اكرهه هو مقدمات الكتب .. ولا اذكر انني قرأت مقدمة لكتاب او لقصة ، سواء اكان صاحبها كاتبا كبيرا ام صغيرا .. الا في حالات نادرة .. ولا اذكر انني كتبت مقدمة لكتاب الا تحت الحاح شديد من الناشر .. الحاح يبلغ حد الضغط والارهاب ...

اني عندما ابدا في قراءة كتاب احب ان ادخل مباشرة في موضوعه ، بلا مقدمات .. واعتقد ان هذا هو ما يفعله اغلب القراء ..

ورغم ذلك .. فقد احسست اني في حاجة الى كتابة مقدمة لقصة « شيء في صدري » . لا لان القصة في حاجة الى مقدمة ، ولكن لان لي رايا اريد ان اقوله بمناسبة نشر القصة .

***

كيف بدات افكر في موضوع « شيء في صدري » .. ؟

لقد ساءلت نفسي يوما : هل يمكن ان يكون الرجل الراسمالي سعيدا ؟

وقبل أن أجيب عدت أسأل نفسى : ما هى الراسمالية ؟ ما هو أساس التفكير الراسمالى ؟

وأجبت : الراسمالية هى الحرية الفردية ..

وهذا صحيح ... فان أساس التفكير الراسمالى هو الحرية الفردية .. والافراد فى نظر التفكير الراسمالى .. لا يمكن أن يتساووا .. ولا يمكن أن يكونوا كأسنان المشط .. ان الافراد يختلفون فى قواهم العقلية ، وفى قواهم البدنية ، وفى امزجتهم ، وفى أعصابهم .. هناك فرد عبقرى ، وفرد عادى .. ومن الخطأ أن نقيد الفرد العبقرى ليعيش فى نفس الحدود التى يعيش فيها الفرد العادى ، بل يجب أن نطلق له الحرية ليمارس عبقريته ..

وقد يستفيد الفرد من عبقريته فائدة خاصة . قد يصبح مليونيرا .. ولكن الذى لا شك فيه أن المجتمع سيستفيد أيضا من هذه العبقرية .. ان صاحب الشركة قد يكسب منها ملايين الجنيهات ، ولكنه ليس وحده الذى يكسب ، بل هناك مئات العمال وهناك الموظفون والمستهلكون والمنتجون ، يكسبون معه .

ولكن ..

الى أى مدى يمكن ان نطلق حرية الفرد ؟

ليس هناك حرية فردية مطلقة حتى فى الدول الراسمالية .. فى الدول الراسمالية قوانين للضرائب وقوانين للعمال وقوانين لمنع الاحتكارات و .. و .. وكل هذه قوانين تحد من حرية الفرد .. وتحد من استغلال الفرد لعبقريته وقواه .. وكما أن القانون يمنع الرجل القوى العضلات من الاعتداء على شخص ضعيف بلا سبب ، فان القانون يحاول أيضا أن يمنع الشخص الشديد الذكاء ، أو العبقرى ، من الاعتداء بذكائه على شخص غبى ، أو على شخص اقل منه ذكاء .

ولكن ...

ان العباقرة ــ أو أصحاب رءوس الاموال الكبيرة ــ فى الدول

الراسمالية ، تتجمع مصالحهم ، وتتحد اهدافهم وتقاليدهم ، ويتوارثون رءوس الأموال ابنا عن أب ، الى ان يصبحوا طبقة اجتماعية خاصة .. الى ان يصبحوا بمثابة شعب آخر داخل الشعب .. وبحكم قوة مصالح هذه الطبقة ومضاء الأسلحة التى تشق بها طريقها ، تستطيع ان تسيطر على الدولة .. الدولة بجميع اجهزتها ، بما فيهــا جهاز الســلطة التشريعية النيابية .. فاذا سيطرت على الدولة سيطرت على القانون .. ويصبح القانون أضعف منها .. بل انها تسيطر أيضا على المجتمع كله ، بسيطرتها على المدارس والجامعات والصحافة والاذاعة ، وباقى ادوات توجيه الراى العام ..

وعندئذ تنهار نظرية الحرية الفردية .. لانها لا تصبح حرية فردية ، بل تصبح حرية طبقية .. حرية طبقة واحدة تحتكر رءوس الاموال .. وتحتكر العبقرية .. فاذا فرض ان ظهر فرد عبقرى خارج هذه الطبقة ، وحاول أن يمارس عبقريته ، ليصبح يوما ما مليونيرا ، وجد الأبواب كلها مغلقة أمامه ، لأن الطبقة التى تحتكر العبقرية يهمها الا يدخل فيها شخص جديد قد ينتقص من ارباح شخص آخر داخل الطبقة .. ذلك لان عدد الملايين .. ملايين الجنيهات .. فى كل دولة محدود ، مهما كان هذا العدد ضخما .. فاذا فرضنا ان عدد الملايين عشرة ، يملكها عشرة افراد ، كل فرد يملك مليونا .. فان اى فرد ينضم الى هؤلاء العشرة سيأخذ من نصيب واحد منهم او من نصيب كل منهم ..

ولذلك فان الملاحظ فى الدولة الراسمالية .. كالولايات المتحدة مثلا ، أن رءوس الأموال فيها متوارثة ، ومحصورة فى عدد قليل من الأسر .. ولم تستطع ضريبة التركات أن تفتت الثروة من ايدى هذه الأسر ، رغم أن الهدف الأساسى من هذه الضريبة هو التغلب على احتكار عدد معين من الأسر لثروة البلد .. ولكن :

بما أن هذه الطبقة اقوى من الدولة ، واقوى من القانون ، فهى ايضـا اقوى من ضريبة التركات ..

وبهذا تنقلب النظرية الراسماليـــة ، الى نظرية احتكارية استغلالية ..

ولهذا فان كثيرا من الثورات التى قامت .. كالثورة المصرية مثلا .. لم يكن هدفها القضاء على الراسمالية كنظرية تعتمد على حرية الفرد فى استغلال طاقته ، بل كان هدفها التخلص من سيطرة الطبقة الراســمالية على نظــام الدولة ، وبالتالى القضــاء على احتكار هذه الطبقة واستغلالها ..

***

كل هذا الكلام استعدته فى ذهنى ، لا لأعد بحثا عن النظام الراسمالى ، بل لأصل الى السؤال الذى بدأت به :

ــ هل يمكن أن يكون الرجل الراسمالى سعيدا ، هل يمكن أن يكون الفرد داخل هذه الطبقة الراسمالية الاحتكارية الاستغلالية ، فردا سعيدا ؟

واجبت نفسى :

ــ لا ...

فأنا لا أومن بأن هناك فردية مطلقة .. فكما انه ليست هناك حرية مطلقة ، فليست هناك كذلك فردية مطلقة .. ان الجسد الواحد يضم فى داخله مجتمعا كاملا .. يضم انعكاسات نفسية يطلقها المجتمع كله كوحدة .. ان احساس الفرد هو نتيجة تفاعلات احساس المجتمع .. احساس الملايين ، بكل ما فى هذا الاحساس من رواسب الماضى .. رواسب الدين والتقاليد ، وقصص الشاطر حسن وامنا الغولة .. !!

ليس هناك ما يسمى « أنا » .. أن « أنا » هذه ليست الا ملايين من الناس يتناقش بعضهم مع بعض .. بينهم رجل شرير .. وبينهم رجل خير .. وبينهم رجل ذكى ، وبينهم رجل

غبى .. وبينهم رجل ضعيف ، وبينهم رجل قوى .. كل هؤلاء يتناقشون ، ويتصايحون ويتماركون .. داخل الجسد الواحد .. ثم يتغلب احدهم على الآخرين ، فيصدر حكمه الى العقل والى اللسان ، والى أعضاء الجسم . وعلى أساس هذا الحكم ، يتصرف الفرد تصرفا معينا .. هذا التصرف هو ما يسمى « أنا » ..

وقد يكون الرجل الذى أصدر حكمه هو الرجل الشرير ، فيبقى الرجل الخير داخل الجسد يصرخ محتجا ، ويبكى ، ويعاتبه .. ويعذب الفرد ..

ان الانسان يظل دائما ضحية تنازع الخير والشر فى داخله .. وليس هناك فرد كله شر أو انسان كله خير . والشرير مهما اشتط فى شره يظل دائما معذبا بنزعة الخير فى داخله ، التى لم تستطع أن تنتصر وتصدر تصرفها .. كل ما هنالك أن نسبة الشر والخير تختلف من انسان الى آخر بسبب الظروف التى مرت به ، والبيئة التى عاش فيها ..

واللص .. خصوصا اذا لم يكن فى حاجة الى السرقة .. لا يمكن أن يكون سعيدا حتى لو لم يقبض عليه البوليس .. لأن هناك شيئا فى صدره يعذبه ، والقاتل لا يمكن أن يكون سعيدا حتى لو لم يقف أمام المحكمة . وقد شهد التاريخ ملوكا وقوادا قتلوا فى سبيل الابقاء على عروشهم .. وقد بقيت العروش وجلسوا عليها مدى عمرهم ، ولكنهم بقوا عليها غير سعداء .. بقوا عليها معذبين بها ..

وكذلك الرجل الذى يحتكر الآخرين ويستغلهم .. انه مهما جمع من أموال ، ومهما متع نفسه بمظاهر الحياة ، يبقى تعيسا شقيا ، لأن الآخرين الذين يستغلهم يعيشون داخل نفسه .. يعيشون فى صدره .. وهو يحس بعذابهم ، ويحس بصراخهم ، ويحس باعتدائه على حقوقهم .. وقد يستطيع بذكائه وأمواله أن ينتصر

غنى من حوله من الناس .. يستطيع ان يخدعهم ، وان يشترى سكوتهم ومظاهر احترامهم .. ولكنه لا يستطيع مهما بلغ ذكاؤه وتضخمت امواله ان يخدع هؤلاء الذين يعيشون فى داخله ، ولا ان يشترى سكوتهم واحترامهم .. ان قطعة من المجتمع تعيش فى صدره وتعذبه .

***

وعنـــدما وصلت الى هذا الحد من تفـــكيرى بدات اكتب القصة ..

قصة تصور عذاب الاحتكاريين الاستغلاليين ..

ثم مرت بى فترة من التردد .. تردد لأنى خفت ان أبتعد عن الواقع .. فليس من الواقع أن يحس احد الاحتكاريين بجرائمه الى هذا الحد الذى تصوره مذكرات – او خطاب – حسين باشــا شــاكر بطل « شىء فى صدرى » .. ولكن : لماذا لا يكون واقعا .. انه واقع حتى لو لم يحس به حسين شاكر .. ان حسين شاكر .. قد يتعذب ، دون أن يدرى سبب عذابه .. ولكن جهله بالسبب لا ينفى انه معذب .. والواقع الذى يعيش فيه هو فعلا ما تسجله هذه القصة .. واقع المعـــركة بين الشر والخير .. واقع المعركة بين الجشـــع الفـــردى والاحساس بالمجتمع ..

هل الححت ؟..

هذا ما اتركه لراى القراء ..

كل ما أرجوه الا يقال عن هذه المقدمة التى كتبتها ، انها زادت القصــة غموضا ، كما كان يقال عن المقــدمات التى يكتبهـــا برنارد شو ..

احسان عبد القدوس

دار روز اليوسف – القاهرة

١٩٥٨/٩/٢٠.

من الســهل ان يحترمك الناس ....
ومن الصــعب ان تحترم نفسك ....

إحسان ..

— ١ —

حبيبتى هدى ..

هل فوجئت وأنا أناديك : حبيبتى ؟ هل ارتفع حاجباك فوق عينيك ، وانفرجت شفتاك ، كأنك ذعرت ؟ !

ارجوك .. لا تذعرى .. ولا تدعى المفاجأة ترسم هذه الخطوط المعبئة فوق وجهك الجميل .. حاولى أن تحتفظى بهدوئك .. وان تحتفظى بابتسامتك الحزينة الضعيفة .. ولا تدعينى أزداد احساسا بأنى أثمت نحوك .. هذا الاحساس الذى عانيته وشقيت به مدى عشر سنوات ، ولم اعد احتمل منه المزيد .. انى لم اعد احتمل ، فانى أموت .. كما تعلمين !!

هل استبعدت ابتسامتك قبل ان تستمرى فى قراءة خطابى الطويل ؟ اذن .. دعينى اناديك مرة ثانية : حبيبتى هدى !

كم مرة ناديتك : حبيبتى ؟

بالضبط .. خمسة ملايين ومائتين وستة وخمسين الف مرة !!

لا تضحكى .. فانى لا استطيع ان اتخلص من هواية الأرقام ، حتى عندما احب ، وحتى وانا ملقى على سرير الموت .. وهذا الرقم هو عدد الدقائق فى مدى عشرة اعوام .. وقد كنت أناديك « حبيبتى » فى كل دقيقة .. مع دقات الساعة ، ومع دقات قلبى ، ومع دقات قدمى فوق الأرض فى كل خطوة أخطوها

.. حتى عندما انام كانت انفاسى تناديك « حبيبتى » .. وهو دائما نداء خفى ، صامت ، لم يسمعه أحد منى .. ولم تسمعيه انت ابدا .. نداء يتردد فى صدرى كأنه تسبيح عابد ، ولا يكاد يهم بالانطلاق من بين شفتى ، حتى ازم عليه الشفتين .. ازمهما فى عنف وقسوة .. فيعود النداء مرتدا الى صدرى ليعيش فيه ، ويعذبنى ..

لم يكن من حقى أن اسمع احدا ندائى .. حتى انت .. وقد كنت بجانبك خلال هذه السنوات العشر .. فهل سمعت ندائى .. هل رأيت صداه فى عينى وانا انظر اليك .. هل لمحت قلبى يتهدج فى حديثى معك .. هل احسست بيدى ترتعش وانا امدها الى يدك ؟ !

لعلك الآن تحاولين ان تتذكرى ..

لا تحاولى ..

انك لن تتذكرى شيئا ..

فقد كنت اقسو على عينى حتى لا تفضحا ندائى .. عيناى المسكينتان اللتان ذاب جل نورهما بين الأرقام ، وجللهما عمرى بالسواد كأنه كان يعدهما للموت !!

وكنت وانا اتحدث معك اقبض على قلبى بضلوعى ، حتى لا يختلج وتتصاعد خلجاته الى لسانى .. قلبى الذى كان يضرب بشدة وقوة ، ثم تخاذل يوم التقى بك ، وبدأ يئن ويتوجع .. كأنه لم يشعر بالشيخوخة الا عندما التقى بصباك !

وكنت وانا امد يدى الى يدك ، أمدها سريعا واسحبها سريعا ، قبل ان تحسى الرعشة فيها .. يدى المعروقة التى انتشرت فوقها بقع صفرة غامضة كأنها غبار الزمن حط عليها وتبلور فوقها !! لن يمكنك ان تتذكرى شيئا ، فلم يكن يخطر ببالك ان « عمك حسين » بوقاره ، وهيبته ، ومجده ، وعمره .. يمكن أن يحبك كل هذا الحب .. يحبك ويريدك .. يريد شفتيك

لشفتيه ، ويريد صدرك لصدره .. ويريد قلبك لقلبه . يريدك .. أتفهمين ماذا يعنى العجوز عندما يريد .. انه يجمع الحياة كلها فيما يريد .. انه يجعل ما يريده هو الفاصل بين الحياة والموت ، .. اما أن يموت أو يحصل على ما يريد .. والى هذا الحد كنت أريدك .. وكنت احبك .. ولكن حتى لم يكن يخطر لك على بال .. فلم تحاولى ان تلحظى شيئا فى تصرفاتى ، ولم تحاولى أن تكشفى عن مدائى الحمى اليك .. انما اطمأننت الى ، ووثقت بى ، دون شك ولا ريبة .. بل دون أن تسالى نفسك : لماذا اهتممت بك كل هذا الاهتمام ، ورعيتك بكل هذا الحرص ؟ !

ــ لماذا لم أعلن حبى قبل اليوم ؟

لماذا كتمت ندائى ، وتعذبت به كل هذا العذاب !!

سأروى لك القصة كلها .. لعلك تفهمين .. ولعلك بعد أن تفهمى تصفحين ..

***

منذ عشر سنوات ، وعلى وجه التحديد فى ١٤ سبتمبر عام ١٩٤٧ ، توفى والدك .. وكان صديقا لى .. وكانت صداقتنا لا يعرفها الناس ، بل لا تعرفينها أنت ، ولا والدك .. كانت صداقة من نوع فريد .. فقد كنا زميلين معا فى مدرسة الفنون والصنائع ، منذ اكثر من خمسة وثلاثين عاما .. وكان يجمعنا التناقض فى كل شىء ..

كان ضعيفا رقيقا كأنه فنان امتص الفن كل قواه ولم يترك له الا خيالا .. وكنت قويا ممتلئا كأنى من أبطال الرياضة ، رغم أنى لم أكن أمارس شيئا منها .

وكان هادئا ، طيبا ، خجولا .. وكنت مشاكسا ، جريئا ، لا ينقضى يوم من أيامى دون أن انتصر أو انهزم ..

وكان شريفا ، يضع للشرف مبادىء صارمة ، وحدودا ضيقة ، حتى يكاد لا يتحرك فى الحياة حرصا على مبادىء

الشرف .. اما انا فكنت اضع للشرف معانى متساهلة وحدودا واسعة .. كنت اغش فى الامتحان ، واسرق كتب زملائى ، وانافق المدرسين .. وانجح بتفوق كل عام !

وقد عرفته فى يوم لا انساه ..

كنت قد مرضت بالتيفويد ، وانا فى السادسة عشرة من عمري ، وقضيت شهرين طريح الفراش .. شهرين غبت فيهما عن الحياة .. كنت خلالهما أعيش فى النار .. نار الحمى .. ثم شفيت .. وغادرت البيت لاول مرة ، وسرت فى الشارع .. ضعيفا لا تكاد ساقاى تحملانى ، مدهوشا ترتعش جفونى فوق عينى كأنى غريب عن هذا العالم .

ووقفت عند محطة الترام ، ورأيت والدك .. كان اول وجه اعرفه والتقى به .. كنت اعرف انه طالب معى فى المدرسة ، ولم تكن قد تحادثنا او تعارفنا من قبل .. ولكنى عندما التقيت بوجهه احسست انى التقيت بالحياة .. احسست اننى لم اعد غريبا فى هذا العالم ، فتقدمت منه ، ومددت له يدى ، وشددت على يده فى فرحة كأننا أصدقاء قدماء التقينا بعد فراق طويل ..

وقلت وكلماتى تقفز فرحا فوق شفتى :

ــ ازيك !

قال مرحبا :

ــ ازيك انت .

ثم اخذنا نتبادل حديثا وادعا عن المدرسة واحوالها .. وركبنا الترام سويا ..

واحببته ..

كنت احب والدك حبا يشكل نوعا غريبا من الصداقة .. لم يكن صديقا أسهر معه ، أو اتناقش معه ، او حتى ألعب معه .. فلم يكن يطيق سهراتى او يحتملها ، ولم يكن هناك موضوع واحد يمكن ان يجمعنا فى مناقشة ، ولم تكن رقته تسمح له أن

يشاركنى العابى الخشنة .. بل اننا لم نكن نذاكر دروسنا سويا ، فقد كان طويل البال فى المذاكرة ، يستطيع أن يحبس الى مكتبه ساعات دون ملل ، اما انا فكنت لا اطيق .. كان ذكائى أحد من ان يصبر على المذاكرة ، فكنت اخطف الدروس خطفا ، وما كنت اعجز عن خطفه ، كنت اعتمد على الغش !!

وقد حاولت عند اول معرفتى به أن اشده الى .. او على الاصح ، حاولت ان اسيطر عليه .. حاولت ان اجعله يلتصق بى ، ويؤمن بى ، ويسلك فى الحياة طريقى .. ولكنه كان قوى الشخصية .. كانت شخصيته تقف كاملة فى مواجهة شخصيتى .. ولعله كان أقوى منى فى شخصيته .. وان كانت قوة شخصيته لا تبدو من خلال رقته ، وضعفه ، ونظراته الهادئة ..

ولم اثر لابائه على .. ولم اكرهه .. فقد كان أبيا بلا غرور او ادعاء .. وكان يحتفظ بقوة شخصيته لنفسه دون ان يحاول فرضها على أحد ، حتى انه كان يبدو منطويا وادعا اكثر منه معتزا بشخصيته ..

وتولد بيننا هذا النوع الغريب من الصداقة ..

كنت اقابله فى الصباح ، فأحييه ، واتبادل معه بضع كلمات حول مواد الدراسة .. دائما كلمات جادة وقور كأننا رجال كبار .. ثم نفترق ولا نلتقى بعد ذلك ..

ورغم ذلك كنت أحس به طول النهار بجانبى ، وكنت دائما ابحث عنه بعينى فى فناء المدرسة .. وكانت اعيننا تلتقى احيانا فيبتسم احدنا للآخر من بعيد .. كأنه هو الآخر يبحث عنى ..

ومع الايام بدأت احس انى اتعمد انتزاع اعجابه .. كنت احاول دائما ان ابدو محترما مهذبا امامه .. لم يسمع منى مرة نكتة خارجة من النكات التى تعودت أن اتبادلها مع بقية زملائى .. ولم ادعه يرانى وانا ادخن سجائر الحشيش فى ملعب الكرة ..

ولم يرنى ابدا وانا اسرق كتب الزملاء من ادراجهم فى خلال « الفسحة » ..

وكنت ايام المظاهرات — مظاهرات عام ١٩٢٢ — اقف بين الزملاء لأخطب فيهم خطبا حماسية وطنية .. وبين كل مقطع وآخر من الخطبة ، التفت باحثا عنه ، وعندما التقى بعينيه الهادئتين العميقتين ، انظر فيهما ، كأنى اسأله رايه ..

ولم أكن اعرف رايه ابدا ..

لم استطع يوما ان اتأكد مما اذا كان معجبا بى أم هازئا .. لم استطع يوما ان أعرف ما اذا كان راضيا عنى أم ساخطا على ..

كنت أحيانا اعتقد انه يعرف ما فى نفسى ، وأن عينيه العميقتين تثقبان صدرى وتنفذان الى أعماقى لتكشفا ما فيها .. لتكشفا انى لست وطنيا صادقا ، وأن هذه الكلمات الضخمة الرنانة التى اقذفها من فمى فى وجوه الطلبة لا تعبر عن ايمانى .. انما هى مجرد كلمات تمثيلية يقتضيها الموقف ..

ثم كنت اقول لنفسى : « ومن ادراه بحقيقة نفسى .. من ادراه انى افتعل هذا الحماس الوطنى ، حبا فى الوصول الى مرتبة الزعامة بين الطلبة ، وحتى انتخب عضوا فى لجنة الطلبة التنفيذية ، واشترك فى جمع التبرعات ، واتعرف الى الزعماء .. ثم اختلس من التبرعات ، واستفيد من الزعماء » ..

كنت اقول لنفسى هذا الكلام ، ثم ادير راسى عنه .. عن ابيك .. واستطرد فى خطابى الحماسى ، مبالغا فى انتقاء الكلمات الضخمة ، مبالغا فى اداء الحركات التمثيلية .. ولكنى لا البث أن اعود باحثا عنه بعينى ، كأنى مصر على أن اعرف رايه .. فلا ارى الا النظرة الهادئة العميقة التى تثقب صدرى ، وابتسامة ضيقة كأنها فرجة من امل بعيد لن اصل اليه ابدا ..

وتطورت محاولتى انتزاع اعجابه ورضاه ، الى احساس آخر .. الى احساس غريب .. بدأت احس كأنى اخاف منه ..

نعم . أخاف ..
انا الذى كنت اعد بين الطلبة بطلا وزعيما .. انا الذى لم اعجز ابدا عن الوصول الى شيء اردته .. انا .. اصبحت اخاف هذا الزميل الرقيق ، الهادىء ، الطيب ، الذى يبدو كفنان امتص الفن كل قواه ولم يترك له الا خيالا ...
ولم اكن اخاف أن يضربنى .. او يشى بى .. او يقف فى طريقى . ويا ليته حاول أن يضربنى او يشى بى أو يقف فى طريقى .. ولو انه فعل ، لاعطانى العذر فى أن احطمه .. واقضى عليه ، واتخلص منه .. اتخلص من حبى له ، ومن محاولتى ارضاءه .. ولكنه لم يكن يفعل .. كان أرق من أن يضرب ، واطهر من ان يشى ، وارفع من ان يقف فى طريقى ..
وكنت اخافه ..
مم كنت أخاف ؟
كنت اخاف شيئا فى صدرى ، تحركه نظرته الهادئة العميقة ، وابتسامته الضيقة كفرجة الأمل البعيد .. وعندما يتحرك هذا الشيء احس بثقل يكاد يكتم أنفاسى .. واحيانا يكون هذا الشيء حادا كأنه السكين يمزق رئتى ..
كنت اخاف هذا الشيء !
هل تفهمين ؟ !
هل تفهمين ما هو هذا الشيء ؟ !
لا .. انك لم تفهمى بعد .. ولك العذر ، فأنا نفسى لم افهم الا بعد ان عشت هذا العمر الطويل ، الى أن وصلت الى سرير الموت ..
ولاسرد لك حادثة وقعت لى عندما كنت وابوك طالبين فى مدرسة الفنون والصنايع .. لعلك تفهمين !
كنا نؤدى امتحان الدبلوم .. وامسكت بورقة الاسئلة ، واخذت اقرا كل سؤال بامعان ، فلم أجد واحدا منها أستطيع

ان اجيب عنه . ولكني كنت مستعدا لمثل هذه الاحتمالات .. بل اني لم اكن ادخل الامتحانات الا لاواجه هذه الاحتمالات .. وفي كل جيب من جيوب سترتي « برشامة » ، اي ورقة صغيرة .. صغيرة جدا .. كتبت فيها بخط دقيق ، الجواب عن كل سؤال يحتمل ان اواجه به في الامتحان ..

وبدات استعد لاخراج اول « برشامة » تحمل الجواب على اول سؤال ..

ووضعت يدي في جيبي ..

ولكن ..

لقد توقفت يدي كانها التصقت بالجيب ...

لماذا توقفت يدي ؟

اني لم اكن اخشى الاستاذ المراقب .. انه واقف بعيدا بحيث لا يستطيع ان يراني .. وحتى لو كان واقفا قريبا مني ، فلم اكن لاحسب حسابه . فقد عودت يدي على خفة الحركة بحيث لا يستطيع اي مراقب ان يلمحني ولو كان فوق راسي ..

ان يدي في جيبي .. واصابعي تقبض على « البرشامة » .. سأسحبها من الجيب ، وساسحب معها المنديل ، حتى تبدو حركة يدي كانها حركة طبيعية .. ثم ساتظاهر بانى امسح على وجهي بالمنديل .. ثم اعيده الى جيبي .. واظل محتفظا بالورقة في راحة يدي ، بحيث لا تبدو من بين اصابعي ، ثم ابدا في الاجابة عن السؤال ..

اني اجيد هذه الحركة تماما ..

ولكن يدي لا تزال داخل جيبي كانها التصقت به ..

لماذا ؟

لماذا .. مرة ثانية ؟

اني استطيع الآن وانا في الخامسة والستين من عمري ، استطيع ان اجيب عن سؤال خطر لي وانا في العشرين !

لقد تذكرت ساعتها أباك ..

تذكرت زميلى ذا العينين الهادئتين العميقتين ، والابتسامة الضيقة .. زميلى الذى أحبه ..

هل يرانى وانا اغش !

ولكن مالى وماله .. ليرَ اذا اراد ان يرى .. انى اواجه امتحانا قد أرسب فيه .. انى اواجه عاما من عمرى يكاد يضيع منى .. والوقت المخصص للاجابة عن الأسئلة يمر بسرعة .. يجب ان اخرج « البرشامة » من جيبى حالا .. حالا ..

ولكن يدى لا تزال ملتصقة بجيبى لا تريد أن تخرج منه ..

وبحركة لا ارادية التفت الى ابيك .. وفى نفس اللحظة التى التفت فيها اليه ، رفع راسه عن ورقة الاجابة ، ونظر الى بعينيه الهادئتين العميقتين ، وابتسامته الرقيقة الضيقة ..

وادرت راسى عنه بسرعة ، ودفنت وجهى فى ورقة الأسئلة ، وانا الهث .

نعم الهث ..

احسست بهذا الشىء الذى حدثتك عنه ، يتحرك فى صدرى .. شىء ثقيل يكتم انفاسى ، حاد كأنه السكين يمزق فى رئتى ..

وكان على أن اقاوم ..

وقاومت ..

قاومت بشدة ، وبقسوة على نفسى ..

وهدأ الألم قليلا .. واستردت سيطرتى على نفسى .. وبدأت احاول من جديد أن أسحب « البرشامة » من جيبى .

ولكنى — بلا ارادة — التفت الى ابيك مرة ثانية .. الى زميلى الذى احبه .. ومرة ثانية رأيته يرفع راسه عن الورق وينظر الى .. نظرته الهادئة العميقة ..

وتحرك الشىء فى صدرى ..

وبدأت الهث من جديد ..

وفى خلال ذلك ، كنت أخوض معركة بين ذكائى ، وبين ابيك .. ذكائى يلح على ان اسيطر على نفسى ، وان اسحب « البرشامة » من جيبى .. ثم لا يكاد ذكائى ينتصر حتى اجد نفسى التفت الى ابيك ، واجد نفسى صريع هذا الشيء الذى تحركه فى صدرى نظرته الهادئة العميقة ..

وطال ترددى .. وربما وضح على وجهى آثار ما اعانيه من اضطراب .. فانتبه مراقب لجنة الامتحان ، وجاء الى ووقف فوق راسى ، وقال كأنه اكتشف جريمة :

ـ بتعمل ايه ؟

وما كدت اسمع كلمته حتى ثرت .. ووقفت صارخا بأعلى صوتى وأنا انتفض :

ـ باعمل ايه !! بفكر .. بامتحن .. ممنوع التفكير كمان .. اسم عايزينا نسقط .. احنا بينا وبينكم ايه .. انت متقصدنى ليه .. حرام عليكم .. ده انا بقالى جمعه ما نمتش ..

وسرت ثورتى الى باقى الطلبة .. وترددت همهمات السخط .. وارتفعت اصوات : « ايه الظلم ده » .. « الاسئلة صعبة » .. « مش فاهمين الأسئلة » .. « الامتحان مش من المقرر » ..

وارتبك الاستاذ المراقب الواقف أمامى ..

وجاء رئيس اللجنة مهرولا ..

ولم يكن لدى المراقب دليل على انى اغش فى الامتحان .. فصرفه رئيس اللجنة .. وهدأت الضجة بعد حين ..

وقد كانت ثورتى ثورة صادقة انبعثت من كل أعصابى .. ولكنها لم تكن ثورة على المراقب ، ولكنها فى حقيقتها كانت ثورة على نفسى .. على ضعفى .. على حبى لابيك ومحاولتى الاحتفاظ برضائه واعجابه ..

وقد ساعدتنى هذه الثورة على تجميع ارادتى ، وعلى انتصار ذكائى ، فما كاد المراقب ينصرف من جانبى حتى اخرجت

« البرشامة » ، واجبت عن الاسئلة .. ونجحت فى الامتحان بتفوق .. بل سبقت اباك فى ترتيب الناجحين !!

هكذا كنت انا وابوك ..

انه نوع غريب من الحب والصداقة .. ورغم ذلك فهو ليس نوعا غريبا جدا .. ان فى حياة كل واحد من الناس مثل هذا الحب .. ولكن الذين يعانون من هذا الحب قليلون .. وانا منهم :

فالمرأة — مثلا — عندما تحب تزداد عناية بجمالها ، وتتعمد ان تكون رشيقة ، انيقة .. لا لان حبيبها سيلقاها .. فهى جميلة ، ورشيقة ، وانيقة دائما ، حتى فى الايام التى لن تلقى فيها حبيبها .. انها لا تحاول أن ترضى حبيبها ، ولكنها تحاول أن ترضى الحب نفسه .. تحاول أن ترضى شيئا فى صدرها .. اسمه الحب ..

وكما تحاول المرأة ان ترضى هذا الشىء ، فهى تخافه .. انها تخاف ان تحادث رجلا آخر ، أو تخاف أن تشرب كأسا من الويسكى .. وقد تكون متأكدة ان رجلها لن يراها .. قد يكون مسافرا وبينه وبينها مئات من الاميال ، ورغم ذلك فهى تخاف .. تخاف هذا الشىء .. تخاف ان يتحرك هذا الشىء فتحس بثقل يكاد يكتم انفاسها ، وسكين حاد يمزق رئتيها ..

ومثل آخر ..

ان الاب يخاف ولده .. وقد يكون ولدا صغيرا لا يتجاوز عاما واحدا من عمره .. ورغم ذلك فالاب يخافه .. وهو فى الحقيقة لا يخاف الولد ، بل يخاف شيئا فى صدره يثيره هذا الولد .. شىء يسمى « الابوة » .. فما ان يصبح ابا حتى يحاول ان يكون دائما محترما .. مهابا .. ويحاول أن يتخلص من خطاياه وعيوبه .. وكما يخاف هذا الشىء فهو يحاول ان يرضيه .. يحاول ان يتقدم فى عمله ، وان يرتفع بنفسه ، وان يكون انسانا كاملا ..

واكثر من ذلك ..

قد يكون للانسان صديق .. وقد يكون هذا الصديق اضعف من في حياته من الأصدقاء .. واقلهم نفوذا .. وقد لا يكون في حاجة مادية اليه .. ورغم ذلك فهو يحاول دائما أن يبدو محترما امام هذا الصديق دون باقي الأصدقاء .. انه يتعمد الا يبدو مخمورا امامه ، ويتعمد الا يدعه يراه وهو جالس الى مائدة القمار ، ويتعمد أن يخفي عنه خطاياه .. ان هذا الصديق يحرك الشيء الذي يعيش في الصدر ..

وفي صدر كل انسان هذا الشيء ..

ولكن ليس كل انسان يتعذب به ..

ان الانسان لا يتعذب بهذا الشيء ، اذا استطاع ان يستسلم له ، او استطاع ان يقضي عليه ..

اما انا فاني أتعذب به ..

اتعذب به : لاني لم استطع ان استسلم له ، ولا أن اقضي عليه .. انما عشت اقاومه ويقاومني .. واتعذب !

هل تفهمينني يا هدى ؟ !

اني اعلم اني احادثك بعقلية رجل في الخامسة والستين من عمره لم يتعود أن يعبر عن أفكاره بقلمه .. لم يتعود الا كتابة الشيكات .. ولم يتعرف على حقيقتها الا عندما أصبح قريبا جدا من السماء .. ولم يعد بينه وبين قبره سوى بضعة انفاس ..

نعم .. اني ارى الآن نفسي على حقيقتها .. ارى النفس البشرية .. وقبل اليوم لم اكن اراها .. لم اكن ارى هذا « الشيء » الذي احدثك عنه ..

لم اكن اراه ..

ولم اكن اعرفه ..

لم اكن ارى الا اباك .. ولم اكن اعرف ان اباك هو هذا الشيء !! وقد قضيت حياتي كلها أحاول أن أرضي اباك ،

فلا استطيع .. واحاول ان اتخلص منه .. ان اسحقه .. فلا استطيع !

وقد تخرجت أنا وأبوك في مدرسة الفنون والصنائع .. ولم أحاول أن ألتحق بوظيفة حكومية .. كما فعل أبوك .. كان ذكائي وإقبالي على الحياة أكبر من أن تتسع له وظيفة حكومية .. فقررت أن أشتغل مقاولا .. وكانت أيسر المقاولات وأكثرها ربحا مقاولات الجيش البريطاني .. جيش الاحتلال !

وفكرت ساعتها في أبيك ..

هل يقبل أن يشاركني .. وهل العمل مع الجيش البريطاني يعتبر انحرافا عن الوطنية .. وواجهتني نظرة أبيـــك الهادئة العميقة .. واحسست أني مقبل على ارتكاب جريمة .. بدأت أحس بهذا الشيء الذي يكاد يكتم أنفاسي .. ولكن ذكائي ثار على هذا الشيء .. إن كثيرين من المصريين يتولون مقاولات الجيش البريطاني .. فلماذا لا أكون واحدا منهم .. وزعماء البلد ألا يتفاوضون مع بريطانيا .. لماذا ذهب سعد زغلول الى المعتمد البريطاني ؟ ! ليعقد معه معاهدة .. وما هي المعاهدة ؟ أليســت هي مقاولة تحقق مصلحة مصر ومصلحة بريطانيا .. وأنا أيضا سأعقد معاهدة صغيرة مع بريطانيا .. معاهدة تحقق لي مصلحة ، وتحقق لهم مصلحة .

وقد كنت محتاجا الى هذا المنطق حتى استطيع أن أتغلب به على خوفي من أبيك ومحاولتي ارضاءه .. واسرعت باندفاع عجيب ، وتعرفت بأحد ضباط الجيش البريطاني .. ودعوته الى سهرة ، قدمت له فيها الخمر ، والنساء ، وصداقتي ..

وفي صباح اليوم التالي ، حصـــلت على عقـــد مع الجيش البريطاني لتوريد عمال لعملية شق طريق داخل معسكرات جيش الاحتلال ..

وكنت فى حاجة الى رأس مال صغير .. استطعت أن أقترضه بسهولة من بعض الاصدقاء ..

وقبل ان أسافر الى مقر عملى الجديد بيوم واحد .. ذهبت الى أبيك .. لماذا ذهبت اليه .. لا ادرى .. ولكنى ذهبت اليه .. وعرضت عليه ان يشاركنى فى المقاولة التى حصلت عليها بنسبة النصف ، دون ان يدفع شيئا من راس المال .. ولم يكن العمل فى حاجة اليه .. ولم تكن له كفاية ممتازة تغرى باستغلاله .. ولكنى كنت أريده معى .. كأنه يستطيع ان يحمينى من شىء أخافه .. كأنه يستطيع أن يسعدنى بشىء أنا فى حاجة اليه .. ولكنه رفض .. نعم ، رفض .. رفض وابتسامته الضيقة كالأمل البعيد لا تزال فوق شفتيه ، ونظرته الهادئة العميقة لا تزال فى عينيه .. رفض مكتفيا بوظيفة حصل عليها فى وزارة الاشغال . وظيفة مهندس طلمبات فى مديرية قنا .

وتركته وانا ثائر ، حانق ، مغتاظ .. كنت أسبه والعنه .. الغبى .. الحمار .. ماذا يظن فى نفسه !! اله الفضيلة !! رب الزهد والقناعة !! بطل الوطنية !!

وظللت ثائرا عدة أيام ، وأنا أحاول أن أطفىء ثورتى باندفاعى فى العمل ..

وقد عملت كثيرا .. وربحت كثيرا ..

كنت احاسب الجيش البريطانى ، على عشرة قروش أجرا للعامل الواحد .. ثم لا ادفع للعامل الا خمسة قروش .. هل تعتقدين أن هذه سرقة .. سرقة أقوات العمال ؟ ! ان اباك ايضا كان يعتبرها سرقة .. ولكن العمال أنفسهم كانوا يعتبرونها فضلا عظيما .. فان المقاول الذى كانوا يعملون معه قبلى ، لم يكن يدفع للواحد منهم سوى أربعة قروش !!

لقد أحبنى العمال فعلا .. واعتبرونى نصيرا لهم ..

ولو اشتغلت بالسياسة أيامها لأصبحت « زعيم العمال » !!

لكن .. هل هدأت واسترحت ؟ !

هل نسيت أباك ؟!

أبدا ..

لقد أرسلت اليه عبد العظيم افندى ليعرض عليه مرة ثانية أن يكون شريكى فى العمل ، أو أن يقبل أن يكون مديرا لشركتى الجديدة .. « شركة المقاولات العمومية » .. بمرتب قدره ثلاثون جنيها فى الشهر .. اى اكثر من ضعف مرتبه فى الحكومة .. وقد كانت الثلاثون جنيها أيامها تساوى اليوم ثلثمائة ..

وتعجب عبد العظيم افندى من هذا العرض .. فقد كان يعرف أباك ، وكان يعرف عنه أنه لا يصلح شريكا لى ، ولا مديرا لشركتى .. كان يعرف عنه ما يعرفه كل الناس .. يعرف أنه منطو .. لا تبدو شخصيته من خلال رقته .. ولا يبدو أنه يحتمل كفاحا أو يسعى الى أمل .. انه واحد من الملايين الذين يقفون على رصيف الحياة يتفرجون .. مجرد فرجة ..

ولم يكن عبد العظيم افندى يعرف مكانة والدك فى نفسى .. لم يكن يعلم أنى أحب والدك .. أخافه وأسعى الى رضائه ..

لم يكن يعلم أن والدك يمثل هذا الشىء الذى يسكن فى صدرى ، ويعذبنى .. وقد حاول أن يعارضنى ، وقال وهو يلوى شفتيه الغليظتين :

— وده حا تعمل بيه ايه ده .. ده ما ينفعش ببصلة !

وأحسست كأنه أهاننى ، ورفعت اليه عينين غاضبتين وقلت فى حدة :

— ما لكش دعوه .. اعمل اللى باقولك عليه ، وانت ساكت !

ونظر الى عبد العظيم افندى بعينيه المنتفختين القذرتين ..

ثم ارخى جفنيه اللذين تساقطت رموشهما ، وخطا خطوة ، ثم عاد والتفت الى ، وقال فى الحاح :

ــ انا حاعملك كل اللى انت عايزه .. بس وحياة والدك فهمنى .. ايه اللى عاجبك فى سى محمد افندى ؟ !

وصرخت فى وجهه :

ــ انت حاتحاسبنى .. مين اللي بيشتغل عند التانى .. تكونشى فاهم انى انا اللى باشتغل عندك .. غور من وشى !

وابتعد عبد العظيم افندى ، وهو يثير من تحت قدميه تراب الارض كأنه يقذفه فى وجهى ..

وذهب الى والدك ..

وعاد ..

وقرأت على وجهه الكريه نتيجة مسعاه .

لقد رفض والدك ..

واحسست انى اهنت .. احسست بالشىء يكاد يكتم أنفاسى ويمزق رئتى .. واحسست فى الوقت نفسه بطاقة ثورية تنطلق فى نفسى وتتحدى والدك .. تتحدى الانسان الرقيق الهادىء الذى يعيش بعيدا عنى ، ويرفض ان يقترب منى .. واحسست انى فى حاجة الى أن اعمل عملا كبيرا .. فى حاجة الى نجاح كبير ، ارد به على والدك .. لعله يقتنع بى .. ولعله يعجب بى ..

وسمعت صوت عبد العظيم افندى وكأنه يأتى من بعيد ، قائلا :

ــ الصنف ده غاوى فقر . ده صنف يعيش فقير ويموت فقير .. صنف جبان .

وابتسمت ساخرا وانا أسمع صوت عبد العظيم افندى .. انه لا يعلم !

***

حبيبتي هدى :

انك تعرفين عبد العظيم افندى .. تعرفينه باسم عبد العظيم بك ، مدير شركة الصناعات التجارية ..

انه لم يكن ايامها « بك » ولم يكن مديرا عاما .. انما كان مجرد افندى .. ولم يستحق لقب افندى ، الا لأنه كان يضع طربوشا فوق رأسه ، ويعلق فوق أذنه « قلم كوبيا » ، ويرتدى معطفا اصفر كالحا ، فوق جلباب ذات الالوان فيه حتى لم يعد له لون .. ويمسك فى يده « دفترا » صغيرا يسجل فيه حسابات العمال ، وفى يده الاخرى « خرزانة » يهزها فى وجوههم .. وجوه العمال !

ودعينى اقدم لك عبد العظيم بك على حقيقته ، فانك لن تعرفينى الا اذا عرفته ..

لقد كان طالبا معنا فى مدرسة الفنون والصنائع ، ورسب فى امتحان السنة الأولى عدة مرات .. وعندما نجح اخيرا وانتقل الى السنة الثانية خرج من المدرسة .. ولم يكن احد منا يعرف كيف يعيش ، أو يعرف شيئا عن عائلته ، ولكنه كان فقيرا فى مظهره ، وكان دائما معنا .. حتى بعد ان خرج من المدرسة ظل مرتبطا بنا .. وبدأت حاله تسوء .. كان يبدو كأنه يبيت كل ليلة فوق الرصيف .. حلته متسخة دائما .. مكرمشة دائما .. كأنه يكرمشها تعمدا وبعناية .. ورباط عنقه رفيع ملتو كأنه رباط حذائه .. وشعره دائما مهوش فوق رأسه كأنه لم يمر به مشط فى حياته .. ووجهه اغبر معفر كأنه لم يغسله ابدا .. وساءت حاله اكثر فأكثر .. وبدا كأنه مريض .. هزيل ، نحيل ، اصفر .. وقال بعضنا عنه انه ادمن الكوكايين ، وقال البعض انه مريض بالسل ..

ولكن عبد العظيم لم يكن يحس بسوء حاله ، ولا يشكو منه .. كأنه اختار هذا الحال السيىء بمحض ارادته .. وبمزاجه ..

وكانت له حيوية كبيرة .. كان يتكلم دائما وكثيرا .. وكانت نكاته البذيئة لا تنتهي ..

وكان يفعل أي شيء !!

وعندما خرج من المدرسة اصبح هو الذي يتولى لنا شراء قطع الحشيش . وهو الذي يدلنا على النساء الرخيصات .. وهو الذي يقودنا الى الحانات مساء كل خميس .. و .. و .. وباختصار .. كان يفعل كل شيء !

وعندما تعددت خدماته لنا .. هذا النوع من الخدمات .. وتأكد اننا اصبحنا في حاجة اليه .. لم يعد ينتظرنا امام باب المدرسة كما كانت عادته .. ولم يعد يمر علينا في بيوتنا .. بل اتخذ له مقرا في احد المقاهي البلدية بشارع الحسينية ، واصبحنا نحن نذهب اليه .. ولم يعد يخدعنا في ثمن قطع الحشيش ، أو أجر النساء الرخيصات ، بل أعلن – في وقاحة – أن من حقه أن يتقاضى « عمولة » على خدماته ..

ولم يكن حتى ذلك الحين قد تجاوز التاسعة عشرة من عمره !! وبعد ان تخرجت .. وبدأ أول عمل لي مع الجيش البريطاني .. ذهبت اليه كما ذهبت الى والدك !!

ذهبت اليه لأطلب منه أن يعمل معي ملاحظا للعمال !

ورحب عبد العظيم بالعمل معي ، فقد كان يهابني ، ويحترمني اكثر مما تعود أن يحترم الناس ، ويحسب حسابا كبيرا لغضبي ورضائي .. كانت شخصيتي طاغية عليه ، الى حد انه لم يكن يستطيع ان يحاسبني على « العمولة » التي يحاسب عليها بقية الزملاء !!

ورحبت انا بعبد العظيم ، لاني كنت أعلم انه يستطيع أن يكون اكثر من مجرد ملاحظ للعمال .. كان يستطيع أن يقوم بجميع الاعمال القذرة التي قدرت اني في حاجة اليها لأسير بعملي ..

وقد قام فعلا بكثير من الاعمال القذرة .. قام بها على اكمل وجه !

كان هو الذى يعد الليالى الحمراء للضباط الانجليز .. وهو الذى يقدم لهم الرشاوى .. وهو الذى ينقل الى الاخبار .. اخبار المشروعات الجديدة .. واخبار العطاءات التى يتقدم بها المقاولون المنافسون لى ، حتى اقدم عطاء اقل سعراً من عطاءاتهم وافوز بالمشروع .. وكان يتجسس على العمال .. ويتحمل عنى متاعبهم .. وقد ثار عليه العمال مرة .. فخرجت اليهم وادعيت انى اناصرهم .. وانهلت على عبد العظيم افندى صفعا وركلا امامهم .. كنت اضربه ضربا حقيقيا .. وكان يصرخ وينتحب .. وهدأت ثورة العمال ، وهتفوا باسمى .. « يحيا نصير العمال » .. ثم جاءنى عبد العظيم افندى فى مكتبى ، ليقبض ثمن الصفعات والركلات ، وابتسامته تسيل كاللعاب من بين شفتيه الغليظتين .

وظل عبد العظيم افندى فى حياتى كلها ..

كبرت المشروعات .. وكبرت انا .. وكبر معى عبد العظيم افندى .. وكبرت معنا الاعمال القذرة !!

هل تتقززين وانت تقرئين هذه السطور ؟

هل التوت شفتاك الرقيقتان كأنك تمتعضين .. هل اهتز جفناك فوق عينيك العميقتين كأنك تطردين عنهما شبحا يخيفك ؟!

يا احب الناس .. حاولى أن تحتملى خطابى كله .. لا تدعنى اخاف عليك مما سأحدثك به .. انى اعترف كما ترين .. واريد أن يكون اعترافى كاملا ، صادقا .. اريد أن اكون شريفا للمرة الأولى والأخيرة فى حياتى .. وانا كما تعلمين اقف الآن على باب السماء .. ولست طامعا فى عفو الله .. انا لا استحق عفوه .. ولكن كل ما أطلبه منه أن يعينك على قراءة خطابى هذا .. مساعدتى لدى الله .. ساعدينى حتى اتم اعترافى .. ولا تلوى

شمسك .. لا تمسخني هكذا ، فان ما حدثتك عنه حتى الآن ليس سوى الحياة .. الحياة خارج بيتك النظيف الذى لم يدنسه سوى دخولى اليه .. وعبد العظيم افنـــدى كما وصفته لك شخصيه معروفة فى دوائر الاعمال ، ودوائر الكبار .. ان وراء كل كبير .. ووراء كل عظيم ـ عبد العظيم افندى .. ان الكبار لا يكبرون الا بالاعمال القذره .. والاعمال القذرة فى حياة كل كبير يقوم بها عبد العظيم افندى !!

ولا تطلبى منى ان اعدد لك الـــكبار الذين اقصـــدهم .. ولا تطلبى منى أن اعدد كم « عبد العظيم افندى » يعيشون سـادا فى مصر .. فانى لا انوى الدفاع عن نفسى ، ولا اريد أن اتخذ من اعمال غيرى مبررا لاعمالى ..

لا ..

ولكنى فقط اريد أن تهدئى ، حتى استطيع أن اســـتمر فى خطابى ..

هل استمر ؟ !

اذن ، اسمعى .

لم يكن عبد العظيم افندى وحده كافيا لاحقق النجاح الذى حققته ، ولا الخطوات الكبيرة التى قطعتها .. فقد كان يلزمنى لتحقيق هذا النجاح ابوك ايضا .. نعم ، ابوك .. الرجل اللطيف الرقيق الذى لا تبدو شخصيته من خلال رقته .. الرجل الذى احبه .. الرجل الذى احاول ان انال رضاءه واعجابه .. الرجل الذى يحرك الشوء فى صدرى ..

كان عبد العظيم افندى يمثل الاداة التنفيذية لى .. وكان ابوك يمثل الدافع .. يمثل القوة التى تدفعنى الى النجاح .. والى المزيد من النجاح ..

لقد نجحت فى مشروعى الأول .. كسبت كثيرا .. واصبحت غنيا .. ولكنى لم احس بأنى بلغت اعجاب ابيك .. لقد بدا

الناس يحترمونني .. كل الناس يحترمونني .. ويعجبون بي ، وبذكائي ونشاطي . ولكني لم احس اباك يشارك الناس هذا الاعجاب وهذا الاحترام .. كان الشيء الذي يسكن صدري قلقا دائما .. لا يهدأ ابدا .. فتوليت مشروعا آخر نجحت فيه . ثم مشروعا ثالثا . ثم لم اعد اكتفي بعطاءات الجيش البريطاني .. دخلت عطاءات الحكومة .. ولبس عبد العظيم افندي حلة وجيهة ليستطيع أن يقابل بها كبار الموظفين ويقوم لهم الرشاوى ، باحترام كبير ..

وكثرت المشروعات الحكومية التي توليتها .. ثم انشأت مصنعا .. ثم شركة صناعية كبيرة .. واصبحت شخصية معروفة من الشخصيات التي تتحكم في مصير مصر .. ومددت اصابعي الى الاحزاب السياسية .. واستطاع عبد العظيم افندي الآن يشتري لي في كل حزب مجموعة من اعضائه .. وفي كل وزارة وزيرا او وزيرين .. وخلال كل ذلك نلت لقب البكوية .. وعندما نلت لقب الباشوية .. واصبحت . « باشا » .. في نفس اليوم ، اصبح عبد العظيم .. بك !!

وفي كل مرحلة من هذه المراحل كنت أسأل نفسي هل رضي عمي محمد افندي .. هل نلت اعجاب والدك ؟ !

ولو أني اعتقدت أني نلت اعجابه ورضاءه لتوقفت .. لو أنه صافحني وشد على يدي ، لاكتفيت بما كنت قد وصلت اليه .. لو أنه قبل ان يكون معي لقنعت بما انا فيه ..

ولكنه لم يرض . ولم يشد على يدي . ولم يكن معي .. فكنت دائما في حاجة الى نجاح اكبر .. الى مشروع أضخم .. لعلي اقنعه .. ولعلي اقنع الشيء الذي يعيش في صدري ..

ولم تكن علاقتي بأبيك خلال كل هذه السنوات مجرد خيال .. او مجرد احساس .. بل كانت علاقة واقعية .. كانت عملا من اعمالي اليومية .. وكان عبد العظيم افندي .. او « بك » ..

تفهم كل الاعمال التى اكلفه بها .. الا عملا واحدا كان مكلفا به دائما . وهو أن ينقل الى اخبار محمد افندى السيد أولا بأول !

وكان عبد العظيم يكره محمد افندى السيد ، ويلعنه .. ويشتمه .. ولكنه لم يكن يستطيع ان يعصى لى امرا .. مخصص معاونا خاصا لجميع أخبار ابيك .. فكنت أول من يعرف خبر نقله من قنا الى اسيوط .. ثم من اسيوط الى القناطر .. ومن القناطر الى القاهرة .. وكنت أول من سمع بترقيته الى الدرجة السابعة .. ثم السادسة .. ثم الخامسة .. حيث وقف ولم يتقدم بعدها .. اصبح من الموظفين المنسيين .. وكنت أول من عرف بخبر زواجه .. وخبر ولادتك .. وكنت أعرف عنوان بيتكم .. وكنت اعرف يوم يغيب عن ديوان الوزارة .. ويوم يأخذ اجازته السنوية .. و .. و .. كنت اعرف كل ذلك .. وهو لا يدرى انى اعرف ..

ولن احدثك عن الرسل التى ارسلتها اليه عبد العظيم لمحاولة ارضائه أو اغرائه بالعمل فى احدى الشركات العديدة التى املكها دون أن يبدو اسمى فيها .. لقد خاب كل هؤلاء الرسل . وكان كل منهم يعود ليعلن أن اباك رحل .. عنى !

ولكنه لم يكن غبيا ..

انى اعرفه ..

لقد كانت هذه طبيعته .. كانت هذه شخصيته .. كانت شخصية اقوى من أن تلوث .. شخصية تشم رائحة الغش من بعيد ، تتباعد عنه ..

وفى مرة طلبت من عبد العظيم أن يوعز الى زملائى خريجى مدرسة الفنون والصنائع ان يقيموا حفلة تكريم لى بوصفى ألمع خريجى المدرسة منذ انشئت حتى اليوم ..

لا تدهشى ..

فقد كتب اكلف عبد العظيم بكثير من مثل هذه المهام التى قد يبدو كانها صفاقة منى . ولكنها صفاقته يحتـاج اليهـا كل الشطار . .

ولم اكن اعبر عن هذه الصفاقته بصراحة . بل كان يكفى أن اقول لعبد العظيم مثلا : « يظهر ان جريدة الاهرام مش راضية علينا اليومين دول » .

ويصيح عبد العظيم : « ازاى الكلام ده » . .

وفى اليوم التالى تبدو جريدة الاهرام وقد خصصت صفحة كاملة من صفحاتها للحديث عن مشروعاتى . وعن « الوطنى المكافح حسين باشا شاكر » !!

وفى هذا اليوم قلت لعبد العظيم :

ـ والله زملائنا اللى كانوا معانا فى المدرسة وحشونى ! ؟

واجاب عبد العظيم بذكائه اللماح :

ـ دول ناس ما بيهمش خير . . كان لازم يعملوا لسعادتك حفلة تكريم . . هو حد شرفهم غيرك !!

وبعد ايام جاءنى وفد من خريجى المدرسة ليعرضوا على أن اشرفهم بقبولى اقامة حفل لتكريمى . .

واعتذرت تواضعا منى !

والحوا . . وازدادوا الحاحا !

واقترحت عليهم ـ فى تواضع ـ ان يحولوا نفقات اقامة حفلة التكريم الى جمعية مبرة محمد على . .

وهتف الزملاء بحياة رجل البر . . اى انا !!

ونشر الخبر فى الصحف . .

ولكن الزملاء عادوا وقالوا انهم بعد أن تبرعوا بتكاليف اقامة الحفل لمبرة محمد على . جمعوا مبلغا آخر لاقامة حفلة التكريم . . لان فى تكريمى تشجيعا لامثالى المكافحين . . و . . و . .

واضطررت ان اقبل التكريم !!

وكل هذا حتى ارى اباك في حفلة تكريمي .. حتى ارى عينيه الهادئتين العميقتين ، وارى نمسي فيهما ..

وقد كنت متأكدا انه دعي الى الحفل .. ان عبد العظيم تأكد بنفسه ان بطاقة الدعوة قد وصلته ..

ولكنه لم يحضر ..

نعم .. لم يحضر !

وقد دخلت الى مكان الحفل وانا ادير عيني باحثا عنه .. لم ار وجوه المستقبلين .. ولم اسمع التصفيق الذى استقبلت به .. ولم ملتقط اذناى شيئا من الكلمات التي كانت تلقى تحت قدمى ..

كنت ادير عيني باحثا عنه ..

وجلست في مقعدي ، وانا لا زلت ادير عيني باحثا عنه ..

وتوالى الخطباء .. يشيدون بمجدي وكفاحي .. وانا لا اسمع شيئا ؛ انما اركز عيني على الباب لعلى اراه يدخل منه .. يدخل الى !

ثم يئست ..

انه لن يأتي ..

وعندما يئست من حضوره ، احسست كأنى صغير .. صغير جدا . احسست انى شيء حقير .. حقير جدا .. واحسست ان كل هؤلاء الناس المحيطين بي منافقون .. كلهم منافقون .. كلهم اصغر منى ، واحقر منى ..

واحسست ساعتها انى قذر .. يجلس بين اكوام من القذارة .. وقلبت شفتى في اشمئزاز .. ومرة واحدة ، بينما كان احد الخطباء في اوج حماسته .. قفزت من فوق مقعدي .. ثم أسرعت نحو باب الخروج ..

وارتبك الحفل .. وجرى البعض خلفى .. وهممت بعض

كلمات ليس لها معنى . كانها كلمات اعتذار .. ثم تولى عبد العظيم عنى مهمة الاعتذار للمحتفلين بى ، وافهامهم انى مرتبط بموعد هام سيتقرر فيه بناء مشروع ضخم ..

وفى اليوم التالى تبرعت بعشرة آلاف جنيه للأعمال الخيرية ..

وكان هذا هو ردى على عدم حضور ابنك الى الحفل ..

كانت هذه العشرة آلاف جنيه كانها رشوة له .. لعله يرضى عنى ويعجب بى !

فهل رضى عنى !؟ هل اعجب بى ؟ !

لا ...

والشىء الذى فى صدرى يعذبنى !

وقد ترك هذا الحادث اثرا آخر فى نفسى .. لقد اصبحت احتقر الناس المحيطين بى .. واتلذذ باحتقارهم .. اصبحت اتعمد كلما جاءنى وزير ، او باشا من الباشوات الذين يشتريهم لى عبد العظيم لاعينهم اعضاء فى مجالس ادارة شركاتى .. اصبحت اتعمد ان « الطمهم » فى غرفة السكرتير مدداً متفاوتة .. لا لشىء الا لاتلذذ بلطعتهم .. واتلذذ باحتقارهم .. وكلما طالت مدة لطعتهم ، ازددت تلذذا ..

وبدأ هؤلاء الناس يقولون عنى انى رجل متكبر ، متغطرس .. وكانوا يقولون هذا الكلام فى مجالسهم الخاصة ، اما فى مجالسهم العامة فكانوا يقولون عنى انى رجل مشغول !

والواقع انى لم اكن متكبرا ولا متغطرسا .. ولكنى عندما احسست ايضا انى انسان صغير حقير .. احسست ايضا ان كل هؤلاء الناس الذين يحيطون بى ، والذين اتعامل معهم ، هم اصغر منى واحقر .. وكنت فى حاجة الى هذا الاحساس لانقذ نفسيى من الانهيار وكنت فى حاجة الى ممارسة هذا الاحساس.

واظهاره حتى اقنع نفسي به .. ثم اصبحت اتلذذ بهذا الاحساس .. اتلذذ بمعاملة هؤلاء الناس على أنهم اصغر مني واحقر ..

وكان هذا من فعل والدك ..

***

حبيبتي هدى ..

وسأناديك دائما : حبيبتي ..

لماذا حدثتك كل هذا الحديث الطويل عما كان بيني وبين المرحوم والدك ؟ ..

لأنك لن تفهمي ما بيني وبينك ، الا اذا فهمت ما كان بيني وبين والدك .. لن تفهمي لماذا احببتك ، وكيف احببتك ، الا اذا فهمت اين كان والدك مني ، وأين كنت منه .

حاولي ان تفهمي ..

ارجوك .. حاولي كثيرا .. حتى لو اضطررت ان تعيدي قراءة سطوري مرة ثانية .. حاولي بكل ذكائك ، وبكل احساسك .. فان ما سأحدثك به بعد ذلك ، فظيع .. فظيع .. ولن تحتملي فظاعته الا اذا فهمت ، الا اذا وضعت عقلك بجانب قلبك ، وانت تقرئين ..

ولا تنسي اني اموت ..

دعيني اقص عليك الحوادث التي جمعتنا ..

دعيني اقص عليك قصة حبي .. القصة التي ستسمعينها لأول مرة ..

اني ارى الماضي كله بوضوح .. والايام كلها متصفة أمامي ، يوما بعد يوم .. واستطيع ان اصف لك كل يوم ، وان اردد كل كلمة قيلت .. ان ذاكرتي لم تكن ابدا بمثل هذا الوضوح ، وذهني لم يكن ابدا بمثل هذا الصفاء .. غريبة .. كأن الله يهب الناس ، وهم على فراش الموت ، ذاكرة قوية ، حتى لا يحتجوا بالنسيان وهم يؤدون امامه الحساب !!

اسمعى يا أحب الناس :

فى صباح ١٤ سبتمبر عام ١٩٤٧ ، قمت من النوم فى الساعة السابعة صباحا كما كانت عادتى دائما .. ولبست ثيابى فى تأن وهدوء .. وقد عودت نفسى على هذا التأنى والهدوء فى كل حركة من حركاتى ، حتى احتفظ بمظهر محترم مهاب !! .. ثم نظرت الى نفسى فى المرآة بلا اكتراث .. الى رأسى الكبير ، والى حاجبى الكثيفين ، وركزت نظرى برهة على الشعرات البيض التى تكسو فودى ، وتتسلل الى شاربى الصغير .. ثم نزلت الى الحديقة ، وياسين خادمى الخاص ، يتقدمنى .. وطفت بحديقة القصر ، والجناينى يتبعنى .. ثم انحنيت وقطفت ورده حمـــراء كبيرة علقتها فى عروة سترتى .. وقد فعلت كل ذلك بلا احساس ، انما بحكم العادة .. فلم اكن احس بجمال الحديقة ، ولا بجمال الوردة .. انما هى عادة اتبعتها لأنها عادة الأغنياء الكبار .. ثم جلست الى المائدة المعدة تحت احدى الخمائل لأتناول عليها افطارى .. ورشفت رشفة من فنجان الشاى ، ثم مددت يدى وسحبت جريدة الأهرام .. وقد تعودت أن اقرأ أولا صفحة الوفيات .. وربما كان الدافع لى على قراءة أخبار الوفيات يختلف عن دوافع بقية الناس ، فقد كنت اقرؤها على أمل أن أحد عدوا لى قد مات .. انه أمل خبيث ، ولكنى أعترف كما تعلمين ، وقد نويت أن أصدقك فى اعترافى .. نعم ، كنت اقرأ صفحة الوفيات على أمل أن يكون عدد أعدائى قد نقص واحدا .. أما أصدقائى ، فليس لى أصدقاء .. كل الناس أعداء .. زملائى رجال الأعمال الذين اجتمع بهم فى حفلات العشاء ، وأقضى معهم سهرات طويلة فى نادى محمـــد على وفى نادى السيارات ، نتبادل خلالها الابتسامات والنكات .. كلهم أعداء .. ورجال الأحزاب والمسئولون .. كلهم أعداء .. حتى الذين أعينهم فى مجالس ادارة شركاتى ، وادفع لهم بسخاء .. كلهم

اعداء .. والموظفون كلهم اعداء ، والعمال كلهم اعداء .. كل الناس اعدائي .. لا يربطني بهم سوى حاجتهم الى .. وهم يكرهونني لانهم دائما يطمعون في المزيد .. ولو اغمضت عيني عنهم ، او لو تحرروا من حاجتهم الى ، لا نقضوا على وحطموني ..

كل الناس اعدائي ، وعلى راسهم صديقي الوفي ، وكلبي الدليل .. عبد العظيم بك !

وكلهم اتمنى لهم الموت ، ويتمنون لى الموت !

ولهذا كنت اهتم دائما بقراءة صفحة الوفيات في جريدة الاهرام !!

وجرت عيناى بين السطور السوداء .. ثم توقفت ..

لقد قرات اسم والدك ..

مات ..

مات محمد امدي السيد .. الصديق الذى احبه واخافه واسعى الى رضائه .. مات الرجل الذى يحرك شيئا في صدرى ، فاحس بثقل يكاد يكتم انفاسي . وسكين حاد يمزق رئتي .. مات الرجل الوحيد الذى استعصى على طول حياتي . فلم استطع ان اسيطر عليه ، ولا ان اتخلص منه ..

ولم اعرف ساعتها ما هو احساسي بالضبط .. انما شعرت كان شيئا ينسلت مني ويتركني فراغا .. ووقعت الجريدة من يدى ، دون ان اتم قراءة الخبر ، ودون ان اقرا اسعار البورصة التي ابدا بها عملي كل صباح .. ولم ارشف الرشفة الثانية من فنجان الشاى .. انما قمت كالمذهول اسير في طرقات الحديقة ؛ وصورة والدك تملأ مخيلتي .. وجهه النحيل كوجه فنان امتص الفن كل قواه ولم يترك الا خيالا ، وعيناه الهادئتان العميقتان اللتان تنفذان صدرى وتمتدان الى اعماقي ، وابتسامته الصبغة كفرجة من امل بعيد لن اصل اليه ابدا ..

وحاولت عبثا ان احدد احساسي في تلك اللحظة .. احساسي

نحو وفاة والدك .. ولكن الاحاسيس ــ مختلف الاحاسيس ــ كانت تمر في ذهني ، كأنها أصناف بضاعة أختار منها واحدة .. الحزن .. والفرح .. والأسف .. والشماتة .. واللامبالاة .. والجزع .. كل هذه الأحاسيس كنت استعرضها في ذهني ، دون ان يسقط احساس واحد منها في قلبي ..

كنت اقول لنفسي : « يجب ان تحزن .. انه الرجل الذي عاش في صدرك طول حياتك .. انه الرجل الوحيد اللطيف الذي التقيت به في الدنيا .. لقد كنت تحبه .. فاحزن .. احزن جدا حاول ان تبكي » ..

وكنت أحاول فعلا ان احزن .. كنت اجمع نفسي واضغط على اعصابي حتى احس بالحزن . وكنت اعصر عيني لعلني ابكي .. بل خطر لي ساعتها ان ابدل رباط عنقي برباط عنق أسود ..

ولكني في نفس الوقت كنت اسمع هاتفا آخر في نفسي .. هاتفا خبيثا يقول لي : « لماذا تحزن .. ان من حقك أن تفرح .. من حقك ان تشمت بموته .. انه رجل استعصى عليك .. انه رجل عذبك طول حياته .. لم يرض عنك ، ولم يبد لك احتراما ، ولم يقدر لك كفاحك .. لقد كان يقلقك ، ويثير في صدرك شيئا يكتم انفاسك ويمزق رئتيك .. وقد مات هذا الرجل .. ومات هذا الشيء .. افرح .. اشمت .. تهاد في مشيتك .. انه انتصار لك » ..

وكان هذا الهاتف قويا ، وكان قريبا جدا من قلبي ، حتى انى كنت أشعر بالابتسامة تكاد تقفز الى شفتي ..

وقد حاولت أن اقاوم هذا الشعور .. حاولت كثيرا ..

كنت ساعتها كأحد هؤلاء المنافقين الذين يسيرون في الجنازات .. يحاولون ابداء الحزن فلا يستطيعون .. وتغلب عليهم شعورهم بالشماتة ، فيكتمونه خوفا من ان يفتضح نفاقهم

امام الناس . ثم يلحئون الى من سير محانتهم يبادلونه الحديث حتى يهربوا من نفاقهم .. يهربوا من الحزن والشماتة معا ..
ولم يكن محانتي احد ابادله الحديث ، لاهرب بالحديث من هذه الاحاسيس المتناقضة التي اثارها في نفسي موت ابيك ..
وشيئا فشيئا . رأيتني اخضع للهاتف القوي الخبيث .. انتصر في نفسي الاحساس بالشماتة .
نعم .. شمت في موت ابيك !
هدى .. لا تسرري هكذا .. ولا تلقي خطابي من بين يديك .. ولا تكرهيني الى هذا الحد .. ارجوك يا هدى .. لا تكرهيني .. فانك ان كرهتني لن تستطيعي فهمي .. وانا محتاج لكل فهمك .. حاولي أن تسيطري على كل مشاعرك حتى انتهي من خطابي . وتنتهي انت منه .. وبعد ذلك .. اكرهيني !
لقد اكتشفت أنّ اباك ايضا كان عدوا لي .. ولكنه عدو يختلف عن بقية اعدائي .. انه عدو يعيش في صدري .. عدو احبه !!
وغمرني شعور الشماتة ..
وتركت ابتسامتي تملأ شفتي .. وتهاديت في مشيتي بين اشجار الحديقة نشوان بلذة النصر ..
لقد نصرني الموت على ابيكِ ..
المعلم .. مات !
ماذا اجدته حياته .. ماذا اجداه الشرف ، والامانة ، والنظافة ، والقناعة .. وماذا اجدته عيناه العميقتان ، ونظرته الثاقبة ، وابتسامته الضيقة .. لقد عاش ومرتبه لا يتجاوز الثلاثين جنيها ، ومات ولم يترك وراءه سوى معاش لا يتجاوز الاثنى عشر جنيها .. المغفل !

وخرجت من قصري وركبت سيارتي وانا اكاد اطير من النشوة .. ودخلت الى مكتبي وانا احس بقوة لم احس بها من قبل .. قوة غريبة .. قوة مدمرة .. كنت أحس كأني استطيع ان اعصر مصر كلها في قبضة يدي . لأستنزف كل قرش فيها واضعه في خزانتي ..

ودخل علي عبد العظيم بك ..

انه دائما اول من القاه صباح كل يوم ، لنراجع سويا سير الاعمال القذرة ، ويتلقى تعليماتي بشأنها ..

وجلس عبد العظيم على المقعد المواجه لمكتبي ، وابتسامة كبيرة تسيل من بين شفتيه الغليظتين الكريهتين .. ابتسامة اكبر من ابتسامة كل يوم .. ثم مال برأسه الي وقال في لهجة احسست انها لهجة تشف :

ــ البقية في حياة سعادتك !

وتجاهلت ما يقصده ، وقلت في برود ، وانا ادس عيني في بضع اوراق حتى أخفي عنه احساسي :

ــ مين ؟ !

قال والتشفي ينضح من كلماته :

ــ محمد افندي السيد .. يعيش سعادتك !

وبذلت جهدا كبيرا لاضغط على اعصابي ، وقلت في اختصار :

ــ الله يرحمه !

ونظر الى عبد العظيم نظرة ماكرة .. انه لا يصدق هذا البرود الذي أدعيه .. انه يعرف والدك ، ويعرف كيف ربطته نفسي به طول حياتي ، وقد قضى خمسة وعشرين عاما ينقل الى اخباره اولا باول . فكيف يصدق مثل هذا البرود الذي استقبل به خبر موته !!

واحسست ساعتها اني لست وحدي الذي يشعر بالقوة والنصر بموت ابيك .. بل ان عبد العظيم ايضا يشعر بأنه

ازداد قوة .. ازداد قوة على .. على انا !
وحقدت يومها من عبد العظيم ..
احسست انى فى حاجة الى مزيد من الحرص ، ومزيد من الدهاء ، لأظل مسيطرا عليه ، آمنا شره ..
احسست ان والدك عندما مات تركنى وحدى لعبد العظيم .. تركنى بلا مراحل .. بلا شىء فى صدرى يثير القلق فى نفسى .. شىء اخافه . واحاول ان انال رضاءه واعجابه ..
وقد انقدت فعلا لعبد العظيم ..
او على الأصح انقدت لعقلية عبد العظيم ..
وانقضى اسبوع ارتكبت فيه من الاعمال قدر ما كنت ارتكبه فى عامين او ثلاثه .. كنت اعمل بلا راحة .. وبلا رحمة .. وبلا تردد .. واستطعت ان افلس احدى الشركات المنافسة .. واستطعت — فى هذا الأسبوع الواحد — ان اسقط وزارة لتحل محلها وزاره اخرى اكثر تفاهما معى .. وسعيت فى حل نقابه عمال « شركه الصناعات المصريه الكبرى » .. وخفضت الاجور .. ورفعت الأسعار .. وبعت للحكومه ثلاثه آلاف طن من البضاعة الفاسدة .. و .. و ..
وعبد العظيم منتش ، فرحان .. انه يجول ويصول ، وينفث شره فى كل مكان ..
وانا حمار .. لا ارحم .. لا ارحم الناس ، ولا اشعر بوجودهم .. كل الناس حشرات تافهه استحقها بنعـل حذائى .. حتى الأعمال الصغيرة التى كنت اكتسب بها مظهر الخير امتنعت عنها .. التبرعات للجمعيات الخيريه ، وشراء تذاكر حفلات الجمعيات ، واعانة النوادى الرياضيه ، واعلانات الصحف .. و .. و .. كل ذلك استغنيت عنه .. وامرت السكرتير بان يطرد كل مندوبى هذه الجمعيات ، وكل مندوبى الصحف .. هؤلاء الشحاذين .. ما حاجتى اليهم !!

وفى خلال هذا الاسبوع كانت تمر على لحظات خاطفة كنت أخاف فيها من نفسى .. أخاف فيها من الطاقة الهائلة المدمرة التى أطلقتها على الناس .. وفى هذه اللحظات كنت أتذكر والدك .. ولكنى ما كنت أكاد أذكره ، حتى أسمع صراخا يتجاوب فى نفسى : « لقد مات .. مات .. مات .. مات » ثم أندفع فى عملى ، بطوبى الطاقة الهائلة التى تنطلق من نفسى .. أندفع كأنى أجرى فزعا من شبح يطاردنى .. شبح ميت !!

وفى نهاية الاسبوع طرأت على رأسى فكرة غريبة ..

فكرة شاذة ..

لقد فكرت أن أزوركم فى بيتكم !!

لماذا ؟

ربما لأنى لم أكن أصدق نفسى عندما أسمعها تردد أن والدك قد مات .. لم أكن أصدق أنه لم يعد فى الدنيا من يستطيع أن يقلقنى أو يحرك شيئا فى صدرى .. فأردت أن أذهب الى بيت الميت ، لأتأكد من أنه فعلا قد مات ..

وربما لأنى أردت أن أزداد شماتة فى أبيك ، وأزداد احساسا بالنصر .. أردت أن أرى الفقر الذى كان يعيش فيه ، والفقر الذى تركه خلفه .. حتى أقنع نفسى بأنى لم أخطىء فى الطريق الذى دلنى عليه ذكائى .. طريق الثراء الكبير ، والجـريمة الكبيرة ..

وقلت لعبد العظيم بعد أن انتهينـا من مراجعة الاعمال القذرة قلت معتمدا على ذكائه اللماح :

ــ يا ترى عيلة محمد أفندى السيد ، حالتها ايه دلوقت ؟ !

والتفت الى لفتة حادة كأن رأسه انفصل عن عنقه ، وقال وقد اتسعت عيناه فى ذعر :

ــ احنا لسه ما نسيناش سيرة محمد افندى !!

قالها بلهجة لم يتعود أن يحادثنى بها من قبل .. ونظرت

اليه بنظرة صارمة ثابتة ، حتى اضطر ان يرخي عينيه عني ، ونكس راسه ، وعاد يقول في صوت ذليل :

ــ الحقيقة اني كنت نسيت المرحوم حالص !

قلت وانا اضع في كلماتي رنينا جادا يفهمه جيدا عبد العظيم :

ــ لازم الواحد يكون بار بزملائه .. ده كان اعز صديق ايام المدرسة !

وقال عبد العظيم :

ــ كلك خير يا باشا ..

ثم قام منصرفا ، وانا واثق انه سيتخذ كل الاجراءات التي تكفل زيارتي لكم ..

وقد ارسل لكم احد معاونيه الخصوصيين ليحدد معكم موعدا لزيارتي .. وفي الوقت نفسه اعد مقالا لتنشره احدى المجلات عن تواضع حسين باشا شاكر .. اي انا .. الى حد انني ذهبت بنفسي لاعزي في وفاة موظف صغير من زملائي في المدرسة ..

وحدد الموعد في الساعة الخامسة من يوم الخميس ٢٥ سبتمبر .. اني لا انسى ابدا التواريخ .. بل ان ذاكرتي تعودت الا تحمل الا ارقاما وتواريخ ..

وذهبت اليك ..

وتعمدت ان اذهب في سيارة متواضعة من سيارات الشركة ، حتى لا اثير الريبة . وانا امر في شوارع شبرا ..

وذهبت وحدي .. كاني ذاهب لزيارة قبر عزيز مات . واريد ان اخلو بذكراه .

ووقفت السيارة امام بيتكم في شارع شيكولاني .. ونزل السائق وفتح الباب ، ومددت ساقي لاهم بالنزول .. ولكني عدت وسحبتها .. وسحبت معها نفسا عميقا من صدري كاني استجمع كل قواي ..

لقد احسست ساعتها بالتردد ..

احسست انى مقبل على ارتكاب جريمة اكبر من كل جرائمى ..
احسست كأنى مقبل على انتهاك حرمة قبر .. انى سانبش القبر واسرق الجثة !

وفكرت ساعتها أن أعود .. ان اعدل عن هذه الفكرة الغريبة الشاذة التى يثيرها فى رأسى دافع خبيث .. دافع الشماتة فى الموت . والاطمئنان الى ان الميت قد مات ..

ولكن كان الدافع الخبيث اقوى منى .

وكان مقدرا على البيت الكريم الطاهر ان ادنسه بقدمى ..

وكان مقدرا عليك ان افسد حياتك .. وان احيل نضارة شبابك الى رماد .. الى حطام بائسة ..

لا تتعجلى ولا تسألينى كيف افسدت حياتك .. ولا تجهدى ذاكرتك بحثا عما فعلته بك .. انك لن تذكرى شيئا .. انى مجرم اكبر من أن يترك بصمات أصابعه فوق ضحيته .. وانت اطيب من ان تتصورى أن الدنيا يمكن أن تحمل مجرما مثلى ..

دعى الحوادث تحكى لك كل شىء ..

لقد نزلت من السيارة ، وانا لا زلت مترددا ، وقلبى واجف .. وصعدت السلم فى خطوات متلصصة ، كأنى اخشى أن يرانى احد وانا أتسلل اليكم .. ووصلت الى الدور الثالث .. انى اعرف أين انتم .. الشقة التى على اليمين .. ووقفت أمام الباب برهة ، التقطت فيها انفاسى .. ولم يكن صعود السلم هو الذى اتعب انفاسى .. لقد كنت ايامها فى الخامسة والخمسين من عمرى ، ولكن انفاسى لم تكن تتعب من صعود السلم .. انما تعبت من ترددى ، ولعدم اقتناعى بما افعله ..

وطرقت على الباب طرقة خفيفة .. ثم اعدت الطرق ..

وفتحت الباب خادمة صغيرة ، على رأسها منديل اسود .. انى اذكر تماما وجهها .. وجها غبيا يثير الابتسام من فرط غبائه .. وقد فتحت الباب نصف فتحة .. وتلقت اسمى .. قلته لها

بلا لقب .. حسين شاكر .. فأغلقت الباب فى وجهى .. واحسست انى طردت .. انى اهنت .. احسست ان هذه الصبيه الصغيرة قد اكتشفت انى مجرم ، وانها أرادت ان تحمى البيت منى .

ولكنها عادت بعد لحظات وفتحت الباب .. فتحته كله .. وقادتنى الى حجرة الاستقبال .. حجرة كسيت كل مقاعدها وارائكها باكسية بيضاء .. وادرت نظرى فيها بسرعة .. وعلى الجدار لمحت صوره كبيرة غطيت بملاءة سوداء .. لابد انها صورة المرحوم .. اذن . فقد مات المرحوم !!

وجلست تحت الصورة المحجبة بالسواد ، والشعور الخبيث يكاد يطلق ابتسامة من بين شفتى .. ولكن هذا الشعور بدأ يخف .. بدأ يزايلنى .. احسست انه يفلت منى ويتركنى فراغا .. احسست بنفس الشعور الحائر الذى انتابنى لحظة قراءتنا وفاة ابيك .. وانتهت هذه الحيرة بأن احسست بالراحة .. نعم الراحة .. لا ادرى اى نوع من الراحة هى .. ربما الراحة لوجودى فى بيت شريف .. لا ادرى .. ولكن اعصابى بدأت ترتخى .. وتسربت الى انفى رائحة هادئة كأنها رائحة بخور .. وكانت النوافذ مغلقة ، والضوء هادئا .. شعرت كأنى فى مسجد .. او كأنى فى مقبرة .. لا ضجيج .. ولا معركة .. ولا اطماع ..

هنا كان يعيش محمد افندى السيد ..

واحسست انى احسده .. لقد قضى حياته كلها فى مثل هذه الراحة اللذيذه المخدرة التى احس بها الآن .. وعندما حسدته بدأت ارى حياتى بشعة ، مزعجة ، بلا راحة ..

وانتبهت على صوت اقدام تقترب ..

ودخلت والدتك . متشحة بالسواد .. ونظرت اليها بكل عينى .. ثم نظرت اليها مرة اخرى .. كنت اريد أن ارى زوجة

زميلي محمد افندي السيد .. كنت أريد ان ارى زوجات الناس الشرفاء .. كأني ابحث في وجهها عن انسانه غريبة .. عن سيده ليست ككل السيدات اللائي التقيت بهن في حياتي ..

ولم ار في والدتك شيئا مما كنت اتصوره عن زوجة زميلي الشريف ..

انها ليست جميلة الى حد ان يميزها الجمال .. ولكنها تبدو ذكيه .. ذكاء تنطق به عيناها . ويتقدمها في كل لفتة من لفتاتها ، وفي كل كلمة تنطق بها .. هذا النوع من الذكاء الذي تستطيعين ان تأمني شره بسهولة .. لانه ذكاء واضح . وليس محسنا .. ليس خبثا .. او هو خبث بسيط ساذج .. مكشوف !

وتعجبت : كيف استطاعت هذه السيدة الذكيه ان تعيش حياتها مع محمد افندي السيد .. كيف استطاعت ان تحصر ذكاءها في هذا النطاق الضيق .. وخيل الى انها لو كانت موظفة عندي في احدى شركاتي لاستطاعت بسرعه ان تكون مديرة شركة . او على الاقل مديرة فرع لشركه ..

ومددت لها يدي . وقلت في تأثر وانا لا أزال انظر في وجهها :

ــ البقية في حياتك يا هانم ..

قالت وهي تخفض رأسها لتبدو اكثر تأثرا :

ــ حياتك الباقية يا سعادة الباشا ..

وسمعت في صوتها رنة اعرفها جيدا .. انها رنه التزلف .. والنفاق .. انها رنة الزهو المكبوت عندما يقابل احد الصغار ، كبيرا مثلي .. باشا مثلي !!

ترى لو اني كنت قد التقيت بأبيك .. هل كنت اسمع في صوته هذه الرنة ؟ !

وجلسنا .. ومرت بيننا مدة صمت .. كنت خلالها ابحث عن كلمات اقولها . وكانت خلالها تنظر الى نظرات مختلسه مترددة ، كأنها تستعجلني لتسمع مني مبررا لزيارتي . وهي في نفس الوقت

محشى الا سكون هناك مبرر الا مجرد تادية واجب العــزاء ، فيصسع معها « باشا » سقط عليها من السماء .

وقلت كانى ابدأ مرافعة طويلة :

ـــ المرحوم كان اعز اصدقائى . كنا زملاء مع بعض فى المدرسه .. انما للأسف مشاغل الدنيا فرقتنا عن بعض .. ومكن حتى ما يكونش كلمك عن صداقتنا ..

قالت وهى مصمص شفتيها ، لا اسفا على وفاة المرحوم ، بل اسفا على الصداقة التى لم تسمع بها :

ـــ الحقيقة ان المرحوم ما كانش بتكلم كتير .. عمره ما حكى لى عن ايامه فى المدرسة .. والحقيقة انه عمره ما جاب سيرة سعادتك !

واحسست باهانه لم احس بها من قبل .. انه كان يضن على حتى بذكر اسمى فى بيته .. ولكنى تمالكت اعصابى ، وقلت :

ـــ انما انا دايما كنت فاكره .. و دايما اطمن عليه من بعيد !

وتنهدت .. وقالت :

ـــ بديك طولة العمر يا سعادة الباشا !

قلت .. وانا ابحث عن مزيد من الكلمات حتى الزيارة فترة مناسبة :

ـــ على كل حال : اذا كنت ما قدرتش اخدم المرحوم و ، فأنا يشرفنى انى اخدمه بعد وفاته .. وأرجو ان تعتبرينى العيلة .. واعتبرينى دايما فى خدمتك ..

قالت : وهى تتنهد ايضا :

ـــ متشكرين يا سعادة الباشا .. كلك خير .. والله المرحو سابنا لايصين؟!!

ودخلت الخادمة الصغيرة تحمل صينية القهوة .. سادة .. والتقطت الفنجان ورشفت رشفة مرة ، ثم عدت أسأل :

ــ المرحوم ساب اولاد كتير ؟ !

وكنت أعرف أنه لم يكن له الا انت .. ولذلك لم أهتم كثيرا بسماع الجواب .. وعدت أرشف منجان القهوة المرة ، بينما والدتك تقول :

ــ ما فيش الا بنتى هدى !!

قلت وأنا أضع الفنجان على المائدة :

ــ ويا ترى عرفت معاش المرحوم اد ايه ؟

قالت وهى تلف الطرحه السوداء حول رقبتها ، كأن ذكر المعاش يحتاج الى مزيد من الحزن ، ومزيد من الحداد :

بيقولوا حداشر جنيه ونصف .. انما لسه ما شفناش حاجة ..

قلت وأنا ادعى التأثر :

ــ بس .. ده ما ..

وسكت .. لقد أحسست ى هذه اللحظة ــ أن هناك أحدا معنا فى الغرفة .. انى لم اسمع صوت أقدام تقترب .. ولكنى احسست أن هناك من دخل .. وخيل الى انى اسمع أنفاسا كرفيف الفراشات .. وكنت ملتفتا بكل حسمى ناحية والدتك فأدرت عنقى ناحية الباب بسرعة ..

انها أنت ..

لا .. انه هو !!

وقفزت من مقعدى وقد ملأتنى الدهشة .. دهشة فيها كثير من الذعر ..

لقد رأيتك واقفة عند الباب متشحة بالسواد .. ولكن وجهك .. انه الوجه النحيل كوجه فنان امتص الفن كل قواه ولم يترك له الا خيالا .. وعيناك الهادئتان العميقتان اللتان

تنتشان صدري وتمتدان الى اعماقي .. وشفتاك الرقيقتان كانهما ورقتا ورد .. وانف اشم ، يبدو كمرا في مساحة الوجه النحيل .. وشعر كستنائي في لون البندق ، ينسدل ناعما فوق عنقك الطويل ..

انك صورة منه ..

صورة من ابيك ..

كل خط ، وكل لمحة ، وكل تعبير .. منقول عنه بالسنتي ، والملي .. منقول بالكربون ..

اذن فهو لم يمت !

احسست ساعتها ان اباك لم يمت ، انه لا يزال حيا فيك .. لقد عاد حيا .. عاد في عمر الصبا .. في السابعة عشرة من عمره .. العمر الذى التقيت به فيه لأول مرة .. عاد ليحرك في صدري الشيء الذى يكتم انفاسي ويمزق رئتي .. يبدو ان هذا الشيء لا يموت ابدا !!

وتقدمت انت في خطوات بطيئة صامتة .. انك لا تبتسمين ، حتى هذه الابتسامة الضيقة كفرجه الأمل التى عرفتها في ابيك ..

وصافحتك ، وسمعت والدتك تقول :

بنتي هدى ..

وابتسمت لك .. كانت المناسبة — مناسبة العزاء — لا تبيح الابتسام .. ولكني ابتسمت رغما مني ، كأني اتودد اليك بابتسامتي ، او ارشوك بها .. وقلت وانا أحرص على ان أضمن صوتي لهجة الوالد :

— البقيه في حياتك يا هدى .. شدي حيلك !

ولم تردي ابتسامتي .. ولم تهزي .. لم اشعر منك بشيء مما شعرت به نحو امك .. لم اشعر بانك تهابين لقاء « باشا » . هو أول « باشا » يدخل بيتكم ، او انك تحاولين تملق هذا الباشا وارضاءه .. انما شعرت بشخصيتك تقف كاملة امام شخصيتي

.. وربما كانت شخصيتك اقوى من شخصيتى ، وان كانت قوتها لا تبدو من خلال رقتك ..

هذا صحيح .. ولو انك ايامها كنت فى السابعة عشرة من عمرك !! وسمعتك تتمتمين بصوت كلمات لم اتبينها جيدا ردا على تعزيتى ، ثم جلست فى المقعد المواجه .. وجلست انا .. ولكنى لم اجد لنفسى نفس الجلسة التى كنت أجلسها مع أمك .. لم اجلس مهوشا معتدا بنفسى كعادتى .. انما وجدت نفسى احرص على ان اجلس اكثر تأدبا ، واكثر احتشاما ، واحرص على ان ابدو اكثر تأثرا ، واكثر تمسكا بتقاليد العزاء ..

وسادنا صمت ..

وشعرت بجو حزن لم اشعر به قبل ان تدخلى .. شعرت كأن كل شىء حولى حزين على وفاة والدك .. الجدران ، والمقاعد ، والارض ، والسقف .. بل شعرت كأنى انا ايضا حزين ..

ومن خلال هذا الجو الحزين بدأت احس مرة ثانية بالبيت الشريف .. وبالرائحة الهادئة كرائحة البخور .. وبالضوء الهادىء ..

ولكنى كنت قلقا ..

بدأ الشىء الذى فى صدرى يقلقنى ..

وقلت كأنى احاول ان ابدد هذا القلق :

— وهدى بتروح مدرسة ايه ؟ !

واجابت والدتك :

— خدت التوجيهية السنة اللى فاتت وقعدت فى البيت !

وقلت موجها الكلام اليك ، كأنى الح عليك ان تتكلمى :

— ليه .. مش عايزة تروحى الجامعة ؟

وسمعت صوتك :

— بابا ما رضيش !!

وقد قلتها في حزم واختصار ، كأنك لن تسمحى ابدا بمناقشة رغبة والدك .. وفعلا ، احسست بالجبن امام مناقشة رغبة والدك ، والتفت الى امك ، وقلت :

ــ انا احب اقول لك يا هانم سر ما تعرفهش .. وما حدش يعرفه ابدا .. احب اقول لك ان المرحوم صاحب فضل كبير على .. انا دلوقتي راجــل غنى .. انما لو ماكنش المرحوم ماكنتش عمرى بقيت غنى ..

وسكت برهة ، حتى الح وقع كلماتي .

ثم قلت :

ــ بعد ما اتخرجت من المدرسة ، وابتديت اشتغل ، استلفت من المرحوم عشرة جنيه . عشرة جنيه بس ، وكانوا كل راس مالى .. وبالعشرة جنيه دول بقيت غنى ..

وسكت ..

وقالت والدتك :

ــ البركة عليك انت يا سعادة الباشا .. العشرة جنيه ايدك ، مش زى الف في ايد راجل تاني ..

ولم أرد .. انما تنحنحت تواضعا ..

ونظرت اليك ..

ولم يكن يبدو على وجهك شيء .. كنت تنظرين الى في استطلاع كأنك تأمرينني بأن اتم كلامي ..

وعدت اقول :

ــ انا ما رجعتش العشرة جنيه دول للمرحوم .. عمره ما جه طالبهم مني ، وعمرى ما افتكرت ارجعهم له .. ما افتكرتش الا بعد وفاته .. وانا جاى النهارده علشان اسدد الدين .. انما الدين ما بقاش عشرة جنيه .. الدين بقى ثروتي كلها .. احب اقولك يا هانم انى باعتبر نفسى مسئول عنك وعن هدى من دلوقت .. انتي اختى ، وهي بنتى .. ومش ممكن اسمح لعيلة

صديقى وصاحب الفضل على ان تعيش بمعاش حداشر جنيه ..
وقالت والدتك ، وذكاؤها يتقدم كلماتها ، وامل خفى يتراقص فوق وجنتيها :
ــ والله انا محتارة نعيش بيهم ازاى ..
والتفت انت الى ..
واحسست بعينيك تثقبان صدرى وتصلان الى اعماقى .. احسست كانك تتهميننى بالكذب ..
وكنت كاذبا فعلا ..
انها قصة اختلقتها ، ولا ادرى لماذا اختلقتها ، فلم اكن قد اعددتها قبل أن ازورك ، بل لم تخطر ببالى قبل ان اراك .. وربما اختلقتها لانى احسست انى مرتبط بك .. كما كنت مرتبطا بوالدك .. وخفت أن تستعصى على والدك .. خفت ان امتدك .. أن تبتعدى عنى ، وظل نظرتك العميقة الهادئة تطاردنى ، وتحرك فى صدرى الشىء الذى يعذبنى ..
وقد نجحت القصة المختلقة .. وكانت مبررا كافيا لان اربط حياتك بى الى الأبد .. او الى ان اموت ..
وعدت اقول لوالدتك :
ــ وناويه تعملى ايه يا هانم .. قصدى ناويه تعطى حياتك ازاى ؟
قالت وهى تضع يدها فوق خدها ، كانها تلعنى مصيبة :
ــ ناوية آخد هدى ونروح نقعد عند اخويا فى دمنهور !
وقلت بسرعة كانى احسست فعلا بوقع المصيبة :
ــ وده اسمه كلام .. طول ما انا عايش ، مش ممكن حاجة فى حياتكم تتغير .. تتفضلوا عايشين زى ما انتم واحسن شوية !
والتفت اليك وسمعتك تقولين فى حزن عميق ، يحمل معنى الذنب :
ــ ما دام بابا مش معانا مش ممكن نعيش احسن !

ونظرت اليك والدتك في حدة ، ثم التفتت الى وقالت وهى تتنهد في افتعال :

— متشكرين يا سعادة الباشا .. ربنا ما يحوجش حد .. اهو المرحوم ما سابش لنا حاجه الا الناس الطيبين اللى زى سعادتك ..

قلت :

— على كل حال يا هانم ، انا ارجو ان تعتبرينى في مكان المرحوم .. وارجوك ما تعمليش حاجه الا لما تقوليلى .. وانا دايما حاسأل عليكم !

وقمت مستأذنا في الانصراف ..

وصافحت والدتك ، وانا المح على شفتيها ظل ابتسامة تحاول أن تخفيها .. ابتسامة الأمل الكبير الذى أطلقته في خيالها .. وقالت وهى تحنى رأسها مبالغة في اخفاء ابتسامتها :

— متشكرين يا سعادة الباشا .. سعيكم مشكور !

قلت ويدها لا تزال في يدى :

— انا بأدى واجب .. متنسيش يا هانم انى بسدد دين .. دين كبير .. وبإذن الله حاتصل بكم علشان ! ....

وقاطعتنى وهى تضغط على كلماتها :

— أنا أخويا حاييجى من دمنهور بعد بكره !!

وسكت .. كأنى فوجئت ...

كنت وانا انظـــر الى امك واحادثهـــا انسى اننى في بيت شريف .. وانسى ان لهـــذا البيت تقاليده ، وأن من بين تقاليده أن يكون له رجل .. ان لم يكن الزوج ، فهو الأخ .. كنت انسى كل ذلك ، لأن ذكاءها الذى يشع من عينيها كان يبدو اقوى من الشرف وأقوى من التقاليد .. انه ذكاء اشبه بذكاء التجار ، يرى الحياة بيعا وشراء .. ولا اكثر من البيع والشراء .. وكنت اعتقد

انها مستعدة لن تيعنى ما أريد ، ما دمت مستعدا أن ادنع ما تريد ..

ولكن يظهر انى كنت مخطئا ق تقدير ذكاء امك !

ونظرت اليها بعينين نصف مغلقتين كأنى احاول أن أراها من قريب .. كأنى أحاول أن أصطاد شيئا من أعماقها .. وشددت قامتى كعادتى عندما اقبل على عقد صفقته معقدة .. وسألت نفسى ق لحظة سريعه : هل هى حقا لا تريد ان تلقانى الا ق حضور أخيها .. وهل هو محفظ معها وحرص على مظاهر الشرف .. أم هو خبث .. مجرد خبث ساذج ؟ !

وسحبت يدى من يدها ، وأخرجت محفظتى من جيبى ، وأخرجت من المحفظة بطاقة تحمل اسمى ، ناولتها لها قائلا :

ــ على كل حال .. لما ييجى الأخ الكريم . أرجوك تديله الكارت ده ، وتخليه يفوت على ق الشركة ..

وأخذت البطاقة قائلة :

ــ حاضر .. متشكرين يا سعادة الباشا !

وبالمناسبة .. احب ان اقول لك انى احمــل نوعين من البطاقات .. نوعا يحمل اسمى بخط كبير . وحامل هذه البطاقة لا يستطيع ان يقابلنى ، مهما كانت وعودى له .. ونوعا آخر من البطاقات يحمل اسمى بخط دقيق ، ومن يحصل منى على هذه البطاقة يفتح له بابى ..

وقد أعطيت والدتك بطاقة من النوع الاخير .. فقد كنت أريد أن أقابل خالك .. كنت مستعدا أن أقابل اى انسان .. أى ملاك أو شيطان .. لأربط حياتك بحياتك ..

واستدرت اليك .. كنت قد وقعت احتراما لوقفتى .. وكان وجهك النحيل يملأ الغرفة كلها .. ويملأ صدرى .. ومددت يدى اليك قائلا :

ــ شدى حيلك يا هدى .. ربنا يعوضك خير !

وانفرجت شـــفتاك كانك تهمين ان تتكلمى .. ولكنك لم تتكلمى !

وسحبت يدى من يدك سريعا ، فقد خيل الى انك ستلمسين الرعشة فيها .. وأدرت عينى من عينيك بسرعة حتى لا ترى من خلالهما اعماقى .. واتجهت الى الباب ، ووالدتك تسير بجانبى تودعنى .. وانت واقفة فى مكانك ، وعيناك احس بهما كانهما تثقبان ظهرى ..

ونزلت السلم ، وانا اتعجب من نفسى ..

مالى وكل هذا ؟

لماذا لا اترك هذا البيت فى حاله ؟ !

ما هذا العبث الصبيانى الذى اقوم به ؟ !

ولكنى رغم ذلك كنت اعلم انى ساعود .. واعلم ان شيئا لن يستطيع ان يقف فى طريقى اليك ..

وخرجت من البيت ، انســانا آخر غير الذى دخله .. لم اكن افكر فى اعمالى هذا التفكير العنيف الاجرامى ، كما كان حالى فى الاسبوع الذى مضى .. لم تعد اعمالى تشغل كل تفكيرى .. اصبح هناك شىء آخر .. اصبح هناك .. انت ..

وعقب خروجى ذهبت لحضور اجتماع مجلس ادارة احدى شركاتى .. ودهش عبد العظيم ، عنــدما رآنى ساهما كانى عاشق ، ودهش اكثر عندما رآنى اطلب تأجيل عدة قرارات كنت قد اتفقت معه على اعلانها .. قرارات كلها تخفى تحتها اعمالا قذرة .. اقذر مما تتصورين ..

وانهيت الاجتماع بسرعة .. ورفضت عقب الاجتماع ان اجلس مع عبد العظيم كما هى عادتى .. وعدت الى بيتى وانا لا زلت افكر .. افكر فيك ..

ولم يكن هذا هو الحب ..

لا يا هدى ..

لم اكن قد احببتك بعد .. انى لم احبك من النظرة الاولى ، ولا الثانية !!

ولكنى كنت افكر فيك تفكيرا غريبا .. كنت احس .كأنى احاول ان استعيد صباى .. كأنى احاول ان أبدأ من جديد .. منذ اليوم الأول الذى عرفت فيه امك بعد ان شفيت من مرض التيفويد .. وكان الأمل الذى يراودنى هو أن انجح معك فيما فشلت فيه مع ابيك .. ان اكسب رضاءك واحترامك .. وأن اسير معك فى طريق واحد .. وان اربطك بى .. وكان يخيل الى أنى استطيع ذلك .. واذا استطعته استراح الشىء الذى يكتم انفاسى ويمزق رئتى .

وكنت اقول لنفسى : « انها صغيرة .. وهى لا تعلم من حياتى شيئا ، ولا تفهمها .. ومن السهل ان اخفى عنها اخطائى ، وشرورى ، واعمالى القذرة .. بل انى استطيع الآن ان استغنى عن هذه الأخطاء والشرور .. وعن هذه القذارة .. لقد اصبحت غنيا .. ولست فى حاجة الى مزيد من الغنى .. فما حاجتى الى القذارة .. انى استطيع الآن ان ابدأ من جديد .. ابدأ شريفا كوالدك .. وان اكسب ثقتك واعجابك كدليل يقنعنى بأنى اصبحت شريفا فعلا » ..

كنت اقول هذا الكلام وانا اتعجب من نفسى .. انى احاول شيئا عجيبا .. هل تعرفين ما كنت احاوله .. كنت احاول ان اشترى الشرف .. نعم .. حاولى ان تفهمى .. كنت احاول ان اشترى الشرف .. وكان الشرف بالنسبة لى يتمثل فى انسان بسيط وموظف صغير هو والدك .. ثم اصبح يتمثل فيك .. فى فتاة بسيطة ، وجهها نحيل ، وشعرها فى لون البندق .. وقد عجزت عن شراء ابيك ، فلو استطعت شراءك .. فقد اشتريت الشرف !!

ولا اقصد بالشراء ، مجرد دفع الثمن بالنقود .. فقد كنت

مستعدا ان ادفع الثمن بأى عملة .. ادفعه من جهدى وذكائى ، متغيير مجرى حياتى كلها ..

هذا ما كنت اتخيله ..

وهذا ما كنت أفكر فيه ، وأنا راقد فى فراشى ..

وتقلبت على جنبى ، تصـــدمنى صورة زوجتى موضوعة بجانب الفراش .. وامتعضت .. لويت شفتى مقززا .. ان هذه الصورة موضوعة هنا دائما ، ولكنى لم اكن أراها .. كانت قطعة من قطع الأثاث .. موجودة ولكنى لا احس بوجودها .. فلماذا احسست بها اليوم ؟ !

— ٦ —

انك سمعت عن زوجتى .. زوجتى الانجليزية .. ولكنك لا تعرفينها .. ويبدو انى يجب ان احدثك عنها .. وعن حياتى معها ، حتى تكتمل حقيقتى امام عينيك ..

دعينى اقدم لك زوجتى الانجليزية ..

واقول « زوجتى الانجليزية » ولا اقول « زوجتى » فقط ، لانى اعلم ان كل الناس يدعونها دائما « زوجته الانجليزية » زوجته الانجليزية دخلت .. زوجته الانجليزية جاءت .. زوجته الانجليزيه مرضت .. لا احد يقول ابدا « زوجته » .. دائما « زوجته الانجليزية » .. كانهم يتعمدون اهانتى !!

وانا استحق هذه الاهانة !

فقد تزوجتها لانها انجليزية !!

فقط ؛ لانها انجليزية !!

كان ذلك عام ١٩٢٧ .. وكنت ايامها لا ازال اعمل فى مقاولات الجيش البريطانى .. جيش الاحتلال .. وكان مــركز عملى فى بورسعيد .. ولم اكن اكتفى بمجهودات عبد العظيم بك — او افندى — فى رشوة الضباط الانجليز .. ولا بالليالى الحمراء التى يعدها لهم .. بل كنت احاول ايضا ان اتقرب الى عائلات الضباط .. وكنت شابا .. لم اكن جميلا .. ولكنى كنت محلا .. وكانت محولى والسمرة التى تطفح وجهى .. تثير النساء الانجليزيات

.. كنت ارى عيونهن تشتهينى ، وشفاههن تكاد تأكلنى .. ولكنى كنت دائما حريصا على تجاهل عيونهن وشفاههن ، لا تعففا منى ، بل لانى لو لبيت نداء واحدة من اغضب الباقيات ، ولو اغضبت واحدة فقد يثور على جيش الاحتلال كله ..

ولذلك حرصت على ان اعرف بين العائلات الانجليزية بأنى انسان مهذب .. جنتلمان !!

الى ان كان يوم ..

ودعانى احد الضباط الى كأس نتناوله فى النادى الخاص بهم داخل المعسكرات .. وهو شرف كبير لا يناله الا القليل من المصريين امثالى !

وهناك رأيتها ..

فتاة سمينة .. بعكس اغلب الفتيات الانجليزيات المشهورات بالنحافة .. انها قطع من اللحم بعضها فوق بعض .. وملامح وجهها غاصت فى هذا الكوم من اللحم ، فلم تعد يبدو منها عينان ولا انف ولا شفتان .. وساقاها لا خطوط فيهما كأنهما عمودا تليفون . وذراعاها عريضتان ، لونهما احمر كأنهما فخذا خنزير مسلوق ..

هل تعتقدين انى بالغت فى وصفة بشاعتها ؟ ثقى انى لا ابالغ ، فهكذا رأيتها لأول مرة !

ورغم ذلك فقد اهتممت بها عندما قدمنى اليها صديقى الضابط الانجليزى .. وبالغت فى الاهتمام بها .. وبدوت امامها فى احمل صورة للجنتلمان .. فقد كانت تحمل شيئا جميلا .. جميلا جدا .. كانت تحمل الجنسية الانجليزية !

ولم المح فيها — عندما رأيتها لأول مرة — شيئا مما تعودت ان المحه فى عيون النساء الانجليزيات وشفاههن .. ربما لانى لم اكن اكاد ارى عينيها وشفتيها وسط كوم اللحم الذى تحمله فوق

كتفيها .. وربما لأنها كانت قد فقدت ثقتها في معصمها الى حد اليأس ، فلم تعد تشتهي الرجال ..

وخرجنا نحن الثلاثة - بعد أن شربنا عدة كئوس - نطوف ببعض ملاهي بورسعيد .. ثم ودعتهما ، وعدت الى بيتي .. ونسيتها قبل ان أصل الى الباب ..

وفي الصباح جاءني عبد العظيم يهرول في جثمانه الكالح - وكان امامها لا يزال يرتدي الجلباب وفوقه المعطف الأصفر وقال وكلماته تتزحلق فوق شفتيه الغليظتين :

— تعرف مين البنت اللي كانت معاك امبارح ؟

قلت بلا اهتمام :

— البت المكلبظه ..

قال عبد العظيم كأنه يلومني :

— ايوه المكلبظه .. مين بقى المكلبظه دي !

قلت وقد اثارني اهتمام عبد العظيم :

— لأ .. تبقى مين ؟

قال كأنه يلقي قنبلة :

— تبقى بنت الكولونيل ديفيز .. الكبااااا

وقلت مبهوتا :

— لا يا شيخ ..

قال وهو يهنيء نفسه :

— وحياتك عندي .. دي انا عارفها .. ساعة ما تمشي وسط المعسكر ، العساكر كلهم بتطوروا واقفين وياخدوا تعظيم سلام ..

وتركني عبد العظيم وانا افكر في مشروع ضخم للاستيلاء على جميع مقاولات الجيش البريطاني ، بل جميع مشروعات الحكومة المصرية ايضا ..

ان الكولونيل ديفيز هو مدير الاشغال العسكرية بالجيش البريطاني .. ولكن نفوذه كان يمتد الى جميع امكانيات مصر ...

فقد كانت كل امكانيات مصر فى خدمة الجيش البريطانى .. وكان فوق ذلك صديقا شخصيا للمندوب السامى البريطانى .. لم يكن ابدا مجرد « كولونيل » انجليزى !

وقلت لنفسى : « لو استطعت ان استولى على بنت ديفيز ، فقد استوليت على ديفيز ، واذا استوليت على ديفيز ، فقد استوليت على المندوب السامى ، واذا استوليت على المندوب السامى فقد استوليت على مصر » !

انها مجرد عملية حسابية بسيطة .. كما ترين !!

وبدأت فى تنفيذ مشروعى الضخم ..

بدأت ارسم خطواتى فى حرص ، وصبر طويل .. كان يجب الا ابدو مهتما بالفتاة اكثر من اللازم .. والا الاحقها .. انى اعرف هؤلاء الانجليزيات ، اقصد الانجليزيات اللاتى كن يقمن فى مصر ايام الاحتلال .. انهن متغطرسات .. وملاحقتهن تزيد من غطرستهن ، ومن احساسهن بالسيادة .. واحساسهن بوضاعتنا !

وسعيت كى ادعى الى نادى الضباط أكثر من مرة ... ذهبت الى هناك ثلاث مرات ، دون أن التقى بها .. ثم رأيتها فى المرة الرابعة .. ولم اقبل عليها .. بل تركتها تحييني من بعيد .. ثم صبرت الى ان قامت وجاءت لتنضم الينا ـ صديقى الانجليزى وأنا ـ ونحن واقفان الى « البار » ..

- وبدوت امامها كما رأتني عندما التقيت بها اول مرة .. انسانا مهذبا .. جنتلمان .. ولكنى كنت اختلس النظر اليها خطفات لا تلمحها .. كانت نظرات ابحث بها عن ملامح وجهها التى غاصت فى كوم اللحم .. وعن ساقيها ، كانهما عمودا تليفون .. وعن ذراعيها كانهما فخذا خنزير مسلوق .. وكنت اسائل نفسى : « هل هذا الشىء يصلح زوجة لى » !!

وكنت اشعر بقشعريرة تكاد تثقب امعائى ، وأنا اتصورها

زوجه لي ، راقدة بجانبي في فراش واحد .. لا لأنها سمينه .. فقد كانت السمنه أيامها احدى مميزات الجمال . وكنت لا أتقزز عندما أجد في فرشي امرأة سـمينه .. انما كنت أتقـزز لأن سمنها » كانت تطغى على كل خطوط جسدها ووجهها .. كانت أشبه بباله القطن المكبوس .. وكانت تحيط بها ريح ثقيله . كأنها تملأ فراغا أكبر مما يحتله جسدها .. لم يكن فيها الا شيء واحد جميل .. شيء آخر بجانب الجنسيه الانجليزية .. قلبها .. كان لها قلب طيب كريم سـاذج .. وكانت تهب حنانها لكل شيء حولها .. وتضحك لكل شيء تسمعه أو تراه .. وتبكي عندما لا تجد شيئا تضحك له أو تهبه حنانها ..

ولكن ماذا يجديني قلبها : في فراشي !!

ورغم ذلك فقد اهتممت بها ليلتها .. أعطيتها كل ما أملك من ذكاء ولباقة .. أضحكتها كثيرا . وأسعدتها .

وقبل أن نفترق دعوتها هي وصديقي الضابط الانجليزي . الى العشاء في الأسبوع التالي .. ولم أحدد اليوم .. انما وعدت بأن اتصل بهما لتحديد الموعد .

وبعد أيام أرسلت لها خطابا رقيقا أدعوها الى العشـاء يوم الأحد في الفندق الذي كان يطلق عليه الأهالي اسـم « البيت الحديد » .. لأنه قائم على عمد من حديد ..

وأرسلت نفس الخطاب الى صديقي الضابط الانجليزي .. ولكني تعمدت أن يصل اليه خطابي في مكتبه بعد ظهر يوم السبت ، حتى لا يتسلمه : في يومي السبت والأحد ..

ولا تنسى أن التليفون لم يكن قد انتشر في مصر بعد !!

وجاءت وحدها : في سيارة يقودها جندي بريطاني .. ولم يكن في بورسعيد كلها الا خمس سيارات خاصه . هذه احداها ..

جاءت ترتدي ثوبا للسهرة تبدو فيه كمطاط زملن .. واستقبلتها وأنا أرتدي حلة « سموكنج » كعادة الانجليز في سهراتهم .. ولم

اسمح الطربوش على رأسي حتى أبدو اكثر تحررا من مصريتي .

وكنت قد أعددت مائدة لثلاثة .. وجلسنا نشرب كئوس الويسكي في انتظار الصديق الذي لم يحضر ، بينما عيون المصريين الذين يحيطون بنا ، تكاد تشهق .. ثم تنحسر شهقتها عن نظرات غل وحسد ، وهم يروننى جالسا مع ابنة الكولونيل ديمير ..

وبعد قليل انستنا كئوس الويسكي صديقنا الغائب .. وسلطت عليها نكاتي رسائلي .. واهتزت بالة القطن من الضحك ، ومن فرط السعادة ..

وقمت أراقصها .. وكنت قد تعلمت الرقص منذ بدأت أحاول أن أكون « جنتلمان » ، ومنذ بدأت أسعى الى التعرف بعائلات الضباط الانجليز .

وحملت بالة القطن بين ذراعي .. وراقصتها « التانجو » ، و « الفالس » ، ولكني رفضت أن أراقصها « الشارلستون » .. فقد خفت أن يضحك عليها وعلى المصريون الجالسون حولنا ، وهم يروننا نقذف سيقاننا وأذرعنا في الهواء كأننا نحاول أن نتخلص منها ..

وفي خلال الرقص أيضا حرصت على أن أكون « جنتلمان » .. ولكني تعمدت أن أوقعها في حيرة .. كنت ألقى بعينيها منتظر اليها نظرة فيها حب واشتهاء .. ثم أسحب نظرتي سريعا قبل أن تتأكد منها .. وكنت أدع خدى يلامس خدها ، وقبل أن تستريح على خدى ، أبعد سريعا .. وكنت أحرك يدى فوق ظهرها ونحن نرقص ، وقبل أن تسرى حرارة يدى في جسدها ، أقف يدى عن الحركة .. وأروى لها نكتة مهذبة !

وشربت كثيرا ليلتها ، كأنها كانت تحاول أن تنسى بالكأس حيرتها .. أو كأنها كانت تحاول أن تجد في الكأس جوابا على عشرات الأسئلة التي أثرتها في رأسها : لماذا أهتم بها كل هذا

الاهتمام ؟ .. وما معنى هذه النظرة ؟ .. وما معنى هذه اللمسة .. و .. و .. ؟ !

وكانت الساعة الثانية صباحا ، عندما ودعتها عند باب سيارتها .. والجندى البريطانى يفتح لها الباب ، ويرفع يده بالتحية العسكرية ..

ودعتها دون ان احدد معها موعدا للقاء ..

وتريثت قليلا قبل ان تركب السيارة . ولمحت عينيها بين كومة اللحم التى تشكل وجهها ، لمحتهما حائرتين كأنهما تسألانى : متى اراك ؟ !

ولكنى لم اجب العينين الى سؤالهما ..

ومضى اسبوع لم احاول خلاله ان اتصل بها .. كنت اريد ان أزيد من حيرتها .. وكنت احاول ان اتركها تسعى الى وتلاحقنى .. ليس هذا فقط .. فقد كنت خلال هذا الاسبوع أحاول ان اراجع نفسى .. كنت احاول اى اقنع نفسى بان اعدل عن هذا المشروع .. وكنت اتذكر زميلى محمد افندى السيد ، واتساءل : هل يرضى عن مثل هذا الزواج ؟ ! ويجيئنى الجواب فى صورة شىء يتحرك فى صدرى ، ويكاد يكتم انفاسى ، ويمزق رئتى .. شىء يقلقنى ، ويعذبنى !

ليس هذا فقط .. فقد كانت انفاس اليزابيث لها رائحة عجيبة .. رائحة اشبه برائحة خميرة البيرة .. وانا اكره البيرة واكره رائحتها !

ولكن ..

فى نهاية الاسبوع ، وصلتنى دعوة منها الى حفلة ساهرة تقيمها فى بيتها .

حفلة فى بيت الكولونيل ديفيز ..

حاولى ان تتصورى هذا .. مقاول صغير مثلى لا يزال

فى بداية الطريق ، يدعى الى بيت مدير الأشغال العسكرية بالجيش البريطانى !!

ولا تنسى أننا كنا فى عام ١٩٢٧ ..

وكدت أطير من الفرح .. وظهرت فرحتى على ترددى .. نسيت محمد افندى العبد .. ونسيت رائحة انفاس البرابث .. ونسيت السافين اللتين تشبهان أعمدة الليمون ، والذراعين اللتين تشبهان مخدى الحرير المسلوق .. نسيت .. وانطلقت فى خيالى آمال كبار .. رأيت خريطة مصر كلها منشورة أمامى ، ولى فى كل مكان منها مصنع .. ومشروع .. وعزبة !!

وذهبت الى الحفل مرتديا الحلة « الاسموكنج » ، وفوق رأسى طربوش طويل فاقع اللون ، فقد كنت أعلم أن الانجليز يحبون أن يزينوا عملاءهم بهذه الطرابيش الحمراء .. انها مظهر من مظاهر سيادتهم ؟!

واستقبلنى البرابث عند الباب فرحة .. بل اغرقت فى الضحك بمجرد أن رأتنى ، فقد تذكرت بعض النكات التى رويتها لها ؟!

ثم قدمتنى الى والدها الكولونيل ديمير .. والى أمها ، مسز ديمير ، ثم طلبت بجوارى طوال الحفل ، فاستحيت بها كأنى ضيف الشرف .. وقدمتنى الى كل المدعوين .. اسماء يسمع بها المقاولون أمثالى من بعيد ولا يقتربون منها أبدا .. اسماء كبيرة .. اسماء تحتل مصر ؟!

ولم أضيع وقتا .. عصرت ذكائى كله لأربط نفسى بهؤلاء السادة الانجليز .. لم أكن افعل أكثر من أن أتحدث .. ولكن التحدث ليس فنا سهلا .. انه أشق مهمة فى الحياة .. ولو سألتنى كيف استطعت أن أنجح وأن أجمع ثروتى ، لأجبتك ببساطة . لقد عرفت كيف اتحدث !

وقد عرفت ليلتها كيف أتحدث .. لم أكن أنافق نفاقا مفضوحا

سيحب . أن العنى قد يرضى غرور من أمامه . ولكنه لا يرضى به . ولا يكسبنى ثقته .. انما كنت أسوق آراء فى مختلف المسائل ... فى المسائل السياسية . وفى المسائل الادارية . وفى المشاريع العمرانية .. آراء تبدو كأنها تمثل ايمان رجل مصرى متحمس لمستقبل وطنه .. ولكنها فى الوقت نفسه تحقق المصالح الانجليزية . وتعترف بوجود الانجليز ..

وقد كسبت بهذه الآراء ثقة الجميع . وعلى رأسهم الكولونيل دمفر .

والبرانت دائما بجانبى ..

ولم يغضب أحد من الانجليز الشبان المدعوين معى . وهم يرون البرانت ملتصقة بى .. انها جميلة تمثل مصر كل شاب أن يخلص منه .. وربما حمدوا لى أن خففت العبء عنهم ..

وفى نهاية الحفل خرجنا . البرانت وأنا ... فى الشرفة ..

وفى يد كل منا كأسه .. وأخذت أروى لها مزيدا من النكات المهذبة .. وهى تهتز كالزلزال لكل نكتة .. ولم تكن تتكلم .. انها لا تعرف كيف تتكلم . فقط تعرف كيف تضحك وتبكى .. كنت أنا الذى أتكلم طول الوقت . ثم فجأة توقفت عن الحديث .. وأمسكت يدها وضغطت عليها .. ضغطت بشدة حتى تسرى ضغطتى خلال أكوام اللحم الى أن تصل الى أعصابها وحسها .. ولكنها لم تهتز .. ولم تهتم لضغطة يدى معى .. ظلت فاغرة فاها كأنها تستعد لضحكة جديدة تطلقها ردا على نكاتى .. واقتربت منها . واقتربت أكثر .. وضغطت على أعصابى حتى أحتمل ألحة خمرة الديرة تطلق مع أنفاسها .. ثم ملت عليها وقبلتها فوق وجنتها ..

واستعدت ..

ونظرت الى عينيها الملتين تطلان من خلال كومة اللحم ..

وكانت فى عينيها دهشة .. دهشة أشبه بالغباء .. رغم

لانى لم نصدق ان شابا يمكن ان يسعى لتقبيلها .. وربما لانها باردة الحس .. الى حد ان قبلة واحدة لا يمكن أن تثيرها ..

ورغم ذلك فقد مدت وجهها الى .. كأنها تطلب القبلة الثانية .. ولم اعطها اياها .. انما وضعت الكأس من يدى فى حركة تمثيلية كلها عاشق ولهان .. ثم قلت بصوت متهدج :

ـ سعدت مساء !

واعطيتها ظهرى .. وخرجت من الشرفة وهى تجرى خلفى ..

وصافحت من وجدتهم من المدعوين .. وصافحت الكولونيل ديفيز .. ومسز ديفيز .. وعدت الى بيتى ..

عدت متعبا ..

لم اتعب أبدا مثلما تعبت فى تلك الليلة ..

ان تعمد النجاح فى حفلة من الحفلات الاجتماعية ، عمل شاق متعب !!

وقمت فى صباح اليوم التالى لاتم خطتى ..

ارسلت لاليزابث هدية .. علبة فضية عليها نقوش مرصوصة .. وتلقيت منها دعوة الى تناول الشاى .. ودعوتها بعد أيام الى العشاء .. ثم أصبحت ازورهم بلا تكلف .. وانتشر خبر صداقتى لعائلة الكولونيل ديفيز فى المدينة كلها .. وفجأة ارتفعت من مقاول صغير مغمور الى شخصية هامة .. كبار الموظفين يتوددون الى .. وكبار التجار يسعون الى صداقتى ، وزملائى الذين يشتغلون فى المقاولات قبل ان اشتغل بها بسنوات ، بدءوا يعرضون على أن اشاركهم فى العطاءات التى يتقدمون بها ..

كل هذا من اجل الكولونيل ديفيز !!

وبفضل صداقة الكولونيل ديفيز استطعت ان أحصل على أول مقاولة كبيرة فى حياتى .. مقاولة تزيد قيمتها على عشرة آلاف جنيه .. وعندما حصلت على هذه المقاولة ، خلعت عند المعلم افندى الجلباب والمعطف الاصفر .. وارتديت الجبة .. ومضيفا ذا ياقة

مضاءة عاليه ، بدو رأســه فوقها كراس مضحك السيرك .. لقد اتسعت اعمال عبد العظيم .. ولم تعنى صداقة الكولونيل ديميز عن عبد العظيم ، بل زادت حاجتي اليه .. أصبحت في حاجة الى رشوة مزيد من الضباط الانجليز ، واعداد الليالي الحمراء لهم .. والى مزيد من عمليات التجسس على زملائي المقاولين ، وعلى العمال .. الى مزيد من الأعمال القذره !!

ولم يكن الكولونيل ديمير رجلا سهلا كما تعتقدين .. كان رجلا حريصا أزرق الناب . وكان أشد ما يحرص عليه ألا استفيد من صداقته اكثر مما يريدني أن استفيد ..

وكنت اريد ان اتغلب على حرصه هذا .. كنت اريد أن امسك به من عنقه ، وهزه بشده لأسقط من جيوبه كل المقاولات التي اريدها ..

وعنق الكولونيل ديميز ، هو : امرأته !

ولكن امرأته لا تتحرك .. انها من السذاجة والغباء ، بحيث لا تستطيع أن تحب ، ولا أن تخطو نحو الرجل الذي تحبه خطوة .. وقد صبرت عليها طويلا حتى تخطو خطوة أخرى نحوي .. أن تشجعني على أن أطلبها للرواج .. فلم تفعل .. ظلت مكتفية بما اعطيه لها .. معتقدة أن هذا هو كل ما تستطيع أن تناله مني .

وكان يجب أن أشدها نحوي خطوة أخرى ..

كان يجب أن اذيب هذا الجبل من الشحم ، لامسك بروحها بين يدي .

كنت اريد أن اسيطر عليها سيطرة كاملة ..

وكنت أومن بأن الرجل لا يستطيع أن يسيطر على المرأة الا اذا سيطر على جسدها .. سيطر على حاجة جسدها اليه ..

وكنت واثقا من نفسي ..

كنت في شبابي استطيع أن اسيطر على جسد اي امرأة ..

كانت المسالة بالنسبة لى مسالة اعصاب .. مجرد مسالة اعصاب ... لا عاطفه . ولا تجارب . ولا اى شىء آخر .. مجرد اعصاب قويه استطيع ان استعملها كيفما شئت . الى ان تخضع المراة .. اى امراة .. واى نوع من النساء .. نساء الشوارع .. او نساء الصالونات !!

المسكينة ..

لقد قدر عليها ان تخضع لى .. الى الابد !

وكنا مدعوين فى حفلة ساهرة . وشربت البرانث ليلتها كثيرا .. ثم عرضت عليها ان اصحبها الى بيتها .. فسعدت بالدعوة . انها دائما سعيدة وهى بجانبى .. وامرت سائق سيارتها بالانصراف . وركبت معى حنطور .. وفى الطريق عرضت عليها ان تزور مكتبى .. ووافقت .. بسرعة .. كانها تنتظر هناك شيئا يجعلها تضحك اكثر .

وكنت استاجر بناء صغيرا فى اطراف احد الامرجى بورسعيد .. مكونا من دورين .. الدور الارضى خصصته للمخازن . والدور العلوى للمكتب ..

وكان عبد العظيم ينتظرنى هناك .. وكان قد اعد كل شىء !!

ودخلت البرانث وهى تدير عينيها فيما حولها ، وفمها مفتوح باسما للضحك .. واغلق عبد العظيم الباب وراءنا .. وجلس خلفه يؤدى واجبه .. ان عبد العظيم يجيد دائما تادية هذا الواجب !!

وبدات اداعب البرانث ، وهى تضحك ، وبهتز مقعد رجل مع ضحكاتها .. ثم اقتربت منها .. واحطتها بذراعى .. ضممتها الى صدرى بكل قواى كانى اصارع مثلا .. ثم اطبقت بشفتى على شفتيها حتى اسكتها عن الضحك .. ولم استطع ان ابقى شفتى على شفتيها طويلا .. كانت رائحة خمرة البيرة اعنف من

ان احملها لاول وهلة .. كانت هذه الرائحة تتطلب منى مزيدا من الذهب .. ومزيدا من الضغط على اعصابى ..

وقالت اليزابث بانجليزيتها المرتجفة . وانا افك دراعى عن جسدها :

ــ هل كل المصريين اقوياء هكذا !!

قلت في صوت جاد :

ــ اننا اقوياء عندما نحب !

وسكتت برهة عندما سمعت كلمة الحب .. كانها لا تصدق اذنيها .. ثم عادت تضحك كانها اعتبرت ما سمعته نكتة اخرى .. ولكنى لم اشاركها الضحك .. بل وقفت أمامها صامتا ، وفى عينى نظرة خطيرة .. وبقيت صامتا وفى عينى هذه النظرة الخطيرة .. حتى كفت عن الضحك .. ورأيتها حائرة .. لا تدرى سر صمتى .. ولا تدرى ماذا يجب أن تقول أو تفعل .. كانها اكتشفت فجاة انها تائهة .. تائهة فى ..

وبخطوات ثابتة .. خطوت نحو النور واطفأته .. كنت فى حاجة الى الظلام ، لامكن من السيطرة على أعصابى .. ثم عدت اليها وامسكتها من يدها واجلستها على الاريكة .. واحطتها بذراعى مرة أخرى .. ضممتها بكل قواى .. واطبقت شفتى على شفتيها ..وحاولت ان اغلق طاقة انفى حتى لا اشم رائحة البيرة . ولكنى لم استطع الا ان اغلق عينى !!

وملت بها فوق الأريكة .. وهى مستسلمة .. صامتة .. ونزعت عنها ثيابها .. وهى مستسلمة صامتة .. ان كومة الشحم لم تدب بعد .. اريدها أن تذوب .. اريدها أن تلهث .. أن تتحرك .. أن تتمنى ..

وصبرت ..

وبدات أنفاسها تتلاحق .. ورائحة خميرة البيرة تنطلق فى

وجهى كالزوبعة .. بدأت بدوب .. وسحرك .. و .. و ..
و .. و ..

. . . .

. . . .

هدى :

لا تفزعى وانت تقرئين هذه السطور . ولا تصرخى كانك رأيت ثعبانا تحت قدميك .. أرجو الا تفزعى . ولا تغطى وجهك البرىء بيديك .. ارفعى يديك عن عينيك .. وانظرى الى فى هدوء .. انى أريدك أن تريني كما أنا .. أريدك أن ترى المجرم الذى افسد حياتك .. ترينه عاريا .. ولعلك لاحظت أنى افيض فى سرد جرائمى .. ان كل هذه الجرائم ليست الا مقدمة للجريمة الكبرى .. الجريمة التى كنت أنت ضحيتها .. مقدمة اتعمد أن اطيل فيها حتى اخفف عليك من وقع الصدمة الأخيرة .. وتدرى انى اعترف .. اعترف لك انت وحدك .. ولم اكن فى حاجة الى الاعتراف ، لولا اننى احببتك !

ثم لا تسأليني عما اذا كنت قد وجدت زوجتى عذراء فى تلك الليلة أم لا .. انه سؤال ساذج .. لم يخطر على رأسى ولا على رأسها .. ولكن اسأليني : ماذا حدث لها بعد ذلك ؟ .

لقد تغيرت ..

كفت عن الضحك .. كأنها دخلت فى عالم سحر عجيب ، لم تكن تدريه . ولا تتخيله .. وظهرت الى عينيها هذه النظرة الشهمة التى كنت ألمحها فى عيون النساء الانجليزيات ، وهن يتلقين بفحولتى ..

واصبحت تطاردنى ..

تسعى ورائى ..

لقد ملكتها .. سيطرت عليها !!

ولكنى تركتها تجوع .. جاعت أياما طويلة حتى كادت تجن ..

وحيل الى انها في هذه الايام . قد فقدت كثيرا من سمنها .. ذات اعصابي تأكل في كوم اللحم .. وكنت الاقيها .. واحاول كعادتي أن املأ فمها بالضحك .. وان اروى لها نكاتي .. ولكنها لم تكن تريد الضحك .. كانت تريد دائما ان تذهب الى مكتبي !!

ولم ادعها تذهب اليه ..

الى ان قالت لي يوما . ونحن في شرفة بيتها .. قالت في لهجة كالسة كانها ستطلق اعياء من شدة الجوع :

ــ هل صحيح انك تحبني .. لقد سمعتك مرة تحدثني عن الحب ؟!

وكسوت وجهي بملامح جادة . وقلت وانا ادعي الارتباك :

ــ اني احب الى حد اني افكر في الزواج !

قالت وهي دهشة :

ــ ماذا تعني ؟

قلت وانا انظر اليها :

ــ اعني اني اريد ان اتزوجك !!

قالت صارخة :

ــ تتزوجني انا ؟ !

قلت وانا ادعي الجزع :

ــ اترفضين ؟ !

قالت كأنها تزغرد :

ــ ارفض ، هل انا مجنونة !! الا تعلم .. !!

وقبل ان تتم جملتها سحبتني من يدي ، وخرجت بي من الشرفة الى حيث كان يجلس والداها .. وقالت لهما صارخة :

ــ لقد اتفقت انا وحسين على الزواج !

واسقط الكونونيل ديمير الجريدة من امام عينيه . ورفع غليونه من بين اسنانه . ثم قام من مقعده في منتهى الهدوء . وتقدم الى يصافحني قائلا :

مبروك ..

بينما احتضنت مستر دنمور ابنها ثم جاءت نحوي ، قائلة :

لم اكن انتظر ان يكون لي ابن مصري ..

وصاح الكولونيل .

— اظن انك تحب ان تشرب كأسا !

وهكذا تزوجت !!

اي زواج هذا ! ؟

لقد عرفت زوجتي المسكينه بعد مرة قصيرة ... ماذا كان يعني زواجنا .. عرفت ان زواجنا مجرد عمليه بيع وشراء .. تبيعني نقودها وتقود ابيها ، لتشتري ما تشبع جسدها .. لقد عودتها آلا تسألني الا اجرا على صفقة ساعدتني على اتمامها ..

وقد ساعدتني في كثير من الصفقات .

كانت تطلب من ابيها صراحة ان يساعدني .. وكنت اقول لها ان الجيش البريطاني سيطرح مناقصه عن مشروع كذا ، فتذهب الى ابيها وتصر على ان ترسو هذه المناقصه علي ، حتى لو تقدمت بأسعار أعلى من اسعار بقيه المقاولين .. ولم يكن ابوها يستطيع ان يرد لها طلب .. ابنها ابنه الوحيدة ، وأنا زوج ابنه الوحيدة .. وعندما ترسو المناقصه علي ، كانت الابنه تنام سعيدة ؟ !

واصبحت في يدي كل مناقصات الجيش البريطاني .. ولم اكن من الغباء بحيث استولي عليها كلها وحدي ، بل كنت اترك بعضها لزملائي من كبار المقاولين ، على أن اشاركهم معها ؟ !

ان رجل الأعمال الماهر ، يجب الا يترك الفرصه لمنافسيه حتى يتحدوا ويتألبوا عليه .. بل يفرق بينهم دائما .. أن يشارك واحدا منهم في هذه العمليه .. ويشارك الثاني في عمليه أخرى .. حتى لو ضحى في سبيل ذلك ببعض أطماعه .. وهذا ما كنت أفعله !

وعن طريق روحى اصبحت صديقا شخصيا للمندوب السامى البريطانى .. صديق العائلة .. وكنت أدعى الى احمى الحفلات التى تقام فى دار المندوب .. حفلات عائلية صغيرة ، لا يحضرها الا اربعة او ستة من المدعوين . ليس بينهم مصرى الا انا ..

وعندما عرفت المندوب السامى ، عرفت زعماء مصر ووزراءها ورجال احزابها ..

لم اسع اليهم .. ولكنهم سعوا الى .. ولم اعد شخصية محلية تقتصر نفوذها على بورسعيد وحدها ، بل اصبحت شخصية عامة تملأ مصر كلها ..

وقد حدث كل هذا بسرعة .. بسرعة غريبة .. ثلاث او اربع سنوات .. واقتربت من المليون الاول ..

وانتقلت انا وروحى الى القاهرة . واستأجرت قصرا فى الزمالك . لاكون بجانب دار المندوب ..

وليس معنى ذلك انى اصبحت انجليزيا ..

لا ..

انا لا استطيع ان اكون انجليزيا .. وانا لا استطيع ان اكون مصريا .. انا مصنع .. انا شركة .. انا عزبة .. انا صفقة .. انا مصلحة .. واينما كانت مصلحتى اكن !!

وكانت مصلحتى مع الانجليز .. بل ان الانجليز اصبحوا شركاء لى فى كثير من شركاتى .. وقد سافرت مع زوجتى الى انجلترا عدة مرات . قدمتنى الى سادة رجال الأعمال .. السادة الانجليز .. واستطعت ان اعقد معهم عدة اتفاقات .. لقد وجدتهم محتاجين الى اسم مصرى يحمون خلفه رءوس أموالهم .. فمنحتهم اسمى .. هكذا ببساطة !

ولكنى لم اكن من الغباء بحيث اعادى الحركة الوطنية المصرية .. لا بالعكس .. لقد كنت اؤيدها فى الحدود التى لا تضر مصالحى .. واطمأن رجال الاحزاب الى .. على اختلافها

حرامهم .. اطمئنوا الى لانهم عرفوا انى لا أطمع فى أن اكون رئيسا للوزراء ، ولا وزيرا ، وانى لن أؤلف حزبا انافسهم به .. فبدأوا يتقربون الى ، وكل منهم يستطيع أن يتخذ منى رسولا لدى الانجليز .. وكنت أرحب بأن اكون رسولا الجميع .. ثم عندما اتخذوا منى رسولا ، وضعوا أعناقهم فى يدى !!

وكل هذا وعبد العظيم يوزع الرشاوى على الموظفين .. كبارهم وصغارهم .. ويشترى لى رجال الأحزاب ، ويعينهم أعضاء فى مجالس شركاتى .. و .. و .. وبقية الأعمال القذرة التى حدثتك عنها .

وزوجتى ..

لقد بدأت بعد تعودها .. أصبحت أنا أكبر منها ، وأكبر من أبيها .. أصبحت أكبر من فكولوبين ديمير نفسه .. وعندما كبرت لم أعد فى حاجة الآن أضغط على أعصابى حتى أشبع جوعها .. جوع الزوجة المسكينة التى صنعت لى كل هذا المجد ، وكل هذا الثراء .

وبدأت هى تزوى .. صبرت على الجوع حتى لم تعد تجوع .. ومع الأيام لم تعد تربطها بى حاجة جسدها الى ، بل أصبح كل ما يربطها بى هو الثراء الذى أحطتها به ..

انك لا تعلمين يا هدى كم تعذبت بهذه الزوجة .. لقد كنت اتعذب وانا احاول ارضاءها كى أستطيع تعودها .. ثم أصبحت أتعذب لمجرد مرآها .. لم أكن اكرهها .. ولكنى كنت أكره نفسى كلما رأيتها .. كنت أرى فيها بشاعة نفسى .. كنت أرى فيها قسوتى ، وجشعى .. وكنت أهرب منها .. نعم كنت أهرب منها .. كانت تنقضى أيام كثيرة دون أن أراها .. حتى لا أرى نفسى فيها ..

وكنت أحيانا اتذكر أباك .. زميلى محمد افندى اسعد .. واتساءل : ترى كيف يعيش هو وزوجته ؟ .. وأى نوع من

النساء بروح ؟ .. ثم كنت اتصوره فى بيت صغير هادىء ، وبجانبه زوجه حنون راضيه .. ماجـدة .. واحس بالشىء يتحرك فى صدرى ويكاد يكتم انفاسى ، ويحرق رئتى ..

ورغم ذلك فاننى لم افكر فى ان اطلق زوجتى . انى لازلت محتاجا اليها . على الأقل أمام الناس . وحتى لا اثير بطلاقها حديثا انا فى غنى عنه . واغضب أصدقائى الانجليز الذين لازلت فى حاجة اليهم .. لقد كنت بالنسبة الى كأنى احمـل الجنسـية الانجليزية . بجانب جنسيتى المصرية ..

وكنت اهرب منها بالعمل .. ومرتدا من العمل .. ولكن العمل وحده لم يكن يكفينى .. ان الذين يعملون كثيرا . يحتاجون الى نوع عنيف من اللهو حتى يريحوا رءوسهم من العمل ..

ان معظم رجال الاعمال يغرمون بالمقامرة مثلا .. لا بقصد الربح . ولكن لأن المقامرة لهو عنيف مثير ينسيهم العبء الكبير الذى يحملونه فى رءوسهم .. وقد يخرج رجل الأعمال من مكتبه ليلعب الشطرنج . او ليلعب « البريدج » .. والشطرنج والبريدج من الألعاب التى تحتاج لتفكير عنيف .. ورغم ذلك فرجال الاعمال يقبلون عليهما . لانهم محتاجون الى هذا التفكير العنيف . حتى ينشغلوا به عن عبء التفكير فى اعمالهم ..

وقد كنت اهوى المقامرة .. والنساء !!

ولم اخسر كثيرا فى المقامره ..

ولكنى خسرت مع النساء .. خسرت مرة واحدة .. خسارة انتهت بى الى المحكمه .. والى الحكم على فى جريمه خلقيه .. رغم انى كنت ايامها فى قمه سطوتى ونفوذى ..

هل تعلمين انى محكوم على بالسجن فى جريمة خلقية ؟

لا .. انك لا تعلمين ..

ان كل الناس تحترمنى .. وتهابنى .. وتفسح لى الطريق وتنحنى فوق الرءوس .. فكيف يكون هذا الانسـان المبجل محكوما عليه بالسجن فى جريمه خلقية ؟ !

– ٣ –

انى استطيع أن أرى عينيك ملؤهما الاستطلاع .. انك متعجلين قصة الجريمة التى ارتكبتها .. تريدين أن تعرفى ماذا فعل حسين شاكر حتى يقبض عليه البوليس ويقدمه الى المحكمة ؟.. انك لا تتصورين عمك حسين وراء القضبان .. ولعلك الآن تقفزين السطور قفزا لتصلى الى نهايتها .. لا .. أرجوك .. لا تقفزى السطور .. اقرئيها سطرا سطرا ، بامعان وتدقيق .. فان ما اكتبه ليس مجرد اعتراف ، انه أيضا دفاع .. والمجرم لا يعترف الا لأنه لا يجد دفاعا عن نفسه الا الاعتراف .. واذا كان اعترافى يحمل دفاعا ، فانى لا اطمع من وراء هذا الدفاع أن ابرىء نفسى .. فقط أطلب الرحمة .. رحمتك ، بعد أن يئست من رحمة الله !!

ولنتفق أولا ، على معنى الجريمة !

ان الجريمة هى : اعتداء .. هى : ايذاء الناس ..

أليس كذلك ؟ !

ولكنى عشت طول حياتى اعتدى على حقوق الناس ، واخرب بيوتهم ، واغتصب رزقهم .. ان كل ساعة فى عمرى جريمة .. ورغم ذلك فان القانون لم يلحقنى أبدا .. والمجتمع لم يصمنى بالجرم .. والله نفسه لم يعاقبنى .. انما كانت كل جريمة ارتكبها شهادة بذكائى اقدمها للمجتمع فارتفع فى عينيه .. وكلما ازدادت

جرائمي ارتفعت اكثر .. حتى وضعني المجتمع على راسه ، لأن احدا غيرى لم يستطع ان يرتكب ما ارتكبه من جرائم !!

مرة واحدة تحرك القانون ضدى ..

ومرة واحده اثار المجتمع الى بأصبح الاتهام ..

وفى هذه المرة الواحدة لم أكن قد اعتديت على حق احد ، ولا آذيت احدا .

صدقيني ، ان الجريمه الوحيدة التى حوكمت من أجلها ، هى الجريمة الوحيدة التى لم ارتكبها .. بل انها ليست جريمة على الاطلاق !

وكان ذلك فى عام ١٩٣٥ .

وكانت لى عشيقة ..

انى اقولها ببساطة ، وبلا خجل .. كانت لى عشيقة .. وكل الرجال الكبار الذين كانوا يعيشون حولى كانت لهم عشيقات .. الملك له عشيقة ، ورئيس الوزراء له عشيقه . وزعماء الاحزاب لكل منهم عشيقة .. و .. و .. ان نظام العشيقات نظام معترف به دون نص مكتوب ..

انه ظاهره اقتصاديه . فالفقـراء يتزوجون مثنى وثلاث ورباع ، و لأغنياء يتزوجون مره واحده ، ويعشقون مثنى وثلاث ورباع !!

لماذا ؟ !

لأن تكاليف الزوجه اقل من تكاليف العشيقة .. الفقير يستطيع ان ينفق على اربع زوجات ، ولكنه لا يستطيع أن ينفق على اربع عشيقات . ولا حتى على عشيقة واحدة .. اما الغنى فليس محتاجا لأن يتزوج اكثر من واحدة ، لأنه يستطيع دائما أن يقتنى عشيقه ..

ونظام العشيقات ظاهرة اجتماعية ايضا .. فالمجتمع لا يطلب من الفقير ان يقدم له زوجته ، بل هو — اى المجتمع — لا يعرف

العشر ولا زوجته . ولا يريد أن يراهما .. لا يريد أن يسمع أخبارهما . ولا أن يرى صورهما في المجلات .. ولكن المجتمع — نفس المجتمع — يلزم الرجل الغني بأن يقدم له زوجته . ويسعى دائما لمعرفة أخبار هذه الزوجة .. ماذا تلبس ؟ . وماذا تأكل ؟ . وأين تقضي سهرات المساء ؟ . وحتى لا يرتبك المجتمع في تتبع أخبار زوجات الأغنياء الكبار . فهو يطلب من كل منهم الا يقدم اليه الا زوجة واحدة !!

ومعظم هؤلاء الأغنياء الكبار يرضون المجتمع فلا يتزوجون الا زوجة واحدة .. زوجة يقدمونها الى الناس . ويبدون معها في الحفلات وأمام عدسات المصورين .. ولكل منهم عشيقة تنتظره الى أن تنتهي الحفلة . والى أن ينتهي المصورون من التقاط الصورة !!

ورغم ذلك فاني لم اتخذ لنفسي عشيقة لمجرد أن اتخاذ عشيقة هو مظهر من مظاهر المجتمع الذي أعيش فيه ..

انما أنا من هواة النساء ..

انها هواية كهواية جمع طوابع البريد .. وقد بدأتها معتمدا على ذكائي وحده . ثم أرحت ذكائي واعتمدت في هوايتي على ثرائي ..

وقد بدأت هوايتي هذه منذ كنت طالبا في مدرسة الفنون والصنائع . وكنا نلتقي كل ليلة جمعة بعبد العظيم ، وكان أيامها لا يزال متشردا صغيرا يقدم نوعا معينا من الخدمات لأصدقائه ، وكان يصحبنا الى بيت من بيوت الساقطات . ويتركنا ننتقي الأجساد الرخيصة . ويقف بجوار الباب ليحاسب صاحبة البيت . ويحاسبنا على « العمولة » ..

كانت كلها أجساد رخيصة فقيرة ، لا يتجاوز ثمن الجسد الواحد خمسة قروش . ورغم ذلك فقد كانت هوايتي أن أسرق هذه القروش الخمسة من المرأة المسكينة .. كنت أتحايل عليها ،

واسيطر على اعصابي حتى اثير جسدها المنهوك المظلوم .. فسعلق بي ، وتتنازل عن اجرها راضيه ، ثم تلاحقني وتدفع لي من كسبها .. وانا ازهو بذكائي امام الطلبه .. كل الطلبة ما عدا اباك .. كان هو وحده الذي يجعلني اخجل من ذكائي كلما لمحته ، او كلما تذكرته .. كان هو وحده الذي يفسد متعتي وانا ازهو بين اصدقاء الليل بهذا النوع من النساء الذي يلاحقني ..

وتخرجت من المدرسة وبدات اعمل ، وبدات اضم الى مجموعتي صنفا ارقى من النساء ..

نساء خدعتهن باسم الزواج .. ونساء خدعتهن باسم الحب .. ونساء سعيت اليهن ، لاني كنت في حاجه اليهن لتيسير صفقه من صفقاتي .. ونساء اشتريتهن .. ونساء استغللت حرمانهن .. ونساء اعتقدن انهن خدعنني !!

عشرات النساء .. لم يكن لواحدة منهن في حياتي اكثر من الساعه التي اقضيها معها .. ولم تستطع واحده منهن ان تستولي على قلبي .. لم يكن لي قلب لتستولي عليه امراة .. ولم تستطع واحدة منهن ان تلهيني عن عملي .. ان النساء كن بالنسبه لي ، هوايه اوقات الفراغ .. كنت دائما استطيع ان ازيحهن من امام عيني ، وامسحهن من صفحة ذهني ، وانا مقبل على عملي .. بل اني قضيت شهورا طويلة دون ان التقي بامراة ، او افكر في امراة ، لان عملي كان يتقمصني كل دقائق عمري خلال هذه الشهور ..

وانتقلت الى القاهره .. وكبرت .. واشتهرت .. واصبحت نجما من نجوم المجتمع .. وانتقيت صنفا اكثر رقيا من النساء ..

اكثر رقيا !! لعل هذا التعبير فيه كثير من المبالغه .. لا .. انهن ليس اكثر رقيا .. انهن فقط اكثر لمعانا .. والصفيح يلمع احيانا اكثر من الذهب عندما تسلط عليه الاضواء !!

واسالني عبد العظيم .. بك !

لقد أصبحت مهمته أسهل بكثير مما كانت عليه ؛ عندما كان يعيش معي في أوساط الطبقة الفقيرة والمتوسطة .. كان أيامها مضطر الى مخادع ، ويجهد ذكاءه ، ويغري ؛ ويهدد .. حتى يصل بالمرأة الى بابي .. أما بعد أن انتقلنا الى الأوساط الراقية ؛ فلم تعد مهمته تتعدى فتح الباب !!

وكثيرا ما تفسي أدهش ، عندما أجد امرأة ذات اسم كبير .. وجمال كبير .. تلقي نفسها علي .. هكذا بسهولة ؛ ودون أن أسعى وراءها ..

ثم اكتشفت أن هناك نساء — مثلي — من هواة جمع الرجال .. انهن يردنني باعتباري نجما لامعا يصلح ليضاف الى المجموعة التي يحتفظن بها في أدراج ذكرياتهن ..

واكتشفت أن هناك صنفا ثانيا منهن .. يحمل اسما كبيرا أيضا .. أسماء عائلات ضخمة .. ويعشن في بذخ يبلغ حد الجنون .. ولكنهن لا يملكن من أسباب هذا البذخ ، الا أجسادهن .. والنسبة محفوظة .. فقد تكون هناك امرأة تملك خمسة قروش وتضطر أن تبيع جسدها لتحصل على عشرة قروش أخرى تدفعها ايجارا للغرفة التي تقيم فيها .. وهناك نساء تملك الواحدة منهن مائة فدان ولكنها في حاجة الى ايراد ألف فدان حتى تحتفظ بحياة البذخ التي تعيش فيه .. فتضطر أيضا أن تبيع جسدها .

ثم هناك صنف ثالث من النساء .. النساء اللاتي يعتقدن أن أزواجهن لا يستطيعون أن يعتمدوا على أنفسهم ؛ وأنهم في حاجة الى مساعدتهن ليرتقوا في مناصبهم .. فيتقدمن ، بلا سبب ، وبلا مقدمات ، ليعرضن أنفسهن على الرؤساء لقاء « درجة » أو « علاوة » تمنح للزوج العامل .. وهذا الصنف من النساء يهبن أجسادهن بعد أن يقنعن أنفسهن بأنهن يقدمن على تضحية كبيرة في سبيل الزوج المسكين ..

وقد خبرت هذا الصنف طويلا .. كانت الواحدة منهن تقل وفى عينيها نظرة مسكنة كأنها شهيدة تقدم عمنها على مذبح المجتمع .. ثم كانت تحاول أن تبدو ذكية . فلا يخرج ذكاؤها الا فى سلسلة من كلمات النفاق . والضحكات الرنانة الجوفاء .. ثم تقول بعد أن تقوم من فراشى . وتقف امام المرآة تصلح نفسها : « انا عايزاك بدى حوزى شغل كتير .. اشغله فى أى حاجة .. ولما ينشغل حانفضالك انا » .. ان هذا المعنى تقوله كل منهن فى تعابير مختلفة .. ودائما تقلنه بعد ان تتركن فراشى وتقفن امام المرآة ليصلحن من أنفسهن !!

ولم تستطع واحدة من هذا الصنف ان تأخذ منى ترقية لزوجها لا يستحقها .. انهن لا يعلمن انهن يعشن دائما خارج دائرة عملى .. وانا نفسى اخرج من دائرة عملى عندما التقى بهن .. وقد كان من بينهن زوجات لموظفين اكفاء فى شركاتى .. وكان مقدرا لهؤلاء الازواج أن يرتقوا فى مناصبهم دون مساعدة زوجاتهم .. ولكن ، ما دامت زوجاتهم تصر على مساعدتهم .. فليس لدى مانع !!

هكذا كنت اعيش ..

عشرات النساء ..

ولا تسألينى اين كانت زوجتى .. ان المسكينة منزوية بعد أن صبرت على جوع جسدها حتى لم تعد تجوع .. ولم تحاول مرة أن تحاسبنى .. لم تحاول أبدا أن تتجسس على لتعرف اين اقضى أوقات فراغى .. وربما كانت تعلم .. فانى لم انقطع عن هواية النساء منذ أن تزوجتها .. بل ان زواجى بها اطلق هذه الهواية فى نفسى .. فاندفعت فيها اشد جموحا .. كنت احس كأنى انتقم من كل النساء الجميلات اللاتى لم اتزوجهن .. كنت اعوض النقص الذى أحس به وانا زوج لامرأة قبيحة .. كنت اعرف أن بقية الازواج .. بقية الرجال .. ينظرون الى زوجتى

.. الى كوم اللحم الذى غاصت فيه ملامح الوجه فلم تعد تبدو منها عينان ولا انف ولا شفتان ، والى الساقين اشبه بعمودى تسمون ، والى الذراعين الحمراوين كانهما فخذا خنزير مسلوق .. ينظرون الى هذا الشيء الذى تزوجته ميسخرون منى فى دخيلة نفوسهم .. وقد يشفقون على .. فكنت أنتقم من سخريتهم ، ومن شفقتهم .. كنت أنتقم منهم فى اجساد زوجاتهم .. كنت عندما امتلك واحدة من هاتيك الزوجات فى فراشى ، احس احساس خبيث .. احس كأنى امتلكت زوجها ، وانتقم منه بغل وعنف .. لانه سخر من زوجى .. ولانه تزوج امرأة احمل من زوجتى !!

الى ان كان يوم ..

وكنت مدعوا فى حفلة خيرية ساهرة اقيمت فى فندق سان استفانو بالاسكندرية .. وذهبت ومعى عبد العظيم بك .. انه دائما معى !!

وهناك رأيتها ..

لمحتها من بعيد .. وكانت عيناها مسلطتين على !

وحاولت ان اتجاهل عينيها .. ولكنى لم استطع .. وعدت اواجههما من جديد !!

انهما عينان غريبتان .. واسعتان حتى تسعان كل الناس فى النظرة الواحدة .. وفى طرفيهما غمزة خفيفة كأنهما تشيران الى اشارة خفية .. واهدابهما طويلة ، كأنها صنعت من هذه الاهداب وسادة من الحرير تنام فوقها نظرتها .. وكتفاها .. انى لم أر بعد عينيها الا كتفيها .. كتفان عاريتان فى لون اللبن الممزوج بشراب الورد .. وخيل الى انى اتحسس كتفيها بعينى .. وانى اشعر بنعومتهما .. بالبشرة الملساء المشدودة كأنها صنعت من عجين الياسمين .. وانتبهت الى يدى وهى تمسح على حافة المائدة كأنى فعلا اتحسس كتفيها !!

وملت على اذن عبد العظيم وسألته :

ـــ مين الست اللى هناك دى .. أنا ماكر شفتها قبل كده ؟!

ولم اكن قد رأيتها من قبل ، ولكنه نوع من النفاق تعودت ان اخاطب به عبد العظيم ..

وقال دون ان يرفع عينيه ليبحث عن المرأة التى أعنيها :

ـــ دى مرات ايزاك السمسار !

وقلت بعد فترة :

ـــ انا سمعت ان ايزاك سمسار كويس !

ولم يجب عبد العظيم .. انما نظر الى من خلال عينيه المسحبين ؛ ثم أرخى جفنيه اللذين تساقطت رموشهما ، وابتلع بقيه كأس الويسكى ، ثم قام من جانبى ..

وبعد قليل رأيته واقفا مع ايزاك السمسار .. رجل قصير ، أصلع الرأس ، باهت الشخصية .. أشبه بآلة عد النقود التى توضع فى المحال التجارية !!

وجاء عبد العظيم ومعه ايزاك .. ولم أقم له واقفا .. انى اعرف كيف أعامل هذا الصنف من الناس .. وتركته ينحنى أمامى حتى كاد يقبل يدى ؛ وبين شفتيه ابتسامة كبيرة سائلة ، وفى عينيه نظرة مهورة كأنه ينظر الى جبل من سبائك الذهب .. ولم أدعه للجلوس ، انما أبقيته واقفا أمامى .. وأخذت احدثه عن أحوال البورصة ، وأسعار القطن والأوراق المالية .. وهو يجيبنى فى أدب سمج ؛ بينما يتلفت حوله بين كل كلمة وأخرى كأنه يبحث عن شىء ..

وكان يبحث عن زوجته ؛ لتعينه فى هذه الفرصة الذهبية التى سنحت له .. فرصة تشرفه بمعرفتى ..

وأمهلته مدة أطول حتى يجد زوجته .. كنت أكثر من الأسئلة ، وهو يطيل فى كل جواب !

وأخيرا جاءت ..

جاءت تتهادى فى مشيتها كأنها ملكة .. كأنها تمن على الأرض

بخطواتها .. انها طويلة .. اطول من زوجها بكثير ، واطول منى بقليل .. وقوامها ملفوف ليس فيه قطعة زائدة ولا قطعة ناقصة .. وشفتاها .. انهما الشفتان اللتان أضعف امامهما .. لانى أغرق نفسى فيهما .. أحس وأنا اقبلهما انهما تمتصانى كلى .. شفتان مليئتان ، كأنى آكلهما وأنا اقبلهما ..

وقمت واقفا .. احتراما للعينين ، والكتفين ، والقوام الملفوف ، والشفتين الشهيتين ..

ولكنها لم تلتفت الى ..

لم تنظر الى ..

وكان يكفى هذا لاعرف اسلوبها .. اسلوبها مع الرجال ..

وخبطت على كتف زوجها بطرف مروحتها ، وقالت له بفرنسية رقيقة ، وفى صوت مبحوح يدغدغ الاعصاب :

ـــ هل نتكلم ثانية فى العمل ؟

وقال زوجها وهو يشير الى كأنه يقدم لها هدية عيد الميلاد :

ـــ حسين باشا شاكر .. انك تعرفينه بلا شك ؟ !

والتفتت الى ، وفى عينيها نظرة تسعنى كلى ، وقالت بلا مبالاة كأنها لا تعرفنى :

ـــ تشرفنا .. يا باشا !!

ومدت الى يدها ، وهى ترفعها الى شفتى ..

وانحنيت اقبل اليد الطرية ، وانا أبتسم ابتسامة خبأتها فى صدرى ..

وقالت بفرنسيتها التى تدغدغ الاعصاب :

ـــ آسفة .. باشا .. هل قطعت عليكما الحديث ؟

قلت وأنا احاول أن اضع ذكائى فى عينى ، حتى تعرف انى افهمها جيدا :

ـــ أبدا .. تفضلى !

وسحبت لها مقعدا بجانبى .. وجلس ايزاك : وعبد العظيم ..

وهكذا عرف ايزاك انه لن يجلس ابدا على مائدتى الا اذا كان مع زوجته !

ولم تمض دقائق حتى كانت الزوجة الجميلة تملك المائدة كلها ..

لم تكن تخصنى بحديثها ، كما هى عادة كل النساء اللاتى يجلسن بجانبى .. بل ربما خص عبد العظيم من حديثها اكثر مما خصنى ..

ورغم ذلك فلم اغضب .. ولم أحس بشىء ينقصنى .. كان حديثها لذيذا حتى عندما توجهه الى غيرى .. حتى عندما توجهه الى عبد العظيم !

انها ذكية هذه المرأة ..

ولكن .. هل هى اذكى منى ؟

ولم استطع ليلتها أن اقدر مدى ذكائها .. ولكنها تركتنى وانا اشك فى مدى ذكائى .. وتركتنى وانا أحس انى مقبل على معركة .. معركة ذكاء .. وهو شعور لذيذ بالنسبة لى .. كنت أيامها قد وصلت الى مرحلة التأفف من المرأة السهلة .. المرأة التى لا تثير ذكائى .. وهذه المرأة ليست سهلة ..

وكان يجب أن اربطها بى قبل أن تنتهى السهرة .. أو على الاصح اربط روحها بى .. فالتفت اليه قائلا بالفرنسية :

ـ تستطيع غدا ان تبيع لى خمسمائة سهم من أسهم الشركة الكيمائية !

والتمعت عينا ايزاك مرحا .. لقد اصبح سمسارا لى .. انها ثروة هبطت عليه .. وهى ثروة لا تكلفنى شيئا .. فقد كنت انوى ان ابيع هذه الخمسمائة سهم عن طريق سمسار آخر ، سمسار ليست له زوجة بهذا الجمال !

واخرج ايزاك نوتة صغيرة من جيبه ليسجل امر البيع ، والتفتت الى كوليت ــ وهذا هو اسمها ــ وقالت فى لهجــة ساخرة :

ــ كيف صنعت ملايينك ؟!

وفوجئت بالسؤال وقلت :

ــ ماذا تقصدين ؟ !

قالت وهى تدير راسها عنى :

ــ لا شىء !

قلت ملحا :

ــ لا بد انك تقصدين شيئا !

قالت وهى تعود براسها الى وتنظر الى بكل عينيها :

ــ مهما كانت الطريقة التى صنعت بها ملايينك ، فلا شك انك ستفقدها قريبا !

قلت وقد ازعجنى الحديث الى حد التشاؤم .. احسست كان انسانا يدعو على بالافلاس :

ــ لا افهم .. ماذا تعنين ؟ !

قالت وهى تتنهد كانها تخاطب طفــلا لا يفهم فى حــديث الكبار :

ــ ان احدا لا يبيع اسهم الشركة الكيمائية غدا ، ولكنه يشترى .. يشترى قدر ما يستطيع .. ثم يبيع بعد اسبوع !

ونظرت اليها صامتا ..

لم اعد ارى جمالها ، ولكنى كنت فى هــذه اللحظة ارى اموالى .. ارى عملى .. كانى انتقلت فجاة الى مكتبى .. وارى ذهنى يدور بسرعة كانما سرى فيه تيار كهربائى .. ثم التفت اليها ، ونظرت فى عينيها نظرات ثابتة ، فتلقتها بنظرات اثبت ، وفوق شفتيها ابتسامة صغيرة كانها تشفق على .

واتخذت قرارا ، والتفت الى ايزاك قائلا :

ــ مسيو ايزاك .. اشـــتر لى الف ســـهم من الشركة الخيمائية !!

واتسعت ابتسامتها ، وربتت على يدى ، وقالت كأنها تدللنى :

ــ انك طفل مطيع !

ونظر ايزاك اليها والى كأنه لا يفهم شيئا ، وشـطب « الأمر » الذى كتبه فى مفكرته ، وكتب « الأمر » الجديد .. وعبد العظيم يحاول عبثا أن يخفى ابتسامة الشماتة فى !

واحسست انا بالارتباك ..

احسست كأن شخصيتى قد اهتزت .. كأن كل أمجادى السابقة لم تعد تساوى شيئا ..

وقامت واقفة .. كالملكة .. كأنها تأمرنا بالانصراف ..

وقال عبد العظيم بفرنسيته الركيكة .. وهو يصافحها :

ــ لقد اتفقت مع مسيو ايزاك على ان نتناول العشـــاء معا غدا ..

قالت :

ــ غدا .. اتفقنا .. ولكنى سأضطر ان انصرف مبكرة .. انى مدعوة الى سهرة !!

ورفعت يدها الى شفتى عبد العظيم ليقبلها ..

ثم قدمت لى يدها ..

وتقززت من ان اضع شفتى مكان شفتى عبد العظيم .. ولكنى وضعتهما .. قبلت اليد التى قدمتها الى ..

وتركتنا ، وايزاك يسير وراءها ، كأنه ذيل ثوبها

وجلست انا وعبد العظيم .. ونظرت اليه كأنى آمره ان يتكلم .. أن يقول كل ما عنده ..

وتكلم دون أن يرفع عينيه لى .. قال كأنه يقـــدم تقريرا رسميا :

— عبد العزيز باشا مبارك بحبها .. ومش طاس منها حاجه .. وحارمه بيته .. وبتلعب فى البورصة !!

وابتسمت وأنا أسمع اسم عبد العزيز باشا مبارك .. انه أحد كبار رجال الأعمال فى الاسكندرية .. وكانت بينى وبينه دائما منافسه .. منافسة استعملنا فيها كل الأسلحة المدرة .. وقد انتصرت عليه فى عدة صفقات الأتى دائما أقدر منه .. هل أستطيع أن انتصر عليه فى هذه الصفقة أيضا .. صفقة كوليت ؟!

****

وجاءت كوليت فى الليلة التاليه .. دائما جميلة !

وكان المفروض أن يتولى عبد العظيم مهمه الحديث مع ابراك ، لأتفرغ أنا للحديث مع كوليت .. كان هذا هو النظام المتبع فى مثل هذه المناسبات ، والذى يعرفه عبد العظيم جيدا .. ولكن كوليت خرجت على هذا النظام .. تولت هى الحديث كله .. وكانت تعطى منه لعبد العظيم أكثر مما تعطينى .. كأنها تحاول محاولة لم تقدم عليها امرأه أخرى .. كأنها كانت تحاول أن توقع بينى وبين عبد العظيم .. أن تجعلنى أغار منه !

وصبرت ..

قررت أن أصبر طويلا ..

لا شيء يغلب هذا النوع من النساء سوى الصبر ..

وتغلبت روح العبد الذليل فى عبد العظيم ، فكان يرد حديثها الى .. كانت تسأله عن نفسه فيحدثها عنى .. كانت تمدحه فيرد مديحها الى .. كانت تلاطفه فيحول ملاطفتها على ..

وعرفت كوليت أنها لا يمكن أن تستعمل عبد العظيم ضدى .. وأنا صابر ..

لا اقبل عليها ، ولا أفر منها .. ولا أكلف روحها بأمر جديد يربح من ورائه شيئا ..

ودعتنا في اليوم التالي الى بيتها .. بيت شوقي محمد . أكبر وأفخم من بيت مجرد سمسار في البورصة .. ويجب أن أقول لك ان كوليت لم تكن أيضا مجرد زوجة سمسار .. انها من عائلة شهيرة معروفة في الاسكندرية .. والثراء ليس جديدا عليها . ولكنه بالنسبة لها هواية .. هواية جمع المال ..

ولم تكن الدعوة لنا وحدنا .. لقد وجدنا هناك آخرين .. كلهم من كبار رجال الأعمال .. ونساء جميلات . وعبد العزيز باشا مبارك ..

واستقبلني عبد العزيز باشا بابتسامة صفراء تفتح فمها ابتسم .. ونظرت اليه وأنا أضحك ضحكة كبيرة .. نظرت الى عينيه الصغيرتين وسط أمواج من التجعدات . كأنهما قطعتان صغيرتان من الحجر الغشيم في مستنقع من الماء الملوث .. والى لغده الذي يتدلى تحت ذقنه . طية فوق طية .. وكرشه الضخم . هو الآخر . طية فوق طية .. والى طربوشه الأحمر الفاقع . وزهرة القرنفل الحمراء التي يضعها فوق صدره وتميل على كتفه كأنها تبتعد عن أنفاسه .. انه أشبه شيء بالديك الرومي .. وأخلاقه أخلاق الديك الرومي . انه ينتفش غضبا لأي بادرة .. وهو جاد دائما . جاد في مكتبه .. وجاد في ميدان السباق . وجاد وهو يشرب الويسكي في سهراته . جاد وعنيد ووقح .. وربما كان هذا هو سبب هزيمته كلما وقف أمامي في منافسة حول صفقة .. فرجل الأعمال يحتاج الى كثير من المرونة . وكثير من الابتسامات . وكثير من التواضع ..

وهذا الديك الرومي . هو الذي ينافسني في كوليت الآن !

وضحكت مرة ثانية .. ضحكة كبيرة .. وادعيت أني أضحك لنكتة ألقاها عبد العظيم ..

ورحبت بي كوليت .. ثم حاولت أن تتجاهلني .. وحاولت أيضا أن تثير منافسة بيني وبين الديك الرومي ..

وصرت على كل ذلك ..

صرت وعساى سمار كتفيها العاريين المسموعين من عجين الياسمين .. وسمار القوام الملفوف .. والقمرة الخفيفة في طرف العينين الواسعتين كأنهما مشيران اشارة خفية الى كل الناس ..

ثم غادرت الحفل ..

وكان تتولى الدعوه الى بيت ايراك ، حدثا اجتماعيا ، رفع من مركز ايراك في البورصة ، واحاطه باهتمام كل رجال الاعمال .. ماكسبت بهذا الفصل عليه ، ولم اعرض عليه جديدا ..

وفي اليوم التالى عدت الى القاهره .. وقبل أن اعود ارسلت الى كوليت علبة شيكولاته ، شكرا على دعوتها .. وقد تعمدت ان تكون علبة شيكولاته ، لا سوار من الماس .. ولا خاتم سوليتر .. كما جرت العادة بيننا نحن رجال الاعمال ، عندما نحاول أن نبدى اعجابنا بسيدة ..

ولم استطع ان انسى كوليت في القاهره ..

كنت افكر فيها دائما .. لا بقلبى .. ليس لى قلب يفكر .. بل كنت افكر فيها كصفقة جميلة يجب أن افوز بها .. كمناقصة معروضة في سوق المقاولات ، قررت أن أتقدم اليها منافسا لبقية المقاولين .. كنت اراها كما كنت ارى عمارة فخمة اريد شراءها ، واحاول ان اشتريها بأبخس ثمن ..

ولكنها كانت اكثر من ذلك .. كانت المرأة الوحيدة التى جعلتنى افكر فيها وانا في مكتبى .. وانا اعمل .. كانت نصيحتها لى الخاصه باسهم الشركة الكيماوية قد هزت ثقتى بنفسى .. وكانت اميل ان احضر من وراء هذه النصيحة ، حتى استرد ثقتى بنفسى .. حتى اتخلص من صورة هذه المرأة التى تطل على كلما هممت ان اتخذ قرارا ، وبين شفتيها ابتسامة ساخرة ، كأنها تهزأ منى ..

ولكنى لم اخسر بنصيحتها ..

لقد ربحت .. ربحت مبلغا طائلا ..

ورغم ذلك لم افرح .. انما احسست انى لن استطيع ان أعيش ولا ان اعمل الا اذا استوليت على هذه المرأة ..

ولم اشكرها على نصيحتها . حتى لا امنح بابا لاطماعها . واشعرها بفضلها على ..

انما صبرت .. وصبرت اكثر .. ان الفرق بين الهزيمة والنصر ، دقيقة واحدة من الصبر !!

وكنت خلال هذه الايام قد ابتعدت عن المطعم ، فى مكاتب ابراك بعض عمليات البورصة الصغيرة ، حتى ابقى على صلته بى ..

ثم ذهبنا الى الاسكندرية .. انا وعبد العظيم !

وقابلتها مرة ثانية .. وقالت وهى ترفع يدها الى شفتى :

— وحشتنا .. باشا . اين كنت ؟

قلت وانا احاول ان احتفظ باعصابى حتى لا تذوب فى بلور جسدها الملفوف :

— انها الاشغال !

قالت وفى صوتها المبحوح المثير نغمة حاسمة كأنها تذكرنى بشىء نسيته :

— بالمناسبة .. مبروك على صفقة الشركة الكيماوية !

قلت :

— مرسى .. الفضل لك !

ولم ارد . لم اعرض عليها نصيبها فى الصفقة كما جرى بذلك العرف بين رجال الاعمال . كنت اريد ان اشعرها بانها لن تأخذ منى شيئا الا لقاء الثمن الذى اريده .. الثمن الذى احدده انا .. البضاعة التى اختارها !

وتعمدت بعد ذلك ان احول مجرى الحديث .. وحاولت ايضا ان اسيطر على الحديث . حتى لا تسيطر عليه هى ..

وتعمدت أن يكون حديثي كله في الاعمال .. في البورصة .. والشركات وتقلبات السوق ..

وأطلت اقامتي في الاسكندرية ..

وكلفت ايزاك بمزيد من الأعمال ..

وكنت معها كل مساء ..

وبدأت المعركة تصبح بيني وبينها .. معركة الصبر .. من منا يصبر على الآخر اكثر .. وكان كل ما احرص عليه خلال المعركة أن احتفظها دائما أمامي .. وكان سلاحي دائما هو زوجها .. كنت أطلق له حبالا طويلة من الأمل .. حبالا من اطماعه .. وكان عندما يسعى الى وحده ، أو عندما ينتهي ثقله لا ارى فيه زوجته ، اشل حركته .. واحرمه من اعمالي .. وارفض أن أجلسه الى مائدتي ، واقطع حبال اطماعه ، فيعود الى معها .. وكان كل ما تحرص عليه هي ، الا يبدي مآربه في تقلبات البورصة بعد أن حرمها من نصيبها في صفقة الشركة الكيمائية .. لم تعد تحدثني في العمل .. بل لم تعد تطيق حديث الأعمال .. ثم بدأت تهار .. بدأت تظهر ضيقها من حديثي الذي لا ينقطع عن العمل ..

وذات مساء التفتت الى فجأة ، وقالت غاضـــبة في همس مبحوح :

— الا تكف عن حديث العمل !!

وابتسمت ابتسامة خبيثة ، وساءلت نفسي بسرعة : « هل جاءت اللحظة ؟ » ثم قلت وانا أميل على اذنها ، وقد وضعت في عيني نظرة ذات معنى :

— انه الحديث الوحيد الذي يصلح وحولنا كل هؤلاء الناس !

قالت وهي تنظر الى كأنها تحاول أن تتخذ قرارا :

— ومتى تستطيع أن تجد حديثا آخر ..

قلت وانا احس كأني مقبل على توقيع عقد شراء :

ـ عندما تقبلين دعوتي !

ونظرت الى طويلا ، و بين شفتيها المليئين ابتسامة ساحرة ، ثم قالت :

ـ اين ؟ !

قلت وانا استعين بكل جرائي في عقد الصفقات :

ـ ان لي عشا هادئا .. هنا في الاسكندرية !.

واشاحت بوجهها عني .. واخذت تنقر باصابعها على المائدة نقرات عصبية كأنها تعد ضربات قلبها .. ثم عادت والتفتت الى ، وقالت في حده :

ـ اتفقنا .. غدا الساعة السابعة !!

واحسست كأني ملكت الدنيا كلها .. اشتريت الدنيا .. وعدت ابعث الى ايزاك وعبد العظيم ، واحدثوما في تقلبات البورصة ، كي أؤكد لها انها لن تجد مني حديثا آخر الا في عشي الهادىء .. وفي نفس الوقت تسللت يدى الى جيبي واخرجت قلمي وكتبت عنوان العش على قائمة الطعام ، ثم وضعته امام عينيها ، دون ان يشعر احد ..

وجاءت ..

جاءت بعد صبر طويل دام ثلاثة اشهر ونصف ..

وعشي الهادىء ، هو قطعة من الجنة .. انفقت في اعداده آلاف الجنيهات .. ولم يكن مجرد مكان لمراجي الخاص .. بل كان ايضا مكان عملي .. ففي هذا العش سهر كثير من الوزراء والكبراء ، وتلقوا من يدي الرشاوى في صورة خسائر اخسرها لهم على مائدة القمار ، وكانوا يعلمون أني اتعمد خسارتها .. وفي هذا العش تذل كثير من الوزراء والكبراء بين احضان النساء ، وباعوا صفقات الحكومة لي وهم سكارى ..

كان لي مكتب وعش في الاسكندرية ، ومكتب وعش في القاهرة !!

ورغم ذلك فاني في ذلك اليوم لم أشعر ان عشي الهادىء هو مكان عملي .. لقد احسست لأول مرة انه قطعة من الجنة .. ورأيت الصور الثمينة معلقة على الجدران كما لم أرها أبدا .. جميلة ، رائعة .. بل اني أحسست بالغيرة على عشي لأن غيري من الرجال قد دنسوه بشهواتهم .. وتمنيت لو استطعت ان آخذ كوليت الى مكان آخر .. مكان لم يدخله غيري من الرجال !!

وجلست في انتظارها وقلبي واجف ، كأني انتظر صدور نشرة البورصة لأعلم مدى خسارتي وربحي ..

وجاءت ..

جاءت في الساعة تماما .. انها أذكى من ان تتعمد التأخير عن موعدها كما تفعل بقية النساء ..

واستقبلتها فرحا .. وانحنيت اقبل يدها .. وخلعت عنها معطفها .. وقدمت لها كأسا من الشمبانيا .. لم نكن معنا أحد .. ولأول مرة لا يكون معي عبد العظيم .

وبدأت احدثها عن صبري الطويل ، وأنا أضم يدها بين يدي ولكنها سحبت يدها . وقالت وهي تبدو كأنها غاضبة ، وبين شفتيها ابتسامة تمسح عنها الغضب :

— لقد جاء دوري لأتحدث في الأعمال .. أين نصيبي من صفقة الشركة الكيمائية ؟

وضحكت ضحكة كبيرة . وربت على خدها .. ومددت يدي واخرجت شيكا باسمها قيمته ألف جنيه ..

كنت انوي في هذا اليوم ان اعطيها نصيبها . وكنت قد أعددت الشيك مقدما ..

واخذت الشيك بين يديها . ونظرت فيه بامعان وهي تبتسم ساخرة .. وفجأة تمسكه بين أصابعها واخذت تمزقه قطعا صغيرة كأنها تقرضه بأسنانها ..

وصرخت دهشا :

ــ ماذا تفعلين ؟
قالت دون أن تثور :
ــ انك سافل !
قلت كأنى ادافع عن نفسى ؟
ــ لقد كنت انوى ان اعطيك نصيبك ، ولكن .. و ..
قاطعتنى بصوتها المبحوح الذى يدغدغ اعصابى ، وفى لهجة حنان كأنها تغازلنى :
ــ لنتفق اولا على انك سافل .. انك لا تستطيع ان تنكر انك سافل !
قلت وأنا أحاول ان اضحك :
ــ لنفرض انى سافل .. ولكن هذا الشيك من حقك !
قالت وهى تبتسم :
ــ انه هدية منى اليك .. هدية تستحقها على سفالتك !
قلت ضاحكا :
ــ انك تغريننى بالسفالة ؟
قالت وهى ترفع كأسها الى شفتيها :
ــ لا أظن .. انك لا تستطيع ان تكون اسفل مما أنت !!
وضحكت .. وملت على يدها اقبلها مرة ثانية !!
وأخذنا فى الحديث .. ولم اكن اريد شيئا فى لقائنا الاول سوى الحديث .. وقامت كأنها تهم بالانصراف .. وقمت معها .. وخطونا نحو الباب .. وأمسكت لها معطفها ، وهممت ان اضعه فوق كتفيها .. ولكنها استدارت .. ونظرت الى بعينيها اللتين تسمانى كلى ، ولمحت الغمزة الخفيفة فى طرف العينين وقد ازدادت ارتعاشا .. وقالت وصدرها يكاد يقفز فوق صدرى :
ــ لا تحاول ان تكون ماكرا .. انى اعرف ما تريد .. فلماذا لا تحاول أن تطلبه ..
وتسمرت فى مكانى دهشا ..

ان هذه المرأة اقوى منى .. انها لا تريد ان احدعها .. لا تريد ان استمتع بخداعها .. وسـمعتها تقول وقد ازدادت التصاقا بى :

— ان الانتظار حتى اللقاء الثانى خدمة قديمة .. حاول ان تكون رجلا مودرن ! ..

وامسكتها من كتفيها ..

وأغرقت نفسى فى شفتيها ..

وسقط معطفها على الأرض ..

ثم سقط الثوب عن الجسد الملفوف !

***

وعشت مع كوليت اجمل سنوات عمرى ..

وصدقينى انى كنت اول رجل تخون زوجها معه .. اول رجل استطاع ان يذيب ترفعها ، وان يحطم مبادئها .. وكان من مبادئها الا تتخذ لنفسها عشيقا حتى لا تغضب بقية الرجال وتخسر التفافهم حولها وأطماعهم فيها .. ولكنها وجدت فى كل الرجال !!

ولم يكن بيننا حب .. ليس هذا الحب الذى يتكلم عنه الناس .. ولكن كان بيننا تفاهم .. تفاهم تام بين اثنين لا يستطيع احدهما ان يخدع الآخر .. حتى جسدانا تفاهما ، لم اكن اشعر معها بأنى اتعمد ان اضغط على اعصابى لارضيها ، ولم تشعر معى انها تعطينى شيئا لا تريده ..

ونظمنا علاقتنا المالية .. اصبح لها النصف فى كل صفقة تشير بها .. وكنا دائما نربح سويا .. وكنت اعطيها مرتبا شهريا يغنيها عن تعهد ارضاء زبائن زوجها ، ويغنيها عن مضايقات عبد العزيز باشا مبارك .. وكنت اعطى زوجها اعمالا تغنيه عن ان يكون له زبائن غيرى ..

واشتهرت علاقتنا فى كل المجتمعات .. عرفها رجال الاعمال ، ورجال السياسة ، ورجال السلك الدبلوماسى ، والصحفيون ..

و .. و .. ولم تهتم .. انى لست الرجل الوحيد الذى يتخذ لنفسه عشيقة وليست هذه اول عشيقة لى ..

وجرفنا تيار التفاهم الذى نعيش فيه .. اصبحت أقضى ثلاثة ايام من الاسبوع فى القاهرة ، واربعة فى الاسكندرية .. معها .. وفى الايام التى اقضيها فى القاهرة ، اتصل بها ثلاث او اربع مرات بالتليفون .. واحيانا لا أطيق فراقها ، فادعو زوجها فى عمل عاجل ، وادعوها معه !!

ونسينا كل شيء يمكن أن يحدث لنا .

نسينا الزوج ..

لا ، لم انس ابزاك ، ولكنى كنت اعامله كما تقضى تقاليد المجتمع الذى اعيش فيه .. المجتمع الذى يعترف بالزوج والعشيق !

ولم أكن اعرف ان هذا الفار .. هذا الزوج ، القصير ، الباهت الشخصية ، الذى يشبه آلة عد النقود التى توضع فى المحال التجارية .. يمكن ان يسبب لى اكبر هزة تعرضت لها فى حياتى .. يمكن أن يقدمنى الى المحكمة .. وان يذيب نفوذى الذى اسيطر به على مصر كلها ، فيحكم على القضاة بالسجن ..

— ٤ —

.. كنت التقى انا وكوليت فى الساعة السادسة عادة .. ويدوم لقاؤنا حتى التاسعة ، ثم تعود الى بيتها لتبدل ثيابها ، ثم تصحب زوجها ، ونلتقى ثانية على مائدة العشاء .. وأحيانا كنا نتناول طعام الغداء وحدنا ، عندما تجد عذرا كافيا تقنع به زوجها .. وأحيانا كانت تأتى الى القاهرة وحدها ، فتقضى الليل كله معى .. انام ورأسى فوق الكتف المصنوعة من عجين الياسمين !

وكانت حياتنا معا قد انتظمت واستمرت ، الى حد ان اصبحت حياة طبيعية .. لم يعد فيها ما نحترس منه او نخاف عليه .. كنت اذهب الى الاسكندرية فاقيم فى فندق « سيسيل » وفى الساعة الخامسة تماما اترك الفندق واذهب الى عشى الهادىء .. ومعى عبد العظيم .. واجلس هناك فى الشرفة المطلة على البحر .. وفى الساعة السادسة تماما يدق جرس الباب ، ويقوم عبد العظيم ليفتح .. وتدخل كوليت ، ولا اقوم لاستقبالها ، ولا التفت اليها .. انما اظل ارقب البحر الى ان اشعر بشفتيها فوق رأسى .. تقبلنى فى أعلى جبهتى .. فأمسك بيدها واشدها الى — وانا لا زلت جالسا فى مقعدى — واقبلها فوق شفتيها .. ثم اترك يدها ، لتقف امامى مستندة الى حاجز الشرفة .. ونأخذ فى الحديث نحن الثلاثة .. وكان اغلب الحديث

دائما من نصيب كوليت .. ان عندها دائما كثيرا من آخر أنباء رجال البورصة ، ورجال الاعمال .. وعندها دائما نكات لاذعة تطلقها عليهم . وعندها كثير من الفضائح المثيرة التى تعيش فى مجتمعنا .. وهى تتحدث دائما كمنكة .. فى حديثها ترفع برموشك اليها ، ولا تنزل بها اليك .. وتتحدث عن الفضائح كأنها تتحدث عن رعاع لا تعيش بينهم .. وتنطلق النكتة وبين شفتيها ابتسامة كأنها مثابة تعجب بنفسها .. ولكن من عادتها دائما أن تهتم خلال حديثها بعبد العظيم ، أكثر مما تهتم بى .. كأنها تعوضه عن حرمانه .. كأنها تمنحه وسام الشرف على خدماته الجليلة التى يؤديها لى .. ولها ! وكان عبد العظيم يحبها لذلك .. كانت المرأة الوحيدة فى حياتى التى احترمها عبد العظيم ، وحرص على أن يخفى علاقتها بى .. بل كان يخجل الى احيانا انه يغار عليها .. غيرة العبد لا غيرة السيد .. كان لا يطيق أن يسمع عنها كلمة تمسها ، وكنت انا نفسى عندما اقول عنها كلمة لا تعجبه يقلب شفتيه وينظر الى بعينين ساخرتين ، كأنه يقول لى : « والله دى خسارة فيك » ..

وينتهى حديث الشرفة .. وتتركنا كوليت بلا تعمد ، وتدخل الى داخل البيت .. انه بيتها .. وفى حجرة النوم تحتفظ بكل أدوات التجميل الخاصة بها .. وعشرات من زجاجات العطور التى تفضلها .. ولها فى الحمام برنس خاص ، ومنشفة .. وأملاح التمسح التى تذيبها فى الماء قبل أن تستحم به .. وهى التى اشارت بتغيير ستائر غرفة النوم وأثاثها .. فقد كانت تفضل اللون « الأوكر » .. وكانت ترفض أن يكون لها سرير نام عليه غيرها ..

شىء واحد حرصت كوليت على الا تحمله الى بيتنا .. الى عشنا الهادىء .. هو قميص النوم .. انى لم ارها أبدا بقميص النوم .. كانت دائما تواجهنى بثوب الكامل .. ثوب الخروج ..

وسرك لى ان ابدا الطريق من اوله .. وكانى فى كل مره التقى بها لأول مرة .. وربما كان هذا هو الفرق بين الزوجة والعشيقة .. وهو فرق كبير !

واكثر من ذلك ..

لقد كنت اقيم سهرات صغيرة فى هذا العش .. كما كانت عادتى دائما .. سهرات ادعو اليها الوزراء ورجال الأعمال ليتلقوا الرشاوى فى صورة خسائر اخسرها لهم على مائده القمار .. او لاسكرهم واسلط عليهم سحر نوع معين من النساء . حتى ينطقوا باسرارهم ، ويبيعوا لى كل ما اريد شراءه .. وكانت كوليت دائما معى .. وكانت تقوم بدور المضيفة .. دور ست البيت .. هى التى تستقبل المدعوين ، وهى التى تشرف على راحتهم . وهى التى تقوم على تنفيذ الخطط التى نتفق عليها .. وكان زوجها ايزاك يحضر معها .. وكان يعلم .. كان يعلم تماما مركز زوجته منى ومن البيت .. انه ليس غبيا ، وليس ساذجا !

فهل هناك ما يمكن أن اخشاه بعد ذلك ..

هل هناك ما يمكن ان يثير ريبتى حتى احسب حسابا لهذا الزوج .. هذا الفأر الذى يشبه آلة عد النقود التى توضع فى المحال التجارية !

لا .. لقد كنت مطمئنا .. غاية الاطمئنان !

الى ان كان يوم ..

يوم لا انساه ابدا ..

جاءت كوليت فى الساعة السادسة ..

وانتهى حديث الشرفة ..

ودخلت كوليت الى حجرة النوم .. ولحقت بها بعد قليل .. وتركت عبد العظيم ينظر الى البحر ، وفى يده كأس من الويسكى المثلج .. ليس اكثر برودا من اعصابه !

وانقضت فترة .. فترة طويلة .. وافقت من نشوتى ، على صوت جرس الباب يرن ..

من هذا ؟

لعله البواب .. لعله احد السكرتيرين الخصوصيين الذين يعملون مع عبد العظيم ويعرفون سر هذا العش ، جاء فى مهمة عاجلة .. لعله ..

ولكن رنين الجرس يتوالى .. بعنف .. كأنه صراخ امراة تتباهى بصراخها .

وانتبهت اذناى . وجسدى كله لا يزال مع كوليت ..

ثم سمعت خبطا بالأيدى فوق الباب ..

ثم سمعت صوت الباب يفتح ..

ثم ضجه ..

وانسعت عينا كوليت فزعا .. عيناها قريبتان جدا من عينى حتى خيل الى انى اغرق فى بحر من الفزع .. وقالت وشفتاها قريبتان جداً من شفتى .. حتى لم اكن ادرى ايهما تتكلمان ، شفتاها أم شفتاى .. قالت فى صوتها المبحوح وقد حشرجه الفزع :

ــ ما هذا ؟ !

وقبل ان اجيبها .. فوجئت بباب غرفة النوم يفتح فى عنف .. ورأيت امامى اربعة رجال طوال ، وخلفهم ايزاك يشب على قدميه ، كأنه يحرص على الا يفوته مشاهدة استعراض مثير .. ثم خلف الجميع يقف عبد العظيم مذهولا ، فاغر الفم . كأنه اصيب بصعقة ..

وكنا نحن الاثنين .. كوليت وانا .. عريانين !

وانتفضت من فوق السرير ، وانا احاول أن اغطى جسدى بذراعى ويدى .. وكلما غطيت ناحية منه ازددت خجلا من الناحية التى لم اغطها ..

وصرخت كوليت . وجذبت ملاءة السرير حتى أعلى صدرها ..
وأحدت ترتعش في عصبية كأنها أصيبت بالحمى .. ثم ركزت عينين محمومتين فوق وجه زوجها . وصرخت بالفرنسية :

ــ حقير .. قذر !!

ثم أخذت تبكي في نشيج حاد ..

وأسرعت الى ثيابي . ولكن ضابط البوليس كان أسرع اليها مني . ووضع يده عليها وهو يقول في أدب مفتعل ، وبين شفتيه ابتسامة ساخرة :

ــ آسف يا باشا .. مش ممكن تلبس دلوقت .. لازم نعمل اثبات حالة الأول !!

وجذبت ثيابي من تحت يده في قوة وأنا أصرخ في وجهه محاولا أن أسترد شخصيتي .. شخصية حسين باشا شاكر .. رجل الأعمال القوي .. صديق الانجليز الذي يحكم مصر :

ــ بلاش قلة أدب .. انت اللي انت عايزه .. ما حدش حيكدبك .. انما لازم البس هدومي !

وتركني الضابط ألبس ثيابي ، وقد اتسعت ابتسامته الساخرة ، بينما بقية الرجال ــ بما فيهم عبد العظيم ــ يسقطون كل عيونهم فوق كوليت . كأنهم يحاولون أن يمزقوا الملاءة بأعينهم ليروا ما تحتها ..

ونظرت الى ايزاك وأنا أضم طرفي البنطلون الى وسطي ، وصرخت فيه :

ــ انت اتجننت يا راجل انت .. انت عارف انت بتعمل ايه ؟ !

ولم يلتفت ايزاك الي .. هرب من عيني .. وأشار بأصبعه الى زوجته ، كأنه يراقب عجلة الروليت التي راهن عليها بكل أمواله . وقال بالعربية المكسرة . وقد امتقع وجهه :

ــ آهو .. هي دي الست بتاعي !!

وعادت كوليت تكرر مع نشيجها :
ــ حرر .. تقر !!
ودققت في وجه ايراك . ثم تذكرت فجأة رئيس الوزراء ...
نعم .. انه هو .. رئيس الوزراء .. وقلت لنفسي وانا احز على اسناني : « عملها ابن الكلب !! » .
والتفت الى ضابط البوليس . وقلت وانا أحاول أن احفظ للهجتي الأمر :
ــ اتفضلوا نقعد في الصالة ..
وحاول الضابط أن يعترض .. ولكنه عاد وراجع نفسه .. وقرر ان يتسحب من الغرفة هو رجاله .. وربما تذكر ساعتها ان رئيس الوزراء الحالي ، قد يسقط !!
وتجاهلت ايراك .. وسبقت الجميع . وجلست على الأريكة . واخرجت سيجارا ضخما وضعته في فمي واشعلته .. وجلس الضابط على مقعد مقابل .. ووقف الجنود الثلاثة .. جنود في ثياب مدنية .. خلف الضابط .. وايراك واقف بجانبه كانه يحتمي به .. وحرص عبد العظيم على أن يغلق باب غرفة النوم لتترك لكوليت فرصة ارتداء ثيابها .. ثم جاء وجلس بجانبي . وهو لا يزال مذهولا .. لقد كانت في عبد العظيم نقطة ضعف واحدة .. وهي خوفه من البوليس .. منذ أن كان صغيرا يتاجر في الحشيش ، ويصحبنا الى بيوت الساقطات ، وهو يخاف البوليس .. وكبر . واغتنى . واصبح مدير شركة . و « بك » .. وهو لا يزال يخاف البوليس ..
وقلت لضابط البوليس ، وانا احاول ان أسيطر على اعصابي . وانفخ دخان السيجار الطويل في الهواء ، كأني اطرد آثار الهزة العنيفة التي اصابتني :
ــ نعم ..
وقال الضابط :

— مسيو ايزاك معاه أمر من النيابة بضبط زوجته متلبسة بجريمة الزنا ..

قلت دون ان ارفع عيني الى ايزاك :

— وايه الاجراءات في الحالة دي ؟

قال وقد بدا يشعر بأنني .. باشا :

— سعادتك تتفصل معانا على القسم .

قلت مقاطعا :

— لا .. اذا كنت حاتكتب محضر اكتبه هنا !

قال :

— ده لازم النيابة تحقق ..

قلت في حزم :

— برضه النيابة تيجي هنا !

وسكت الضابط قليلا . وتردد . ثم قال :

— تسمح استعمل التليفون ؟ .

قلت وأنا لا انظر اليه :

— اتفضل ..

وكنت اعرف ان الضابط سيتصل بالمأمور . والمأمور سيتصل برئيس النيابة . ورئيس النيابة سيتصل بالنائب العام ، والنائب العام سيتصل برئيس الوزراء .. ويأتي الامر من هناك !

ولأول مرة تمنيت ان يرحمني رئيس الوزراء من الذهاب الى القسم ..

انا الجبار .. صديق الانجليز .. انا الذي يشتري الوزراء ، ويسقط الحكومات .. كنت ساعتها لا اتمنى شيئا الا ان يعفيني رئيس الوزراء من الذهاب الى قسم البوليس . ولو اضطررت ان استجديه وأطلب رحمته ..

لم اكن اخاف التحقيق .. تحقيق النيابة .. او تحقيق البوليس بل ان التحقيق لم يكن مشكلة بالنسبة الى .. انما كان

كل ما اخافه هو الذهاب الى القسم .. كان سيحيل الى اني سافقد كل شيء اذا خطوت بقدمي الى داخل قسم البوليس .. سأعود متشردا تافها كملايين التافهين الذين يملأون شوارع مصر .. وما قيمة ثرائي ونفوذي اذا كنت سأدخل قسم البوليس كأى واحد من الباعة المتجولين !!

وبينما كان الضابط يتحدث فى التليفون ، تقدم عبد العظيم من جانبى وقد افاق من ذهوله ، واتجه الى ابراك ، وحاول أن يجذبه من ذراعه ، ليحادثه على حدة .. فبدا بالفار يصرخ فيه ، قائلا :

ــ ابعد عنى .. انت موش يكلمنى .. موش ممكن يكلمنى !!

وازداد التصاقا برجال البوليس ..

ونظرت الى عبد العظيم نظرة صارمة ، آمره بأن يعود الى مكانه ..

لقد اخطأ عبد العظيم فى تقدير الموقف ..

ان ابراك آخر من يسأل عن هذا الحادث .. انه لم يقدم على فعلته ، الا تحت اغراء شديد .. والاغراء وحده لا يكفى ، بل يجب ايضا ان يستند على نفوذ كبير يحميه من انتقامى ..

وصاحب النفوذ الكبير هو رئيس الوزراء ..

وقد كان بينى وبين رئيس الوزراء معركة مستمره .. انه رجل اعمال .. صاحب شركه تنافسنى وصاحب مصانع تتعارض مع مصالحى .. وانا احتمل كل شيء فى رؤساء الوزارات الا أن يكونوا رجال اعمال .. الا ان يكونوا منافسين لى فى الميدان الذى اعمل فيه .. لقد تركت لهم دنيا السياسة ، ولم احاول يوما ان انافسهم فى وزاره .. وكل ما اطلبه منهم الا ينافسونى فى تجارة .. انى اقبل ان اتنازل لهم عن نصف ارباحى ادفعها رشوة لهم ولرجالهم ، ولكنى لا اقبل أن ادخل فى منافسة مع واحد منهم ..

ولكن مصطفى باشا سامى ، كان يريد كل شيء .. كان

يريد السياسه والتجارة .. بل انه لم يشتغل فى السياسة الا ليربح فى التجارة .. وهو رجل ناعم املس .. كل شىء فيه أملس .. صلعته .. وبشرته التى لا ينبت فيها شعر .. وابتسامته .. ونظرات عينيه .. وذكاؤه .. كان كالثعبان يتسلل من حيث لا تدرى صحبته .. وكنت كلما ضيقت عليه الخناق ، وجد منفذا يتسلل منه الى رئاسة الوزارة .. اذا اقفلت فى وجهه باب الانجليز ، دخل من باب السراى .. واذا افسدت فى وجهه باب السراى ، دخل من باب الأحزاب الوطنيه .. ثعبان يتسلل من تحت قدمى .. وقادر دائما على ان يغير جلده .. انه يوما رجل الملك .. ويوما رجل الانجليز .. ويوما زعيم شعبى يحمله الطلبة على الأعناق !!

هذا هو رئيس الوزراء .. وكان يعلم انى اعمل على اسقاطه من رئاسه الحكومه .. كان يعلم انى اسد فى وجهه الأبواب ، بابا بعد باب .. فدبر لى هذه المصيبه ، ليقضى على قبل ان اقضى عليه ..

المساله اذن ليست مسالة غيرة على الأخلاق .. والزوج لم يحرك غيره على شرفه ، والبوليس لم يتحمس حماية للدين او التقاليد ..

انها مجرد منافسه بين اثنين من رجال الأعمال ، تستعمل فيها كل الأسلحه القذرة .. ولو لم اكن منافسا لرئيس الوزراء .. ولو كنت شريكا له .. لسعى حتى يتشرف بمعرفه عشيقتى ، بل ربما تنازل لى عن عشيقته ، وعين جندى بوليس على بابى يرفع لى يده بالتحية والتعظيم ..

وكانت كل هذه الخواطر تمر بخاطرى ، وانا فى انتظار ضابط البوليس حتى ينتهى من تلقى اوامر رؤسائه .. وكنت احترق من الغيظ .. كانت أعصابى تتلوى ، وعروقى تكاد تنشق من

تحت لحدى .. وكنت اكرر من تحت اسنانى : « عملها ابن الكلب .. عملها ابن الكلب » !

ورغم ذلك حاولت ان ابدو هادئ حتى لا اضعف امام رجال البوليس . وسيجارى بين شفتى . اطرد منه الدخان بعنف . كان بين رئتى قطارا يجرى بأقصى سرعة .

ووضع ضابط البوليس سماعة التليفون . والتفت الى قائلا .

ــ وكيل النيابة ، جاى دلوقت !

ورفعت اليه عينى ثم خفضتهما ، دون ان اتكلم .. ان رئيس الوزارة اعفانى من الذهاب الى قسم البوليس .. لم يعفنى رحمة بى . بل رحمة بسمعة الطبقة التى ينتمى اليها .. طبقة رجال الأعمال !!

وعاد الضابط يقول :

ــ انا آسف يا افندم .. بس انا مضطر اعمل معاينة !

قلت فى برود :

ــ اتفضل !

واخرج الضابط ورقة وقلما . وبدأ يكتب .. ثم ارسل احد جنوده ليأتى له بورق مما يستعمل فى كتابة المحاضر .. وقمت انا لاطمئن على كولت .. وفتحت باب غرفة النوم .. انها لا تزال فوق الفراش .. عارية .. مغمى عليها !

واسرعت اليها .. قربت من انفها محلول النوشادر .. ودلكت شفتاها بقطعة من الثلج .. ومسحت على اطرافها بماء الكولونيا ..

وافاقت ، وهى تنتفض كأنها عصفورة سقطت مكسورة الجناح ، وقالت وهى تشهق :

ــ ماذا حدث .. ماذا سيفعلون بنا !

ــ لا شىء .. مجرد اجراءات .. لا تخافى شيئا !

وبدات اساعدها على ارتداء ثيابهـــا ، وانا اختـــلس اليها النظرات .. نوع جديد من النظرات ..

احسست ساعتها انى اكرهها .

نعم ، اكرهها ..

تبخرت متعة الشهور الطويلة التى قضيتها معها ، ولم يبق لها منى الا الكراهية ..

وبدات افكر كيف اتخلص منها .. وكنت احسب حساب التحقيق .. وما يعقب التحقيق .. اننا .. انا وهى .. قد نحال الى المحاكمة .. ثم قد تطلقها زوجها .. ثم قد تطالبنى بتعويض . واكثر من ذلك .. قد تطالبنى بالزواج !!

يجب ان اتخلص منها .. ولكن ليس الآن .. انى محتاج اليها الآن لستر فضيحتنا !

وتركتها وعدت الى الصالة ، وهمست فى اذن عبد العظيم :

ـــ شوف الجرايد !!

وهم عبد العظيم بأن يخرج من البيت ، ولكن ضابط البوليس استوقفه ، قائلا :

ـــ لو سمحت تستنى لغاية النيابة ما تيجى !!

ولم يخرج عبد العظيم ، انما سحب آلة التليفون الى ركن بعيد وبدا يتصل باصدقائه الصحفيين واصحاب الصحف .. ان لكل منهم ثمنا محددا !

وبدا ضابط البوليس يستجوبنى :

ـــ سين .. ما هى العلاقة بين سعادتكم وبين زوجة مسيو ايزاك ؟

قلت فى برود واختصار :

ـــ صداقة !

قال :

ـــ سين .. كيف عرفتها ؟

قلت :

ــ قدمها الى زوجها . وحضر معها الى هذا البيت مرارا ..

قال :

ــ سين .. ولماذا حضرت السيدة الى بيت سعادتكم اليوم ؟

قلت :

ــ كانت فى انتظار زوجها !

قال :

ــ سين .. لقد تم ضبطكما بمعرفتى فى غرفة النوم .. فما اقوالك ؟ ..

قلت دون أن أهتز :

ــ كنا نتحدث فى الاعمال !

ورفع الضابط عينيه الى دهشا ، ثم عاد وخفضهما وهو يكتم ابتسامة خبيثة ، عاد يسأل :

ــ ما هى الأعمال التى كنتم تتحدثون فيها ؟

قلت وانا لا ازال ضاغطا على اعصابى :

ــ انها تضارب معى فى البورصة بمعرفة زوجها !

وصاح ايزاك :

ــ موش مضبوط .. الباشا هو اللى ضحك على الست بتاعى .. و ..

ونظرت اليه نظرة صارمة اخرسته .. وتوالت الاسئلة ..

ثم جاء وكيل النيابة واعاد الاسئلة من جديد .. وكتب فى اوراقه اوصافا بذيئة مخجلة للحالة التى وجدنا عليها البوليس ..

وامرجت عنى النيابة ..

وعدت الى القاهرة فى اليوم التالى ..

وانتشرت الفضيحة بسرعة .. لم تكتب الصحف شيئا ، لقد تولى اسكاتها عبد العظيم .. ولكن الفضيحة انتشرت فى اوساط رجال الاعمال ، وفى المجتمعات ، وبين اصدقائى الانجليز ..

ولم يأخذها أحد على أنها فضيحة حلقته ، بل اعتبروها جولة خسرتها أمام رئيس الوزراء .. وهنأوا الرئيس على نكائه .. ولم يلمني أحد على اتخاذي عشيقة !

وبدأت إجراءات التحقيق تسير بسرعة .. بسرعة عجيبة .. ورئيس الوزراء يدفعها كلما تلكأت ..

وحدد موعد لنظر القضية أمام القضاء .

وفي خلال ذلك كانت أعمالي قد ارتبكت .. وأعصابي كانت أشد ارتباكا .. وتجمع كل رجال الأعمال المنافسين وانضموا الى رئيس الوزراء في محاولة القضاء علي .. لقد وقع العجل ــ أي أنا ــ فكثرت السكاكين فوق رقبته !

وكان يجب أن أعترف بالهزيمة ..

وقد اعترفت بها بيني وبين نفسي .. لقد كنت عجلا ، ولكني لم أقع .. اني لا أزال واقفا على قدمي .. وسأبقى واقفا !

وكان رئيس الوزراء يريد بهذه الفضيحة أن يصمني بجريمة مخلة بالشرف ، فيبعدني بذلك عن السراي ..

فقررت أن أستعفي مؤقتا عن السراي ، وأصدقائي فيها ..

ثم كان يريد أن يبعدني عن أصدقائي الانجليز .. وهذا لن يتحقق .. ان أحدا لا يستطيع أن يفقدني صداقة الانجليز مهما حدث لي .. ان الانجليز لا يفرطون في أصدقائهم بسهولة .. وهم ليسوا أصدقائي فحسب ، انهم شركائي .. ان رءوس أموالهم تحمل اسمي ، وكل ما يمس هذا الاسم ، يمس رءوس أموالهم ..

ولكني أعرف أيضا أن دار المندوب السامي لا تحب أن تحرج .. لا تحب أن تقف مكشوفة الوجه في قضية كهذه ، وتطالب باقالة الوزارة مثلا .. فقررت أن أتحمل الموقف وحدي ، والا أطلب من أصدقائي الانجليز ــ مؤقتا ــ الا استمرار علاقتهم بي ..

وجاءت روحية بعد أن سمعت بالقضية .. لقد تعودت منذ

زمن طويل ان تقضى اكثر من ستة شهور كل عام في انجلترا ..
وقد قطعت اقامتها هناك وجاءت .. لم تجيء غاضبة ولا ثائرة ، ولكنها جاءت ملهوفة يتقدمها الجزع .. ولم يكن الأمر بالنسبة لها امر اتحادى عشيقه ، فهى تعلم ان لى دائما عشيقة .. ولم يكن يهمها هذه الفضيحه التى ثارت حولى ، بل كان كل ما يهمها هو تأثير هذه الفضيحه على أموالى .. على شركاتى .. على عملى .. ان كل ما اصبح يربطنى بها هو نصيبها من التمتع بثرائى ..

وكانت اعمالى قد تأثرت فعلا .. كانت أسهم شركاتى قد بدأت في الهبوط . وكنت أدخل البورصة مشتريا لأسهمى ، حتى احول دون هبوط اسعارها .. وقد اشتريت كثيرا حتى كدت اخسر رأس مالى ..

ولكن زوجتى وقفت بجانبى .. وبعد عودتها بأيام ، دعينا نحن الاثنين الى حفله خاصة في دار المندوب السامى ..

كان مجرد وقوف زوجتى بجانبى ، ودعوتنا الى دار المندوب ، سببا كافيا لانتشال أسهم شركاتى في البورصة .. لقد شممت أنوف الثعالب رائحه الحياة تنبعث من أعماقى .. عرفوا انى لم امت بعد .. فارتفعت الأسعار !

والمجتمع .. المجتمع الراقى الذى أعيش فيه .. ماذا فعل بى ؟

هل احتقرنى ؟ هل أدار لى قفاه ؟ أبدا ..

انى لا زلت نجما لامعا .. بل ازددت لمعانا .. ولا زلت ادعى في كل حفلة ، وكنت اتعمد أن البى كل دعوة .. وكنت أسمع من حولى الهمسات كدبيب الحشرات .. فأشق الصفوف منتفخ الصدر ، فتخرس الهمسات ، وأعين النساء تتطلع الى في شبق ونهم .. تتطلع الى ليلة مثيرة عنيفة تنتهى بتدخل البوليس ..
لقد اصبحت دون جوانا مثيرا !

الوحيد الذى احتقــره المجتمع هو .. ايزاك .. ايزاك المسكين !!

لقد هنأ المجتمع رئيس الوزراء على ذكائه .. ولكنه احتقر ايزاك لانه وضع شرفه فى خدمة ذكاء رئيس الوزراء .. لانه خالف بذلك التقاليد المرعية بين الزوج وعشيق الزوجة .. خصوصا اذا كان زوجها من صنف ايزاك !

وقد اختفى ايزاك من المجتمع .. ولكنه لا يزال يعمل فى البورصة .. وقد ظهرت بين يديه ثروة هبطت عليه من رئيس الوزراء .. وتعمد بعض المنافسين ان يعهدوا اليه ببعض اعمالهم حتى يحموه من اغرائى اذا حاولت ان اعرض عليه ان يتنازل عن القضية .. عن حقه فى زوجته .. ثم بدا بعــد ذلك يكون شركة ، ومعتمدا دائما على نفوذ رئيس الوزراء ..

ولم احاول ان اتصل به .. كنت اعلم انى مهما عرضت عليه فسيطلب المزيد .. ومهما اعطيته فان رئيس الوزراء مع مجموعة المنافسين ، وعلى راسهم عبد العزيز باشا مبارك ، يستطيعون ان يعطوه اكثر ..

ورغم ذلك فعبد العظيم لم يؤمن بكلامى .. وذهب يعرض عليه ثمنا لتنازله .. فرفض ايزاك وصرخ .. وراح يقول للناس انى احاول ان اشترى شرفه !

اما كوليت .. فقد اصبحت تعيش وحدة بعيدا عن زوجها .. واتفقت معها على الا نبدو سويا حتى تكف الضجة ، ولكنى كنت ادفع لها مرتبها الذى تعودت ان ادفعه لها .. حتى تسكت ، وحتى لا تصبح الضجة ، ضجتين !!

واخيرا نظرت القضية ..

وجلست فى قاعة المحكمة مستسلما .. ادير حولى عينين مشفقتين .. ولم اكن اشفق على نفسى .. انما كنت اشفق على القضاء .. وعلى وكلاء النيابة .. وعلى المحامين .. وعلى

الشهود .. وعلى الجمهـــور الذى تجمع متلهفـــا كأنه يرقب استعراضا للعرايا .. بل كنت اشفق على القانون نفسه .. كنت أشفق على مجتمع هزيل ضعيف ، لم يعد يملك من أسباب الحياة الا أن يخدع نفسـه ، ان القاضى يخدع نفســه وهو يطبق القانون .. ووكيل النيابة يخدع نفسه وهو يدافع عن الأخلاق .. والمحامي يخدع نفســه وهو يدافع عنى .. والجمهور يخدع نفسه وهو يعتقد أن الفضيلة انتصرت على .. والقانون .. القانون ليس الا أداة خداع !

وفتحت الجلسة ..

واستطاع المحامون أن يقنعوا القضاء بأن يجعلوا الجلسة سرية ..

وبدأ وكيل النيابة يتكلم .. قال كلاما كثيرا لم أستمع اليه .. ان هذا الرجل الذى يحمل وشاحا فوق صدره ، أول من يعلم أنه كاذب فيما يقول ، انه يقول كلاما أملاه عليه رئيس الوزراء ..

وسقط رأسي فوق صدري رغما عنى .. وربما ظن القضاة انى خجل مما يقوله وكيل النيابة .. ولكني لم أكن خجلا .. ولم أكن أسمع ما يقال .. انما كنت ساعتها أتذكر زميلى محمد افندى السيد .. الرجل الطيب الشريف .. وكانت ذكراه تؤلمنى .. تعذبنى .. تحرك الشيء الذى يسكن صدري ويكاد يكتم أنفاسى كلما تحرك .. لعل محمد افندى السيد الآن يعتبر نفسه منتصرا على .. حتى انى أنه ينظر الى فى شماتة كأنه يقول لى : « ألم أحذرك من الطريق الذى تسير فيه ؟ » .. ولكن .. ماذا كان يريدنى أن أكون .. موظفا صغيرا فقيرا مثله .. هل اترك كل هذا الثراء ، وكل هذا المجد ، لأنضم للشرفاء .. للفقراء .. خوفا من أن أقدم يوما للمحاكمة فى جريمة زنا ؟ !

وبدأ ذكائى يسخر من محمد افندى السيد ..

وانتهى وكيل النيابة من سرد الاتهام .

وبدا المحامون يترامعون عني .. ولم أحاول ان اسمع التهم هم الآخرون .. انهم سيقولون كلاما فارغا .. ولو ارادوا ان يقولوا الحق لأطلعوا المحكمة على اسرار المعركة التي تدور بيني وبين رئيس الوزراء .. لقالوا للقضاة انى لم اقدم اليهم لأنى ارتكبت هذا الجرم بالذات ، بل لأنى ارتكبت جرائم اخرى نافست بها جرائم رئيس الوزراء .. ورئيس الوزراء يريد ان يكون المجرم الوحيد .. بلا منافس !

ورغم ذلك فانى بعد قليل انتبهت الى كلام يقوله المحامى ..

انتبهت الى ان المحامى لا يدافع عنى .. بل يدافع عن الجريمة ذاتها .. جريمة الزنا !

كان يقول كلاما غريبا اسمعه لأول مرة ..

كان يقول ان الأديان كلها لم تعتبر هذه الجريمة .. جريمة !

فالدين الاسلامى استثنى هذه الجريمة من بقية الجرائم ، واشترط لثبوتها اربعة شهود من الرجال .. اى لو انى ارتكبت جريمة قتل لكان يكفى ان يشهد ضدى رجلان .. او رجل وامرأتان .. ثم يحكم على بالاعدام .. اما فى جريمة الزنا ، فيجب ان يشهد على اربعة رجال .. والا .. فلا جريمة !!

ما معنى هذا ؟

معناه ان الاسلام لا يعاقب على الزنا فى حد ذاته .. لا يعاقب الرجل والمرأة عندما يتبادلان جسديهما ، لمجـرد انهما تبادلا جسديهما .. بل يعاقبهما اذا انقلبت جريمتهما الى « فعل فاضح » .. اذا تمت هذه الجريمة أمام جمهور لا يقل عدد افراده عن اربعة افراد .. رجال .

وانا وكولت لم نرتكب فعلا فاضحا .. كنا حريصين على ان نختبىء .. لم نجرح احساس أحد .. ولم نزعج احدا .. لم يكن

معنا سوى عبد العظيم .. وعبد العظيم تنازل عن احساسه منذ زمان طويل ..

والمسيحية ..

ان المسيح له حكمة معروفة .. عندما لجأت اليه امــرأة خاطئة ، والناس تجرى خلفها ليرجموها بالحجارة .. نحاها المسيح من الناس . وقال : « من لم يكن منكم بلا خطيئة ، فليرمها بحجر » ..

وسقطت قطع الحجارة من ايدى الناس !

ما معنى الحكمة ؟

معناها ان المسيحية افترضت هذه الخطيئة فى كل الناس .. كل الناس يرتكبون نفس الجرم الذى ارتكبته أنا .. فلا عقاب عليه .. الا اذا عوقب كل الناس !

ثم القانون ..

القانون الذى يحكم المجتمع الآن .. ماذا يقول ؟

انه يقول ان هذه الجريمة ليست جريمة فى حق المجتمع .. انما هى جريمة فى حق الزوج وحده . فاذا تنازل الزوج .. فلا جريمة .. ولا حكم .. ولا محكمة .. لو تفضل مسيو ايزاك وتنازل عن حقه فى كوليت .. فأنا برىء : فأنا رجل شريف .. وكوليت امرأة شريفة !!

ولو انى سرقت من مسيو ايزاك قرشا واحدا .. فان هذه جريمة فى حق المجتمع ، والقانون لا يعفينى من المحــاكمة حتى لو تنازل مسيو ايزاك عن القرش الذى سرقته منه ، واعطانى فوقه قرشين .. أما لو سرقت من ايزاك شرفه .. فالمجتمع يغمض عينيه ، بشرط واحد .. هو ان يغمض مسيو ايزاك عينيه أيضا !!

هكذا يقول القانون ..

وضحكت بينى وبين نفسى ، وأنا اسمع ما يقوله القانون .. ضحكت ساخرا .. ولو كنت اعرف هذا الكلام ، لكتبت عقدا

بنى وبين ايزاك .. عقد ايجار كوليت .. ولرحب يومها ايزاك بتوقيع العقد ..

ولكنى لم أكن أملك مثل هذا العقد ..

ومسيو ايزاك .. الفاضل .. لا يريد أن يتنازل عن حقه !

فحكمت المحكمة ..

حكمت على بأربعة شهور سجن .. مع وقف التنفيذ !!

وأسرع عبد العظيم يطوف على دور الصحف ، فلم تنشر احداها الحكم .. لم تنشره الا جريدة يومية تنتمى الى حزب كبير .. وقد نشرته لأن عبد العظيم وصل اليها متأخرا بعد موعد الطبع .. ثم امتنعت عن النشر فى اليوم التالى ، بعد أن تفاهم معها عبد العظيم !! ولم يبق الا مجلة صغيرة .. صممت على أن تنشر الحكم ، وعلى أن تستمر فى النشر رغم كل محاولات عبد العظيم .. ولم أهتم بهذه المجلة الصغيرة . لم أكن أعلم أن المجلات الصغيرة يمكن أن تشعل ثورة فى مصر كلها !

وقد أراحنى أيامها صدور الحكم .. كان هـذا هو غاية ما يستطيع أن يصل اليه رئيس الوزراء .. لن يستطيع أن يفعل بى أكثر من ذلك !

وجاء دورى ..

دورى فى الانتقام .. انتقام بلا شفقة !

وكان أمامى ثلاثة أعداء :

رئيس الوزراء ..

وايزاك ..

وكوليت .. نعم .. وكوليت أيضا !

وبدأت بالأول .. وكان يجب أن يترك الوزارة حالا .. بأسرع ما يمكن .. وقد تركها .. أسقطته .. ضربته بالشلوت !

ان اسقاط الوزارات أيامها لم يكن أمرا صعبا بالنسبة لى .. فقد كان لى عميل من رجال السراى . ولنسميه « صديق » ..

وكنت متفقا معه على ان ينقل الى اخبار الملك أولا بأول ، لقاء أن أنقل اليه اخبار المندوب السامى اولا بأول .. وهو يأخذ الأخبار التى ازوده بها ويرفعها الى الملك .. وأن آخذ الأخبار التى يزودنى بها وأرفعها الى المندوب السامى ..

ومن السهل دائما تحريف هذه الأخبار ..

هكذا حرفت الأخبار التى تصل الى الملك ، وحرفت الأخبار التى تصل الى الانجليز .. وقعت ازمة .. وتشتد الأزمة .. فتسقط الوزارة !!

وهكذا سقطت الوزارة .. سقطت بعد أن سممت جميع الآبار امام رئيس الوزراء !

ولم يستطع مصطفى باشا سامى أن يعود الى الوزارة بعد ذلك .. الا بعد عشرين عاما !

ثم جاء دور ايزاك ..

انه رجل حريص .. انه يعرف انى متربص له .. ولكن ذكائى لا يرحم .. وقد وجد ايزاك نفسه شريكا لممول سخى .. ممول لم يكن معروف ، ظهر فجأة فى السوق كأحد الوارثين .. واعتقد ايزاك انه وجد فى هذا الممول فريسة سهلة .. لم يكن يعرف انه أحد عملائى .. ودفع هذا الممول لايزاك ضعف رأس ماله .. وايزاك فرح بشركته .. ولكن يوما بعد يوم ، بدأ هذا الممول يسيطر على الشركه .. وبدأ بوجهها توجيها تبدو فيه السذاجه ، ولكن كان مصمما على هذه السذاجة .. عنيدا فى تصميمه .. وايزاك يكاد يجن .. ويوما بعد يوم ، بدأت الشركة تميل الى الافلاس ، افلست لحسابى ، واستردت الأموال التى كنت قد دفعتها لهذا الممول ليشارك بها ايزاك ، واخذت معها أموال ايزاك ايضا ..

وخرج ايزاك مفلسا من مصر .. ذهب الى ايطاليا يبحث لنفسه عن زوجة جميلة أخرى ، يبدأ بها الطريق من أوله !

وكوليت .. لقد كانت عبئا ثقيلا يجب أن أتخلص منه . كانت البقعة السوداء التى تلوث كل حلة ارتديها ..

لقد قطعت عنها مرتبها بمجرد صدور الحكم .. وغيرت نمرة تليفوني السريه التي كانت تتصل بي من خلالها .. واقفلت في وجهها جميع ابوابي ..

ولكنها كانت كريمة .. كانت لا تزال ملكة .. فاسرعت بتنزل عن عرشي قبل ان اطردها عنه .. وسافرت هي الأخرى الى الخارج .. ولم يكن في وداعها سوى عبد العظيم .. انها المرة الوحيدة التى اراه فيها انسانا .. ولكنه لم يكن انسانا كاملا .. كل ما هنالك انه اراد ان يتخذها عشيقه لنفسه .. ولكنها رفضت .. انها لا تزال ملكة .. وهو لا يزال خادما .. والخدم اكثر اخلاصا للملكات من الاسياد .. ولكن الملكات لا يتخذن الخدم عشاقا لهن ..

وهكذا انتهيت من انتقامي .. تخلصت من ثلاثة أعداء .. ووقفت أواجه ملايين الأعداء الآخرين ، الذين تعودت أن أعيش بينهم !!

ولكن هل استرحت .. ؟

هل نسيت هذا الحكم الذى اصدره على القضاء ..

ابدا .. لقد ترك جرحا في قلبي لا يندمل .. جرحا ينزف الما كلما خلوت لنفسي .. كان هذا الحكم يمثل زلة ذكائي ، كان السبه الوحيدة التى يمكن ان تلاحقني طول حياتي ، وبعد مماتي . زلة لن ينساها التاريخ ابدا .. سيقول التاريخ عني اني كنت رجل أعمال ناجح ، محكوما علي في جريمة حقيرة .. وبعد اعوام .. بعد عشرة اعوام او عشرين عاما سيظهر كاتب لن استطيع ان اشترى قلمه .. فيكتب قصه هذا الحكم الذى صدر علي .. وتمر عشرون عاما اخرى ، ويظهر كاتب آخر ، يكتب

القصة مرة اخرى .. ومرة ثالثة .. انها قصة سيحكيها التاريخ ، كلما حكى قصة مصر ..

هل يهمنى التاريخ ..

نعم ..

هل هذا يثير الدهشة .. ان يهتم رجل مثلى بالتاريخ .. ولكن . ان كل رجل مغرور يصل بغروره دائما الى حد التفكير فى التاريخ .. وانا رجل مغرور .. مغرور بذكائى ، ومغرور بنجاحى . ومغرور بالملايين التى جمعتها ، ومغرور بآلاف العمال والموظفين الذين اتحكم فى ارزاقهم ، ومغرور بنفوذى الذى اسيطر به على مستقبل بلدى .. مغرور .. لا يحد من غرورى الا موظف صغير فقير .. مقبر .. اسمه محمد افندى السيد .. واحد من ملايين الناس الفقراء .. كان زميلا لى فى المدرسة .. ولم استطع يوما ان اسيطر عليه ، او احظى برضائه واعجابه ..

— ٥ —

حبيبتى هدى ..

هل عرفتنى الآن ؟

هل عرفتنى بعد أن وصفت لك طريق الوحل الذى سرت فيـــه ؟

انى غارق فى الوحل .. والوحل يطمس عينى ، ويملأ اذنى .. وفوق رأسى تاج من الوحل .. ورغم ذلك فالناس لا ترى هذا الوحل ، ان بريق الذهب الذى املكه يعمى عيونهم ، ويكفى ان انثر حفنة منه على الأرض حتى ينحنوا كلهم أمامى .. تحت اقدامى ..

لم تكن ترى هذا الوحل الا انت .. ولم اكن اراه الا فى نظرات عينيك .. عندما تقعين فى مكتبى ، وتمر بى لحظة ، فاتذكر حلالها والدك .. اتذكر زميل الدراسة الذى احاول ان احترم نفسى امامه ، وامال رضاءه واعجابه .. اتذكره فيتحرك شىء فى صدرى يكاد يكتم انفاسى ويمزق رئتى .. وأرى الوحل ! هذا هو انا ..

وكان يجب ان تعرفينى ، وان تعرفى روحى ، وعشقى . قبل ان استطرد فى قصتى معك .. قصة حبى .. قبل ان اقول لك ماذا حدث بعد ان رأيتكم فى بيتكم لأول مرة .. بعد ان رأيتك . ورأيت فيك صورة والدك .. وبعد ان قررت ان احاول معك

— ٥ —

حسنى هدى ..

هل عرفتنى الآن ؟

هل عرفتنى بعد أن وصفت لك طريق الوحل الذى سرت فيــه ؟

انى غارق فى الوحل .. والوحل يطمس عينى ، ويملأ أذنى .. وفوق رأسى تاج من الوحل .. ورغم ذلك فالناس لا ترى هذا الوحل ، ان بريق الذهب الذى أملكه يعمى عيونهم ، ويكفى أن أنثر حفنة منه على الأرض حتى ينحنوا كلهم أمامى .. تحت أقدامى ..

لم تكن ترى هذا الوحل الا أنت .. ولم أكن أراه الا فى مرآت متباعدة ، عندما يخف جشعى ، ويتكاسل ذكائى ، وتمر بى لحظة شخصية أتذكر خلالها والدك .. أتذكر زميل الدراسة الذى أحاول أن أحترم نفسى أمامه ، وأنال رضاءه واعجابه .. أتذكره فيتحرك شىء فى صدرى يكاد يكتم أنفاسى ويحرق رئتى .. وأرى الوحل ! هذا هو أنا ..

وكان يجب أن تعرفنى ، وأن تعرفى روحى ، وعشيمانى ، قبل أن أستطرد فى قصتى معك .. قصة حبى .. قبل أن أقول لك ماذا حدث بعد أن زرتكم فى بيتكم لأول مرة .. بعد أن رأيتك ، ورأيت معك صورة والدك .. وبعد أن قررت أن أحاول معك

ما فشلت فيه مع والدك .. أن اكسب رضاءك واعجابك .. أن اقنعك بأني رجل شريف . حتى لا اتعذب بك كما تعذبت بوالدك ، وحتى لا يعود « الشيء » يتحرك في صدري ويكتم انفاسي .. وكنت اعتمد في محاولتي على صغر سنك ، وجهلك بي ، وبالجريمة .. ولم اكن ادري انك نفسي ، واني ان لم استطع أن اقنع نفسي ، فلن اقنعك ، لقد بت ليلتها — بعد أن زرتكم لأول مرة — وأنا أفكر في الغد ..

هل سيجيء حالك الى مكتبي ، كما امتثت مع والدك ؟

هل ستتركون لي الفرصة لاستولى عليكم .. عليك ، وعلى أمك ؟

وادرت صورة روجتي الانجليزية الموضوعة بجانب فراشي .. انها المرة الأولى التي اديرها .. بل انها المرة الأولى التي احس أن لزوجتي صورة بجانب فراشي .. صورة تذكرني بطريق الجريمة الذي سرت فيه ؟

وقمت الى الحمام ، وما كدت أعود منه حتى وجدت ياسين خادمي الخاص قد اعاد صورة زوجتي الى وضعها .. ورأيتها مواجهتي بوجهها المكشر .. كتلة اللحم التي غاصت فيها ملامح الوجه .. رأيتها تواجهني كأني لن أفر منها أبدا .. ولا من جرائمي !

وأمسكت شاي في عصبية أرعبت ياسين .. ولعله ظن اني مقبل على صفقة جديدة ضخمة .. ولم يكن يدري اني مقبل على شراء اضخم صفقة في حياتي .. صفقة لشراء الشرف .. صفقة محاولة اقناع نفسي — أو اقناعك — بأني رجل شريف !

ونزلت الى الحديقة .. ولم اقطف وردة كما تعودت كل صباح .. وقرأت أخبار الوفيات بلا اهتمام كأني صفحت عن أعدائي الذين يموتون كل صباح ، ولم أعد أريد لهم الموت ..

وتناولت افطارا لم اذق له طعما .. ثم ذهبت الى مكتبى ، وانا افكر فيك ..

فيك انت ..

كنت احاول أن ارسم طريقى اليك .. وكنت احاول ان ارسمه بحذر شديد ، فانى اعلم أن الطريق الى الناس البسطاء ، اصعب بكثير من الطريق الى الناس الكبراء !

فكرت ان ارسل لكم هدية فخمة عربونا لصداقتى .. ولكنى عدت .. ان الهدايا الفخمه لا تدفع الا عربونا لصداقة زملائى من رجال الأعمال ورجال السياسه .. وقد تثير هديتى الشكوك فى نفوسكم .. الى حد ان تخافونى !

وفكرت أن أرسل لكم مندوبا عنى ليطمئن عليكم .. ولكن ، لا ايضا .. يجب ان اضبط اعصابى ، يجب الا ابدى من الاهتمام بكم الا بقدر ما اشعركم بحاجتكم الى .. يجب أن انتظر حتى تاتى الخطوة التاليه منكم ..

هل تحتاجون الى ؟ !

ودخلت الى مكتبى وأنا لا زلت وراء افكارى ، وجاء عبد العظيم ليعرض على أعماله .. الاعمال القذرة .. وفى عينيه المنفتحتين نظرات متسائله تحاول أن تقف أمام عينى ، متصعقة وترتد وتحميها تحت جفونه .. وعرض على موضــوعا .. ثم موضوعا آخر .. وانا اناقشه بلا حماس .. وبلا قسوه .. وبلا جشع .. كأنى أصبحت انسانا آخر .. انسانا فاترا ، حذرا ، هادئا .. كأنى لم اعد انا !

وطوى عبد العظيم أوراقه .. وسكت وقلت له فى فتور :

— ما عندكش حاجة تانيه ؟

قال وهو يخفى عينيه حتى لا اقرا فيهما سخطه .

— لا .. خلاص .. ده اللى عندى النهارده !

وكان كاذبا .. انى اعلم ان لديه امورا اخرى للعرض على ..

ولكنى استرحت لكذبه .. ثم صمتنا مرة سكوت ، لا يبددها الا الضجيج الذى يدور فى رأس كل منا ..

ولم يهم عبد العظيم بالانصراف .. انه يعلم انى فى حاجة اليه .. يعلم ان هناك موضوعا ساتولى انا عرضه عليه .. ولكنه لم يحاول ان يساعدنى فى طرق باب هذا الموضـوع .. وهو يعلم انه موضوع حساس بالنسبة الى .. يعلم — بعد ان عاش معى كل هذه السنين . ان نقطة ضعفى الوحيدة تكمن فى هذا الموضوع .. ورغم ذلك فلم يحاول ان يساعدنى .. لم يحاول أن يقول كلمة يفتح بها باب الحديث .. انما ظل صامتا ، وقد اشعل سيجارة وأخذ ينفخ دخانها الملوث بانفاسه فى هدوء ، وراحة .. كأنه يتلذذ بشعور خبيث .. شعوره بأنى فى حاجة اليه .. وشعوره بانى حائر ..

وقلت وانا احاول أن اكسو صوتى نبرة الجد كأننا لا زلنا نتحدث فى الاعمال القذرة :

— امبارح رحت زرت عيلة المرحوم محمد افندى السيد ..

قال ، وهو يضم شفتيه ليخفى ابتسامة ساخرة :

— ازيهم .. على الله يكون سايبهم مستريحين ..

قلت وأنا لا زلت احتفظ بنبرة الجد :

— لا والله .. باين عليهم تعبانين ..

وسكت برهة ثم مال كأنه لم يعد يطيق أن يكتم سخريته :

— ما هو الله يرحمه ، كان غاوى فقر !

ونظرت اليه نظرة غاضبة ، وقلت فى حدة :

— ما تنساش انه كان اعز صديق لى فى المدرسه .. والفقر مش عيب !

ورفع عبد العظيم عينيه كأنه لا يصدق انى انا الذى اقول أن الفقر ليس عيبا ، ثم تنهد كأنه يسلم امره لله وقال :

— انا باشوف اننا لازم نساعدهم .. والبركة فى سعادتك .. عمرك ما بتنسى اصدقاءك !

واسترحت .. لقد قرر عبد العظيم ان يكف عن تعذيبى ، ودخل فى الموضوع .. وقلت :

— بس حا نساعدهم ازاى ؟ !

قال فى بساطة :

— نديهم قرشين .. ولا نعمل لهم معاش !

قلت وانا اتهمه فى ذكائه :

— المسألة مش بالبساطة دى .. دول باين عليهم ناس شرفا ومحافظين .. يمكن يرفضوا ياخدوا فلوس ..

قال وهو ينظر الى كانه لم يعد يستطيع أن يفهمنى :

— امال سعادتك تعمل لهم ايه ؟

قلت وانا اتنهد :

— والله مش عارف يا عبد العظيم !

وبانت على وجهه آثار التفكير العميق كانه احس بمسئوليته عن حيرتى وتنهدى .. ثم قال :

— نقول لهم ان المرحوم كان له اسهم فى الشركه .. وكان محسبها عنهم .. ونبتدى نديهم ارباح الأسهم دى .. وثوابنا عند الله !

قلت بسرعة :

— انا قلت لهم انى مدين للمرحوم بعشرة جنيهات استلفتهم منه بعد ما اتخرجت من المدرسة .. وان العشرة جنيه دول هم اللى عملت بهم ثروتى .. اعمل ايه يا عبد العظيم .. كانت حالتهم محزنة .. واضطريت انى اكدب الكدبة دى :

قال وهو يبتسم كانه يهنئنى على ذكائى :

— والست صدقت ؟

قلت :

ـ أيوه ..

قال كأنه ينهي الموضوع :

ــ خلاص .. نقول لهم ان العشرة بقت الف !

قلت متجاهلا كلامه .

ــ ان اتفقت مع الست ، انه تعطلى اجوها ، علشان نتفق معاه على اللى ممكن يتعمل .. اتفق قابله انت ، واتفق معاه .. المهم انها ما تسيبهمش لوحدهم .. انا مهتم بيهم جدا ..

وفهم عبد العظيم ما اعنيه .. فهم انى أريد الاستيلاء عليكم .. ولكنه لم يفهم لماذا أريد الاستيلاء عليكم .. انه لم يستطع ابدا ان يفهم سر اهتمامى بوالدك وهو الآن لا يستطيع أن يفهم سر اهتمامى بك .. وقال على قدر فهمه :

ــ هيه حرم المرحوم ، اد ايه .. قصدى ، يطلع عندها كام سنه ؟

ونظرت اليه كأنى غاضب .. ولم أكن فى الحقيقة غاضبا ، فقد كنت انتظر منه هذا السؤال .. ان عقله يضيق عن أن يفهم سببا لاهتمامى بامرأة ، الا اذا كنت أريد اتخاذها عشيقة ..

وقلت كأنى الومه :

ــ دى ست طيبة .. مش من النوع اللى بالك فيه !

قال وهو يبتسم ابتسامة بلهاء فوق شفتيه الغليظتين :

ــ مش قصدى .. بس كنت باسأل ؟

وقام عبد العظيم من على مقعده مستأذنا فى الانصراف ، وقبل أن يصل الى الباب استوقفته قائلا :

يا ترى ما فيش شقه فاضيه فى العمارة اللى فى شارع النيل ؟

ورفع عبد العظيم حاجبيه دهشة .. وبدا غبيا كما لم يبد أبدا .. ثم قال :

ــ ما اظنش ..

قلت وأنا أضغط على كلماتى لتبدو كأنها أمراً لا مناقشة :

ـــ يمكن بعضى شقة فيها قريبة !!

قال وهو لا يزال فى حالة الغباء :

ـــ يمكن !!

وظل ينظر الى بعينيه المندهشتين برهة . ثم تحركت شفتاه كأنه يهم بأن يقول كلاما .. ثم خرج وقد انقلبت دهشته الى سخط .. كان ساخطا على لأنى أبدو أمامه لغزا .. وساخطا على نفسه . لأنه لا يستطيع أن يفهمنى .. وساخطا عليكم لأنكم دائما تقفون بينى وبينه .. كان يكره والدك لأنه لا يرى له جدوى فى حياتى ، ثم لما مات والدك وظن أنه تخلص منه .. ظهرت أنت فى مكان والدك .. وبدأ يكرهك قبل أن يراك ..

كان عبد العظيم ساعتها يبدو كأنه شيطان يحارب جيشا من الملائكة يريدون الاستيلاء على . وكان ساخطا على هذه الحرب .. كأنه ساخط على الله .. لماذا خلق الله الملائكة . ما دام قد خلق الشيطان .. وما هى حكمته سبحانه وتعالى فى أن يخلق مرة يتحاربان .. لماذا يترك الدنيا للشيطان أو يتركها للملائكة . حتى يسودها السلام .. سلام تحت سيطرة الشيطان . أو تحت سيطرة الملائكة .

كان هذا هو حال عبد العظيم ..

وكان هذا هو حالى أيضا ..

كنت أنا أيضا أتساءل لماذا أريد أن أكون شريفة . ما دمت قد نجحت فى أن أكون غير شريفة .. وماذا أريد منك .. من فتاة بسيطة فى السابعة عشرة من عمرها .. نحيلة الوجه . وعيناها هادئتان عميقتان .. وشعرها ناعم فى لون البندق .. ماذا أريد منك . وأنا أستطيع أن أشترى كل نساء الأرض .. ما حاجتى اليك ، والدنيا كلها ملك يدى ..

ولم يكن هناك جواب : الا فى هذا الشىء الغامض الذى

يتحرك فى صدرى ، ويقلقنى ، ويكاد يكتم انفاسى .. ويدمعنى — فى لحظات ضعفى — الى ان احاول ان أكون انسانا شريفا ..

ورغم ذلك ، فقد كنت واثقا من انى سأحقق ما اريد .. كنت واثقا من انى سأستولى عليكم .. وان عبد العظيم سيوصلكم الى .. انى مؤمن بقوتى .. قوة الذهب وقوة الذكاء .. انى استطيع ان اشترى بهما كل شىء ، حتى الشرف .

ولم يعد امامنا الا ان ننتظر وصول خالك الى مكتبى ..

متى يصل ؟

ومضت الساعات ، وانا جالس فى مقعدى لا اتحرك .. كأنى اخشى ان تحركت ان اؤخر وصول خالك .. كنت اراه فى خيالى ينزل من القطار قادما من دمنهور .. ثم يصل الى بيتكم فى شبرا .. ثم ارى والدتك تستقبله فى لهفة ، وتشده من يده الى حجرة جانبية ، وتهمس فى اذنه بالخبر المثير .. خبر زيارتى لكم .. وعرضى مساعدتكم وفاء للدين الموهوم .. وكنت ارى فرحتها تطغى على حزنها لوفاة المرحوم .. وارى خالك وقد بهت للخبر المثير .. ويفغر فمه ويرفع حاجبيه .. وكنت اتصوره فى خيالى سمينا كتجار الارياف ، واحيانا اتصوره رفيعا معروقا .. وكنت اراك فى الصورة التى ارسمها فى خيالى .. اراك حزينة ، صامتة .. ثم ارى خالك يهرول خارجا فى طريقه الى مكتبى ، واراه واقفا على محطة الترام .. و .. و .. و ..

ويدق جرس التليفون بجانبى ، فارفع السماعة وانهى المكالمة بسرعة .. انى لا اريد ان تقطع احد خيالى .. اريد ان ارى خالك وهو فى طريقه الى ..

ويدخل احد الموظفين حاملا اوراقا لاوقعها .. فأؤجل توقيعها .. ان امضائى هى اعز ما املك ، ولا استطيع ان امضيه على ورقة ، وانا فى مثل هذه الحالة العصبية ..

تمر الساعات ..

ولا يحضر حالك ..

انى واثق أن عبد العظيم سيبنئنى بوصوله ..

ولكن عبد العظيم لم ينبئنى بشىء .

وارفع سماعة التليفون ، واتصل بعبد العظيم لأقول له أى شىء .. كلاما لست فى حاجة الى قوله .. ولكنى أقوله لمجرد أن أتصل بعبد العظيم . لعله نسى أن ينبئنى عن وصول حالك ..

ولا ينبئنى عبد العظيم بشىء .. وأكاد أرى من خلال سلك التليفون ابتسامه .. ابتسامة الشماتة فى ، والسخرية منى ..

وأؤجل موعد مغادرتى للمكتب ..

لقد تعودت أن أغادره فى الساعة الواحدة والنصف تماما . ولكنى بقيت فيه حتى الساعة الثالثة والنصف .. والموظفون فى دهشة .. ولو علموا أنى جالس فى انتظار ماجد ثروت لسخروا منى .. لفقدت احترامى بينهم .. انى لم أتعود أن أنتظر أحدا .. كل الناس ينتظرونى ، بما فيهم الوزراء والكبراء .. ولكنى لا أنتظر أحدا ..

ولم يحضر حالك ..

وقضيت يوما شقيا .. أحسست بنفس العذاب الذى أحسست به عندما رفض والدك أن يشترك فى حفلة تكريمى .

خيل الى أن حالك لن يحضر أبدا .

خيل الى أنكم قررتم أنى لست شريفا ، واستغنيتم عنى حتى لا تتلوثوا بى ..

خيل الى أنكم احتقرتمونى .. احتقرتم ثروتى ونفوذى ..

وبدأت أبحث عن خطة أخرى للاستيلاء عليكم .. خطة أكثر خبثا وعنفا .. ولكنى جمعت أعصابى ، ووطنت نفسى على الانتظار .

سأنتظر يوما آخر .. يومين ..

ولكنى لم أنتظر طويلا ..

لقد حضر خالك فى اليوم التالى ..

نعم .. حضر !!

وعلمت بوصوله بمجرد أن دخل من الباب .. ولكنى لم استقبله .. كان عليه أن يمر فى طريق طويل قبل أن يتشرف بمقابلتى .. ان لى أسلوبا خاصا فى معاملة صحاياى .. اسلوبا اشبه بحرب الأعصاب .. وكان يجب أن تلين أعصابه ، ويمتلىء بالرهبة قبل أن يقف امامى .. تركوه ينتظر فى حجرة الاستقبال ساعة ، ثم نقلوه الى غرفة السكرتير لينتظر نصف ساعة أخرى .. ثم نقلوه الى غرفة مدير مكتب عبد العظيم بك ، وانتظر فيها ساعة أيضا .. كل ذلك وهو يعيش فى جو هادىء مثير .. اشبه بجو وزارة الخارجية الانجليزية .. ويرى رجالا يتكلمون همسا ، ويسيرون على أطراف أصابعهم ، ويرددون أسماء كبيرة .. والتليفونات ترن من حوله .. تليفونات كثيرة تخيفه وترعبه .. وهو يتضاءل .. ويتضاءل .. حتى أصبح صفرا ..

وعندما تقرر أن خالك أصبح صفرا ، سمح له بمقابلة عبد العظيم .. بك !

وفى خلال ذلك كنت أنا قد استعدت هدوئى .. ان الصفقة بدأت تسير سيرها الطبيعى .. ولم أعد أحمل لها هما ، واقبلت على عملى كعادتى ، دون أن أبحث مقابلة خالك ، أو ترعبنى ساؤه ..

وقد عرف عبد العظيم بخبرته أى نوع من الرجال ينتمى اليه خالك .. فخاطبه باهمال وترفع ، وقال له ان « ان شا » — أى أن — تعطف وشمل عائلة المرحوم محمد افندى أحمد برعايته ، وانى قررت أن أتولى أمر كريمة المرحوم وأرملته ، ذكرى للصداقة التى كانت تربطنى به ..

وتلقى حالك هذا الكلام وهو يدعو لى بطول العمر ، ويشيد بكرمى واريحيتى !

واخرج عبد العظيم خمسين جنيها اعطاها لحالك . وهو يقول له انى امرت بصرف هذا المبلغ لعائلة المرحوم ، حتى تسد به احتياجاتها العاجلة ، الى أن ننظم لها حياتها الجديدة ..

واخذ حالك المبلغ بلا تردد .. تردد قليلا .. اقل من اللازم .. ثم اخذه بيدين ممدوحتين كأنه يتلقى هبة السماء ..

المغفل .. لو انه طلب منى يومها خمسمائة . لاعطيته !

وبعد ذلك طلب منه عبد العظيم ان ينتظر ليقابلنى . حتى يتلقى تعزيتى فى وفاة المرحوم .. ورجاه ان ينتظر قليلا فى غرفة السكرتير .. ثم تركوه ينتظر نصف ساعة !!

واخيرا صحبه عبد العظيم الى مكتبى .

ورأيته لأول مرة .. واستقبلته واقفا .. وبقيت واقفا حتى لا أدعوه للجلوس .. ومددت له يدى . فانحنى يقبلها .. وتركته يقبلها . وانا انظر اليه من عل !!

لقد دخل الى مرتعدا .. تبهره الهيبة التى تحيط بى ، مرتعشى ركبتاه ، وترتعش عيناه ، وترتعش شفتاه .. ورأيته كما كنت اتخيله . رسما معروفا .. يرتدى حلة من قماش لا يصلح الا ليكون جلبابا .. أو قفطانا .. وفوق رأسه طربوش مائل الى الوراء ، اكلحت حافته كأنها امتصت كل ما فى دمنهور من غبار .. وبرزت من تحتها جبهة عريضة تشقها خطوط عميقة من الشقاء . ووجه فيه ذكاء ، ولكنه ذكاء لم يستطع ان ينقذ صاحبه . ولا أن يرتفع به .. ذكاء تاجر صغير .. قد يخدع زبائنه وقد يغشهم . ولكنه لا يستطيع أن يكون اكثر من تاجر صغير ..

انى اعرف هذا النوع من الناس .. انه نوع يكل اغلب امره الى الحظ .. اذا خسر قال انه الحظ ، واذا ربح قال انها الشطارة

.. ويسمى الحظ « الله » .. ويؤمن بالناس على قدر ما يعطونه لا على قدر ما يريده منهم .. وايمانه ضعيف . ولذلك فهو يسمه رخيصا ..

ولم اتهم حالك في شرفه ..

لم اعتقد انه يقبل ان يبيعني شرفه .

ولم يخطر على باله انى احاول شراء شرفه . لم يكن يتصور ان باشا محلا مثلي يطمع في شرف رجل بسيط مثله .. انما اخذ النقود من يد عبد العظيم مقتنعا تماما انها مجرد كرم منى . وردا لجميل الصديق الذى مات .. وربما ظن ان هذا الكرم احدى خصال كل الباشوات امثالى !

وقال عبد العظيم . وهو يقف في احترام كبير ، ويضم اطراف سترته ، حتى يزيد الموقف هيبة ووقارا :

ــ اسماعيل افندى عبد الجواد نسيب المرحوم محمد افندى السيد ، جاى يشكر لسعادتك !

وقبل أن اتكلم انطلق اسماعيل افندى يقول في صوت متهدج :

ــ اتشكر .. اتشكر ازاى .. هوه فيه كلام يساع شكر سعادة الباشا .. ربنا يديك طولة العمر يا سعادة الباشا .. ربنا يزيدك من نعايمه .. ربنا يديمك للكرم . والشهامة .. و .. و ..

وقاطعته وانا ابدو حزينا :

ــ البقية في حياتك يا اسماعيل افندى .

قال في صوته المتهدج :

ــ يديم حياتك يا سعادة الباشا .. البركة في سعادتك .. الدنيا بخير طول ما سعادتك عايش فيها .. و ..

وعدت اقاطعه في لهجة متعالية :

ــ انا باعتبر عيله صديقي المرحوم محمد افندى . زى عيلتي تمام .. سنه ستى .. وانا مسئول عنها .. وولى امرها .. واى

حاجه ممكن اعملها ارجوك يا اسماعيل افندى تقول لى عليها ..
وهدأ تهدجه ، وقال :
ــ احنا مش عايزين الا رضا سعادتك !
قلت :
ــ انا سمعت انك تاجر فى دمنهور ..
قال :
ــ ايوه يا سعادة الباشا .. تاجر صغير على أد الحال !
قلت وانا ابسم له ابتسامة صغيرة كأنها تصل منى :
ــ طال .. تبقى تقدر تخدمنا فى اسكندرية ..
وفغر اسماعيل افندى فاه كأنه لا يصدق اذنيه .. هل يستطيع ان يخدمني .. وكيف ؟
والتفت الى عبد العظيم قائلا :
ــ ابقى شوف يا عبد العظيم لك شغلة لاسماعيل افندى فى شركة اسكندرية .. انا احب اتعاون مع الناس الطيبين دول .
ثم أدرت عينى اليه ، وهو لا يزال فاغرا فاه ، وقلت :
ــ احنا بقينا عيلة واحدة يا اسماعيل افندى ..
ومددت له يدى ، فانحنى يقبلها مرة ثانية ، وهو يدعو لى ، وقد عاد صوته اكثر تهدجا .. ثم انسحب وهو يخطو الى الخلف حتى القاعة ، كأنه ينسحب من حضرة الملك ..
وما كاد يخرج ، حتى ناديت عبد العظيم وهمست فى اذنه :
ــ ما تنساش تشوف شقة فاضية فى عمارة شارع النيل !!
وفهم عبد العظيم ما اقصده ..

– ٦ –

دعنى احدثك عن عمارة شارع النيل .. عن المسرح الذى ارتكبت موقه جريمتى ..

لقد كنت ايامها املك خمس عمارات كبيره .. ثلاث فى الاسكندريه والرابعة فى وسط القاهرة .. فى شارع سليمان باشا .. والخامسه هى عمارة شارع النيل .. فى الجيزه .. ولم اكن املك هذه العمارات باسمى .. لم اكن اضع اسمى ابدا على أملاكى .. ان الرجل الغبى الذى يضع اسمه على املاكه هو غبى ساذج . ضيق الأفق ، لا يستطيع ان يساير التطور . ولا الأساليب الجديده فى الامتلاك .. وانا لم أكن ساذجا ولا ضيق الأفق .. ولذلك لم أدع الناس يرون اسمى على شيء أملكه .. كان كل شيء يحمل اسماء شركات .. كانت احدى العمارات ملكا لشركة التأمين العالمية .. والثانية لشركة المقاولات العموميه .. والثالثة ملك لشركة التجارة والصناعه . وانا الذى أملك كل هذه الشركات .. انا وحدى .. واملك كل شيء فيها . حتى أموال المساهمين !!

ولم يكلفنى بناء هذه العمارات شيئا .. لم أدفع مليما واحدا منها .. بل امتلكتها مجانا ؛ وربحت من وراء امتلاكها آلاف الجنيهات ..

كيف ؟

انها عملية بسيطة لا تحتاج الا الى قليل من الذكاء ..

كانت شركة التامين التي املكها تقرر بناء عمارة في الاسكندرية ، باموال المؤمنين .. وهو قرار قانوني لا شائبة فيه !

ثم تتقدم شركة المقاولات التي املكها ايضا ، وتأخذ اموال المؤمنين ، لتقوم بعملية البناء .. وتكسب شركة المقاولات من هذه العملية عدة آلاف !!

ثم تتقدم شركة التجارة والصناعة ، التي املكها هي الاخرى ، وتتفق مع شركة المقاولات ، على ان تورد لها ما تحتاج اليه من حديد واخشاب وباقي مواد البناء .. وتكسب من وراء هذا الاتفاق عدة آلاف اخرى !

ثم تتقدم باقي الشركات التي املكها ، وتطلب في الحاح ان تستأجر كل منها طابقا او طابقين في العمارة الجديدة ، وبالشروط والايجارات التي افرضها .. وهي دائما ايجارات تزيد عن ضعف ايجارات العمارات الاخرى .. وتعود حصيلة هذه الايجارات الى شركة التأمين التي املكها !

هل فهمت هذه العملية البسيطة ؟ !

هل عرفت كيف كان يمكن ان تكوني صاحبة عمارة ، دون أن تدفعي مليما واحدا ؟ !

قد تقولين ان العمارة لا تزال ملكا للمؤمنين .. اي لاصحاب بوالص التأمين .. لا يا احب سائحة .. ان الرجل الذي يدفع قسط تأمين قد لا يتجاوز عشرين جنيها في العام ؛ لا يستطيع ان يقف امام عمارة من عشرة ادوار ويقول : هذه عمارتي .. ولا يستطيع ان يدعي حقا له على هذه العمارة .. لا يستطيع حتى ان يطالب بمراجعة حساباتها .. ولكن انا .. انا الذي يجمع هذه العشرين جنيها من مئات الرجال .. كل منهم يدفع لي عشرين جنيها في العام .. انا وحدي الذي استطيع ان اقول ان هذه العمارة عمارتي .. وانا وحدي الذي اتصرف فيها ،

واصنع بها ما اريد .. وليس لأحد حق مراجعتى الا « جمعية عمومية » صورية تجتمع كل عام ، وتهز راسها بالموافقة على ما أعرضه عليها ثم ينفض اجتماعها .. والا ادارة حكومية هزيلة تسمى « ادارة الشركات » لا يجرؤ اكبر موظف منها على الوقوف امامى الا وركبتاه ترتعشان من فرط الخوف ، فهو يعلم ان مصيره فى يدى ، ومصير وزيره فى يدى أيضا .. وكل حقوق المؤمنين امامى هى أن يستردوا قيمة التأمين بعد أن يمضى مدته .. أى بعد عشرة اعوام او بعد عشرين عاما حسب عقد التأمين .. وكأنهم بذلك قد أعطونى اموالهم لأبنى بها عمارة لنفسى .. أعطونى قطرات عرقهم بلا ربح ، ولا فائدة .. وهم لا يدرون ان العشرين جنيها التى يدفعها كل منهم فى العام ، تصبح مائة فى يدى بعد أن استغلها فى شركاتى ومشاريعى .. لا يدرون أنهم هم الذين صنعوا ملايينى ومجدى .. هم ، هؤلاء البسطاء الطيبون .. وقد يموت احدهم قبل انتهاء مدة التأمين ، فأضطر أن ادفع لورثته قيمة التأمين كاملة .. حتى لو كان المتوفى لم يدفع لى سوى قسط واحد من أقساط التأمين .. لم يدفع لى سوى عشرين جنيها .. واضطر أن أردها للورثة مائتى جنيه .. ولكن لا تزعجنى .. ان نسبة الوفيات والحرائق بين اصحاب بوالص التأمين نسبة تافهة لا يعتد بها .. ولا تحسب الشركات حسابها .. وحتى فى هذه الحالة .. حالة الوفاة او حالة حريق العقار أو البضاعة المؤمن عليها .. أستطيع أن أتخلص من الدفع .. ان القانون له أسرار تفتح لى أبوابا كثيرة أستطيع أن أهرب منها .. وأكثر من القانون ، هناك نفوذى !!

هل اقتنعت الآن بأنى المالك الوحيد لكل هذه العمارات ؟!

انها ليست عملية نصب .. ولكنه نظام لاستغلال الأموال يبدو كأنه نصب .. ومن خلال هذا النظام استطعت ان أكون مليونيرا .. واستطعت أن أؤسس عشرات من الشركات لم ادفع

فى تأسيسها مليما واحدا من جيبى او من راس مالى .. انما كنت اؤسس كل شركه من ارباح الشركة الاخرى ، واملك من اسهم التأسيس اكثر من النصف . حتى يكون لى — قانونا — حق السيطرة عليها . ثم ادعو الناس ليشتروا بقية الأسهم .. ثم اعطيهم ارباحا صورية ، وآخذ باقى اموالهم لأؤسس شركة جديدة امتلك ايضا اكثر من نصف اسهمها .. وهكذا !

ولم تكن شركاتى تستأجر كل عماراتى .. كان بعضها يستأجره الأهالى القادرون على دفع ايجاره .. خصوصا عمارة شارع النيل .. فلم تكن تصلح لتكون مقرا لمكاتب شركة .. كانت عمارة سكنية .. هادئة .. انيقة .. تطل على النيل .. ولم يكن كل سكانها يدفعون ايجارا .. كنت امنح بعض شققها كرشوه لكبار الموظفين .. لوكيل وزارة .. او لمدير مكتب وزير .. او .. او ..

ولم اكن اعرض هذه الرشوة عرضا رخيصا .. انما كنت اضن بها ، حتى يلجأ الموظف الكبير الى .. اقصد الى مدير الشركة التى تملك العمارة .. ويلح فى طلب الشقة .. ويصل فى الحاجه الى حد الاستجداء .. ثم بعد ذلك اصدر امرا الى المدير بان يعطيه الشقة .. ويكتب معه عقدا مستوفيا لكل الشروط القانونية .. وبعد ان ينتقل الموظف الكبير الى الشقة الجديدة ، لا يطالبه احد بالايجار .. وتمر الشهور ، والموظف الكبير مطمئن الى انه لن يدفع ايجارا ، او هو مطمئن الى انه يدفع الايجار فى صورة خدمات معينه يؤديها لشركاتى .. حتى يعزل الموظف من منصبه .. او يحال الى المعاش .. او يفقد نفوذه .. اى الى ان يصبح عديم الفائدة بالنسبة لى ولشركاتى .. وبكل سلطة ، يبدأ مدير الشركة التى تملك العمارة فى مطالبته بالايجار .. الايجار المتأخر كله .. ويلوح امامه بالعقد المكتوب المستوفى لجميع الشروط القانونية .. وعندما ينهار المسكين امام المفاجأة ، يعرض عليه

المدير ان يتنازل له عن المتأخر وعن العقد ، على شرط ان يخلى الشقة .. فيخليها !!

وكان يجب ان تخلى شقة فى هذه العمارة لتكون مسرحا لجريمتى .. فكل ادوات الجريمة معدة فيها .. وآخر طابق فيها أعد ليكون عشا خاصا لى .. اقضى فيه الليالى مع عشيقاتى ، واقيم فيه الحفلات الخاصة التى ادعو اليها الوزراء والكبراء لاشترى نفوذهم .. ولهذا الطابق مصعد خاص بى ، لا يستعمله بقية السكان ، ولا يقف عند بقية الطوابق .. بل يحملنى توا — دون أن يرانى أحد — الى عشى .. الذى كنت اسميه عش النسر ، تشبها بهتلر الذى كان يتخذ لنفسه عشا فوق أعلى قمة من الجبل ..

ولم يكن اخلاء شقة فى هذه العمارة مشكلة بالنسبة لى او لعبد العظيم .. بل كانت المشكلة كيف ننقلكما الى هذه الشقة .. انت وامك !

كنت اريد ان انقلكما الى عمارتى ، لتكونا بين يدى ..

ولم تكن الجريمة حتى هذا اليوم قد خطرت ببالى .. بل لم اكن اعتقد انى ساكون مجرما بشعا الى هذا الحد .. كنت حتى هذا اليوم احاول ان اقنع نفسى بانى رجل خير ، استطيع ان انصدق عليكما بسخاء ، وأن انقلكما الى حياة مترفة فخمة .. دون ان انتظر منكما ردا للجميل .. وانا لا اتبرع للجمعيات الخيرية لانى رجل خير ، بل ابرع لها لانها جمعيات لها نفوذ وتضم شخصيات أحتاج اليها .. اما لو تبرعت لكما — انت وامك — فليس لكما نفوذ تخدمانى به ، ولن آخذ منكما عوضا سوى رضائى عن نفسى ، وسوى اقتناعى بانى رجل شريف .. نعم .. كنت حتى هذا اليوم انسانا

محاول أن يكون شريفا ، وأن يقنع نفسه بأنه شريف .. وكان سكيرى فيك وفى امك لا يتعدى محاولتى أن ابدو امامكما رجلا شريفا ، وأن أنال رضاكما واعجابكما ، حتى أسكت الشىء الذى يتحرك فى صدرى ويقلقنى ويكاد يكتم انفاسى ..

ولم أكن أستطيع ان استمر فى هذه المحاولة ، وأنتما تقيمان بعيدا عنى فى حى شبرا .. لم أكن أستطيع ان ازوركما فى بيتكما .. ان هناك — فى حى شبرا — مجتمعا يستطيع ان يحميكما منى ، ومن زياراتى .. سيتحدث عنكما وعنى الجيران ، وجيران الجيران ، ويشهرون بكما وبى ، وقد يحذرونكما منى .. فكان يجب أن ابعدكما عن هذا المجتمع .. وان اضعكما فى عالم ليس فيه مجتمع .. وليس فيه جيران .. عالم لا يحس فيه الانسان بمشاكل اخيه الانسان .. ولا يحمل لاخيه هما .. ولا يحاقه عليه ، ولا يتطوع لمساعدته .. وكان هذا العالم هو عالم عمارة شارع النيل .. ان الجيران فى هذه العمارة لا يتزاورون .. ولا يحس احدهم بالآخر .. انه عالم تسوده الفردية .. وفلسفة الفرد .. ولن يزعجهم ان تشاركوهم هذا العالم ، ولن يسألكم أحد لماذا جئتم ، ولن يتدخلوا بينى وبينكم اذا لاحظوا ترددى عليكم ..

كيف انقلكم الى هذا العالم ؟ ..

يجب أن اتصرف بحرص ..

وكان خالك قد بدأ يتردد على مكتبى كثيرا .. لم يعد يفكر فى العودة الى دمنهور .. لقد وجد فى مكتبى ربحا يوازى اضعاف أرباحه من تجارته الصغيرة .. وكان مجرد تردده على مكتبى يفتح امامه أبوابا واسعة من الامل ، ويقف امامها مذهولا لا يدرى أى باب يطرقه .. وعبد العظيم يجسم له هذه الآمال .. ويفتح له كل يوم بابا جديدا .. ولكنه ظل يعامله بترفع حتى لا يبدد من نفسه الرهبة والخوف ، وحتى يجعله دائما ذليلا مطيعا ..

ولم يستطع خالك أن يقابلنى مرة ثانية .. كان يحب أن احتفظ بحجاب كثيف بينى وبينه حتى لا يطمع فى .. حتى لا يرفع رأسه أمامى .. حتى تظل الرعدة تملأ صدره كلما تصورنى ، أو استعاد اسمى ..

وكنت أريد أن أراك ..

ولم اكن ادرى كيف اراك ، وأى حجة اتحجج بها لأذهب الى بيتكم مرة ثانية ، دون أن افقد احترامى امامكم ، ودون أن اثير الريبة فى رأس أمك ..

وجاء يوم لم اعد احتمل فيه مزيدا من الانتظار .. لا لأنى أحببتك .. لا .. لم اكن احببتك حتى ذلك الحين .. ولكن كان هناك دافع فى صدرى يدفعنى لأطمئن على صورتى فى عينيك .. خيل الى انى لو ابتعدت عنك اكثر من ذلك مسافتك .. سيتدخل بيننا عدو من أعدائى ، ويسرد عليك قصة آثامى ويحذرك منى .. كنت أريد أن ازداد اطمئنانا الى انى قادر على الاستيلاء عليك ، واقناعك بنفسى ، قبل ان تملى منى كما افلت أبوك ..

وركبت احدى سيارات الشركة ، وأمرت السائق أن يتوجه الى حى شبرا .. وكان قلبى يخفق طول الطريق .. كأنى عدت شابا يواجه حبه الأول .. وخيل الى أن الناس فى الطريق يشيرون الى .. ويحركون السنتهم ، ويحكون بأصابعهم فوق أنوفهم اعاطة فى .. وكأنهم جميعا يعلمون انى ذاهب اليك .. كأنهم يعلمون أن حسين باشا شاكر الرجل القوى .. الجبار .. المهاب .. يضعف الى حد أن يرتجف وهو ذاهب لزيارة عائلة موظف صغير توفاه الله ..

ودخلت السيارة الى شارعكم .. واشتدت رجفة قلبى .. أنا .. أنا أرتجف ! .. واحسست أن فى عقلى طاحونة تدور بسرعة دون أن تطحن شيئا .. عشرات الأسئلة تقفز امام عينى كأنها شرارة النار ، دون أن اجد لها جوابا .. بماذا سأبرر زيارتى

لكم ؟ وماذا اقول لأمك ؟ وماذا اقول لك ؟ وماذا يظنان بي ؟ وماذا يظن الجيران ؟ .. اسئلة .. عشرات الأسئلة .. وبدأت اقتنع أن زيارتي لكما ستفسد كل خططي .. ستفقدني احترامكما لي .. ستثير الريبة في نفسيكما .. كنت في هذه اللحظة اعاني معركة نفسية هائلة .. معركة بين محاولتي ان ابدو امامكما انسانا محترما ، كريما ، أمينا .. وبين حقيقتي .. حقيقة نفسي .. نفس المجرم الذي يسعى اليكم وفي رأسه خطة مرسومة للاستيلاء عليكم حتى اعطي نقصا شعرت به في حياة والدك .. كانت معركة بين مظهري وجوهري .. بين الفخامة والأبهة التي ابدو بهما امام الناس ، والطين العفن يملأ صدري ..

والسيارة تقترب من البيت .. وأنا لا زلت حائراً ، اخوض معركتي النفسية .. وعندما وصلت امام باب البيت ، ملت على السائق وأنا مبهور الأنفاس ، وبدل ان اقول له .. « قف هنا » همست في صوت محشرج : « عد بنا » ..

وعدت .. عدت لاهثا ، كأني كنت اجري ، كأني عدت من مغامرة عنيفة لم اقدم على مثلها من قبل ..

وانت لم تدري شيئا .. لم تدري أن باشا عظيما مثلي .. أن أغنى رجل في مصر .. قد طاف بسيارته أمام بيتك .. ثم لم يجرؤ على الدخول .. وعاد لاهثا !

وقلبت عدد المقطم في اليوم التالي ، وأنا احاول ان اقرأ في عينيه اكثر مما ينطق به لسانه :

— يا ترى عيلة محمد افندي السيد عاملة ايه ؟

قال دون أن ينظر الي كأنه ينتظر السؤال ، واعد الجواب :

— كويسين الحمد لله .. اسماعيل افندي جوز البنت جه الحسين جنيه ، وأداهم للبنت الكبيرة تلاتين بس !

قلت كأني فرحت :

— والست اخدتهم ؟ !

قال :

ــ ايوه .. وما عملتش بيهم حاجه .. لسه شايلاهم !

قلت :

ــ المهم انها اخدتهم .. انما عرفت ازاى اسماعيل دى !

قال كأنه يتباهى بذكائه :

ــ مجرد استنتاج .. اسماعيل افندى جه الشركه اول مبارح لابس بدله جديده .. حايجيبها منين الا اذا كان لطش قرشين من الفلوس اللى خدهم .. والصنف ده يجب دايما يكون عادل فى اللطش .. مش ممكن يلطش الفلوس كلها .. انما يلطش اقل من نصفها علشان يقنع نفسه ان عليه على اخده .. واحنه مش ممكن تكون صرفت الفلوس لأنها ما خرجتش من البيت .. وعرفت انها ما خرجتش من اسماعيل افندى نفسه ..

قلت متلهفا :

ـ والبنت .. هدى .. عملت ايه ؟ !

قال كأنه يتلو تقريرا من تقارير البوليس السياسى :

ــ ما نعرفش حاجه .. ولما سألت حالها قال لى انهم مش متعودين يقولوا لها .. حاجه ..

واستأت .. كنت امتنى ان تعرف ان حالك قد قبل ان تأخذ منى نقودا ، حتى اعرف على الاقل موقفك منى .. حتى اعرفة انك لست كوالدك ترفضين كل شىء أمد به يدى اليك ..

وعدت اقول لعبد العظيم فى صوت حزين ، وانا اضغط على كلماتى حتى يفهم ما اعنيه :

ــ والله انا حقى اطمن عليهم بنفسى !

ورفع الى عينيه المتفحتين ، ونظر الى نظرة ملؤها مكر ، وقال وانا احس فى كلماته رنين سخرية خبيثة :

ــ الواقع انهم كانوا لازم يجوا يشكروا لسعادتك .. ده اللى عملته لهم ما حدش عمله ..

قلت ومين شفتي ابتسامة متواضعه اشكره بها على ذكائه .

— ما هو مش ممكن ييجوا هنا المكتب يا عبد العظيم .. دول ناس محافظين مش متعودين يدخلوا مكاتب شركات !

قال بسرعة كأنه يطمئنني :

— مش ضروري ييجوا هنا .. كانوا يقدروا يطلبوا زيارة سعادتك في البيت !

وابتسمت ابتسامة لم استطع اخفاءها .. وقلت كأني اوجه الحديث ناحية اخرى :

— واسماعيل امدي .. يا ترى شفت له وظيفة في شركة اسكندرية ؟

قال وهو يقلب شفتيه احتقارا لشأن اسماعيل امدي :

— الوظيفة موجودة !

قلت كأني اساعده في ذكائه :

— على كل حال ما حنقدرش يسافر الا بعد ما نطمئن على مستقبل العيلة !

وقال عبد العظيم :

— فاهم .. فاهم كويس !

هل فهمت انت ايضا يا هدى ؟

اني لم اكن اعني ان يطمئن خالك على مستقبلك .. بل كنت اعني أن نمنعه من السفر حتى يبقى اداة في يدي .. حتى يكون الشبكة التي اصطادك بها .. وبعد أن يقع الصيد ، تستغني عن الشبكة ونرسلها الى الاسكندرية !

وقام عبد العظيم ..

وبدأت انتظر زيارتك لي .. كان ما اقرره واعهد به الى عبد العظيم ، هو قرار القدر ينفذه الشيطان .. انا القدر ، وهو الشيطان !

واتصل عبد العظيم بخالك اسماعيل امدي ، واتفق معه على

أن تصحبك ، ويصحب والدتك ، لزيارتي في بيتي .. لتقدموا إلى شكركم على عطفي الذي شملتكم به ..

وتحدد موعد الزيارة ..

وبدأت أحس بالارتباك .. وكلما اقترب الموعد ازددت ارتباكا .. هل تذكرين الحادثة التي رويتها لك ، والتي وقعت عندما كنت زميلا لوالدك في مدرسة الفنون والصنايع ، وحاولت أمامها أن أغش في الامتحان وخفت أن تراني والدك وأنا أغش ، فارتبكت إلى حد أني كدت أسقط ..

لقد كنت أعاني نفس الارتباك وأنا في انتظار زيارتك .. كنت أخافك .. كنت أخاف أن أغشك كما أغش بقية الناس .. إني أقابل الناس بمظهر الرجل المحترم المهاب ، وهو مظهر كله خداع .. مظهر لا يدل على حقيقة نفسي .. وكنت لا أريد أن أخدعك ، ولا أريد أيضا أن أطلعك على حقيقة نفسي .. فكانت المحاولة الوحيدة أمامي هي أن أغير ما بنفسي .. أن أكون إنسانا آخر غير الإنسان الذي أعرفه في نفسي .. أن أكون رجلا شريفا فعلا ..

ترى ، كيف يكون الناس الشرفاء ؟

إن عقلي لم يستطع أبدا أن يقتنع بأن الرجل الشريف هو الرجل الفقير .. ولم أستطع أن أقتنع بأن الرجل الشريف هو الرجل القنوع . الذي يتنازل عن طموحه ويقبل وظيفة صغيرة في وزارة الأشغال ، كما فعل والدك .

الرجل الشريف لا يمكن أن يكون الرجل السلبي .. الجبان .. الذي ينأى بنفسه عن المعركة خوفا من أن تصيبه رذاذ الطين !

من هو الرجل الشريف ؟

لا أدري ..

وأنا .. هل أستطيع أن أكون مليونيرا ، وشريفا أيضا ؟

لا أدري ..

وكيف يبتسم الشرفاء ، وكيف يتكلمون ؛ وكيف ينظرون ، وكيف يلتفتون ؟

لا أدرى .. لا ادرى .. وقلبى ينكمش على نفسه كأنه يختنق .. وشيء في صدرى يتحرك ويكاد يكتم انفاسى .. واكاد احس .. اريد ان اكون شريفا .. اريد .. انى حصلت فى حياتى على كل ما اردت .. والآن لا اريد الا ان اكون شريفا .. من اجلك انت .. انت وحدك !

وبلغ من جنونى ان وقفت أمام المرآه بعد أن اغلقت على نفسى الباب بالمفتاح ، واخذت احاول ان أقلد الناس الشرفاء كما اتصورهم .. انهم يبتسمون هكذا .. ثم ابتسم فى المرآة ابتسامة خجولة متواضعة .. وهم يتكلمون هكذا .. ثم اتكلم أمام المرآة فى صوت خفيض ضعيف ، واكرر فى حديثى ذكر الله « وصلى على النبى » .. وهم ينظرون هكذا عندما يكونون فى حضرة النساء .. ثم اخفض رأسى امام المرآة ، وارخى جفونى فوق عينى .. و .. و .. واتنبه الى نفسى .. فأثور .. اثور على هذا الشيء الخفى الذى يدفعنى الى هذه المهازل .. اثور على هذا الضعف !

أتصدقين انى أصل الى هذا الحد من الضعف .. اتصدقين ان حسنين باشا شاكر بنفسه ووقاره يقف أمام المرآه بكل ابهته وجلاله ، ليمثل مهزلة .. لو رآنى الوزراء والكبراء والسادة الانجليز وانا فى هذا الموقف امام المرآة ، لضجوا بالضحك ، ثم حملونى بالقوة الى مستشفى المجاذيب .. وقالوا : الله يرحمه .. ولو رآنى عبد العظيم لاعتقد ان مرضه قد سنحت للانقضاض على والاستيلاء على كل اموالى !!

ولكن ، هذا ما كان يحدث لى ..

ان احدا لا يصدق .. ولكنها الحقيقة .. لقد حاولت ان أهرب من ابتسامته ، ففتحت باب الغرفة وناديت خادمى ياسين

وانا اصرخ كانى استنجد به .. ومملا كنت استنجد به .. استنجد به حتى لا يتركنى وحيداً مع ضعفى ..

والموعد يقترب ..

لم يبق سوى ساعة .. واراك !

هل استقبلكم فى الحديقه ، كما تعودت ان استقبل اصدقائى رجال دار المندوب السامى ..

لا .. سأستقبلكم فى داخل الدار ، فهذا اكثر احتشاما !

هل اتركم فى انتظارى ساعة .. او نصف ساعه ..

لا .. ساترككم تنتظرون ربع ساعة فقط .. حتى اوفق بين لهفتى الى لقائك ، وبين اذلالكم...

وكنت افكر هذا التفكير وانا اضغط على اعصابى حتى لا يغلبنى ضعفى .. كنت احاول ان انقذ ذهنى من ان يخضع لهذا الجنون الذى يملأ صدرى ..

واخيرا وصلتم ..

وقادكم الخادم الى الصالون الفخم .. وبقيت فى حجرتى ــ بالدور العلوى ــ كالأسد المحبوس فى انتظار ان تمضى الربع ساعة المقررة .. وانا احاول ان اسلى نفسى بتصوركم وانتم فى انتظارى .. لابد انكم بهرتم بفخامة القصر .. ولابد ان خالك قد دخل وهو يسير على اطراف اصابعه كأنه يخاف ان يدوس ارضى باقدامه .. ولابد ان امك كانت تدير عينيها حولها كأنها دخلت قصرا مسحورا .. لا تحتمل ما تراه عيناها من جمال .. ولابد انها مسحت على قماش المقاعد بيديها لتتحسس فخامته ، ثم تخاف ان يلمحها احد من الخدم ، فتخفى يديها بين طيات ثوبها .. وانت .. لقد حاولت ان اتصورك انت ايضا مبهورة بفخامة القصر .. ولكنى لم استطع .. كنت تقفين فى خيالى بعينيك الهادئتين العميقتين .. وشخصيتك القويه .. شخصيه

اكبر من سنك .. ولم استطع ان اتصور هذه الشخصية تضعف امام فخامة قصرى ..

ومضت الربع ساعة ..

ونزلت اليكم وانا احاول ان اخطو فى بطء ورزانة .. وتعمدت الا التفت اليك عند دخولى ، ولكنى شعرت بمجرد ان دخلت ، بعينيك مثبتين على .. تثقبان صدرى ، وتحاولان ان تصلا الى اعماقى .. شعرت بهاتين العينين دون ان اراهما ..

وهب خالك واقفا ، وهو يصلح من وضع طربوشه فوق رأسه ، ويضم اطراف سترته .. وقامت امك واقفة بجانبه ، وهى تبتسم ، وتحاول ان تخفى ابتسامتها فلا تستطيع ، وقمت انت عن مقعدك فى بطء .. كانك تؤدين واجبا ثقيلا ..

وقال خالك وهو ينحنى ليقبل يدى :

— يا سعادة الباشا .. احنا مش عارفين نودى جمايلك فين .. ده والله ان ..

وقاطعته وانا اسحب يدى من تحت شفتيه .. وقلت فى تواضع اقلد به الناس الشرفاء :

— العفو .. العفو يا اسماعيل افنـدى .. ما تقـولش الكلام ده !

وقالت والدتك وهى تصافحنى :

— احنا متشكرين اوى يا سعادة الباشا ..

وسمعت فى صوتها هذه الرنة التى سمعتها لأول مرة .. الرنة التى اعرفها جيدا .. رنة التزلف الى سعادة الباشا .. وقلت :

— ازيك يا هانم ..

قالت والرنة فى صوتها ترتفع :

— الله يسلمك يا سعادة الباشا ..

ثم واجهتك .. واجهت فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ..

العينين الهادئتين .. والشفتين الرقيقتين .. والوجه النحيل الخمري .. وانف يبدو كبيرا بعض الشيء بالنسبة لمساحة الوجه .. وشعر ناعم في لون البندق ..

ولم تتكلمي ..

لم تقولي اي كلمة .. مقطة نظرات عينيك تنقشان صدري ..

وسحبت يدي من يدك سريعا قبل ان تلمسي الرعشة فيها .. وتكلمت انا .. تكلمت كأني احاول أن أغطي رعشتي بكلامي .. قلته :

ــ ازيك يا هدى ..

واجبت في اختصار دون أن تبتسمي :

ــ الله يسلمك !

لم تقولي حتى « يا سعادة الباشا » كما تعودت أن أسمع من نفسه الناس . ورغم ذلك لم اغضب .. بل شعرت في هذه اللحظة برغبة جامحة في أن ارفع ذراعي ، واربت على كتفك ، كأنك معلا ابنتي .. ولكني قاومت ذراعي .. وابتعدت .. وجلست .. وجلستم ..

ونظرت الى خالك كأني آمره بالحديث .. ورأيت في نظرتي ، حلته الجديدة .. وطربوشه الجديد أيضا .. ان الخمسين جنيها التي اعطيتها منى لم تضع هباء .. وقال بعد أن تنحنح كأنه يهم بالقاء خطاب طويل :

ــ يا سعادة الباشا .. الست أختي وبنت أختي جايين يشكروا لسعادتك على نعمتك عليهم .. دي نعمة نزلت من السما .. ربنا ما ينسالش حد .. و ..

قلت اقاطعه ، وكأني أحرمه من لذة القاء الخطاب الطويل الذي اعده :

ــ لا شكر على واجب يا اسماعيل افندي .. جميل المرحوم

على مش ممكن ينعوض .. والمهم انى اعرف ازاى اقدر اعوضه ..

ثم نظرت الى امك قائلا كأنى استجديها :

ــ انا عاير اعرف يا هانم اسم ناقصكم ايه ، وانا اعمله حالا ..

ونظرت الى والدتك وذكاؤها الساذج يطل من عينيها ، وقالت :

ــ كلك خير يا سعادة الباشا .. والله المرحوم سابنا لابسين ..

قلت وانا احاول الا تكون فى لهجتى رنة التفضل .. وانا احاول لأن اكون متواضعا :

ــ اذا كان على المعاش ، ما تحمليش هم .. المعاش حا يحصلك لغاية عندك كل شهر .. وحداشر جنيه مش كفاية .. اخليهم خمسين ..

وقمر خالك صائحا :

ــ الله يخليك يا سعادة الباشا .. الله يعمر بيتك .. ده كتير قوى يا سعادة الباشا ..

واشتعل الذكاء الذى يطل من عينى امك .. وقالت وعلى وجنتيها رعشة تفضح فرحتها :

ــ وهيه الحكومة حاتدفع خمسين جنيه .. دى ماهيته كانها الله يرحمه ، كانت تلاته وتلاتين جنيه ..

قلت وانا ادارى ابتسامتى حتى لا تعرف انى افضح ذكاءها .

ــ الحكومة ما لهاش دعوة .. ده دين على للمرحوم وباردة ..

قالت وقد اتعبها ذكاؤها :

ــ والنبى ده كتير يا سعادة الباشا .. اقول لسعادتك الحق .. انا مش مصدقة !!

قلت في صوت خفيض كأنى متأثر :

ـــ دي خدمة سأديها لي يا هانم .. اذا كنت غلطت وماردتش دين المرحوم في حياته . ماتحوكى سمحي لي أرده لعيلته بعد وفاته .. ضميرى مش ممكن ستريح الا اذا رديت الدين كله ..

قالت وهي تخفض رأسها كأنها تقتنع نفسها بأن تصدق :

ـــ انا والنبي مش عارفه أقول ايه .. دى حاجة ما كنتش أحلم بيها ..

وصاح خالك كأنه يخطب والدتك :

ـــ سعادة الباشا راجل الخير والبر .. ده خيره على البلد كلها .. والبلد بخير طول ما سعادة الباشا فيها .. ربنا يخليك للبلد .. يارب !

ونظرت اليك ، بينما كان الخدم قد أقبلوا ليقدموا لنا أقداح الشاى ..

انك صامتة ، جامدة ، وقد التمعت نظرات عينيك كأنك غاضبة .. وقلت لك كأنى أتزلف اليك :

ـــ ويا ترى هدى ناوية تعمل ايه ؟

قلت في حزم :

ـــ ناوية أشتغل !

والتفتت اليك والدتك كأنها موحشة .

واهتز قدح الشاى في يدى حتى كاد يقع .. ماذا تقصدين .. هل تهربين منى كما هرب والدك .. هل تقبلين وظيفة حقيرة كوظيفة والدك ، فقط حتى لا تكونى بجانبى .. لقد أحسست ساعتها أنك لم تقصدى الا أن ترفضى مساعدتي لكم .. ترفضى المعاش الذى أعرضه عليكم .. ترفضى كل شيء .. وكأنك عندما أعلنت أنك ستعملين ، تعنين انك تستطيعين الاستغناء عنى .. وتحاولين اقناع والدتك بالاستغناء عنى والاعتماد عليك .. كما أعتمدت من قبل على أبيك ..

ـــ وناويه تشتغلى ايه بأه يا ست هدى ؟

واجبت أنت في هدوء :

ــ اى حاجة .. أهو أشتغل والسلام .

وقلت وقد سيطرت على اعصابى :

ــ تشتغلى ازاى يا هدى .. ده والدك الله يرحمه ما كنش عايز يدخلك الجامعة في حياته .. تقومى تشتغلى بعد ما يموت .. لا .. انا زى والدك تمام .. ومش حتحتاجى للشغل طول ما انا موجود ..

وقال خالك كأنه يعتذر نيابة عنك :

ــ والله يا سعادة الباشا احنا عمر ما ست من ستاتنا اشتغلت ولا تمرمطت .. بس هى هدى اللى ساعات يطلع فى دماغها حاجات غريبة ..

ونظر اليك كأنه يهددك بالضرب ان فتحت فمك بكلمة ..

وسكت انت كأنك غلبت على أمرك .

واسترحت انا في قرارة نفسي .. لقد صممت وقوف والدتك وخالك فى صفى .. ورغم ذلك قلت كأنى أطيب خاطرك :

ــ على كل حال نسيب الموضوع ده لبعدين .. يوم ما نتفق انك تشتغلى ، ابقى أشوف لك شغلة عندى ، وتحت اشراف ..

وقالت امك وهى لا تزال تنظر اليك كأنها تؤنبك :

ــ عجايب !!

وعدت أقول لك :

ــ انتى زى بنتى يا هدى .. من هنا ورايح حا تبقى بنتى .. وانا زى ابوكى !

وقلت فى برود :

ــ انا ابويا مات !

وارتفع صوت امك محتدا :

ـ يا بت ما تختشى امال .. ده بدل ما تشكرى سعادة الباشا .. اتكلمى كويس انا باقول لك ..

وقلت من بين اسنانك كانك تسكتين امك :

ـ متشكرة ..

ومرت لحظة صمت .. ارتفع فيها صوت قبيح يخرج من بين شفتى خالك وهو يمتص قدح الشاى .. وكنت انا خلالها احس بان هناك معركة بدات تتجمع فى حياتى .. معركة بينى وبينك .. نفس المعركة التى دارت بينى وبين ابيك .. وقد خسرت المعركة مع ابيك .. فهل اخسرها معك ؟

وتعجلت وقلت لامك كانى احاول ان اكسب منك موقعة جديدة :

ـ مش تفكرى يا هانم انكم تعزلوا من الشقة اللى انتم فيها ؟

قالت وهى تحاول ان تفهم ، فلا تستطيع :

ـ نعزل نروح فين .. دى شقة بقالنا فيها العمر كله ..

وتبينت انى تعجلت فى طرق هذا الموضوع .. كان يجب ان اتركه لعبد العظيم ، فهو اقدر منى على طرقه ، وحتى لا اضطر ان الح عليكم فافقد هيبتى بالحاحى ، ورغم ذلك قلت :

ـ انا باشوف اننا ما دام بقينا عيلة واحدة ، يصبح انكم تسكنوا فى شقة احسن من كده ..

وقالت امك :

ـ والنبى دى شقة كويسة ونرد الروح ..

وقلت انت فى كمد ، كانك تخاطبين نفسك :

ـ وكمان حانعزل من بيتنا !!

وقال خالك :

ـ كفاية خيرك علينا يا سعادة الباشا .

قلت وانا احاول ان ابدو كان الأمر لا يهمنى :

ـــ على كل حال الشقق كثيرة وتحت أمركم ..

وبدات اشك فى انى استطيع ان اقنعكم بأن تنتقلوا الى الشقة التى اعددتها لكم .. فسكت ..

سكتنا جميعا ..

وفجاة انطلقت امك تقول ، كانها تقذف هاجسا فى صدرها لا تستطيع ان تكتمه :

ـــ وازاى الست الهانم ؟

قلت مندهشا :

ـــ هانم مين ؟

قالت وهى تدارى ارتباكها :

ـــ قصدى الهانم حرم سعادتك !!

يا للذكاء الساذج .. ان كل ما خطر لها بعد ان عرضت عليها ان تنتقل الى شقة جديدة .. هو هذا الخاطر .. خاطر لا يمكن ان يتحقق فى نظرها ، وانا رجل متزوج !!

وقلت وانا ابتسم فى صدرى ساخرا من ذكائها :

ـــ الهانم فى انجلترا .. مش هنا !

قالت :

ـــ ربنا يرجعها بالسلامة !

قلت كانى اردت ان انتهز المناسبة لاكسب قلوبكم :

ـــ الست بتاعى بتقعد فى بلدها طول السنة تقريبا .. الله يرحمه محمد افندى ، ما كانش موافق على جوازى .. كان دايما ينصحنى انى اتجوز واحدة مصرية .. الله يرحمه ويحسن اليه ..

وسكتت السيدة والدتك ، كانها ازدادت ارتباكا ، ولم يعد ذكاؤها يستطيع ان يدلها على طريقها معى ..

***

.. ولم استطع أن افهم سر معارضتك فى الانتقال الى عمارة شارع النيل .. انى أعرض عليك ثروة .. أعرض عليك ملعقة حديدة راقية تنتقلين اليها .. أعرض عليك حلما كحلم سندريلا يراود خيال كل فتاة فى عمرك .. فكيف ترفضين ؟

هل كنت تكرهينني ؟

لماذا ؟

فتاة فى السابعة عشرة تكرهني .. هكذا ، من أول نظرة ، ولوجه الله !!

انك لا تعرفينني .. لا تعرفين شيئا عن ماضى .. ولا تعرفين شيئا من حرمانى .. ولا تعرفين ما كان بينى وبين والدتك .. فكيف تكرهينى ؟ !

ـ مستحيل !!

لا بد أن هناك سببا آخر يجعلك تعارضين فى الانتقال الى شارع النيل ، وتتشبثين بسكنى بيتكم فى حى شبرا .. تتشبثين الى حد البكاء .. كأنك ستنتقلين الى العالم الآخر .. عالم مخيف مجهول !

هل هو حبك لوالدك ، وحرصك على ذكراه ؟

لا اظن .. او على الأقل لم استطع ان اقنع نفسى بأن هذا يمكن أن يكون السبب ..

لابد أن هناك سببا آخر ..

ولم استطع ان افهم ..

وكنت أفهم لماذا تعارض والدتك .. ان معارضتها لا تزيد عن مجرد الحذر .. حذر ساذج يتميز به كل الناس البسطاء .. حذر يحيط بكل تصرفاتهم ، ويتسلل الى ايمانهم .. إنهم يؤمنون بالله ولكنهم يظلون على حذر منه .. ويؤمنون بالصدق ولكنهم يحذرون الصدق .. ويؤمنون بالشرف ولكنهم يحذرون الشرف .. وقد كانت والدتك تؤمن بأنى هبطت عليكم من السماء .. وتؤمن

بالفرصة التى سنحت لها كأنها طاقة فتحت لها فى ليلة القدر ..
ورغم ذلك فقد كانت على حذر من الفرصة التى سنحت لها ..
على حذر منى .. انها تخطو كل خطوة فى تردد وخوف .. وكل خطوة تحاول أن تقف عندها ولا تخطو أبعد منها .. وقد أرادت أن تكتفى بالخمسين جنيها التى قررتها معاشا لكم فى الشهر ..
كانت تحاول أن تقنع نفسها بأن هذا يكفى ، وأن ترفض ما عدا ذلك .. كانت تحاول أن ترفض أطماعها .. لأنها تخاف هذه الأطماع ، وتحذرها ..

وأنا .. ما ذنبى أنا ؟ !

انى رجل يحاول أن يكون شريفا .. يحاول أن يشترى الشرف .. ولا يجد دليلا على شرفه الا فى رضاء عائلة بسيطة مسالمة .. واحدة من ملايين العائلات التى تملأ بيوت مصر !

ولكنكم لا تصدقون !

أنت تشكين ..

وأمك تحذرنى ..

هل أترككما لحالكما .. هل أتخلى عن صفقة شراء الشرف ؟!

لا .. لا أستطيع .. لقد عشت معذبا بهذا الشىء الذى يتحرك فى صدرى كلما تذكرت والدك ، ولا أستطيع أن أموت وهذا الشىء لا يزال يعذبنى !

وهل يلومنى الناس اذا اشتريت الشرف عن طريق غير شريف ؟ !

لا أيضا .. ان الغاية تبرر الواسطة !

وعلى هذا تركت الأمر للشيطان لينفذ حكمى فيكما ..
الشيطان .. عبد العظيم بك ..

واستدعى عبد العظيم بك خالك ، وصرخ فى وجهه :

— انت يا راجل مجنون .. انتم ماهمين نفسكم ايه .. ازاى الباشا يعرض عليكم تعزلوا ، وترفضوا ؟ .. عايزه يتبنى الست

وهى ساكنة فى شبرا ازاى ؟ .. انتم مش وش نعمه .. انتم كلاب وحاتفضلوا طول عمركم كلاب .. و ..

وارتبج لسان خالك امام هذه الزوبعة .. كان قد بدأ يعتبر نفسه شخصا مهما بعد أن لبس حلة جديدة ، وطربوشا جديداً . واصبح لاخته معاش قدره خمسون جنيها فى الشهر .. ولم يكن يعتقد انه لا يزال كلبا فى نظر عبد العظيم .. نسى انه كلب .. يحاول أن يدافع عن نفسه .. حاول أن يرد على عبد العظيم ولكن عبد العظيم قاطعه قائلا ، وهو لا يزال يصرخ :

ــ اسمع .. ما فيش احسان بالعافيه .. دا كنتم عاوزين الباشا يساعدكم لازم تسمعوا الكلام .. مش عاوزين ؟ يبقى ربنا يحنن عليكم .. الراجل عمل اللى عليه .. مش فاضل الا يبوس ايديكم علشان تقبلوا نعمته .. ناس ما يتمرش فيكم الخير .. ناس جوش ..

وبرطم خالك ، وعاد يحاول ان يتكلم .. ولكن عبد العظيم استطرد صارخا :

ــ اتفضل روح اتفق مع اختك ، شوفوا حاتعملوا ايه .. ولازم تعرفوا ان الباشا اذا كان حاسبنى البنت ، حايبقى هو المسئول عنها .. هو اللى كلامه يمشى .. واتفضل ومن غير مطرود ..

وخرج خالك وراسه مدلى بين قدميه ..

وكان الشيطان خبيرا بنفوس الناس .. كان يعلم انه لن يغلب على حذر خالك ووالدتك الا بالتهديد .. التهديد بطردهم من الجنة .. جنتى .. ولابد أن خالك قد عاد الى والدتك وتناقشا طويلا .. نصبا بينهما ميزانا يزنان به نعمتى عليهما وحذرهما منى ..

ومرت ايام طويلة ..

ايام كنت خلالها لا افكر فى شىء .. لا اعمل شيئا .

الا انتظارك .. انتظارك انت .. ولا تظنى أن اعمالى تاثرت خلال هذه الايام .. ابدا .. ان اعمالى تستطيع دائما ان تسير وحدها .. ان رأس المال ككرة الثلج ، يكفى أن تحركيها فتدحرج ، وكلما تدحرجت ازدادت حجما ..

وبدأت كفة نعمتى تثقل على كفة الحذر ، فى الميزان الذى أقامه خالك ووالدتك .. وبدأ خالك يتردد على عبد العظيم ، وفى كل مرة يحمل اليه سؤالا جديدا ..

من الذى سيدفع ايجار الشقة الجديدة ؟

وقل له انى أنا الذى سادفع ايجارها ..

من الذى سيقوم بتأثيثها ؟

أنا ...

وعشرات الأسئلة السانجة ، أجاب عليها كلها عبد العظيم ، بما يطمئن خالك ووالدتك ..

كل ذلك وانت لا تدرين شيئا ..

لا تدرين ما يحدث من أجلك ..

فقط تبكين ..

وتقرر أن تنتقلوا الى الشقة الجديدة .. وصدرت الأوامر الى محل « ستروملى » لتاثيثها .. انها شقة مكونة من ست غرف .. اثنتان خصصنا للاستقبال .. طراز « استيل » ومقاعد « أوبيسون » .. وحجرة للطعام .. وحجرة لوالدتك بحمام خاص .. وحجرة لك ، بحمام خاص أيضا .. وحجرة لتمضية النهار .. ومطبخ كامل .. وشرفة واسعة ، تطل على النيل ، انتشرت فيها مقاعد مريحة وأضواء خافتة ..

وأعددت لكما كل شىء .. حتى قطع الصابون ، واملاح البنفسج التى تذاب فى ماء الاستحمام ..

وكلفنى كل ذلك خمسة آلاف جنيه ..

هل هذا كثير ؟

لقد استكثرته انا ايضا .. كنت اتساءل . لماذا اكلف نفسي كل هذه الجنيهات .. ماذا اريد منك أو من امك ؟

ولم اكن ادري بالضبط ماذا أريد .. انما كانت نطل على صورة والدك . واحس كأنى اتحداه .. كأنى احاول أن أذله بعد موته ، وقد عجزت عن اذلاله في حياته .. كأنى أحاول أن انتزع من الميت اعترافا .. اعترافا بأنى رجل شريف !

وقد ذهبت الى الشقة قبل أن تذهبوا اليها ..

ذهبت اليها .. وطفت بأنحائها .. ودخلت الغرفة المخصصة لك .. لقد كان « سرسولي » يعلم انها غرفة مخصصة لفتاة في السابعة عشرة . فجعل اثاثها كأنه قطعة من الصبا .. أثاث ينض بالمرح والأحلام .. وزهور ضاحكة فوق الستائر وكساء المقاعد .. الضوء يغمرها كأنه أمل الشباب ..

وجلست على الفراش الذي ستنامين عليه .. كانت المرة الأولى التي تلمس فيها جسدي فراش الطهر .. واحدت أجيل عيني في الغرفة كي ابحث عما ينقصها .. وفي قلبي ابتسامة حتى أراك فيها ..

وقررت ان الغرفة ينقصها عروسة .. عروسة كبيرة توضع فوق الفراش .. هل تصدقين اني أصل الى هذا الحد من الحنان .. الى حد ان افكر في أن اشترى لك عروسة !!

لقد اعتقدت أيامها انه حنان .. مجرد حنان .. ولم أدكر ان هذا الحنان صادر عن ذكرى دفينة تعيش في أعماقي .. ذكرى عشيقتي كوليت .. لقد كانت كوليت تضع فوق فراشها .. فراش الدنس .. عروسة كبيرة .. كأنها تعوض بها نقصا تحس به .. النقص الذي تحس به كل عشيقة لم تكن في يوم من الأيام عروسا طاهرة بعشيقها ..

وخرجت من غرفتك .. وجلست قليلا في الصالون . وانا أتخيل والدتك جالسة بجانبي . وانت جالسة في الناحية الأخرى ..

وأحسست وأنا في هذا الخيال كأني أصبحت رجلا غريبا .. خامي ورثت شرف والدك .. أحسست بأعصابي تهدأ .. ونفسي تسمو ..

وخرجت من الشقة ، وعم جابر رئيس بوابي العمارة يسير معي .. دون أن يتكلم .. إن عم جابر مضى عليه في العمارة عشر سنوات دون أن يتكلم !!

وفوجئت أنت يوما بأمك تأمرك بأن تجمعي ثيابك ..

كانت مفاجأة لك ..

إنك لم تعلمي شيئا عن المفاوضات التي دارت بيني وبين أمك وخالك لتنتقلا إلى الشقة الجديدة .. ولم تعلمي أن أمك وخالك ذهبا وعاينا الشقة وبهرا بها ..

وعارضت .. عارضت بشدة كما علمت .. وعددت سكين .. بكيت طويلا وكثيرا .. ولو أنك علمت يا أحب الناس ما أنت مقبلة عليه لوفرت دموعك .. لاحتفظت بها لأيام العذاب الطويلة التي ستطرك .. ولن يكون لك سند فيها إلا دمعك ..

ولم تجد معارضتك ..

كان حزم أمك .. وصرامة خالك أقسى من أن تجدي بينهما مجالا لمعارضتك ..

وفي يوم واحد كان كل ما تملكانه من ثياب .. وحاجيات منزلية قد جمع في ثلاث حقائب .. وسبتين من الخوص .. وسحارة ..

ووقفت أمك تبيع ما تملكه من أثاث .. لأحد تجار الأثاث القديم بأعصاب تحرص .. دون أن تدع لهفتها تغلبها على حبها .. أو تدع التاجر يغلبها في ملم ..

ثم شاهد عم جابر بواب عمارة النيل منظرا تبع ماد دهشته ..

لقد كان ينتظر أن يكون السكان الجدد من الأجانب — كما تعود — أو على الأقل من الطبقة المصرية الراقية .. كان ينتظر امرأة جميلة في صحبة زوج مرفه .. فهكذا عودته تجربة عشر

سنوات .. ولكنه فوجىء بمرأة حول رأسها طرحه سوداء ، نقل في مظهرها عن أيه مرسه أطفال ممن يعملن لدى سكان العمارة .. وساق سلطة المطهر في ثوب أسود رخيص .. يسير في هزال وحزن كأنها تتعثر في كل خطوة .. ورحل من الأرياف في حلة لا يرضى عم جابر أن يرتديها .. وثلاث حقائب قديمة ، وبنيين من الخوص ؛ وسجادة .. وخادمه صغيرة تبدو على وجهها التعاسة .. ولم يتكلم عم جابر أيضا !

وهكذا انتقلنا الى عمارة النيل ..

وجاءني عبد العظيم في اليوم التالي يقول بامتعاض وهو ينظر الي من تحت جفنيه المنتفختين

— الجماعة وصلوا ..

وابتسمت رغما عني .. نفس الابتسامة الخبيثة التي تنطلق في صدري كلما انتصرت في صفقه من صفقاتي .. لم أكن ساعتها رجلا شريفا ، ولكني كنت رجلا منتصرا ..

وكتمت ابتسامتي ، وقلت لعبد العظيم وأنا أسعل بأنه شخصية رجل الخير :

— أنا عارف ظروف راحتهم .. الشقة حانكون مصاريفها كتير عليهم .. اتفق مع الست بتاعها تطلع تصرف منه كل شهر ..

ونظر الي عبد العظيم في قرف .. انه يحتمل كثيرا من نزواتي .. بل انه يسعد كلما أقبل على خدمه عشيقه من عشيقاتي ، انه يعتبر كل عشيقه نقطه ضعف في تستطيع أن تمد منها الى عقلي .. ولكن هذه الثروة لا تستطيع أن تفهمها ، ولا يستطيع أن يصدق أن ذوقي قد انحط الى حد أن أحاول أن أتخذ من أمك عشيقه لي .. انه لا يفهم شيئا .. وأشد ما تصابته الا يفهم .. أن يحتار في فهمي .. انه في هذه الحالة تخشى أن يفقد سيطرته علي .. يخشى أن يؤدي به عجزه عن فهمي ، الى أن أفلت منه ..

وقال وهو لا يزال قرفان :

ـــ وتفتكر سعادتك مصروف الشقة يبقى اد ايه ؟ '
قلت بلا اهتمام :
ـــ ميت جنيه !!
وفتح فمه كأنه ذعر .. ثم عاد واغلقه ، وقال في صوت خفيض :
ـــ كتير !!
قلت كأني اخاطب عاطفته .
ـــ يا شيخ حرام عليك .. دي شقة زي دي مش ممكن تصرف أقل من ميتين جنيه .. شوف عايزة خدامين بكام .. و ..
وقال يقاطعني :
ـــ ما احنا نديهم خمسين جنيه .. والجماعه دول مش واخدين على الفلوس الكتير !
قلت وأنا انظر اليه بكل عيني وبين شفتي ابتسامة كمن ارشوه بها :
ـــ في ذمتك انت بتصرف كام في بيتك ؟ !
ورفع عينيه الى في غضبة سريعة ما لبث أن اطفأها سريعا ، وقال كأنه يسلم امره لله :
ـــ ما فيش لازمه للكلام ده .. خلاص .. امر سعادتك !
وهم بالانصراف ، ولكني استمهلته .. لقد بقي شيء .. شيء هام .. كان قد تم لي الاستيلاء عليكم .. ابعدتكم عن المجتمع الذي كان يحميكم في حي شبرا .. عن الجيران وجيران الجيران الذين كانوا يستطيعون اطلاق السنتهم وتحذيركم مني . ونقلتكم الى مجتمع لا يحميكم ، ولا يسأل عنكم .. ولكن بقي شيء .. بقي خالك !
كان يجب أن يبتعد خالك .. بعد أن أدى دوره ..
وقلت لعبد العظيم بلا اهتمام :
ـــ واسماعيل افندي استلم وظيفة شركة اسكندريه ولا لسه ؟

وقال عبد العظيم :

ـــ لسه .. حيستلمها الجمعة الجاية !

قلت كأني استعجله :

ـــ ده راجل طيب .. وحاينفعنا !

قال من بين اسنانه ، وشفتاه المطبقتان لا تكادان تنفرجان :

ـــ فعلا .. راجل طيب جدا !

وانصرف عبد العظيم منفعلا ، وهو يدق الأرض كأنه يحاول أن يحطمها فوق رأسي ..

وبدأ خالك العزيز .. اسماعيل افندي عبد الجواد .. التاجر الصغير الذي لا يملك سوى دكان حقير في دمنهور لا تزيد مساحته على مترين في متر .. بدأ هذا الرجل الطيب يساوم طويلا .. ولم يكن يدري بالضبط ما الذي يساوم عليه ، ولكنه كان يحس احساسا خفيا بشيء في حاجة الى ابعاده الى الاسكندرية .. ولم يكن يدري لماذا أريد ابعاده .. وكان اكثر منا علما بأن ليس لديه ما يؤهله لأي وظيفة .. فلابد أن هناك سببا لا يدريه .. سببا قويا .. وهو لا يستطيع ان يصدق ان الدافع يمكن أن يكون مجرد فعل الخير .. أو مجرد تخليد ذكرى المرحوم زوج شقيقته .. اي مرحوم هذا الذي يستحق كل هذا الكرم !! ..

وافترض خالك بينه وبين نفســه اني اريد شيئا .. سواء كان شيئا خبيثا أو كريما ، وبدأ يساوم !

انه يريد تعويضا عن تجارته التي سيتركها في دمنهور .. وتجارته كلها لا تساوي أكثر من خمسين جنيها .. ولكنه يريد خمســمائة !!

وهو يريد ضمانا لوظيفته الجديدة ، قبل أن يصفي تجارته في دمنهور !!

وهو يريد مرتبا يكفيه هو وعائلته ليعيش في الاسكندرية في نفس المستوى الذي انتقلت اخته لتعيش فيه !

و .. و .. وحين عبد العظيم وهو يساومه .. وكنت أسمع اخبار هذه المساومات ، فأضحك .. كنت احس بالشماتة فى عبد العظيم وانا ارى تاجرا ريفيا ساذجا يغلبه على أمره ، وينافسه فى ذكائه ، وفى قدرته ..

وقد استطاع خالك ان يطلب عبد العظيم .. غلبه لأنه كان مستعدا لأن يرفض الوظيفة .. كان يفضل ان يبقى فى القاهرة ويعيش مع اخته فى عزها الجديد .

واعطاه عبد العظيم كل ما اراد ..

وسافر الى الاسكندرية ، تسبقه تعليمات الى مدير الشركة بالا يسمح له بالتغيب عن الشركة الا بعد استئذان القاهرة ..

ولم يتركه عبد العظيم فى حاله .. كان لابد ان ينتقم منه على مساومته .. كان لابد ان يمسك به من عنقه حتى يذله .. فاتبع معه خطة قديمة .. خطة تستعملها مع كثير من الموظفين عندما نريد اذلالهم .. لقد بدأ يغريه بالاختلاس من أموال الشركة .. حتى اذا اختلس واثبت عليه الاختلاس ، امسكه من عنقه !

هل يقع خالك فى هذه الخدعة ؟

لقد مرت شهور طويلة ، قبل ان يستطيع عبد العظيم ان يختبر ذكاء خالك ..

— ٧ —

حبيبتى هدى :

كل هذا وانت لا تدرين .. وقد قدر عليك ان تعيشى دون ان تدرى سر عذابك ..ان ترى الدماء تنزف منك دون أن ترى السكين المغروز فى صدرك .. ان ترى قطعا من لحمك تتساقط دون ان ترى اليد التى تنزعها .. وربما كنت تتهمين القدر .. وقله البخت .. وكنت تستسلمين للمكتوب على جبينك .. دون ان تدرى انى انا القدر ، وأنا بختك النحس ، وانا الذى كتبت بيدى على جبينك !!

يا احب الناس .. اقرئى سطورى .. اقرئى ، واعيدى ما تقرئينه . وستجدين الراحة .. ستحددين السكين المغروز فى حياتك .. وعندما تنزعينه سيكف عنك الالم .. انك لا تتالمين الآن من الجرح .. ولكنك تتالمين من سر هذا الجرح .. تتالمين من حيرتك فى جرحك . فانت لا تدرين اين موضعه .. ولا تعلمين من جرحك .. وسادلك انا على السر .. سادلك على موضع جرحك .. وسارسم امام عينيك اليد التى جرحتك ، والسكين التى جرحت بها .. وسانصف الله امامك .. لن تحتدى بعد ذلك على الله .. ستعلمين انه ليس الله .. انه الشيطان .. انه انا !!

اقرئى يا احب الناس ، فانى اقترب بك من الجريمة .. ولعلك بعد ان انتهى من خطابى ، وتنتهى منه .. ترتاحين وارتاح ؟

هل تذكرين اول مرة زرتكم فيها بعد ان انتقلتم الى عمارة شارع النيل ؟ !

كان قد مضى على انتقالكم اليها اسبوعان .. وكان خالك قد سافر الى الاسكندرية وتسلم عمله هناك .. واصبحتما انت وأمك وحيدتين في القاهرة .. بين اصابعي .. وقد زرتكم بلا موعد .. كنت اريد ان افاجئكما برفع الكلفة بيني وبينكما .. ان ابدو امامكما كأني صاحب بيت .. كأني فعلا ابوك ، وشقيق والدتك ، وصديق المرحوم الحميم .. وكان احساسي بأني لا اريد بكما شرا شجعني على هذا المظهر الذى احاول ان ابدو به امامكما .. لم اكن حتى هذا اليوم اريد بكما شرا .. الا اذا كانت مجرد نزوتي ان اسيطر عليكما تعتبر شرا .. نعم لقد فعلت كل ذلك .. وتكلفت كل هذه الاموال ، دون ان اقصد شرا .. بل اني مهدت لهذا اليوم بكثير من التصرفات التى حاولت بها ان ابدو كأني رجل شريف .. في حدود فهمي لمعنى الشرف .. لقد صرفت مكافأة اسبوع لعمال شركة الصناعات المصرية .. وهتف العمال باسمي .. وسمحت لهم بيوم اجازة ليأتوا الى مكتبي في مظاهرة ضخمة ويشكروني على كرمي .. و .. ويحيا نصير العمال .. وفي نفس الاسبوع تبرعت بألف جنيه للهلال الاحمر .. وجاءني وفد من السيدات يشكرني .. وقبلها اتخذت موقفا في البورصة لم اكن اتخذه لو تركت نفسي لذكائي .. كنت أيامها اضارب على النزول .. وكان من المؤكد ان تهوى اسعار القطن بعد عدة ضربات .. وتهوى في الوقت الذى يحتاج فيه اكثر المزارعين الى « قطع الكوسرانات » اى الى بيع اقطانهم لتسديد ديونهم .. ولكني فجأة انسحبت من البورصة .. عدلت عن موقفي وتركت الاسعار ترتفع ارتفاعا طبيعيا .. وعبد العظيم بجانبي يكاد يجن .. يضرب كفا بكف ، وينظر الى كأني انسان لا يعرفه .. وذكائي أيضا كان ثائرا .. كنت احس بعقلي يتهمني بالجنون وبالسخف ،

ولكن شيئا فى صدرى كان يجذبنى اليه ويجعلنى احاول ان ابدو شريفا ..

كان عقلى يقول لى وانا اوقع قرار صرف مكافآت العمال « ماذا تفعل ايها الابله .. لا تكن حمارا » ..

وكان صوت آخر يرتفع فى صدرى كأنه يستجديني : « كن كريما .. انك لن تخسر شيئا بكرمك .. انك لست فى حاجة الى كل اموالك .. فامنح بعضها للناس .. للفقراء » ..

ويعود عقلى يخاطبنى فى حدة : هل تعتقد أن الفقراء سيحمدون مسلك ويكتفون .. انهم سيطالبون بالمزيد .. لو استسلمت لهم فسيبتزون كل اموالك الى ان تصبح فقيرا مثلهم » ..

ويعود الشيء الذى فى صدرى يقول لى فى رقة : « جربه هذه المرة .. هذه المرة فقط .. انهم سيدعون لك .. سيهتفون باسمك » !

وكان الشيء الذى فى صدرى .. هو انت .. كنت اتخيلك دائما بجانبى .. وجهك النحيل الحزين .. وعينيك الهادئتين العميقتين .. وشفتيك الرقيقتين .. وشعرك الناعم فى لون البندق .. كنت دائما بجانبى ، وانا اوقع شيك التبرع للهلال الأحمر .. وانا اصرف مكافآت العمال .. وانا اعدل عن موقفى فى البورصة .. وكانت الجرائد تنشر عنى كل ذلك .. وتنشر صورتى .. فاتخيلك تقرئين .. واتخيلك تفخرين بى .. بل انى وزعت صورة جديدة لى على الصحف ، ابدو فيها مبتسما فى حنان كأنى ابتسم لك ، ، ويبدو شعرى الأبيض يغطى فودى كأجنحة الملائكة ، كأنى اطمئنك به على وقارى ، واحاول أن اخدعك به عن حقيقتى ..

وبهذا الشعور الصادق زرتكم لأول مرة بعد أن انتقلتم الى عمارة شارع النيل ..

وضغطت على الجرس ..

وانتظرت طويلا .. كان الجرس يدعوكم من بعيد !

ثم فوجئت عندما فتحت لى الباب نفس الخادمة التى يكسو وجهها الغباء .. فتحته نصف فتحة .. وسألتنى عن اسمى .. وقلته لها بلا لقب .. حسين شاكر .. فصفقت الباب فى وجهى بعنف كأنها تحمى البيت منى .. تماما كما فعلت عندما فتحت لى الباب عندما زرتكم فى شبرا .. وكأن شيئا لم يتغير !!

وعادت الخادمة الغبية ، وفتحت لى الباب .. فتحته كله .. ودخلت وأنا أحس كأنى صدمت .. كأن كل أحلامى انهارت .. أن وجه الخادمة الغبية أقنعنى بأنى لا زلت بعيدا عنكم ، وانكم لا زلتم بعيدين عنى ..

وخطوت الى داخل الصالون .. كان معتما .. ورائحة التراب تفوح منه .. كأن احدا لم يدخله منذ سكنتم فيه .. لم أشم فيه رائحة البخور المريحة التى شممتها عندما دخلت بيتكم فى شبرا .. ثم وقفت مصعوقــــا عندما رأيت فــوق الأريكة « الأوبيســون » حملا من الألحفة والوسائد القديمة التى حملتموها معكم .. وطعت عينى المتفحصتين فرأيت تحت احد المقاعد المذهبة صفيحة تفوح منها رائحة الفطير الذى يوزع فى مناسبة زيارة الأضرحة ..

وشعرت بالغضب .. شعرت كأنى أغار على الصــالون « الأوبيسون » والمقاعد المذهبة .. انها من اموالى .. ان هذه الأريكة وحدها تساوى ثلثمائة جنيه ، وأنا لم اضع فيها كل هذا المال لتوضع فوقها الألحفة والوسائد القديمة .. وهذا المقعد المذهب يساوى خمسين جنيها ، ولم يصنع لتوضع تحته صفائح الفطير .. ووجدت نفسى أشتمكم والعنكم ، وأهمس ساخطا « ناس بلدى صحيح .. الحق على أنا .. .. نول مش وش نعمة » !!

ولم من غيرتى على قطع الأثاث .. على اموالى .. ان

هممت بان ارفع بيدى الالحفة والوسائد من فوق الاريكة ، وان ارفع صفيحة الفطير من تحت المقعد ، وان القى بكل ذلك من الشباك .. كأنى اتخلص من قذارة تلطخ اموالى .. ولكنى ضبطت اعصابى .. وجلست وانا اقضم اظافر يدى باسنانى ..

ودخلت امك ..

لم يتغير شىء ..

نفس الطرحة السوداء التى تحيط براسها .. ونفس الذكاء الساذج الذى يشع من عينيها ويتقدمها فى كل لفتة من لفتاتها .. كأنها لم تنتقل الى عمارة شارع النيل .. كأنها لا تتقاضى مائة جنيه فى الشهر .. كأنها لا تزال تقيم فى شقة سطح شبرا لا يزيد ايجارها على ثلاثة جنيهات .. وتعيش على معاش زوج متوفى لا يتجاوز احد عشر جنيها فى الشهر . وقالت مرحبة وهى تمد يدها تصافحنى ، وتحاول ان ترشونى بابتسامة كبيرة :

ــ اهلا وسهلا بسعادة الباشا .. خطوه عزيزه .

قلت وانا انظر اليها كأنى احاول ان اعرفها من جديد :

ــ ازيك يا تفيدة هانم .. ازى صحتك !

قالت وهى تتقدم نحو باب الشرفة لتفتحه :

ــ تسلم يا باشا ..

وامسكت بالشريط الذى يشد « شيش » الشرفة الى اعلى واخذت تشده بصعوبة ، وفى حركة عنيفة كأنها مراكبى عجوز يشد القلع الى اعلى السارى .. وانا لا زلت انظر اليها .. وخيل الى انها اقل جمالا مما رايتها لاول مرة .. وشعرت باحساس خبيث وانا اراها تجهد نفسها فى رفع خشب « الشيش » .. كأنى كنت اقتص من هذا الجهد بعض ما دفعته لها من مالى .

ولكنى رغم ذلك تقدمت وعاونتها على فتح الشرفة .. بتأفف .. وغمر الضوء حجرة الصالون ، والتفت فرأيت صورة والدك تحتل صدر الحائط .. ولم اركز اول نظرة على الصورة ..

من تركزت نظرتي الاولى على المسمار الذي علقت منه الصورة . انه مسمار كبير ، لعلكم دققتموه في الحائط بفردة قبقاب ، دون أن تعلموا أن هذا الحائط الذي شوهتموه بهذا المسمار قد كلفني طلاؤه عشرين جنيها على الأقل .. وكدت أثور مرة ثانية .. ولكن نظرتي انزلقت على صورة والدك .. وتركزت لحظة في وجهه .. وأحسست بعينيه العميقتين الهادئتين تثقبان صدري ، وتصلان الى أعماقي .. وأحسست بالشيء يتحرك في صدري ويكاد يكتم أنفاسي ويمزق رئتي .. أحسست به كأنه معرفة أبي محرم .. كأنه مأبي كل هذه النعم التي غمرت بها عائلته .. ووجدت نفسي أدير ظهري الى صورته ، وصوت يهتف بي كأنه مشجعني : « لقد مات .. مات .. مات » !

وامتد على صوت والدتك تقول :

— اتفضل يا باشا .. اتفضل اتعد !

جلست وانا التقط أنفاسي ، ثم قلت بعد برهة :

— على الله تكونوا مستريحين ؟

قالت وهي تلف طرحتها حول عنقها :

— الحمد لله .. البركة في سعادتك .. كله من خيرك !

قلت :

— والشقة عاجباكي ؟

وترددت برهة ثم قالت كأنها تريد أن تشكو همّا كتمته طويلا :

— أقول لك الحق يا باشا .. الشقة كبيرة علينا قوي .. عاشين زي اللي تايهين فيها .. انا قفلت تلات أود ، وخليت تلاتة نقعد فيهم .. ده شقة عايزة أورطة علشان تدوبك تنهف كل يوم بالمقشة ..

قلت وانا انظر اليها كأني اتهمها :

— انتي مش جبتي خدامين يا تفيدة هانم !

قالت :

ــ اهى الدت محبة مقطمة نفسها .. انما مش ملاحقة تعمل به ولا ايه !

وكدت اصرخ فيها لاتهمها بالسرقة .. انى اعطيها مائة جنيه مرتبا شهريا . ورغم ذلك فهى لا تريد ان تصرف مليما أجرا لخادم ؛ وتشفق على صحة من كثرة العمل .. ولكنها ليست سرقة .. انه الذكاء الساذج .. ذكاء التاجر الصغير الذى يدخر كل أرباحه دون ان يحاول استغلالها فى توسيع تجارته .. ولو استغلها لدرت عليه اكثر مما يدخره .. ولو صرفت أمك كل المائة جنيه على البيت الذى خصصته لكما ، فربما استطاعت أن تأخذ منى أكثر مما تستطيع ان تدخره .. انه الذكاء الساذج ، الذى يدفعها الى ادخار كل ما تأخذه ، ولا تحاول ان تصرف أكثر مما كانت تصرفه عندما كانت تعيش فى حى شبرا .

وقلت لها وانا اضع فى كلامى لهجة الامر :

ــ لا .. لا يا تفيدة هانم .. انتى لازم يكون عندك اتنين سفرجية ؛ وطباخ .. على الاقل !!

قالت وهى تضع يدها على صدرها كأنها ذعرت .

ــ على ايه ده كله يا سعادة الباشا .. ده احنا كلنا نفرين .. انا وبنتى هدى .. نقوم نجيب تلاته يخدمونا ..

انها لا تعلم انى أعيش وحدى ، وفى بيتى عشرة من الخدم ..

وقلت وانا ابتسم محاولا تخفيف وقع الصدمة عليها :

ــ ما دام الشقة كبيرة ، يبقى لازم خدامين كتير .. وانتى حاتهمك ايه .. كل اللى تعوزيه اطلبيه !

واطلقت عينى الى حجرة الطعام ، الملاصقة للصالون الذى نجلس فيه .. فرأيت على المائدة طبقا مليئا ببقايا طعام مطبوخ ، وفوقه غطاء من السلك .. الغطاء الذى يستعمل فى بيوت الطبقة الوسطى لحماية الطعام من الذباب ..

وشعرت مرة ثانية بانى اهم بالثورة .. الم تر امك ان فى المطبخ مريجدير .. فريجدير كلفنى مائتى جنيه .. لماذا لا تضع فيه بقية الطعام ، بدل أن تشوه منظر حجرة المائدة التى كلفتنى خمسمائة جنيه !

ولكن ثورتى انقشعت سريعا ، وحل محلها شعور بالشفقة .. اشفقت عليكم .. وتذكرت نفسى .. لقد بدات مثلكم .. كنت أنا ووالدتك من اولاد الطبقة الوسطى الصغيرة .. ونعيش فى بيوت متواضعة ، ووسط تقاليد وعادات متأخرة .. وقد تركت والدتك فى هذه الطبقة ، وسعيت انا الى الطبقات العليا .. وقضيت عشرين عاما حتى عرفت كيف أعيش فى بيوت جديدة ، وتقاليد جديدة .. عرفت كيف اتناول طعامى بالشوكة والسكين .. وكيف أسلم الظافرى لفتاة جميلة لتصلحها بالمانيكير .. وكيف استعمل السيارة ، والفريجدير .. وكيف اخاطب السائق والسفرجى .. وكيف أفرق بين المقاعد الأوبيسون والمقاعد الخيزران ، وكيف افرق بين انواع العطور .. و .. و .. هذا الطريق الطويل الذى قطعته فى عشرين عاما ، حاولت ان احملكم تقطعونه فى اسبوعين ، وأن افرض عليكم مجتمعا جديدا لا تعرفونه ، ولا تعرفون اساليب حياته . ولا الادوات التى يعيش بها ..

وعذرتكم ، واشفقت عليكم !

انكم فى حاجة الى استاذ ليعلمكم فن الحياة الجديدة التى نقلتكم اليها ..

من يكون الأستاذ .. من ؟ !

وقلت لوالدتك وانا اتجه فى حديثى اتجاها جديدا :

— ويا ترى مين زاركم لغاية دلوقت ؟

قالت وهى تمصمص شفتيها كأنها تترحم على حالها :

— ولا حد .. الباب ما خطش علينا من يوم ما جينا

ولا حد من الجيران سأل عنا ولا قال لنا الحمد لله على السلامة .. انا عارفه دول جيران ايه دول .. مش برضه الاصول بيسالوا .. وحتى اصحابنا اللى فى شبرا نسيونا .. اما الحق علينا .. احنا اللى قصرنا ، وما سبناش عنواننا لحد ..

قلت ، وانا ابتسم لأطيب خاطرها :

ــ ما تحمليش هم .. انا حاخلى خيرية هانم تيجى تزوركم ، وتسليكى ، وتعرفك بالجيران كلهم ..

قالت وهى تنظر الى فى تساؤل مريب :

ــ اهلا وسهلا .. تأنس وتشرف .. ودى تبقى مين ست هانم ؟

قلت :

ــ دى ست قريبتى من بعيد ، ومتجوزة واحد صديقى قوى .. وكان برضه من زملاء المرحوم .. انها ست طيبة وحاتعجبك خالص .

قالت فى تردد كأنها لا تستطيع ان تطمئن الى صديقة جديدة :

ــ اهلا بيها !

وكان هذا هو اول تفكيرى فى ان ادخل خيرية فى حياتكما .. لم افكر فيها من قبل .. لم اكن اعتقد ان الجريمة تحتاج الى اكثر من شيطان واحد .. الى ثلاثة شياطين .. انا ، وعبد العظيم ، وخيرية ..

وقلت لوالدتك كأنى احاول ان اشغلها عن التفكير فى الصديقة الجديدة التى سأفرضها عليها :

ــ امال فين هدى !

وكنت طول الوقت انتظر ان احس بك فى الغرفة قبل ان اراك .. كما احسست بك عندما زرتكم فى بيتكم القديم بشبرا .. ولكنك لم تظهرى .. ولم احس بك ..

وقالت والدتك :

ــ قاعده فى اودتها .. مش مبسوطة شوية !!
وقفزت من مقعدى فى حركة مفاجئة ، وانا اقول :
ــ مالها .. عيانة .. ابعت اجيب دكتور .. اقدر اشوفها ؟

واتجهت الى داخل الشقة دون ان يدعونى احد ، ووالدتك ورائى مبهورة من هذه الحركة المفاجئة ، وتقول كأنها تحاول ان تمنعنى من دخول الشقة :
ــ لا .. لا .. مش عيانة ولا حاجة .. دول بس شوية صداع !
ولم استمع اليها ..
ولم اكن ملهوفا على مرضك الى هذا الحد .. ولكنى انتهزتها فرصة لابدأ فى استعمال حقى فى التجول فى انحاء البيت .. ثم انى كنت اريد ان اراك .. صدقينى انى فقط كنت أريد ان اراك .. وكنت اخشى أن تنتهى زيارتى دون ان اراك ..

وسرت فى الممر الذى يؤدى الى غرفتك بخطوات ثابتة كأنى صاحب البيت .. ودخلت اليك .. ولم أرك فى فراشك .. كنت فى الشرفة .. تطلين على النيل .. فى ثوب اسود .. واحسست بدخولى فالتفت الى بعينين واسعتين كأنك ذعرت .. وتقدمت سريعا الى داخل الغرفة ، كأنك تحاولين أن تسبقينى قبل ان اخرج اليك فى الشرفة .. ورأيت وجهك ممتقعا .. اكثر امتقاعا مما عرفته .. وعينيك مضطربتين .. وشفتيك ترتعشان .. ومددت يدك الى كأنك تدفعيننى الى الوراء .. وصافحتك .. وسحبت يدى من يدك سريعا ، وانا اقول :
ــ ازيك يا هدى .. مالك .. مامتك بتقول انك عيانة !!
قلت وقد بدأت تهدئين ، وتستردين شخصـــيتك كاملة ، واستقرت عيناك العميقتان :
ــ لا ابدا .. كان عندى شوية صداع .. انما الحمد لله !

قلت وانا ابسم لك واحاول ان اضع فى ابتسامتى حنانا لم اتعوده :

ــ شغلتينى عليكى .. لازم تمشى من المزال ..

وتشاغلت عن عينيك اللتين بدأنا تنظران الى فى ثبات ، وتثقلان صدرى .. واخذت التفت فى الغرفة .. انها هى .. كما رسمها بنترمولى .. انيقة . بهيجة ، كأنها قطعة من الصبا .. ليس فيها ما يقل من صباها الا شعرى الابيض ، وثوبك الاسود .. وآلة خياطة وضعت على جانب من الفراش ، وقد غطيت بملاءة بيضاء ، فبدت كأنها قبر صغير ..

وقلت لك :

ــ يا ترى مبسوطة من اودتك ؟

قلت فى اختصار :

ــ كويسة .. مرسى !

وعدت اقول كأنى اجر لسانك من فمك لتتكلمى :

ــ ودى ماكنة خياطة .. انتى غاوية خياطة ؟

وقالت امك :

ــ دى هى اللى بتخيط لكل الست .. وايام ما كنا فى شبرا كانت بتخيط لنص الجيران ..

ومصمصت والدتك شفتيها كأنها تترحم على ايام شبرا ..

وقلت وانا افتح ابتسامتى حتى آخرها :

ــ من هنا ورايح مش ضرورى تتعب نفسها فى الخياطة .. الفساتين تبقى جاهزة لغاية عندها !

قلت :

ــ انا ما حبش البس فساتين جاهزة .. احب اخيط فساتينى ! .

ونظرت اليك متمجبا .. وقلت :

ــ خلاص .. واذا كنتى عايزه ، افتحلك كمان مصنع خياطة !

وتقدمت الى الشرفة ؛ فاذا بك تقفين فى مواجهتى كأنك ستمنعينى من الدخول .. ثم كأنك تنبهت الى ان ليس من حقك ان تمنعينى .. فابتعدت عن طريقى .. وسرت انت وامك ورائى الى الشرفة .

وابتسمت وانا اجد على سور الشرفة صينية فلل وقد اكتحلت أفواه الفلل بلون البخور .. وابتسمت .. لم اغضب هذه المرة لتشويه منظر الشرفة والعمارة كلها .. بل تمنيت ان اشرب من احدى القلل .. احسست انى لم اشرب ابدا منذ بدأت اشرب من زجاجات المرجدير .

واخذت احدثكما من العمارة .. ومتى بنيت .. وكيف بنيتها ، وبدأت الاحظ اثناء حديثى انك تلقين نظرات مختلسة الى الشارع .. وتكررت نظراتك .. وانا مستند الى سور الشرفة وظهرى الى الشارع .. ومحاذاة البنت ونظرت الى اسفل .. الى الشارع .. الى حيث تنظرين .. دافع اقوى منى جعلنى التفت .. بلا خبث .. وبلا سوء نية !

ورايته لاول مرة ..

شاب واقف على الرصيف المقابل ، يرتدى القميص والبنطلون .. مفتوح الصدر .. منكوش الشعر .. كأنه عائد لتوه من مظاهرة وطنية كانت تهتف بسقوط الانجليز ..

وكان ينظر الينا .. وما كاد يلتقى بوجهى حتى ارخى عينيه ، وسار مبتعدا فى خطوات بطيئة !

من هذا الشاب ؟

هل هو حبيبك ؟

وهل ابنه محمد افندى السيد .. يمكن ان يكون لها حبيب ؟ هل بنات الشرفاء يقعن أيضا فى الحب ؟ !

والتفت اليك .. كانت وجنتاك قد احتقنتا كأنما حطت كل منهما فراشة حمراء .. ولم ار عينيك هذه المرة .. انها

عيناى بك كلك .. كأنى أحاول أن اكتشفك .. وتوقفت عيناى عند نهديك البارزين كأنهما يتململان تحت الثوب .. وعند خصرك النحيل كأنه خاتم الخطوبة .. وساقيك المستقيمتين .. وقدميك الصغيرتين .. و .. انك لست هدى .. لست ابنة محمد افندى السيد .. انك فتاة .. فتاة جميلة ويمكن أن يكون لك حبيب .. يمكن أن يأخذك منى شاب أى شاب !!

واستأذنت سريعا .. وتركت الشقة .. ونزلت الى أسفل العمارة .. ثم وضعت نفسى فى مصعدى الخاص ، الذى حملنى الى عشى ، فى أعلى العمارة .. ودخلت .. وأعددت لنفسى كأسا من الويسكى .. وجلست وأنا أحاول أن أفهم نفسى ..

وأحاول أن أنسى انك فتاة ..

ولكنى انسى اتصلت بخيرية فى التليفون ، ودعوتها الى ..

.. وجاءت خيرية ..

انها تعرف الطريق الى جيدا .. وتعرف أين تجدنى .. جالسا على المقعد الكبير فى غرفة البار وامامى كأس الويسكى ، لا أكاد ارفعه الى شفتى حتى أنزله عنهما .. هكذا تعودت منذ تجاوزت الأربعين من عمرى .. أن أبلل شفتى بالويسكى ، ولا أشربه !

وانحنت خيرية تقبلنى فوق كل من وجنتى ، ثم نظرت الى قائلة من خلال ابتسامتها الكبيرة :

ــ مالك يا حسين .. مالك مبوز كده ؟ !

ونظرت اليها دون أن أقف لتحيتها .. نظرت اليها طويلا .. وأحسست فجأة بالندم لأنى دعوتها الى .. لقد تعودت أن أدعوها كلما وقعت فى مشكل نسائى ، ولكنى فى هذه المرة ــ ولأول مرة ــ ندمت على دعوتها ، ربما لأن المشكل الذى وقعت فيه ليس مشكلا نسائيا .. انه مشكل مع نفسى .. نفسى التى تبحث عن الشرف .. هل تستطيع خيرية أن تساعدنى فى البحث عن الشرف ؟ !

كان قد مضى على معرفتى بها خمس سنوات .. انها ابنه « باشا » .. وزوجة « بك » .. سيدة متألقة في المجتمع المصرى .. بجمالها .. ومتألقة بذكائها .. ومتألقة بنشاطها .. انها في كل حفلة خيرية .. وفي كل لسان .. وصورتها في كل مجلة .. ورغم ذلك فليس فيها صلف سيدات المجتمع ولا افتعالهن وتعاليهن .. انها تتحدث في اسلوب بسيط ، وفي لهجة مرحة كأنها احدى بنات البلد ، وتروى نكاتا لا تلقى الا في مجالس الحشيش .. ترويها في فرح كأنها عثرت على تحفة اثرية في خان الخليلى .. ولم تكن تستعمل الكلمات الفرنسية الا اذا احتاجت اليها ، وتستطيع في دقائق أن ترفع الكلفة بينها وبين اى صديق جديد .. وهى فنانة أيضا .. ولكنها لا تعطى منها الا بقدر حاجتها اليه كسيدة مجتمع .. انها تعزف على البيان لتكمل نجاحها كسيدة مجتمع .. وترسم لوحات بالزيت ، ليقال عنها انها ترسم بالزيت .. وتقرأ عن تشيايكوفسكى وبان جوج لا يفوتها حديث عنهما في أحد الصالونات .. ان الفن عندها ، كعقدها الماسى ، وكالخاتم « السوليتير » الذى تضعه في أصبعها ، وكالفراء « المنزون » الذى تضعه فوق كتفيها .. شىء تزين به امام الناس !

وكل هذه الصفات التى تصف بها خيرية ، تتضاءل أمام صفتها الأولى البارزة التى تحدد شخصيتها .. الطموح .. انها طموح الى أبعد الحدود ، كأن في أعماقها بحرا لا قرار له يبتلع كل ما تلقيه فيه .. لم تكفها العمارة التى تركها لها أبوها الباشا في مصر الجديدة .. ولم تكن تكفيها الخمسمائة فدان التى يمتلكها زوجها البك .. فكانت تشترى أسهما ، وتبيع أسهما .. وتدخل مضاربة في بورصة القطن .. وتشترى أراضى وعمارات ثم تبيعها وتربح فيها .. بل كانت تدخل في مشاريع عجيبة .. كانت تشارك بعض المقاولين في مناقصات حكومية .. وكانت شريكة في محل مشارع قصر النيل .. ثم كانت تلعب القمار بشراهة ، وتأخذ

الربح ، وتجد دائما من يدفع لها الخسارة .. كان طموحها يبلغ حد النهم والجشع ، ولكنها كانت تستطيع أن تغلف هذا الطموح فى قالب اجتماعى جذاب ، بحيث لا تنفر منها ولا تخافها ، انما تجد نفسك أسير لباقتها ، وذكائها ، وجمالها ، وخفة دمها ، فتسلمها نفسك لتلقى بك فى البحر الذى لا قرار له .. بحر طموحها !

وقد عرفتنى لأنها وجدت فى متنفسا لهذا الطموح .. واحاطتنى بكل اهتمامها ولباقتها وذكائها .. ولم تحاول أن تغرينى بشىء آخر .. ولكنى كنت أريد هذا الشىء الآخر .. كنت أريد أن أضمها الى مجموعتى الكبيرة .. مجموعة النساء اللاتى حصلت عليهن .. وكانت جميلة .. عيناها السوداوان اللتان تبرقان دائما كأن فى كل منهما شعلة من نور .. وخداها الكثيفان .. وأنفها الصغير المرفوع .. وشفتاها الواسعتان الضاحكتان ، اللتان تكشفان دائما عن اسنانها الحلوة كأنهما ستارة مسرح ترتفعان عن مسرحية ناجحة لا تنتهى فصولها .. وجسدها المليء .. وبشرتها الناعمة السمراء .. و .. و .. ولكن ليس كل ما اغرانى بها هو جمالها .. كان جمالها آخر ما اغرانى بها .. انما كنت أريد الاستيلاء على ذكائها ، وعلى لباقتها وعلى شهرتها فى المجتمع المصرى ، وعلى طموحها ، وعلى اسمها الباشا ، وزوجها البك .. كنت اريد كل ذلك فى فراشى .

وقد عرفت أنى اريدها ..

عرفت بذكائها .. وعرفت أن كل لباقتها لن تغنيها عن أن تعطينى نفسها .. وعرفت أن رغبتى ستظل دائما معلقة بيننا تحول دون أن تقوم بيننا صداقة مستقرة ، وتفاهم مستقر .. فأرادت أن تشبع فى هذه الرغبة ، لتنتهى منها .. ارادت أن تعطينى جسدها لاتفرغ بعد ذلك لذكائها .. ارادت أن ترضى الحيوان لتتفاهم مع الانسان .. وبكل بساطة ، منحتنى نفسها

.. جاءت الى فراشي بلا تكلف ، كأننا كنا على موعد في النادي للعب مباراة في التنس ... لم تحاول أن ترسم مأساة حولنا .. ولم تحاول أن تقنعني بأنها ضحت بشيء من أجلي ، أو منحتني شيئا عزيزا لديها .. ولم تحاول ان تحمل لهذا الشيء ثمنا . أو تضعه في قائمة الحساب بيننا .. وأشد ما حرصت عليه بعد ذلك الا تعاملني كعشيقة .. لم تفرض لنفسها حقوق العشيقة . ولم تدعني أتكلف معها اسلوب العشق .. لا غيرة .. ولا مسئوليات .. ولا مطالب .. لا شيء سوى مباراة ممتعة في التنس .. وجسدها دائما تحت أمري كلما أردته .. وكأنها كانت واثقة أن اليوم سيأتي سريعا عندما أمل هذا الجسد . وأفضل عليه ذكاءها ولباقتها وخفة دمها والمجتمع المثير المليء بالجاه الذي تحيط نفسها به ..

وهذا ما حدث فعلا .. بدأت أمل جسدها . ولكني لم أملها هي .. بل اني شعرت كلما ازددت مللا من جسدها اني ازداد حاجة اليها .. الى ذكائها .. والى الأوقات السعيدة التي اقضيها معها وسط الناس .. والى الخدمات الكثيرة التي تؤديها لي .. وكانت خدمات مختلفة .. بعضها تشترك فيه مع عبد العظيم بك .. كانت تنقل الي أخبار الوزراء وأصحاب النفوذ .. وتأتي الي بمشاريع الحكومة قبل ان تعلن ، ثم كانت تقود الي كثيرا من النساء .. نساء أصيلات لم أكن أعتقد اني سأصل اليهن أبدا .. ولكن خبرته قادتهن الي .. ولم تكن تقودهن الى غرفة نومي .. لا .. انها أحرص من ذلك .. وأرقى من ذلك .. انما كانت تكتفي بخلق المناسبات التي تجمع بيني وبينهن ، بعد أن تضع في أذن كل منهن كلمة تثير طموحها .. ثم تترك الباقي علي .. وعلى لباقتي حتى لا تحرمني من لذة ذكائي ..

وهكذا استقرت العلاقة بيني وبين خيرية .. أصبحنا أصدقاء .. نفهم أحدنا الآخر جيدا .. نفهم بعضنا بالاشارة ٤

وبالتلميح . وبسطرات .. واصبحت بالنسبه لى كعبد العظيم .. تعرف الكثير من أسراري . واعرف الكثير من اسرارها .. وعن طريق هذه الصداقه — لا عن طريق الحسد — استطاعت أن ترمي جانبا كبيرا من طموحها .. أخذت مني الكثير .. اكتنزت من ورائي ثروه .. ولم اندم على ما اعطيته لها ، فقد كانت خدماتها لي تساوي أكثر مما اعطيها .. كانت دائما تحقق لي كل ما أريده منها ..

هل تستطيع ان تحقق لى الشرف ؟ !

هل تستطيع ان تقنعني بأنى رجل شريف ؟ !

هل تستطيع ان تساعدنى على ان انال رضاء ابنة موظف صغير ، كان زميلا لى في المدرسة ، ومات وهو متعفف عنى ؟ !

واطلت النظر في وجه خضرة ، وهي واقفة أمامى تنظر الى في دهشة كانها لا تعرفني ..

وسمعتها تردد :

— جرى ايه يا حسين .. ما تتكلم .. مالك .. حصل ايه .. اللي يشوفك يتهيأ له انك خسرت مليون جنيه ؟ !

ورفعت كأسي وبللت به شفتي ، وقلت وأنا أزفر كلماتي من صدري :

اقعدى يا زيزى ..

والقت معطفها من فوق كتفيها ، وجلست وهي تنزع قفازها من بين أصابعها ، وقالت ضاحكة :

— ما تزعلش قوى كده .. اذا كنت خسرت مليون ، لسه فاضل ستة .. يا دوبك يكفوك ويكفونى !

قلت وأنا لا أنظر اليها .. وفي صوتي لهجة الجد :

— انا مش زعلان .. انا حيران !

قالت وهي ترفع شفتيها عن أسنانها الضاحكة :

— اخس .. انت طول عمرك محير الناس ، خليك تجربه الحيرة ولو مرة !

قلت وانا اتنهد :

— انا باتكلم جد يا ريرى .. انا حيران فعلا !

قالت وقد بدات شعلتا النور سوهجان في عينيها كانها تحاول أن تنير لى بهما الطريق :

— خير يا حسين .. انت مخوفنى ؟ !

وعدت أتنهد ، وقلت وانا انظر فى كاسى :

— شوف يا ستى .. باه انا ابتديت .. وقررت أن اهتم بعيله صديق كان معايا فى المدرسة ومات .. الله يرحمه .. حبيت ارد جميل كان له على ، بحثت عيلته وسكنتها هنا فى العماره دى .. وعملت كل اللى ممكن يعشها عيشة نضيفة .. كويس كده ؟

قالت ريرى وهى تحاول ان تفهمنى :

— كويس .. لغاية هنا ما فيش حاجة تحير .. ويستحق لقب فاعل خير !

قلت دون أن اضحك :

— صاحبى الله يرحمه كان راجل فقير .. وعيلته على اد الحال .. عمرهم ما سكنوا فى عمارة زى دى .. ولا شافوا ناس زينا .. وممكن ما بيعرفوش ياكلوا بالشوكه والسكينه .. رحت النهارده ازورهم لقيتهم مش عارفين يعيشوا فى الشقة .. مش عارفين قيمة النعمة اللى هم فيها .. تصورى انى لقيتهم حاطين صفيحة فطير فى الصالون الابيسون !

وقالت خيرية وهى تبتسم :

— وده اللى محيرك ؟ ! ..

قلت وانا انظر اليها مستنجدا :

— أيوه ..

قالت :

ــ ولا يهمك .. خلاص .. سيب الحكاية دى على ..
قلت فى جزع كأنى اخاف عليكما منها :
ــ حاتعملى ايه ؟ ..
قالت فى بساطة :
ــ حاعلمهم ازاى يعيشوا .. مش ده اللى انت عاوزه ؟ !
قلت فى ضعف :
ــ ايوه .. بس دول ناس طيبين قوى .. وناس بلدى .. خايف انهم ما يفهموكيش ..
قالت :
ــ مالكش دعوة .. هم كام نفر ؟
قلت وانا ادير عينى عنها حتى لا ارى وقع كلامى عليها
ــ نفرين .. الام وبنتها !!
وارتفعت الشفتان عن الاسنان الضاحكة ، وقالت :
ــ ايوه قول كده من الصبح !
ورفعت اليها عينيى مذعورتين ، وقلت كأنى اصد عنكما مصيبة :
ــ صدقينى يا زيزى ، انا مش عاوز منهم حاجة .. كل اللى عاوزه انى ارد جميل صاحبى .. انى اشوف الأم وبنتها عايشين كويس !
قالت وهى تقوم وتتجه الى البار ، وتعد لنفسها كأسه من الويسكى :
ــ خد بالك بقى .. انما قول لى .. البنت بتطلع عندها كام سنة ؟
قلت فى حدة :
ــ ما اعرفش .. واعملى معروف بلاش حداقة !
قالت :
ــ مش بس اعرف علشان اعمل حسابى .

قلت :

— بكره حاتشوفيها .. ست ما بعرفش حاجة فى الدنيا .. من ستات البيوت بتوع زمان .. ويمكن عندها اتنين واربعين .. اسما تبان اكبر من كده !

قالت :

— والبنت ؟

قلت :

— سبعتاشر سنة .. ولا يمكن تمنتاشر !

قالت :

— كويس .. يعنى اد بنتى شوشت !

قلت :

— حاتعملى ايه ؟

قالت :

— مالكش دعوة .. الا فوتر !

ورمت كأسها امام وجهى ، كانها تشهر أمامى الخطيئة ، ثم اسقطت الخطيئة فى جوفها ..

واخذت تحاول ان تسرى عنى ، دون ان تدرى سبب هذا التوتر النفسى الذى اعانيه ويبدو فى زفراتى ، وفى القلق الذى يطل من عينى .. ثم التقطت معطفها ، ونظرت الى نظرة اخيرة كانها تحاول ان تعرف سرى .. ثم قالت وهى يائسة من ان تفهمنى :

— انت النهارده دمك تقيل قوى يا حسين .. اورفوار باه . انا معزومة على العشا !!

وتركتنى وقد دلها ذكاؤها على ان من العبث ان تلح على معرفة سرى .. ولو الحق ، فانى انا نفسى لم اكن يومها اعرف سرى !

تركتنى وانا متعس .. وشىء فى صدرى يعذبنى ويكاد يكتم

أساسى .. كنت اعلم انى بدعوتى لخيرية قد بدأت انقاذ للجريمة .. وانى لن اكون شريفا .. لن اكون شريفا ابدا وانا احاول ان احدثكم الى دنياى ، بدل ان احاول ان أعيش فى دنياكم .. لن اكون شريفا وانا احاول ان انتصر نكاتى على ضميرى .. واحاول ان انتصر عليكم ، لا ان انتصر لكم ..

وقامت فى نفسى المعركة ذاتها التى قامت يوم كنت احاول ان اغش فى الامتحان وعينا والدك ترقبانى ، كعينى رجل البوليس .. كنت اقول لنفسى « دعهم يعيشوا كما يريدون .. ماذا تريد من أرملة طيبة وفتاة بتيمة مسكينة ؟ » .. وكان صوت آخر يقول لى فى خبث كأنه يغرينى : « هل تدعهم يعيشون فى فقر .. انها ارملة صديقك ، وابنة صديقك .. واذا كان صديقك قد مات فقيرا لأنه كان مغفلا ، فما ذنب عائلته لتعيش فى فقـــر ، وتحمل معه غلطه ؟ .. تقدم اليهم .. انقذهم .. قدم لهم النعيم .. متعهم بالحياة .. و .. » .. ويعود الصوت الأول يقول فى ضعف كأنه يسترحمنى : « انهم سعداء فى فقرهم .. ان السعادة فى القناعة ، وقد كانت الأم وابنتها قانعتين .. لم يأملا يوما فى حياة غير التى يعيشان فيها .. انك تريد أن تحطم قناعتهما .. تريد أن تلوث روحيهما بالطموح والطمع .. ابعد عنهما .. انك تعلم مدى قسوتك ، ومدى جبروتك .. فارحمهما » !!

والمعركة تشتد فى نفسى .. ثم لا اكتفى بأن أبلل شفتى بالويسكى ، فاشرب الكأس كلها ..

وتسكب الخمر على نار المعركه فتزداد اشتعالا .. ومن خلال ألسنة اللهب التى تندلع فى نفسى أرى صورة الشاب الذى كان يقف على الرصيف المقابل للعمارة .. وأعود أسائل نفسى : من هو ؟

هل هو حبيبك ؟

واحسست بالغيرة .. نوع معين من الغيرة .. احسست

كان هناك من يضاربنى فى بورصة القطن .. كان هناك من ينافسنى فى مناقصة حكومية .. كان هناك من يريد أن ياخذك منى !

احسست بنفس التحفز والعناد الذى احس به وانا اواجه اعدائى رجال الأعمال ..

لا .. لن ياخذك احد منى !

ولكن ، لماذا ؟

السنت بمثابة ابنتى .. اليس من حق ابنتى ان تحب ، وان تتزوج ؟ !

وعدت احاول ان اقنع نفسى بانك ابنتى .. حاولت أن اضع فى راسى وفى قلبى احساس الاب كما اتخيل احساس الآباء .. حاولت كثيرا .. ولكنى لم استطع .. لم استطع ان اتصورك ملكا لانسان آخر .. لم استطع ان اتصور رجلا آخر يمتلك جسدك ، وروحك ، واهتمامك ، وعمرك .. انى لم اسع اليك كل هذا السعى ، ولم ادفع كل هذه الاموال ، لازفك الى فراش رجل آخر ..

هل الآباء ملائكة ؟ .. هل يتحررون من كل انانية ، الى حد أن يضيعوا اعمارهم فى تربية بنات ، لا لشىء الا ليهبوهن الى رجال آخرين ؟ !

انى لم استطع ان اكون ملاكا ..

ان عقلى لا يستطيع ان يحتمل منطق الملائكة .. لا استطيع ان اتخلص من انانيتى الى هذا الحد ..

ومنذ هذه اللحظة كتب عليك وعلى العذاب ..

منذ هذا اليوم ، اصبحت شيئا آخر غير ابنة محمد افندى السيد .. اصبحت شيئا املكه .. وأحرص على امتلاكه .

ولكن ، كيف امتلكك ، وانا احاول أن اكون رجلا شريفا .. احاول ان انال احترامك ورضاك عنى .. ؟

ان كل الناس تحترمنى .. كلهم استطعت أن أشترى احترامهم .. ولكن انت .. كيف استطيع ان اكسب احترامك .. دون أن اضحى بك لانسان غيرى .. لشاب يقف على الرصيف المقابل ويرمع عينيه اليك . وانت تطلين عليه من الشرفة كأنك تقدمين بنفسك اليه ! ..

وقمت وانا أحمل اثقالا من حديد ترسب فى صدرى .. وغادرت عشى فى اعلى العمارة ، وعدت الى بيتى وانا انسحب من نفسى .. لم اكن ابدا اعانى من مثل هذه الحيرة .. ولم اتعذب ابدا مثل هذا العذاب !

***

وانقضى يومان ثم حددت مع خيرية موعدا لزيارتكم ..

وجاءت ترتدى ثوبا اسود محتشما ، وخففت الطلاء من فوق وجهها ، وعقصت شعرها خلف راسها . فبدت كزوجة شريفة محافظة .. لا كسيدة من سيدات المجتمع ..

وابتسمت رغما عنى عندما رايتها .. ابتسمت تحية لذكائها !!

وحملتها فى سيارتى الى العمارة .. وقفزت ابتسامة ساخرة الى شفتى حرية عندما فتحت لنا الباب هذه الخادمة الصغيرة الغبية ..

ودخلنا الى الصالون .. ولم يكن قد تغير منه شىء .. فلا تزال رائحة التراب تفوح منه .. ولا تزال الالحفة والوسائد القديمة فوق الاريكة الأوبيسون .. ولا تزال صفحة القطر تحت المقعد المذهب .. ولمحت خيرية كل ذلك . واتسعت ابتسامتها .. ولكنها كتمت الابتسامة سريعا ونظرت الى كأنها تقول لى : « اطمئن .. كل شىء سيتغير » .

وجاءت والدتك وهى لا تزال فى نفس الثوب الأسود . وحول عنقها طرحتها السوداء ، وقالت فى لهجة منفعلة وهى مقبلة نحو خيرية ويدها ممدودة اليها :

ــ اهلا وسهلا .. آنستني ، ونورتي .. اتفضلي يا حبيبتي !
وقالت خيرية ، وهي تحاول أن تقلد امك في لهجتها :
ــ الله ينور عليكي يا اختي .. والنبي ده انا مكسوفة موت .. كان على الاقل لازم آجي اعزي في المرحوم .. انا ما عرفتش الا اول امبارح من حسنين باشا .. ده انا البيه بتاعي كان دايما يحكي عن المرحوم أيام ما كانوا مع بعض في المدرسة .

وقالت والدتك وهي تجره الى الشرفة لتشد الحبل الذي ترفع به « الشيشي » :
ــ البركة فيكي .. كتر خيرك ..
واضطررت ان أساعد والدتك في رفع « شيش » الشرفة .. كأني مضطر كي اكون معكم ان اقوم بأعمال الخدم ..
وغمر الضوء الصالون .. ولمحت والدتك تنظر الى خيريه في تمعن ، وذكاؤها السلاح يطل من عينيها ، كأنها تحاول ان تعرفها جيدا .. وربما راعها جمالها ، وربما راعتها اناقتها ، رغم ما بذلته خيريه لتبدو محتشمه .. واحسست ان والدتك قد بدأت تحفظ في حركاتها ، وأن صوتها قد انخفض قليلا عما كان عليه وهي ترحب بنا .. واعتقدت ان مهمـــة خـــيرية لن تكون سهلة ..

وجلسنا .. والألحفة والوســـائد القـــديمة فوق الاريكة الاوبيسون ، وصفيحة القطر تحت المقعد المذهب ..

ودهشت عندما بدأ الحديث يتصل بين والدتك وخيرية .. لقد استعملت خيريه كل لباقتها وكل دهائها حتى ازالت تحفظ والدتك بسرعة .. وأصبحنا نتحادثا كصديقتين .. وخيرية تحاول جهدها أن تدور الحديث في حدود حياة والدتك ، دون أن تتعالى عليها ، أو تكشف لها عن الحياة الاخرى التي تحياها .. كان خيرية تعيش نفس الحياة مع والدتك .

ودخلت انت ..

ورفعت عيني اليك . ثم خفضتهما سريعا . وقد بدأت المعركة تتحرك من جديد في صدري ..

وصافحتك حرية ثم شدتك اليها وقبلتك وهي تقول :

ــ ما شاء الله .. ده انت اد بنتي شوشت تمام .. انا حاعرفك بيها وبقوا اصحاب ..

وهززت رأسك وانت تبتسمين بلا انفعال . ثم جلست تستمعين الى الحديث الذي عاد يتصل بين حرية ووالدتك ..

وتعمدت طول الوقت الا انظر اليك .. والا ادع عيني تلتقيان بعينيك ..

وبعد فترة قمت انت وخرجت من الغرفة ..

ونظرت خلفك بكل عيني ..

نظرت الى قوامك الرفيع الذي يبدو في ثوبك الاسود . كأنه آهة حزينة تخرج من صدر عاشق .. والى خصرك النحيل .. والى ساقيك المتسقين .. والى قدميك الصغيرتين ..

هل كل ذلك يمكن أن يكون ملكا لرجل آخر ؟ !

وهل انت فتاة يطمع فيها رجل ؟ !

الست صغيرة على طمع الرجال ؟

ولكن هذا الشاب الذي يقف على الرصيف المقابل للعمارة .. انه يطمع فيك .. يطمع في هذا الجسد الرقيق !

لعلك خرجت الآن لتطلي عليه ؟ !

جريت بعيني وراءك حتى اختفيت داخل الشقة .. ثم نهضت واقفا وانا اقول لخيرية ووالدتك :

ــ يظهر اني ماليش قعاد معاكم .. انا اسيبكم تتكلموا على الستات !

وقالت خيرية :

— مع السلامة يا حسين .. ابقى ابعت لى العربية بعد نص ساعة !

وقالت لها والدتك :

— نص ساعة ليه يا اختى .. ما تخليكى قاعده معانا !

ونظرت اليهما نظرة طويلة .. الى عالمين مختلفين ..

هل يجتمعان فى عالم واحد ؟

وخرجت ..

كانى اهرب من نفسى ..

— ٨ —

وانقضى اسبوعان لم احاول خلالهما ان اراك .. كنت يائسا من نفسي .. كنت يائسا من انى استطيع ان ارتقى بنفسي الى مرتبة الشرف .. وكنت مستسلما للمعركة التى تدور فى صدرى استسلاما عجيبا كأنى استعذبها .. ولم اكن ادرى سر هذا الاستسلام .. لقد واجهت هذه المعركة طول عمرى ولكنى لم استسلم لها .. ربما لانه كانت لى آمال واطماع تنتصر على الشيء الذى يتحرك فى صدرى .. تنتصر ذكائى على محاولتى ارضاء والدك وسن اعصابه .. ولكنى اصبحت بلا آمال ولا اطماع .. لقد حققت كل آمالى واطماعى .. بل حققت اكثر مما كنت اطمع فيه .. والملايين التى املكها تستطيع الآن ان تنمو نموا طبيعيا على حساب الناس .. دون ان تكلفنى جهدا .. فلم يكن هناك دافع قوى تستطيع ان تنصر ذكائى على الشيء الذى يتحرك فى صدرى .. اى على ضميرى .. وفى الوقت نفسه كان ذكائى من القوة والعناد بحيث لا يستطيع ضميرى ان ينتصر عليه .. فكنت فى هذين الاسبوعين .. اعيش بين قوتين متوازيتين .. ذكائى الشرير .. وضميرى .. واحيانا ترجح كفة الشر .. واحيانا ترجح كفة الضمير .. وانت دائما منتصبة امامى .. احاول ارضاءك حينا .. فامتنع عن اذية الناس .. واحيانا اثور عليك .. وعلى نظرتك الهادئة العميقة التى تثقب صدرى .. فاندمع فى اذية

الناس .. وكل ذلك بلا تعمد .. انما عشت بلا ارادة .. كنت قرفان .. قرفان من نفسي .. واحس بالملل من حياتي .. لم يعد هناك جديد .. كل شيء شبعت منه حتى ايذاء الناس .. ليس من جديد في حياتي الا انت وامك !

وفي خلال هذه الفترة كانت خيرية تزوركما كل يوم تقريبا .. كانت تتسلل في حياتكما برقة وهدوء وصبر .. ولكنها كانت كمعد المظيم لا تستطيع ان تفهم سر اهتمامي بكما ..

وقد اتصلت بي بالتليفون ، وصاحت ضاحكة :

— اسمح لي اقولك يا حسين ان ذوقك انحط قوي .. ايه الست اللي اتلميت عليها دي ؟ دي ري النجم ، ما بتتحركش ابدا .. يظهر انك شبعت من الحانوته وابتديت تدور على العيش الدرة ؟

قلت لها وانا احاول ان اقنعها :

— صدقيني يا خيريه .. ده ما فيش بيني وبينها حاجه ابدا .. صدقيني انا مش عاوز حاجة الا انى ارد جميل صاحبي اللي مات ..

وقالت ساخره :

— مصدقاك ياخويا ..

وسألتها :

— وعملت معاهم ايه ؟ !

قالت :

— ما نجحتش .. لازم احلى النجم يتحرك !

وانهت حديثها وضحكاتها لا تزال ترن في اذني ..

وذهبت لزيارتكم .. كنت في حاجة الى زيارتكم لاهرب من الملل الذي عشت فيه .. ذهبت بلا موعد فقد كنت انهيت من اقناع نفسي واقناعكم باني صاحب البيت .. وتعمدت قبل ان ادخل الى العمارة ان اتلفت باحثا عن الشاب ذي القميص المفتوح

والشعر المنكوش الذى يسكع على الرصيف المقابل .. فلم اره .. واحسست كانى تحست معركة !

وسحت لى الباب نفس الخادمة الصغيرة العبيه .. وتلبت شفتى امتعاضا ، وانا ازيحها من امامى ..

ولكنى ما كدت اخطو داخل الصالون حتى احسست ان « البجم » بدا يتحرك فعلا ..

احسست بعض انفاس حيرية ..

لم ار الوسائد والالحفة القديمة موضوعة موق الأوبيسون ، ولم ار صفحة الفطير تحت المقعد المذهب ..

انه تقدم كبير احرزته خبرية فى خلال اسبوعين فقط ..

انه نصر تستحق عليه التهنئة !

وجاءت املك .. ان شيئا قد تغير فيها هى الأخرى .. ان حرية استطاعت ان تتسلل اليها وان تطعمها بأنفاسها ..

اى شىء تغير فى امك ؟ !

واخذت اجهد ذاكرتى لاقارن بين امك كما اراها الآن ، وكما رأيتها آخر مرة .. وانا احس احساسا عميقا بأن هناك تغييرا حدث لها ..

ثم اكتشفت الشىء ..

طرحتها .. الطرحة السوداء !

كانت امك كما رأيتها آخر مرة تربط طرحتها فوق رأسها ربطا محكما ، بحيث تحمى تحتها شعرها كله ، وجزءا عريضا من جبينها ، ثم تسدل الطرحة لتخفى تحتها العنق كله .. كانت تلف طرحتها على طريقة البدانات فى مآتم الارياف ، ولكن وضع الطرحة تغير .. لم يعد كما كان .. انها الآن تضعها مسدلة فوق رأسها ، على طريقة هوانم القاهرة .. بحيث تكشف عن جبينها كله وعن جزء كبير من شعر رأسها .. ثم تقع فوق كتفيها دون أن تلتف حول العنق ..

ولأول مرة أرى لون شعر امك ..

انه فى مثل لون شعرك .. لون البندق !

ولأول مرة ارى عنقها .. انه فى لون العاج .. ان كان العاج يشوبه بعض الاصفرار كانه اختزن طويلا فى مخزن تاجر العاديات ..وكنت اعتقد ان لون بشرتها يميل الى السمرة .. كانت الطرحة السوداء تلقى عليها ظلا قاتما .. ولكنى اراها الآن فى لون العاج المشوب ببعض الاصفرار !!

وابتسمت بينى وبين نفسى .. كان ابتسامتى وسام اعلقه على صدر خيرية .

ولم تتقدم امك لترفع « الشيش » الذى ينسدل فوق باب شرفة الصالون ، كما تعودت كل مرة .. بل تكاسلت وهى متجهة اليه ، كأنها تدعونى لان أسبقها واقوم عنها بهذه المهمة ..

انه تقدم آخر .. الفضل فيه لخيرية !

وقد سبقتها فعلا الى باب الشرفة ، ورفعت عنه « الشيش » ..واتسعت ابتسامتى فى صدرى ، كانى اضع على صدر خيرية وساما اكبر ..

وجلسنا .. والدتك وأنا .. وقلت لها وقد قفزت ابتسامتى من صدرى الى شفتى :

— على الله تكونى راضية عن خيرية هانم .. مش لسه متزوركم ؟ !

وقالت امك وهى تحاول ان تجمع طرحتها حول عنقها ، ثم لا تلبث ان تتركها تنسدل على كتفها لتكشف عن العنق العاجى المشوب بالاصفرار :

— والنبى دى ست طيبة .. وباين عليها بنت اصل .. أول ما عرفت انى زهقانة وماعرفش حد من الجيران ، وهى ماتنسنيش .. كل يوم تفوت على ونقعد ندردش سوا ..

قلت وانا اشفق على سذاجة امك :

امال .. دي ست كريمة !

قالت ، وقد بدأت الاحظ انها تحاول تقليد خيرية فى بعض حركاتها وكلماتها تقليدا ساذجا :

ــ لا .. وست بيت من كله .. ما فيش حاجة الا وتفهم فيها .. ده اول امبارح دخلت معايا المطبخ ، وعملت دقية مسقعة ترد الروح .. انما ما قدرتش تقعد لغاية ما تاكل منها .. كان لازم ترجع علشان تتغدى مع الافندى بتاعها .. قصدى البيه بتاعها !

وكدت اقهقه .

وضغطت على اعصابى بكل قواى حتى لا انفجر ضاحكا .

لم اكن استطيع ان اتصور خيرية واقفة فى المطبخ تعد دقية مسقعة .. دون أن اضحك !

ولكن رغبتى فى الضحك ماتت سريعا ، وانا المح على وجه امك مرحتها بخيرية وسعادتها بها .. كأنها وجدت فيها دنيا جديدة .. دنيا لا تخافها ، ولا تحذرها .. وبدأت اشفق على امك .. اشفق عليها من سذاجتها .. ان ذكاءها الساذج وحذرها الطبيعى .. هذا الحذر الذى تتميز به الطبقة الوسطى الصغيرة .. لن يستطيع ان يحميها من خيرية ..

ودخلت انت ..

ونظرت اليك نظرات سريعة متقطعة ، احاول خلالها أن اتفادى عينيك .. كنت ابحث عن تاثير خيرية عليك .. احاول أن اجد شيئا قد تغير فيك ، كما تغيرت أشياء فى امك ..

ولم يكن شىء قد تغير ..

انك كما انت .. وكما رايتك آخر مرة .. ثوبك الأسود البسيط .. وشعرك الناعم المنسدل فوق كتفيك .. وشفتاك الرقيقتان .. وعيناك الهادئتان الثابتتان اللتان تثقبان صدرى

ولكن ربما قد تغير شيء .. ان وجهك النحيل اقل حزنا .. وبين شفتيك ابتسامة هادئة لا تفتر ..

انك سعيدة !!

لماذا انت سعيدة ؟

هل هي خيرية ، أم هو هذا الشاب المتسكع على الرصيف المقابل للعمارة ؟!

وتضايقت لأني اعتقدت انت سعيدة .. تضايقت .. لا ادرى لماذا .. ثم قلت لك وأنا لا انظر اليك وأحاول ان اضع فى حديثى لهجة الاب :

— عاملة ايه دلوقت يا هدى .. بتضيعى وقتك ازاى ؟

وانطلقت فى صوت فيه رنة شبابك وسعادتك :

— طنط خيرية جابت لى بترون جديد .. انما حلو قوى . وقاعده بفصله !

ولم افرح معك ..

احسست وقد بدأت خيرية تتسلل اليك وتخدعك ، انى اخدع نفسي .. واحترت .. هل كنت اتمنى أن يكون الفضل فى سعادتك يرجع الى هذا الشاب المتسكع ، لا الى خيرية ؟

واحنيت رأسى كأنى افكر .. وسقطت عيناى فوق ساقيك .. ساقيك المتسقتين كأن فنانا صنعهما من نور .. ومن خلال ساقيك رأيت صورة هذا الشاب المتسكع مرة ثانية .. وحاولت ان ابعد هذه الصورة .. حاولت أن اسمو بنفسي عن هذا التفكير .. لماذا اتصور هذا الشاب كلما رأيت قطعة من جسدك .. واذا كنت تحبينه ، فلم اربط هذا الحب بهذا الجسد .. لماذا لا اسمو بتفكيرى .. لماذا لا اضع نفسى فوق شهوة الامتلاك .. لماذا لا ارفعك عن مستوى الاسهم والسندات والعمارات وكل ما يمتلك .. كل ما ابيع فيه واشترى ؟

انى لا استطيع !

ورغم ذلك فانى اريد ان تحترمينى .. ان تعترفى بى كرجل شريف !.

وسمعت والدتك تقول :

ــ دى حتى خيرية هانم عازمانا بكره على الغدا .. علشان هدى تتعرف ببنتها .. والنبى الست دى تاعبة نفسها معانا قوى !!

وقلت انت ورنين السعادة لا يزال فى صوتك :

ــ دى عايزانى اعلم شوشت التفصيل .. بتقول ان مالهاش مولة بال على حاجة ابدا ..

قلت كأنى اتنهد :

ــ انا شايفكم مبسوطين قوى من خيرية !

وقالت امك :

ــ آه والنبى يا اخويا .. دى ست ما تتعيبش .. وآهى خففت عنا غربتنا فى العمارة دى اللى ما حدش فيها عايز يعرفه حد !!

ونظرت اليك .. ان ابتسامتك فيها كثير من السخرية .. كانك تسخرين من خيرية ومن امك !

وقلت وانا أهم بالقيام :

ــ على خيرة الله .. مش عايزه حاجه يا تفيده هانم .. مش عايزه حاجه يا هدى ؟

وقالت امك وكأنها نسيت نفسها فى محاولتها تقليد خيرية

ــ متشكرة قوى يا حسين ..

ثم استدركت بسرعة ، وهى تلف طرحتها حول عنقها كأنها تدارى غلطتها :

ــ متشكرة قوى يا سعادة الباشا !!

ونظرت اليها دهشا .. لقد نادتنى « حسين » .. بلا لقب

كما تناديني خيرية .. ولابد ان خيرية قد حدثتها عني كثيرا ، وكان اسمي في حديثها دائما ، بلا لقب !

واخفيت دهشتي وقلت وانا اصافحها :

ــ اسمانن باه يا تنيده .. هانم !

وتعمدت ان اسكت برهة قصيرة سريعة قبل ان انطق بلقب « هانم » .. حتى اشجعها على ان نتبادل رفع الالقاب .. وصافحتك ..

وتعمدت هده المرة ان انظر في عينيك كاني اسالك رايك في .. ورايت في عينيك نفس النظرة الهادئة الثابتة التي تعودت ان اراها في عيني والدك .. كانك تنقبين صدري .. كانك تعرفينني جيدا .. كاني لن استطيع ان اخدعك عن حقيقتي !

وسحبت يدي من يدك سريعا ..

ونزلت من العمارة .. وخرجت الى الشارع في خطوات مسرعه .. كاني في حاجة الى جرعة من الهواء ارطب بها الشيء الذي يتحرك في صدري ويكاد يكتم انفاسي .. وما كدت اهم بوضع قدمي داخل السيارة ، حتى لمحته ..

هذا الشاب الذي يتسكع على الرصيف المقابل للعمارة ..

ودققت النظر فيه كاني انظر الى احد منافسي في البورصة . لاكتشف نياته ، واحتقر عوده . قبل ان اسلط عليه ضرباتي ..

انه لا يزال يرتدي القميص والبنطلون .. نفس القميص والبنطلون اللذين رايته بهما اول مرة .. وكانه لا يملك غيرهما !

وقد ترك القميص مفتوحا عن صدر قوى زاخر بالشباب .. وشمر عن اكمامه ليكشف عن عضلاته .. وكان كل ما يملكه ، وكل ما يحاول ان يغريك به ، هو هذا الشباب ، وهذه العضلات ..

ووجهه تلفحه سمرة تشتعل بحماله ، فيبدو في لون النحاس المصهور .. ولم استطع ان اكذب عيني عن وسامته .. عن هذه

الخطوط القوية التى ترسم وجنتيه وذقنه وشفتيه .. وشعره الذى ترك خصلات منه تتطاير فوق رأسه ، فلا تهمد .. كأنها رايات الثورة يلوح بها فى وجه الحياة .. وكان رافعا وجهه ينظر الى أعلى .. الى شرفتك .. ثم كأنه أحس بعدو يتربص به ، فأدار وجهه بحركة سريعة الى ناحيتى .. ونظر الى .

ورأيت عينيه ونظرته ..

عيناه السوداوان كأنهما بحر صاخب فى ليلة حالكة .
ونظرة شعرت خلالها كأن آلافا من الناس ينظرون الى .. كلهم شباب ، وكلهم غاضبون !

وأحسست بالخوف ..

مر الخوف سريعا على قلبى .. دون أن يتوقف .

لحظة جبن .. لم تمر بى من قبل !

وأسرعت واختفيت داخل السيارة .. كأنى أهرب .. أهرب من آلاف الناس .. يطلقون كلهم من كمين نصب لى .. من عينين غاضبتين كأنهما بحر صاخب فى ليلة حالكة !

وأحسست بنفسى أتجمع للانتقام .. الانتقام من آلاف الناس !!

***

وقضيت ليلتى وهذه النظرة الغاشمة معلقة فوق رأسى .. تطل على من السقف ، ومن فوق الجدران ، وأراها بجانبى فوق الوسادة .. وأضع رأسى تحت الوسادة ، فأراها تحت الوسادة .
ان هذه النظرة رأيتها من قبل .. رأيتها فى عيون ناس كثيرين .. ناس كانوا يلتفتون حول سيارتى الكاديلاك الكبيرة ثم يطلقون على هذه النظرة .. وناس كانوا يمرون أمام قصرى ثم يطلقون على هذه النظرة .. وناس كانوا يسمعون عن ثرائى ثم يطلقون على هذه النظرة .. ناس من الشارع .. كأن عيونهم فوهات

سددت بطلق الرصاص على صدرى .. وقد استطعت ان اطفىء هذه النظرة فى عيون الكثيرين ممن الحقتهم بشركاتى وافضت عليهم من نعمتى ومالى .. ولكن ، هل استطيع ان اطفىء هذه النظرة فى عيون كل الناس الذين يملأون الشوارع ؟ .. وهل أستطيع أن اطفئها فى عينى هذا الشاب المتسكع على الرصيف المقابل لعمارة شارع النيل ؟ !

وقمت فى الصباح ورأسى ثقيل يحمل طنا من الصداع .. ولكى تكأنى ثائر ، وهو فى ثورته يجر رأسى بعنف .. يجرها الى المعركة ، كأنه يجر مدفعا ضخما ليصبه فى موقع استراتيجى حصين .. استعدادا لاطلاق القذائف ..

وذهبت الى مكتبى مبكرا عن موعدى .. وجلست فى انتظار عبد العظيم ، وانا انظر فى ساعتى بين الحين والحين .. وخيل الى انه لن يجىء ابدا .. وبدأت اثور .. ان اعصابى ليست كما تعودتها .. وخيل الى انى سأهب فى وجه عبد العظيم عندما أراه واصفعه بلمين لانه تأخر فى المجىء الى .. ولكن عبد العظيم جاء أخيرا . ولم أهب فى وجهه ، ولم اصفعه .. بل بذلت كل جهدى لأسيطر على اعصابى ، واستقبلته بنفس الابتسامة المتعالية التى تعودت ان أستقبله بها ..

وجلس عبد العظيم فى المقعد المريح قبالة مكتبى .. وكان يبدو هادئا مرتاحا ، كأنه لن يقوم من هذا المقعد ابدا .. ثم اخرج سيجارة واشعلها ، واخذ يشد انفاسه فى بطء وتلذذ .. كأننا نحن الاثنين جالسان فى مقهى ، ولسن وراءنا ما نفعله الا ان نقرأ وجوه المارين من أمامنا .. كأنه لا يعرف انى ثائر . وكأنه لا يعرف أن لى أعداء كثيرين أستعد للقضاء عليهم .. ثم تكلم ، وخيل الى انه يتكلم فى بطء شديد لا تحتمله اعصابى .. بدأ يعرض على اعماله القذرة .. وانا استعرض هذه الاعمال بعينين

فلسطين .. كنت قاسيا فى هذا الصباح .. كنت احس بعداوة كل الناس ..

وقال عبد العظيم :

ــ مفتش الضرايب فى شركة المقاولات ناصبنا قوى .. عامل لنا مشكلة فى كل دفتر ..

وقاطعته ساخطا :

ــ وعملت فيه ايه ؟

قال :

ــ كلمت الوزير امبارح فى حفلة الجمعية الخيرية ، ووعدنى انه حينقله سوهاج ..

قلت غاضبا :

ــ مش كفاية .. لازم تفهم يا سى عبد العظيم ان مفتش الضرايب مش ممكن يتجرأ علينا الا اذا كان مسنود .. لازم المدير بتاعه يكون مشجعه على كده .. يبقى مدير المصلحة لازم يشال .. دور له على فضيحة توديه فى داهيه !!

ونظر الى عبد العظيم فى اعجاب ، وكأنه اشتاق الى هذه القسوة منى ، وقال وابتسامته الملوثة قد اتسعت فوق شفتيه الغليظتين :

ــ حاضر !!

وقلت فى عجلة :

ــ فيه ايه كمان ؟

قال :

ــ وزير التموين عاير يصدر أمر استيلاء على القمح اللى شتريناه من كندا .. وحايدخله التسعيرة !

قلت وانا الهث كأنى اجرى مع عبد العظيم فى سباق :

ــ التسعيرة كام ؟

قال :

ــ اربعة جنيه للأردب !

قلت :

ــ وواقف علينا بكام ؟

قال :

ــ متلاتة !

قلت :

ــ يبقى التسعيرة لازم تكون سته جنيه للأردب .. احنا مش بنلعب .. كلم رئيس الوزارة ، واذا ما وافقش حول الشحنة للعراق .. وطى البلد تقعد من غير قمح ، علشان الوزارة تسقط في يومين ، ويحرموا يتجدعنوا علينا .. هو الشحنة مش لسه على المركب ؟ !

قال وقد وصل اعجابه بى الى حد أن بدا مبهوتا :

ــ لسه !

قلت :

ــ خلاص .. اعمل اللى ماقولك عليه .. وادى أمر لكابتن المركب انه ما يفرغش الا لما نقول له !

قال من خلال ابتسامته الواسعة :

ــ حاضر !!

وبدا عبد العظيم يلهث معى كأنه لم يكن ينتظر ان يجرى معى هذا الصباح كل هذا المشوار الطويل ..

وانتهى من عرض كل ما عنده من اعمال شركاتى .. اعمال شركاتى القذرة .. ثم صمت لفترة ، وعاد يخرج من جيبه سيجارة اخرى ويشعلها ، كأنه يترك لى الفرصة لأبدأ فى عرض اعمالى الخاصة عليه ..

وقلت وانا أميل الى الوراء كأنى استعد لموضوع اكثر خطورة :

ــ مافيش حاجة تانية ؟

قال كأنه يشجعنى على فتح الموضوع الاكثر اهمية :

ــ ماعليش .. بس اسماعيل افندى عبد الجواد أخو الست نفيدة هانم ، له مشكلة صغيرة ..

وكنت قد نسيت خالك .. نسيت اسماعيل افندى .. فقلت كأني اتذكر شيئا بعيدا :

ــ ماله ده كمان ؟

قال في امتعاض :

ــ مش عاجبه التلاتين جنيه اللي بنقبضهم من شركة اسكندريه .. وكل يوم يبعت لي جواب .. عاوز يزود ماهيته !

قلت وأنا انظر في وجه عبد العظيم .. وقد تذكرت الكراهية التي يحملها لخالك :

ــ وعملت له ايه ؟!

قال :

ــ رفعت ماهيته لخمسين جنيه ، وعينته مدير خزنة في الشركة !

ورأيت الحبل الذي بدأ عبد العظيم يلفه حول عنق خالك .. الخدعة القديمة التي تعودنا أن نلجأ اليها عندما نريد أن نذل أحد موظفي الشركة .. أن نضع نقودا كثيرة بين يديه .. آلاف الجنيهات تملأ عينيه صباحا ومساء وتغريه بنفسها ، كأنها سيقان حسناء تتراقص أمام محروم .. ثم نهمل في مراقبته .. حتى يطمع في هذه الأموال .. أموال الشركة .. ويختلسها .. ونضبطه .. ونمسك به من عنقه .. ثم نصنع به ما نريد !!

هل أترك خالك يقع في هذه الخدعة ؟

ونظرت الى عبد العظيم من تحت جفني ، ورأيت في عينيه نظرات تحفز كأنه يستعد ليثور في وجهي اذا حاولت أن أصده عن اذلال غريمه .. وسمعت صوتا يتردد في صدري كأنه يقول لعبد العظيم : « يا شيخ حرام عليك » .. ولكن هذا الصوت لم يرتفع

الى شغفى .. لم اكن فى حالة استطيع معها ان اشمق على احد !!

وسكت برهة ، ثم قلت لعبد العظيم وانا لا انظر اليه ، كعادتى عندما أريد ان اوحى اليه بعملية خاصه :

ــ والله الجماعة دول تاعبنى قوى !!

قال فى شماتة :

ــ ليه .. حصل منهم حاجة .. عايزين اكتر من كده ايه ؟!

قلت كانى الإنبه :

ــ لا .. مش عايزين حاجة .. انما ظهر انهم مش بالبساطة اللى كنت متصورها !

قال وقد خيل الى ان لسانه قد تدلى ليلعق فى دمائكم :

ــ ازاى ؟!

قلت :

ــ انت عارف انى مهتم بالبنت هدى .. باعتبرها بنتى منهم انما لاحظت عليها شوية حاجات ما تطمنش !!

قال كانه يتعجلنى :

ــ زى ايه ؟!

قلت وانا اتنهد :

ــ ماقدرش اقول لك بالضبط .. يمكن البنت مظلومة .. انما كل مرة ازورهم فيها الاقيها واقفة فى البلكون ، والاقى شاب صغير واقف فى الشارع بيبص لها ويشاور ..

وقال عبد العظيم وهو يبتلع لعابه :

ــ وده يطلع مين ، الشاب ده ؟

قلت :

ــ والله مااعرفش !

قال ونظرته الخبيثة تملأ وجهه كانه يهم بالقيام بمهمة مريبة :

ــ ازاى الكلام ده .. لازم نعرفه .. يمكن يكون بيضحك

علمها .. لازم ناخد بالنا كويس .. دى تربية البنات مسئولية كبيرة !

قلت وانا ازفر انفاسى فى انفعال :

ــ فعلا .. مسئولية كبيرة .. ما كانش ناقصنى الا المسئوليه دى !

قال وهو يهم بالقيام وقد دب فيه نشاط غريب :

ــ اطمئن سعادتك .. ولا يهمك !

وخرج من مكتبى فى خطوات واسعة ، وانا انظر وراءه فى تساؤل كانى انظر الى حصان املكه انطلق فى حلبه السباق .

وفى مساء هذا اليوم سهرت فى قصر الاميرة شويكار .. كانت هناك حفلة صاخبة جمعت كل المجتمع الراقى .. ولم اكن احب ان اتردد على هذه الحفلات .. كنت افضل دائما ان اقيم حفلة لنفسى ، اجمع فيها عشيقاتى ، واعدائى .. ولم يكن لى فى الحياة سوى عشيقات واعداء .. ولكنى فى تلك الليلة كنت فى حاجة لان اكون بين ناس كثيرين .. الناس الذين يكونون هذا المجتمع الراقى .. انى فى هذا المجتمع احس بقدرى ، واحس بانتصاراتى .. واحس بأنى سيد !

وخطوت بين الناس وصفوفهم تنشق امامى .. كانى النبى موسى اشق البحر بعصاى .. والهمسات تزفنى على الجانبين .. ونظرات فى عيون النساء تدللنى ، ونظرات فى عيون الرجال تخشع لى .. الى ان جاءت خيرية وجذبتنى من يدى واجلستنى على مائدتها .. وقالت وهى تهمس فى اذنى وبين شفتيها ابتسامة ، كانها تلقى نكتة :

ــ الجماعة بيسلموا عليك !!

وبللت شفتى من كأس الويسكى الذى وضعته امامى .. ولم ارد عليها !

ولصقت كتفها بكتفي واحست راسـها نحوي حتى اغرقت وجهي في طبقات شعرها ، وقالت في دلال :

— بلغني انك كنت عندهم امبارح ؟

قلت ورائحة العطر تملأ انفي :

— ايوه .. ولاحظت ان النجم ابتدا يتحرك .. البركه فيك !!

قالت ضاحكة وهي ترفع كاس الويسكي الى شفتيها :

— ولسه .. انما لو كانت واحدة تانية ما كانتش ماخد معي يومين .. دي ست معقده خالص .. وعلى فكرة .. النهاردة خدتها ورحنا شيكوريل .. وعلى اللي عملته هناك .. فضلت خامة تمسك القماش بصوابعها .. وعلى طـول تسأل عن التمن .. فضحتني قدام البياعين .. وبالزور لما خليتها تشترى حاجات بعشرة جنيه .. ومارضيتش تشترى الا لما قلتلها ان لك خصم خمسين في المية ، وانها تقدر ما تدفعش ، وتبعت لك الفاتورة ، وبعدين تحاسبك .. دي بخيله موت !

قلت :

— انا عارف اني تاعبك بالناس دول يا خيرية !!

قالت ضاحكة :

— تعبك راحة يا سعادة الباشا .. انما قوللي .. ايه رايك في اسهم الشركة المصرية ؟

وعرفت أن خيرية بدأت تقاضيني الثمن ، وقلت :

— مالهم ؟

قالت :

— مش عاجبني .. نفسي اشترى اسهم في شركة الغزل !!

قلت دون أن اهتز :

— حاضر .. بكره ابعت لك ميت سهم !

قالت وهي تربت على ساقي من تحت المائدة :

— ربنا يخليك لي يا حسين .. وفيه حاجه تانية !

ونظرت اليها نظرة غاضبة كأنى احذرها من أن تتمادى فى طمعها .. وتلقت النظرة باسمة وقالت :

ـــ انت مش حتركب تليفون للست نفيدة .. انا تعبت من زيارتهم كل يوم .. على الأقل التليفون يساعدنى شوية !

قلت وانا ادير عينى عنها :

ـــ ما اظنش ..

قالت فى تعجب :

ـــ ليه .. خايف عليهم من التليفون .. ابتديت تغير يا حسين !!

قلت :

ـــ انت عمرك ما حاتقدرى تفهمينى يا خيرية .. اغير ايه وبتاع ايه .. انا خايف على البنت الصغيره ..

قالت :

ـــ خايف عليها من ايه .. دى ما حدش يخاف عليها ابدا .. دى ما بتتكلمش كلمتين على بعضهم ، وما تعرفش حاجة فى الدنيا الا الخياطة !

قلت وانا ابتسم ابتسامة ساخره

ـــ ده بس متهيألك !

قالت :

ـــ متهيأ لى ازاى ؟ !

قلت فى حسرة :

ـــ دى طول النهار قاعدة فى البلكون وواحد واقف لها فى الشارع .. ساعة ما حيركب التليفون ـ حاتسيب البلكون وتقصل تكلمه !

قالت فى دهشة :

ـــ صحيح والنبى ؟ !

قلت :

— صحيح !

وضحكت ضحكة عالية وقالت :

— اما انا عبيطة صحيح .. حتى الست دي كمان .. وده يطلع مين الواحد ده ؟ !

قلت في اسى :

— مااعرفش .. انما انا خايف عليها قوى !

قالت :

— تلاتيه شوفير .. ولا مكوجي .. يعني حايكون ايه ؟

قلت وقد اشتد بي الاسى :

— مااعرفش !

قالت :

— انا اعرفه [illegible]

قلت :

— حاتعرفي ازاي .. اذا كنتي بتقولي انها مابتتكلمشي .. ده تلاقي امها نفسها ما تعرفش ؟

قالت في ثقة :

— مالكش دعوة .. بكره اجيب لك الاخبار كلها !

وتدخل بيننا الاصدقاء .. اقصد الاعداء .. وقطعوا علينا حديثنا .. واندمجنا في حديث آخر .. وانطلقت من صدورنا ضحكات ننتزعها من صدورنا .. كأنها تخرج من مصانع حديد .. وتعمدت ان اطيل السهر . كنت لا اريد ان اعود الى البيت .. لا اريد ان اكون وحدي ..

ولكن عدت مرغما ..

عدت بعد ان احكمت الحصار حولك .. عبد العظيم وخيرية .. كلاهما يحاصرك .. عبد العظيم يحاصرك خارج البيت .. وخيرية تحاصرك داخل البيت !

— ٩ —

.. وعشت فى انتظار ان تصلنى معلومات عن هذا الشاب الذى يتسكع تحت شرفتك .. وكان عبد العظيم قد نصب حوله شبكة هائلة ، ليصطاد بها كل شىء عنه ..

انك لا تتصورين ماذا يستطيع أن يفعله عبد العظيم .. ان تحت امره بوليسا خاصا ، اشبه بالبوليس السياسى .. وقد بدا هذا البوليس الخاص يعمل فى دائرة جديدة .. كانت اختصاصاته من قبل قاصرة على دوائر المال ورجال الاعمال وموظفى الحكومة .. لم يعمل من قبل فى دوائر الناس العاديين التافهين ، امثال هذا الشاب المتسكع !!

وقد تتبعه احد رجال عبد العظيم حتى عرف اين يسكن ، ومن هناك عرف عنه كل شىء ..

ان اسمه عادل فتح الله .. ويسكن فى حى شبرا قريبا جدا من بيتكم القديم .. وقد تخرج فى كلية التجارة ومضى عليه عام دون ان يجد عملا .. وهو من الشباب الوطنى المتحمس ، وسبق ان قبض عليه فى عدة مناسبات سياسية .. ودخل السجن مرتين .. ومعروف فى وزارة الداخلية بأنه من زعماء الطلبة .. ومن مثيرى الثورات .. و .. و ..وابوه يعمل موظفا فى الدرجة الخامسة بوزارة الاوقاف .. وله اخ لم يتم تعليمه ويشتغل كاتب حسابات فى ورشة .. واخت مخطوطة على وشك الزواج

.. وامه سيده طيبه معروفه فى الحى بالطيبه والورع .. والحى كله يعرف ان عادل يحبك منذ سنين .. وانك صديقه لاخته .. وانه سيطلبك للزواج بمجرد ان يجد عملا .. ولم يجرؤ احد من اهل الحى على ان يشوه هذا الحب . او يمسكما بكلمه جارحه .. ان عادل محبوب من كل الناس . وعلاقته بك علاقة يحترمها كل الناس .. ولكن الناس يقولون انك منذ انتقلت من حيهم انقطعت عن زيارة اخت عادل .. وان امك اصبحت تعارض مشروع الجواز .. وقال الحلاق الذى يقع دكانه فى شارعكم القديم « يقولوا ان فيه واحد باشا عاير يجوز البت الكبيره .. ماما فى الدنيا عجايب .. باه حد يصدق ان البت بنت الرجل الطيب محمد افندى السيد .. تبقى مرات واحد باشا » !

وعادل لم ييأس ..

ان جابر بواب العماره يراه بين كل يوم وآخر . وهو يسير على الرصيف المقابل ويرفع عينيه الى شرفتك ، ويراك وانت ابدا وحدك .. انك دائما مع والدتك .. ولم يحدث الا مرة واحدة ان رآك تخرجين وحدك من باب العماره .. ثم تسيرين مسرعة الخطا على شاطىء النيل وعادل خلفك .. وظل عم جابر ينتظركما حتى غبتما فى آخر الطريق .. ولكنك عدت بعد فترة وجيزة لم تستغرق اكثر من ربع ساعة .. عدت مسرعة الخطا ايضا ، وصعدت الى شقتك .. وكانت هذه هى المرة الوحيده التى تخرجين فيها وحدك خلال الستة شهور التى انقضت على انتقالكما الى عمارة شارع النيل .

ولكنكما تتراسلان ..

ان فتحيه الخادمه الصغيرة الغبيه . تنزل كل صباح وتفتح صندوق الخطابات الخاص بالسكان ، وتفتش فيه عن خطابات ..

وفى فترات متباعدة تخرج فتحية من العمارة وفى يدها خطاب تلقيه فى صندوق البوستة القريب ..

هذه هى المعلومات التى عرفتها عن عادل .. وعرفت منها لماذا عارضت فى الانتقال الى شارع النيل .. ولماذا بكيت كثيرا امامها .. وعرفت منها : لماذا تبدين حزينة يوما ، وسعيدة يوما .. وعرفت منها سر هذا الهدوء والاطمئنان والترفع .. انه الحب .. حب عادل ..

ماذا افعل به ؟

ماذا افعل بكما ؟

انى لا استطيع ان انافس عادلا فى حبك .. رجل فى الخامسة والخمسين ، ينافس فتى فى الرابعة والعشرين .. مستحيل !!

وانت بالذات .. انك لا تطمعين فى مالى ، حتى اغريك به .. ولست فى حاجة الى نفوذى حتى اغريك بنفوذى .. هل يمكن ان تحبينى هذا الحب المجرد النظيف .. كما تحبين عادل ؟!.

ووجدت نفسى اقف امام المرآة واطيل النظر فى وجهى .. ولأول مرة اكتشف هذه الاخاديد السود حول عينى ، كأن عينى قد توسدتا ظلام العمر .. وقد كان غرورى وتهافت النساء على ، يجعلانى اعتقد ان هذا السواد مما يغرى النساء .. كنت اعتقد انه كحل .. صنعته يد الله .. ولأول مرة ايضا ارى الشعر الابيض يملأ رأسى كأنه رايات الاستســـلام للزمن .. وكنت اعتقد ــ لغرورى ــ ان الشعر الابيض فيه سحر يجذب النساء .. كالورد الابيض ، وكثوب العرس .. ولأول مرة ارى خدى مهدلين .. وارى شفتى باهتين كأن الزمن قد امتص منهما لون الحياة .. وارى جسدى منتفخا .. قصيرا .. كأنه كيس منتفخ بالذهب !

هل يمكن ان تحبى هذا الشىء الذى هو انا ؟ !

هل يمكن ان تهجرى عادلا من اجلى ؟ ؟

ولكن .. كيف اجرؤ على هذا التفكير ؟

باى حق ..

ولماذا لا اترككما لحبكما .. وابارك هذا الحب .. واجمعكما فى بيت سعيد .. لماذا .. لماذا ؟

لماذا لا احاول اسعادك ، بعد ان اشتريت الملايين ؟ !

لماذا لا اشبع من الدنيا ؟ !

لماذا لا احترم نفسى ؟!

لقد قاومت كثيرا .. ولايام طويلة .. ولكنى فشلت .. فشلت فى احترام نفسى .. وكنت كلما اطلت التفكير فى عادل .. ازددت تمسكا بك .. وتطور تمسكى بك ، الى رغبة فيك .. ثم اصبحت رغبتى فيك شهوة .. اصبحت اشتهيك ، بكل ما فى الاشتهاء من دنس .. اشتهى جسدك .. واشتهى شفتيك .. واشتهى خصرك .. واشتهى ساقيك .. اشتهيك كما لم اشته امرأة من قبل .. انى دائما اشتهى الصعب .. اشتهى ما يملكه الآخرون ، اشتهيت عشيقات الآخرين ، وزوجات الآخرين ، وبنات الآخرين ، واموال الآخرين .. والآن اشتهيتك انت .. لانك لست لى ، ولا يمكن أن تكونى لى .. شيخ فى الخامسة والخمسين يشتهى فتاة فى الثامنة عشرة .. هل تدرين ما فى هذه الشهوة من عذاب .. انها اشبه بضرب السياط .. انها اشبه بلسع النار .. انها اكثر من ذلك .. انها الارق !

ورغم ذلك مكان على أن اكبت شهوتى .. اكبتها بعنف .. فلم اكن استطيع ان اطلقها .. كانت هذه الشهوة كحيوان بشع احسه فى صدرى واخاف ان اطلقه امامك فتخـــاف منى .. وتحتقرينى !

كنت اجبن من ان اريك حقيقتى ..

وكنت لا ازال اطمع فى أن انال احترامك يوما .. قبل احترام نفسى !

ماكتفيت بان احطم حبك لعادل .. ان امزق قلبك دون ان تدرى انى انا سر عذابك ، وانا السكين المغروز فى كبدك !

كيف ؟ !

لقد كان عبد العظيم يأتى الى كل يوم بخبر عن عادل .. وكان يلاحظ وقع هذه الاخبار على ، رغم المجهود الذى كنت ابذله لابدو امامه هادئا .. وكان يفكر مثلى فى وسيلة يقضى بها على عادل .. وقال يوما وهو ينظر الى كانه يشفق على :

ــ انا مش عارف الحكومة سايبة الولاد اللى زى سى عادل ده .. ازاى ؟ !

قلت وانا لا انظر اليه حتى اترك له الفرصة ليسرد خطته :

ــ ليه .. ماله عادل ؟ !

قال وهو يمثل الغضب :

ــ ده شيوعى .. ده شيوعى خطير .. ده طول الليل والنهار قاعد على قهوة فى شبرا وحواليه شوية عمال بيدرس لهم الشيوعية !

قلت وانا ابتسم ساخرا :

ــ يا شيخ حرام عليك !

قال وقد ارتفع صوته :

ــ حرام على ازاى .. ده شيوعى جدا .. ده عضو فى اللجنة المركزية .. ده متصل بستالين رأسا .. انا لازم ابلغ عنه مدير الامن العام .. يمسكه ويوديه فى داهية .. انا عارف الحكومة بتعمل ايه .. دى حكومة نايمة ؟ !

وكنت اعلم ان عادل ليس شيوعيا .. وعبد العظيم ايضا كان يعلم انه ليس شيوعيا .. ولكن كانت تهمة الشيوعية فى ذلك الوقت يمكن ان توجه الى اى انسان تريد الحكومة ــ او أريد انا ــ ان نتخلص منه .. ورغم ذلك فقد استقبلت اقتراح عبد العظيم بينما كأنى ارتحت لمجرد تصور عادل فى السجن .. بعيدا

عنك .. وفكرت برهة .. برهة قصيرة .. ثم فجأة صرخت في وجه عبد العظيم :

— اوعى تبلغ عنه .. ولا تعمل فيه حاجة .. انت فاهم .. انا باقولك اهو .. مش عايز عادل ده يجرا له حاجة ابدا !!

وتراجع عبد العظيم الى الوراء وفي عينيه خوف اثارته فيه صرختي .. وقال ولسانه يرتج :

— ده .. ده .. ده شيوعي !

قلت وانا انظر اليه بكل عيني .. النظرة التي يعرف بها مدى سيطرتي عليه :

— بلا شيوعي ، بلا زفت .. اسمع الكلام من غير مناقشة !

وسكت عبد العظيم ، وتدلى راسه فوق صدره ، وتنهد كانه يخرج من صدره ريح الشر ..

وكنت فعلا لا اريد لعادل ان يدخل السجن .. لم اكن مشفقة عليه .. ولم تنتبني نوبة خير وشهامة .. ولكني تنبهت الى انه لو دخل السجن مرة اخرى فسيزداد بطولة امامك .. يصبح بطلا جميلا يستحق مزيدا من الحب .. حبك .. وقد يدفعك الحب الى ان تقدمي على تضحية من اجله ، وتزدادي تصميما على انتظاره ..

ان تحول عادل السجن ، هو وسام يعلقه على صدره ، ويتباهى به امامك .. وانا اريد ان تكرهيه .. اريد ان تيأسي منه .. اريد ان اقنعك بانه لا يستحق حبك .. واقنعك بانه حبيب غادر .. واجعلك تتصورين انه هجرك .

وقال عبد العظيم بعد فترة صمت طويلة ، وكانه يئس من تكاثه :

— أمال حضرتك سعادتك نعمل فيه ايه .. نسيبه كده رايح جاي قدام العمارة ، وواكل عقل هدى ؟ !

وطلبلت عندما ذكر اسمك : كأنه يعايرني بحماقتي .. وقلت وأنا اخفي عنه عيني :

ـــ انا متهيألي ان عادل ده جدع ابن حلال .. انت مش بتقول انه عاطل ؟

ونظر الى عبد العظيم كأنه يستعد لأن يرى صاروخا ينطلق من رأسي ، وقال :

ـــ ابوه .. ما حدش عايز يشغله !!

قلت في هدوء :

ـــ شوف له شغلة !!

قال وكأن أمله قد خاب في ذكائي :

ـــ اشوف له شغله فين ده كمان !!

قلت كأني انهي عملا :

ـــ شركة القصر للمناجم كانت عايزه موظفين .. اسمته هناك !

قال في غيظ :

ـــ اوديه البحر الاحمر يتعد هناك بين العمال علشان يعمل لنا ثورة !

قلت وأنا ابتسم له لأهدىء من غيظه :

ـــ ولا ثورة ولا حاجة .. الشبان اللي زي دول اول ما يلاقوا أكل عيشهم .. يبطلوا سياسة !!

قال وهو يمصمص شفتيه كأنه يلعن سوء حظه :

ـــ انا مش مطمئن للمشروع ده !!

قلت :

ـــ خليها على مسئوليتي .. واذا عمل حاجه نرجعه بعد شهر ولا شهرين !!

قال :

ـــ واذا ما رضيش يشتغل ولا يسافر ؟

قلت :

— نبقى نفكر فى حاجة تانية !

وقام عبد العظيم ووجهه كتلة من القرف ، وما كاد يصل الى الباب حتى عاد والتفت الى قائلا كأنه ينبهنى الى شىء نسيته :

— انما ده أول ما حيلاقى شغل حايتلم على هدى ويتجوزها ..

قلت :

— ما يقدرش .. انا دلوقت أبوها .. وانا اللى لازم أوافق !!

قال :

— ده لسه باعت لها جواب امبارح !

قلت وانا اضع بين كلماتى مغزى يفهمه عبد العظيم :

— ما تشوف لك حل فى حكاية الجوابات دى .. اظن ماليش لازمة لها !!

قال وهو يفتح الباب ويخرج :

— حاضر !!

ولم يكن من الصعب على عبد العظيم ان يحول دون وصول خطابات عادل اليك .. كل ما حدث أن جابر البواب أصبح يفتح صندوق الخطابات قبل أن تفتحه خادمتك الصغيرة الصبية ..

وقرأت أول خطاب من عادل حصل عليه جابر البواب ..

ولم اكن أدرى أن الخطابات الغرامية بين حبيبين فى عمر الشباب .. يمكن أن تكون بمثل هذه العفة .. وبمثل هذه البساطة .. انه لا يتغزل فيك .. ولا يشكو .. ولا يتأوه .. انما يحدثك حديثا واضحا جادا عن مشروع الزواج .. عن بيتكما .. وعن الأبواب التى يطرقها باحثا عن عمل .. ثم يحدثك عن أخته ، وعن أمه .. وعن ..

وهنا انطلقت عينى تلتهم السطور ، والكلمات تقفز فى وجهى

كأنها تصفعني .. صفعات كثيرة ، قاسية مؤلمة .. انه يقول لك :

« انى لا استطيع الى الآن ان اقنع بما تقولينه عن هذا الباشا .. انك تقولين انه يرد جميل والدك عليه .. وتقولين انه لم يبد منه ما يسيء اليك ، أو الى عمتى نفيده .. هذا كلام لا استطيع ان اصدقه أو اقتنع به .. انى اعلم انك صادقة فيما تقولين .. ولكن هذا لا يعنى انك لست مخدوعة فى هذا الباشا .. ان هؤلاء الباشوات لا يردون جميل احد عليهم .. ولا يفعلون خيرا لوجه الله .. لابد ان هناك شيئا وراء كل هذا .. شيئا لم اكتشفه بعد .. وهم يقولون فى شبرا انه سيتزوج عمتى نفيدة .. ويروون حكايات اشبه بالأساطير ، يحاولون أن يفسروا بها هذه المعجزة التى حدثت فى حيهم .. وقد كدت اقاطع اهل الحى كلهم ، ولم اعد اذهب الى دكان الاسطى خليل الحلاق .. فانى لا أطيق أن اسمع حديثا عنكما .. انى واثق من ان عمتى نفيدة لا تفرط فى شىء يشينها ، ولكن المقاومة لها حدود ، والاغراء ليس له حدود .. ثم انى احس احساسا عميقا بأنك اصبحت تعيشين فى دنيا ليست دنياى .. دنيا بعيدة ، مخيفة ، تثير فى صدرى روح العداء .. وكم كنت اتمنى ان اراك ثانية فى شبرا .. فى بيتكم القديم .. اراك تعيشين مثلنا .. فى بساطة .. وتزورين اختى .. و .. ولكن ربما كانت عمتى نفيدة على صواب اذ قاطعتنا وقاطعت حينا .. انك لو جئت الينا الآن لالتف حولك الناس ، واخذوا ينظرون اليك كمخلوق عجيب .. ولكن ثقى انى لم اياس .. سآخذ عملا .. وسنتزوج .. ولو اضطررت ان احطم الدنيا .. »

واعدت قراءة السطور .. كانى اعرض وجهى مرة ثانية للصفع .. ثم خبطت بيدى على مكتبى .. وقمت اروح واغدو فى الغرفة . كالأسد الغاضب . وقد امتلأ صدرى بالثورة حتى

لم يعد فيه مكان لضميرى .. وانطلقت منه طاقة رهيبة .. تتحدى .. وتدمر ..

لم يعد عادل انسانا يحبك ..

ولكنه اصبح انسانا لا يحبنى !!

انه يريد ان يأخذك منى حتى لو كنت كريما معكما .. حتى لو اعترفت لكما بحبكما ..

ان المعركة اعلنت ..

معركة بينى انا ، بكل هيبتى ، ونفوذى ، وثرائى .. وبين هذا الشاب التافه الذى لا يدرى به احد ..

ورغم ذلك فقد كنت مضطرا ان اكتم غيظى .. وان اقود المعركة فى هدوء حتى لا اخطىء فاجعل من عادل شهيدا ، فيسمو فى عينيك وفى قلبك .. كنت اريد ان احطم حب عادل فى قلبك . قبل ان احطم عادل نفسه !

وفى خلال اسبوعين ارسل لك عادل ثلاثة خطابات .. استوليت عليها .. وفى الأسبوع الثالث نزلت الخادمة الصغيرة الصبية من العمارة وفى يدها خطاب .. وتلقاها عم جابر البواب . ليسألها فى لهجته الآمرة التى يخاطب بها كل خدم العمارة :

— رايحة فين يا بت !!

وقالت الصغيرة وهى ترتعد امامه :

— رايحة ارمى الجواب ده فى صندوق البوسته ..

قال :

— جواب لمين ؟

قالت :

— ده جواب من ستى هدى .. باعتاه لخالها فى اسكندرية !

قال :

— ورينى كده !

واخذ منها الخطاب ، وقرأ عليه اسم عادل .. ثم نادى

احد مساعديه من بوابي العمارة . واعطاه الخطاب . وأمره أن يلقيه في صندوق البريد .. ثم قال لفتحية الخادمة :

— ارجعي انتي يا بت ..

وقالت فتحية وهي ترتعد :

— دى ستى تموسى .. دى موصياني ارمي الجواب في الصندوق بنفسي !

وصرخ فيها عم جابر :

— ملاش مرقعة بنات .. ستك موصياكي . ولا اسمى اللي عامره بلعبى في السكك .. على مين اللعب ده .. اذا كنتي خايفة من ستك ما تقوليش لها حاجة !!

وسكتت فتحية أمام سطوة جابر البواب .. وظلت تشك . ثم عادت اليك دون أن تقول لك شيئا مما حدث .. بل اقسمت انها وضعت الخطاب بيدها في الصندوق ..

وجاءني خطابك . ومعه تقرير بكل ما حدث ..

وقرأته .. انك تناديني عادل .. « عزيزى عادل » .. ولكن الحروف كلها تنطق بالحب .. اسمى مراتب الحب .. الحب العف الخجول الذى يلتف في غلالة . ويضن عن أن يعلن عن نفسه ولا يعرف الا طريقا واحدا .. طريق الزواج .. وفى الخطاب دموع تأبى أن تفصح عن نفسها فتختفى خلف السطور . انك تشكين له من تأخر خطاباته عنك .. وتقولين ان خطاباته اصبحت النافذة الوحيدة التى تدخل منها الحياة .. وتروين له كلما خطر لك في يومك . وتشاءمين منه .. ثم تقولين له :

« ان الناس الذين يحيطون بنا يثيرون دهشتى .. كأن ليس وراءهم هم الا اللبس والتلع . واللهو . وحضور الحفلات .. انى أحس انهم يسخرون منى عندما احدثهم عن ثوب صنعته بنفسي .. او عندما يروننى اكنس حجرتى .. وقد حاولت « شوشيت » ابنة طنط نعيمة التى حدثتك عنها ان تعلمنى الرقص

فرمضت ، واحدت ترقص امامى وانا اشفق عليها .. انها عبيطة .. ليس في راسها الا الرقص .. وقد تضايقت جدا ، جدا ، من هذه الحياه .. انى في كل يوم اتمنى ان اعود الى شبرا .. وصورة طنط وسيمة لا تغيب عن قلبى لحظة واحدة .. ودائما اذكرهما .. و .. » ..

الى هذا الحد تحبينه .. ؟

كل هذا الثراء الذى احطتك به ، لم يلهك عن شبرا وحنينك اليها ؟ .. انك كوالدك .. غاوية فقر !!

ورغم ذلك مللى ابركك لمصير والدك !!

وقد رايتك خلال هذه الاسابيع .. كنت ازوركما دائما .. وبدات المح غلالة من الحزن العميق الصامت تلتف حول وجهك النحيل .. لقد ازددت صمتا .. وانطواء .. وفى عينيك نظرات حائرة . كانك سعيدين ولا تدرين سر عدائك .. وكنت لا تكادين تجلسين بينا حتى تعودى الى غرفتك .. ثم تاتين الينا مرة ثانية .. ثم تعودين الى غرفتك .. والنظرات الحائرة فى عينيك .. نظرات متسائلة .. فى تساؤلها الم .. تسالين بها كلا منا .. وتسائلين الجدران .. وتطلع الاثاث .. وتسالين الله .. اين عادل .. اين عادل ؟!

ولم اكن استطيع ان اواجهك بنفسى .. كنت كالمحتال الذى يخفى عينيه عن ضحيته حتى لا يفتضح احتياله .. وكان الشىء الذى في صدرى يتحرك بعنف ، ويكتم انفاسى ويمزق رئتى ، ولكنى كنت احتمل ، وامنى نفسى بانى بعد ان ابعد عنك عادل .. ستنسينه .. وستكون هذه آخر جريمة ارتكبها واوذيك بها .. وبعدها ستخلصين لى . وسأستطيع ان اكبت اشتهائى لك .. وسأبدو امامك نظيفا نقيا لتتخذى منى والدا ، تشعر بحنانك .. واحترامك !

ولكن عادل لا يزال يسكع امام الرصيف المقابل .. وهو يبدو

دائما عاصبا لا يرفع رأسه اليك كما تعود .. انه يشكو في خطاباته التي استوليت عليها — من اهمالك له . وعدم الرد عليه .. ويتهمك بأن الحياة الجديدة التي تعيشين فيها قد أسرتك وأنستك وعدك ..

وقد حاولت انت مرة أن تخرجي اليه . عندما مر تحت شرفتك .. ولكن جيرية وأمك حالتا دون خروجك من البيت ..

وكان يجب أن أمنع عادل من تسكعه تحت شرفتك ..

كان يجب أن أمنعه حالا قبل أن تتفضح سكما أمر الخطابات المسروقة !!

ماذا أفعل ؟ !

ولم أجهد تفكيري كثيرا .. انما وضعت خطة بسيطة تبدو من بساطتها كأنها خطة ساذجة !

اتفقت مع جيرية على أن تدعوك انت وأمك لتمضية يومين في عزبتها القريبة من القاهرة .. وكنت أقصد من ذلك أن ابعدك عن العمارة الى أن اتخلص من عادل .. وقد قبلت والدتك الدعوة . وانقدت انت وراءها في استسلام .. كنت يائسة الى حد لا تستطيعين معه الا أن تستسلمي ..

وبعد ذلك بدأت أنفذ بقية الخطة عن طريق الاتفاقات التي اعتدها مع عبد العظيم .

جمع عم جابر البواب أعوانه ومر سوا لعادل حين يمر أمام العمارة .. وانقضى يوم ويومان . وثلاثة أيام . وعادل لا يظهر .. وأنا جالس في مكتبي في انتظار الأنباء . كأني أقود معركة حقيقية .. وجيرية تتصل بي بالتليفون وتسألني :

— مش نرجع بقى يا حسين .. أنا عندي مواعيد في مصر ؟ !

فأقول لها في رجاء :

— خليكو عندكم كمان يوم .. علشان خاطري !!

وفي اليوم الرابع مر عادل أمام العمارة .. ورفع رأسه الى

شرفتك . فوجدها مغلقة .. وتعدى العمارة ، ثم رجع يسير أمامها مرة أخرى .. وهنا انقض عليه احد اعوان عم جابر ووقف في وجهه صارخا :

— انت بتعمل ايه يافندي انت ؟!

وقال عادل وعيناه تضطربان :

— وانت مالك .. باشم هوا !!

وصرخ فيه الرجل :

— بتشم هواء .. ده انت بقالك ست اشهر رايح جاى قدام العماره .. ما شمتش شم هوا .. يا فندي يا هرؤ .. يا ..

ورفع عادل يده ولكم الرجل في وجهه .

وفي لمحة كان كل اعوان عم جابر ومعهم بوابو الحى ، فوق عادل .. وخرج من بينهم يعدو وقد تمزقت ثيابه وتورم وجهه .. وعدت انت من عزبة خيرية ..

ولم يعد عادل يمر من تحت شرفتك .. لم تقع عليه عيناك منذ ذلك اليوم .. ولكنه أرسل اليك خطابا استوليت عليه ، يروى لك فيه ما حدث له ، ويؤكد لك انه لم يعد يمر امامك لا خوفا من البوابين ولكن حرصا على سمعتك في الحى ، وانه كان يستطيع ان يجمع أصدقاءه واهل شبرا وينتقم لنفسه من هؤلاء البوابين . ولكنه لم يفعل .. حرصا على سمعتك ايضا .. ثم يقول لك . وقد بدا اليأس يتسرب الى سطوره ، انه عرضت عليه وظيفة في شركة القصير على ساحل البحر الاحمر ، وانه يفكر في قبولها .. ولكن قبل ان يقبلها سيقدم على محاولة أخيرة .. سيرسل لك والدته واخته ليخطباك اليه .. ليعرضا عليك الزواج .. ليأخذاك منى ؟ !

هل يستطيع ان يأخذك منى ؟ !

وفى خلال هذه الفترة الطويلة كانت مظاهر الحياة التى نقلتكما اليها قد بدأت تتسرب الى بيتكما .. كانت خيرية تدفع والدتك برفق ، ولكنها لا تكف عن دفعها .. وكان يخيل الى أن خيرية قد بدأت تتلذذ من هذه المهمة التى كلفتها بها .. أصبحت كالعالم الاجتماعى فى رواية « بيجماليون » الذى صنع من احدى بنات الشارع ، سيدة من سيدات الطبقة الراقية ..

وقد دعتكما خيرية لزيارة فى بيتها لتريكما كيف تعيش .. وأخذت أمك فى زيارات لبعض صديقاتها لتريها أن البيوت كلها مفروشة بالمقاعد الأوبيسون المذهبة .. وكانت والدتك بذكائها تحاول فى كل مرة تزور فيها خيرية أو احدى صديقات خيرية ، أن تتعلم شيئا جديدا .. كانت تخطو بخطوات مترددة بطيئة ، ولكنها خطوات لا تتوقف .. وكانت ترهب هذه المظاهر الجديدة التى تواجهها ، ولكن الرهبة بدأت تخف يوما بعد يوم .

وكنت الاحظ كل تطور يطرأ على والدتك وعليك بدقة .. كأنى أرقب تجربة كيميائية مثيرة .. لاحظت ان كعب حذاء والدتك قد ارتفع قليلا .. ولاحظت أول مرة سقطت فيها طرحتها عن رأسها .. ثم لاحظت أول ثوب ملون ارتدته .. وكان لونه رماديا .. ثم لاحظت أول مرة عادت فيها أمك من عند الحلاق الذى صحبتها اليه خيرية .. ولاحظت أول مرة نثرت فيها قليلا من

« أربيج » .. ولاحظت ضحكتها وهى تتسع يوما بعد يوم .. ودخل بيتكم أول سفرجى .. لقد كان يعمل عند خيرية وأهدته لكما .. ثم دخل أول طباخ .. ثم لاحظت أول ثوب ترتديه أمك وقامت بتفصيله مس « الخياطة » التى تصنع ثياب خيرية .. وأول ثوب جاهز ترتديه انت .. لقــد قالت لى والدتك انك عارضت كثيرا ، لانك لازلت تصرين على أن تصنعى ثيابك بنفسك .. وقلت لى انت : « ده أنا اقدر اعمل بثمنه سبع فساتين » .. ووضعت تحت امركما سيارة وسائقا .. وكان هذا السائق ينقل الى اخباركما اولا بأول ، وكان رسولا بينى وبينكما ، بدلا من التليفون الذى كنت اصر ـــ حتى ذلك الحين ـــ على عدم ادخاله فى بيتكما .. واخيرا .. طردت أمك الخادمة فتحية .. الخادمة الصغيرة الغبية .. ويوم طردت احسست ان هذا هو اليوم الاول الذى انتقلتما فيه من حى شبرا .. واحسست ان احدا لن يجرؤ بعد اليوم ، على أن يغلق بابكما فى وجهى ..

وكل هذه التطورات كلفتنى ثمنا غاليا ..

كانت والدتك قد اقبلت على الشراء ، بعد ان تعودت ان تحيل حساب ما تشتريه على .. وكنت انا الذى ادفع أجر السفرجى ، والطباخ ، والسائق .. وثمن بنزين السيارة .. ورفعت المبلغ الذى ادفعه لكما كل شهر ، خمسين جنيها اخرى بعد أن شكت من مصروف المطبخ !!

ولم اكن سعيدا وانا ادفع من جيبى كل هذه النفقات .. كنت كلما سلمت فاتورة ، أو دفعت مخصصاتكما فى اول كل شهر ، احس كأنى اقتطع من لحمى قطعة أرميها فى البحر ..

وكنت أسائل نفسى : لماذا .. لماذا .. وكان يخيل الى احيانا انى جننت .. ولكن كان فى اعماقى دائما أمل يغرينى بأن أستمر فى هذا الجنون .. كنت اعتقد احيانا أنه أمل فى ان اصبح

رجلا شريفا ، يعطى دون ان يأخذ .. وكنت احس احيانا ان هذا الأمل يحنى تحته دائما خبيثا .. دائما لان اذل والدك فيكما .. ان استولى على زوجته وعلى ابنته بعد ان عجزت عن الاستيلاء عليه .. دائم لأن امتلك كل الناس .. واذلهم !!

ورغم ذلك .. رغم كل هذه التطورات التى خطرت على حياة والدتك .. فان طبيعتها لم تتغير .. تغير ثوبها ، وحذاؤها ، وتسريحة شعرها .. ولكنها هى نفسها لم تتغير .. رغم انها حاولت ان تتغير .. حاولت ان تغير عقليتها .. وحركات يديها .. ونظرات عينيها .. ولكنها لم تستطع .. لم تستطع ايضا أن تضيف الى بيتها هذه اللمســة التى تعــبر عن رقى الذوق النسائى .. فلا يزال فى الحمام طشت غسيل وقبقاب .. وقد وضعت فى الزهرية وردا صناعيا مما يباع على رصيف شارع فؤاد ، الى ان اقنعتها خيرية بان البيــوت الراقية لا تدخلهــا الا الورود الطبيعية .. كانت امك كالغراب الذى حاول ان يقلد الطاووس فى مشيته ، فلم يستطع ، ونسى مشيته الأصلية .. واصبح يقفز قفزات مضحكة !!

وكنت قد تعودت أن اتناول طعام الغداء عندكما اغلب ايام الأسبوع .. وغالبا ما تكون معنا خيرية واحيانا كثيرة يكون معنا عبد العظيم .. ولم نكن ندعو والدتك الى سهراتنا .. كنا نتخلى عنها فى الليل ..

وكانت احاديثنا قد تبسطت ، ووجدت منافذ كثيرة .. لم نعد نحس بالافتعال ونحن نتبادل الأحاديث معكما .. كان كل ما نحرص عليه الا نكون ماجنين .. الا نمس حياء والدتك او حياءك .. كنا نعلم ان اكثر ما تحرصان عليه هو الشرف .. الشرف كما تفهمه الطبقة الوسطى .. هــذا الشرف المتعلق بالجسد .. وقد استطاعت خيرية ان تكتسب ثقــة امك بان

اقتنعت انها امرأة شريفة ! لم يمسها رجل الا روحها .. وان كل نساء الطبقة الغنية شريفات .. جدا !

ولكنى بدأت الاحظ ان والدتك تعاملنى معاملة ارق مما يقتضيه شرف الطبقة الوسطى .. كان وجهها يتهلل بمجرد ان ترانى ، كأنها ترى فى وجهى ليلة القدر .. وكانت عيناها لا تستطيعان على فاذا التقت بهما عيناى تصاعدت الدماء الى وجنتيها ، وارخت جفنيها كالعذراء .. وكانت عندما تصافحنى احس بيدها ترتعش فى يدى .. وكانت تكاد تدللنى .

شكوت مرة من حذائى عقب الغداء ، وخلعته .. فاشترت لى فى اليوم التالى شبشبا واحتفظت به لى فى بيتها ..

وكنا نجلس على مائدة الغداء ، فلا يهتم الا بى .. كل من ده يا حسين .. ده انا اللى عملاه بنفسى علشان خاطرك .. كل يا حوبا ده انت بتشقى ، وبتموت نفسك .. انا من يوم ما عرفت انك بتحب الوبكة ، اديت امر للطباخ ان ما حدش يعمل الوبكة فى البيت ده الا انا .. الخ !!

وكنت التفت الى خيريه ، وانا اسمع هذا الكلام ، فاجدها تبتسم ، وتخفى تحت ابتسامتها ضحكة كبيرة ..

واعود انظر الى والدتك .. الى عنقها العاجى المشرب بالاصفرار .. العاج الذى اختزن طويلا فى محل العاديات .. والى عينيها اللتين يطل منهما ذكاؤها الساذج .. والى وجنتيها المنتفختين كأنهما ثمرتا تفاح طالتا حتى بدأ العفن يدب فيهما .. والى شفتيها المضمومتين فى رفق كأن احداهما تحمى الأخرى من شفتى غريب .. واتساءل :

— ماذا تريد هذه المرأة ؟!

انى لا اريد شيئا .. مستحيل .. لا اريد شيئا ابدا !

ولكن المفاجأة الكبرى كانت يوم دخلت والتفت الى جدار حجرة الصالون .. فلم اجد صورة المرحوم !

وابتسمت فى صدرى ابتسامة خبيثة .

هل انتصرت عليه ؟ !

هل طردته ؟ !

هل عرف وهو فى قبره انى كنت على حق فى اختيارى الطريق الذى سلكته ، والذى رفض ان يسير معى فيه ؟ !

هل اقتنع بقى استطيع ان اشترى كل شيء حتى زوجته وابنته ، واضعهما فى بيت ليس فيه صورته معلقة فوق الجدار ؟ !

ولاحظت امك انى أطيل النظر الى مكان الصورة .. المكان الشاغر .. فقالت وهى تخفى عينيها عنى :

ــ أصلى بعت أغير البرواز .. ماكانش ماشى مع الصالون !

وتدفقت الدماء الى وجنتيها .. الى التفاح الذى دب فيه العطن .. ثم تشاغلت عنى ، وتظاهرت بأنها تعدل من وضع أحد المقاعد لتدارى ارتباكها .. واخذت أرقبها بعين خبير .. خبير فى النساء !

ولكن ، ماذا تريد !

ماذا تريد امرأة من الطبقة الوسطى ، من رجل مثلى .. انى اعطيتها من مالى أكثر مما تطمع فيه .. فماذا تريد أيضا ..

وسألت خيرية على انفراد :

ــ انتى تلقى ايه منى لتفيده !!

قالت وهى تضحك :

ــ ولا حاجه .. قلت لها انك معجب بيها خالص ، وانك متعشرها ست بيت ممتازة !

وسكت ..

انها الطريقة التى تعودت خيرية ان تقود بها النساء الى فراشى .. ان تسقط فى اذن كل منهن كلمة تثير بها طموحها .

وعادت خيرية تقول :

— على فكرة .. انا لسه مصممة ان نوقك انحط توى !!
— احلفلك بايه .. انا مش عايز منها حاجة ..

قالت :

— ما فيش لازمة .. انا عارفاك كويس !

***

.. وكنا مدعوين الى الغداء عند خيرية .. انا وامك وعبد العظيم .. ولم تكوني معنا .. تعمدنا ان نتركك فى البيت ، فقد كنت أريد ان احدث امك عنك .. كنت أريد ان اعدها لزيارة ام عادل وشقيقته ، اللتين قال عادل فى خطابه ، انه سيرسلهما ليخطبك اليه ..

وجاءت امك تتارجح فوق حذائها العالى ، تميل أحيانا الى الأمام كانها تكاد تسير على ركبتيها ، وتميل حينا الى الوراء كانها تكاد تقع على ظهرها ، وتضطر لكى تحفظ توازنها ان تثنى ساقيها وهى تسير ، فتبدو كشبح يخب فى قفطانه ..

وقامت خيرية تستقبلها ، فانحدفت عليها امك وقبلتها فوق كل من وجنتيها ، بينما خيرية تنظر الى من وراء ظهرها كانها تقول لى : « عاجبك المصايب دى ! » .. وتجاهلت نظرة خيرية ، وانحنيت اقبل يد أمك ، وهى تصافحنى .. كانت المرة الأولى التى اقبل فيها يدها .. كنت فى حاجة يومها الى التودد اليها .. وقد حاولت امك أن تسحب يدها قبل أن المسها بشفتى .. ولكنى أمسكت باليد ، وضغطت عليها باصابعى ضغطة خفيفة ، ثم ضغطت فوقها بشفتى .. أحاول أن اثير معنى خاصا فى راس أمك ، وقلبها .. واستسلمت هى .. لقد رأتنى اقبل يد سيدات كثيرات .. ورأت رجالا كثيرين يقبلون يد خيرية .. وعرفت انها عادة يقرها مجتمعنا .. ورغم ذلك فقد غلبها طابعها — طابع الطبقة الوسطى الصغيرة — وقالت ويدها ترتعش بين اصابعى :

— العفو يا باشا !!

ورممت راسى ونظرت اليها .. الى وجنتيها اللتين طابتا حتى بدأ العطن يدب فيهما ، وقد احتقنتا بدماء الحياء فبدت كل منهما كأنها دمل كبير .. ونظرت الى عينيها وقد ارختهما كأنها عروس تعيش فى حلم ليلة الزفاف .. وقلت :

ــ انتى النهارده شيك خالص ، يا تميده !!

وازداد ارتباكها وهى تقول :

ــ كله من خيرك !

ثم سارت فى خطوات اكثر ترنحا ، ومدت يدها الى عبد العظيم الذى صافحها وهو يشيح منها بوجهه ، كأنه يبتعد بأنفه عن رائحة كريهة .. ان عبد العظيم يكرهها .. ويكرهك .. ويكره خالك .. يكره المشروع كله الذى يدور حولكما .. لا أدرى لماذا .. ربما لأنه لا يستطيع ان يفهم هذا المشروع ، ولا ان يفهم مبرراته ودوافعه .. لا يستطيع ان يفهمنى !

وجلسنا نتحادث .. حديثا عاديا تحرص خلاله على ان ننافق امك ، وعلى ان نبدو شرفاء .. الى ان قالت خيرية :

ــ دى هدى اليومين دول بقت زى الورده .. ده انا اعرف شوية شبان معجبين بيها جدا .. ابن المرحوم شريف باشا ، وابن الاميرة انجى ، وابن خليل باشا عبد الله .. وغيرهم كتــير .. كلهم بيقــولوا انهم ما شــفوش بنت بالأدب ده ولا بالجمال ده ..

ولمعت عينا امك ، كأنما انعكس عليها بريق فاترينة جواهرجى .. ثم اخفت نظرتها سريعا ، وقالت كأنها تحميك من الحســد :

ــ والنبى ده هدى هفتانة ومش عاجبانى اليومين دول .. بس لو كانت تسمن شوية !

وقلت قبل أن تفيق امك من احلامها .. الاحلام التى تراك فيها زوجة لابن باشا أو ابن اميرة :

— الحقيقة احنا لازم نفكر فى جواز هدى من دلوقت .. مافيش حد يا تفيده تعرفه وينفع لها !

ومد عبد العظيم وجهه الى كانه محاول ان يقرا عينى ، ثم كور شفتيه الطيطتين كانه يبصق على الارض ..

وقالت امك وهى تضع اصبعيها تحت ذقنها .. لا تزال بنت بلد .. كأنها لا تجلس على مقعد اوبيسون مذهب ، ولا ترتدى ثوبا حاكته لها مدام « سلفاتى » ودفعت ثلاثين جنيها ثمنا له .. وقالت :

— والنبى ما اعرف حد .. انما لما كنا ساكنين فى شبرا ... و ..

وصاحت خيرية تقاطعها :

— شبرا .. هدى تتجوز من شبرا ؟ !

وقلت معتقا كانى اخط امك على راسها خبطة اخرى لافيقها من ذكرياك شبرا :

— لا .. لا يا تفيده .. هدى لازم تتجوز واحد يعرف يعيشها زى ما هى عايشة دلوقت !

قالت امك وهى تدير عينيها بينى وبين خيرية كانها تعتذر لنا :

— ماهو انا كمان باقــول كده .. ده انا حتى بالامارة ، لا باروح شبرا ولا بقيت اعرف اللى فيها !!

قلت وانا اضغط على كلماتى :

— بكره يجروا وراكى .. ويطمعوا فى هدى !

قالت كانها تطمئننى :

— ومين يديهم وش .. ده بصــدهم .. ده انا تاهماهم وعلحتاهم وخابزاهم !

وابتسمت وانا اسمع اسلوبها فى الحديث .. انى احاول ان امحل المستحيل . اذ احاول ان ارتقى بها من طبقة لطبقة ..

واحسست كأني اشفق عليها .. وفى شفقتى كثير من السخرية والازدراء !

وقمنا الى مائدة الغداء .. وطافت بنا الاطباق ، وأمك تعلق على كل طبق كأنها تخشى أن يعجبنى :

تعرفى يا خيرية ، كان حق الطباخ يزود السمنة فى الرز شويه !

وقالت خيرية وهى تحاول أن تقلدها فى حديثها :

ـ لك حق يا تفيده يا أختى ..

وطاف الطبق الثانى ، وقالت والدتك عندما رأتنى مقبلا عليه :

ـ برضه اللحمة عايزه سوا .. ده انا باعمل اللحمة ام شقشاق ، انما ترد الروح !

وقلت لأمك كأنى أريحها من مخاوفها :

ـ الحقيقه يا تفيده اللى ياكل من أيديك ، ما يقدرش ياكل اكل اى طباخ .. ده انتى ست بيت عجيبه ..

وعادت الدماء تتصاعد الى الوجنتين اللتين دب فيهما الهطل .. وسكتت وقد أرخت جفنيها كأنها اقتنعت بأنى أطلبها للزواج ؟

ونقل عبد العظيم عينيه بينى وبينها ، ثم كور شفتيه الغليظتين كأنه يهم مرة أخرى بأن يبصق على الأرض ، ثم عدل عن رأيه وابتلع بصقته !

وانتقلنا الى الصالون بعد أن انتهينا من الغداء ، وتعمدت أن أجلس بجانب أمك .. وهى تبتعد عنى ، ثم تقترب ، ثم تبتعد .. كأنها بندول ساعة خرفة .. أو كأن أنفاسى تثير فيها رعشة ..

وطافت بنا كئوس « اليكير البيرمنت » وتناول كل كأسه ومدت أمك يدها .. ثم عادت وسحبتها .. وقلت لها مشجعا :

ـ ده نعناع .. مهضم !!

ورشفت من كأسى كأنى القى عليها الدرس الأول ..

وسطرت امك الى خيرية .. فتجاهلت نظرتها لتفتهمها ان شرب « البيرمنت » امر عادى لا يستحق تبادل النظرات .

ولم تنظر الى عبد العظيم ، ولو نظرت اليه لرأت عينيه تحلقان فيها ، وانفاسه تتهدج ، كأنه يرقب سيف الجلاد مرفوعا فوق رقبة برىء !

ومدت امك يدها والتقطت الكاس ، ثم عادت وترددت ، وقالت والكاس قريبة جدا من شفتيها :

— متهيأ لى انه خمره !!

قلت ساخرا ، هازئا بها :

— خمره ايه .. باقولك ده روح النعناع .. عمرك ما شربتى روح النعناع !

وجرحتها لهجتى الساخرة ، وكأنها ارادت ان تثبت لى انها ليست جاهلة ، فقالت :

— بس انا باحبه مغلى !

قلت :

— دوقى ده بس .. ده معمول فى فرنسا ، وبيجى جاهز متعبى فى القزايز !

وعادت تنظر الى فى تردد .. ثم تغلبت على ترددها ، ورفعت الكاس وقذفت بكل ما فيها الى جوفها .. ثم ازدرد وجهها وسعلت سعالا حادا ، واخذت تضرب على صدرها بيدها ..

ولم يضحك احدنا .. كتمنا ضحكاتنا فى صـــدورنا ، حتى لا نجرح كبرياءها .. وقالت وهى لا تزال تسعل :

— يا .. ده تقيل قوى .. مش كنت تقوللى يا حسين .. اخص عليك !

وقالت خيرية :

— انتى اللى لازم عندك برد !

وقلت وانا اخبط بيدى على ظهرها لاساعدها على التخلص من نوبة السعال :

ــ عرفتى باه انه نعناع ؟ !

قالت :

ــ بس تقيل قوى يا حسين .. دول زى ما يكونوا جابوا فدان نعناع وعصروه فى كبايه !

وضحكت .. وضحكت خيرية .. واكتفى عبد العظيم بان يبتسم ابتسامه كبيرة ، كانه يحيى الخطيئة وهى تسعى نحو جسد جديد !

كان هذا هو اول كاس فى حياة أمك ..

كاس من خمر النعناع ..

ولم اكن ادرى ان كاسا واحدة .. يمكن ان تجر وراءها بحرا من الخمر !

وقلت لوالدتك بعد ان استراحت من نوبة السعال ، قلت كأنى اذكرها :

ــ تفتكرى هدى تتجوز دلوقت ، ولا لسه بدرى ؟

قالت :

ــ والنبى ما انا عارفه يا خويا .. انما هى عدت العشتاشر سنة !

قلت :

ــ على كل حال العريس تحت أيدى .. انما انا باشوف نفسى شوية .. يعنى حانستعجل على ايه .. انا حاجوزها احسن جوازة فى البلد !

قالت :

ــ اللى تشوفه يا باشا .. ما هى بنتك !

واطمأننت .. عرفت كيف اثير أطماع والدتك فى زوج ثرى مثلى ، لا يعود بك الى حى شبرا .. ولا يكون : عادل !

وبعد أن خرجنا ، اتصلت بخيرية فى التليفون ، واتفقت معها على بقية الخطة .. قلت لها ان والدة عادل واخته ستزورانكما يوم الخميس صباحا ، لتخطبك اليه وانها يجب ان تكون بجانب والدتك حتى تفسد هذه الزيارة ، بحيث لا تعود ام عادل تفكر فى زيارتكما مرة ثانية .. وحتى ييأس عادل من هذا الزواج .. واوصيتها ان تعمل على ابعادك عن البيت اثناء الزيارة ، وان تعمل على الا يصلك خبرها ..

وتم كل شيء كما أردته ..

وذهبت خيرية اليكما فى الصباح الباكر من يوم الخميس .. ولم تكونى ، لا أنت ولا أمك على علم بالزيارة المرتقبة .. فقد اكتفى عادل بتحديد موعدها فى خطابه .. الخطاب الذى استوليت عليه ..

واستطاعت خيرية ان تقنعــك بأن تذهبى مع ابنتهـــا الى الخياطة ، وهكذا أخرجتك من البيت .. وجلست مع امك فى غرفة نومها .. تتحادثان وتسلط عليها كل ذكائها ولباقتها الى ان ارتفع رنين جرس الباب كأنه يعلن رفع الستار عن الفصل الأول من المسرحية .. وجاء السفرجى يبلغ امك أن بالباب سيدة تقول انها « الست ام عادل » وكريمتها .

ورفعت امك حاجبيها فى دهشة وقالت :

— دى ست شفيقة جارتنا فى شبرا .. يا ترى ايه اللى جابها دلوقت .. ده انا ما صدقت انســاهم !

وقالت خيرية :

— لازم وحشتيهم .. ولا عايزين يطمنوا عليكى .. ما هو بعد ما الخير ينزل على واحدة ، كل حبايبها بيفتكروها .

وقالت امك :

— تكونش جاية تخطب هدى ، ما هى من زمان بتتكلم عليها !

وقالت خيرية :

ـ خصوصا ان هدى احلوت قوى من بعد ما سبتم شبرا !!
وقالت امك كانها تحاول ان تتخلص من عبء ثقيل :
ـ انا باقول بلاش اقابلهم .. السفرجى بروح يقول لهم انى خرجت ..
وقالت خيرية فى ذكاء :
ـ بالعكس .. انتى تقابليهم وتفهميهم انك فاهماهم كويس .. وان ما فيش لازمة للمرواح والمجى .. أنا حاقوم اقابلهم ، واسيبك انتى تلبسى .. البسى احسن ما عندك ، علشان يفهموا انك ما بقتيش بتاعة زمان .. ويعرفوا مقامك كويس ..
واقتنعت والدتك ..
وخرجت خيرية لتلقى ام عادل واخته .. قابلتهما بأنف مرفوع ونظرت اليهما باحتقار .. ووجدتهما حائرتين .. تطوف اعينهما بين قطع الأثاث وجدران البيت ، كأنهما دخلتا قصرا مسحورا .. وبدات تحادثهما باللغة الفرنسية والام وابنتها تنظران اليها فى تعجب ، كأنهما تنظران الى مخلوق عجيب .. ثم قالت ام عادل وهى لا تزال فى ذهول :
ـ مش ست تفيدة ساكنة هنا ؟
وازدادت خيرية تعاليا .. انها عندما تتعالى تصبح كالسكين لا بتحرك الا ليجرح .. وقالت بالعربية المكسرة :
ـ ايوه .. تفيده هانم ساكنة هنا .. انتم مين ؟!
وقالت ام عادل وهى تتنهد كانها تستعين بالصبر :
ـ احنا حبايبها من زمان .. من ايام شبرا ؟ !
وقالت خيرية فى برود :
ـ بتشتغلوا ايه ؟ !
وقالت اخت عادل فى حدة ، ودموعها تكاد تفر من عينيها :
ـ بنشتغل !! بنشتغل ده ايه ؟ !
وقالت خيرية وهى لا تزال محتفظة ببرودها :

— يعنى خياطة .. او ..
وقاطعتها ام عادل فى هدوء :
— لا يا حبيبى .. احنا اصحاب ست تفيدة ، وجايين نزورها ؟
ثم نظرت الى ابنتها كأنها تأمرها بان تهدأ وتتحمل ..
وعادت خيرية تقول :
— المدام فى الحمام .. تحب نقول لها حاجة ؟
وقالت ام عادل :
— لا .. تستناها !!

ونظرت اليهما خيرية ، وهزت كتفيها ، ثم قالت :
— طيب .. نديها خبر !!

ثم عادت الى والدتك ، وقالت ضاحكة :
— ده انا خونتهم خالص .. يظهر انهم جماعة بلدى .. عمرهم ماشافوا واحده لابسه كويس ، دول كانوا حياكلونى بعنيهم ..

ولم تضحك امك ، كانت واقفة امام مرآتها مرتبكة .. واكثر من مرتبكة ، كانت خائفة من مواجهة ماضيها النظيف .. من مواجهة حى شبرا .. كانت تعلم انه رغم طهارتها ، فان شيئا ما فى حياتها الجديدة يمكن أن يعتبر خطيئة .. ورغم ذلك فقد كان ذكاؤها الساذج يلح عليها ان تدافع عن هذه الخطيئة .. عن حياتها الجديدة .. عن الأطماع التى الوح بها امام عينيها ..

وارتدت امك اغلى ثيابها ، رغم انه لم يكن ثوبا يصلح للصباح .. واكثرت من وضع البودرة على وجهها .. وصبغت شفتيها بالاحمر .. وارتدت حذاءها العالى .. وتحلت بكل ما اشتريته — على حسابى — من الحلى .. وكانت تفعل كل ذلك ، كأنها تتحدى .. كأنها كانت تعلم ما يتناقله عنها اهالى شبرا ، فارادت ان تتحداهم جميعا ..

وتركتها خيرية ترتدي ما تشاء ، وقالت لها بعد أن انتهت من زينتها :

ــ ده انا باينه جنبك زي ما اكون وصيفة !

وضحكت أمك ، ضحكة جوفاء عالية ، كأنها تستجمع بها شجاعتها .. ثم خرجت في خطوات مترنحة مترددة ، لملاقاة ضيوفها .. وخيرية وراءها ..

وقامت ام عادل فرحة ، واحتضنت امك بين ذراعيها .. وبدات تقبلها فوق وجنتيها .. وحاولت امك ان تقاوم ، ولكنها لم تستطع ، فاستسلمت لعواطفها ، وبادلت ام عادل القبلات ..

وكأن ام عادل لم تكن قد رات امك عندما دخلت ، وعندما احتضنتها وقبلتها .. فقد بدات تنظر اليها في دهشة بعد ان انتهت من تقبيلها .. نظرت الى ثوبها .. والى البودرة التى تكسو وجهها كأنها طلاء رخيص سكبه مبيض فوق حائط قديم .. والى الصبغة الحمراء التى تكسو الشفتين كأنهما شربتا من دم قتيل ، ولم يجدا من يغسل الجريمة عنهما .. والى الكعب العالى الذى اختفى بصاحبته .. والى الحلى اللامعة كأنها قطع من زجاج في صندوق زبالة .. نظرت ام عادل اليها طويلا ، ثم انقلبت دهشتها الى خيبة امل ، وانقلبت خيبة الأمل الى شفقة ، ثم الى رثاء صامت ..

واحتضنت امك شقيقة عادل ، وضمتها الى صدرها ، وهي تقول في لهفة :

ــ ازيك يا سعاد .. ازيك يا حبيبتى .. ده انتى وحشتينى قوى !!

وقالت سعاد :

ــ الله يسلمك يا عمتي .. امال فين هدى !

وتجاهلت امك سؤال سعاد وجلست وهي تقول :

ــ وحشتينا يا ست شفيقة .. كده برضه لا تسالى ،

ولا يا ناس انتم فين ؟.. ده انا بقالى سنة ونص ما شفتش حد منكم .. وازاى سى فتح الله .. و ..

واحست خيرية ان امك بدات تنسى نفسها فى غمار عواطفها .. تنسى حياتها الجديدة واطماعها ، وتعود الى شبرا .. فواجهتها بنظرة قوية كانها تسبقها وتذكرها بما اتفقنا عليه ..

وقالت ام عادل وهى لا تزال تنظر الى امك فى رثاء :

— انتى ياختى اللى قطعتى خبر ، ولا حد سمع عنكم .. ده لولا عادل ابنى دلنى على البيت ما كنتش عرفت اجى .. هى فين هدى امال ؟

وقالت امك فى خجل وهى تدارى عينيها عن خيرية :

— راحت للخياطة !

وقالت سعاد :

— هيه هدى بقت تروح للخياطة ، دى بتفصل احسن من ميت خياطة .. دى ماكنش حد فى شبرا بيتكلم الا عن خياطتها ..

وضحكت خيرية ضحكة عالية خليعة وقالت تحاول ان تعكر الجو بينكما :

— انا مش مصدقة ان هدى تعرف تمسك ابرة .. دى بتروح لخمس خياطات .

ثم نظرت الى امك واستطردت :

— انتى عندك ميعاد عند الكوافير يا مدام .. نحنى بلعبه ؟

ونظرت ام عادل الى ابنتها كأنها تسألها عن معنى كلمة « كوافير » ثم التفتت الى امك وقالت فى لهجة حدة كانها تريد ان تتحمل كل شىء فى سبيل ابنها :

— وياترى هدى حتتأخر عند الخياطة ؟

وقالت امك وهى تدير عينيها بين خيرية وشفقة كأنها تحتار بينهما :

— اظن كده .. اصلها بتعمل بروفة !!

وقالت خيرية لأمك :

ــ مش نقول للشوفير يروح للجواهرجى علشان يسأل عن الخاتم و . .

ثم مالت تهمس فى اذن امك امام الضيفتين ، همسا طويلا ، تذكرها فيه بما يجب عمله . .

وتضايقت شفيقة من هذا الهمس ، واخذت تتبادل النظرات مع ابنتها ، ثم قالت كأنها قررت أن تنهى هذه المهزلة :

ــ قوليلى يا تمده . . انتى مش ناويه تجوزى هدى ماه ؟

وقالت امكَ وهى لا تنظر اليها :

ــ والله ابن خليل باشا عبد الله ، طالبها . . انما انا شايفه اننا نستنا شوية ؟

وصاحت سعاد كأنها لا تصدق اذنيها :

ــ ابن باشا !!

وقالت خيرية وهى توجه الكلام الى امك كأنها تستنكف ان توجهه الى الضيفتين :

ــ انما هدى تفضل تتجوز ابن الأميرة أنجى !

وصاحت سعاد :

ــ ابن اميرة ! !

ولم تقل امك شيئا ، كأنها تعبت من تمثيل دورها ، وتعبت من حيرتها ، ولم تستطع الا السكوت . .

وقالت ام عادل وهى تضع فى حديثها لهجة ساخرة كأنها تنتقم لنفسها :

ــ نستأذن احنا يا مدام . . بوه . . قصدى يا تفيده . . والنبى اصلى اتلخبطت ، واحترت . .

ولم ترد امك على هذه السخرية ، وقالت فى صوت خافت وهى تقف مودعة :

ــ وازى سى عادل ؟

وقالت شفيقة :

— كويس يا اختى .. سألت عليكى العافية ..

وقالت سعاد كأنها تحرج لسانها لأمك :

— بس يا خسارة .. ماهوش ابن باشا !

ونظرت اليها امها نظرة قاسيه .. وتجاهلت امك ما سمعته .. وادعت خيرية انها لم تفهم شيئا ..

وخرجت الضيفتان دون أن تتبادلا القبلات مع امك .. والقت امك نفسها على مقعد بعد خروجهما ، ثم القت راسها بين يديها . وظلت ساهمه مده طويله . وخيرية توصيها الا تقول لك شيئا عن هذه الزيارة ، وهى تهز راسها فى صمت كأنها لا تملك الا ان تطيع أوامر خيرية .. ثم اجهشت بالبكاء ..

وتركتها حرية تبكى ، كمن يترك الدماء تسيل من عنق الدجاجة بعد ذبحها ..

***

وهكذا حققت ما أردته .. وانت لا تدرين !

أبعدت عادل عنك .. مزقت أمله فى الزواج منك .. ومزقت املك .. مزقت حبك .. ولكن هل انتهت جرائمى .. هل اصبحت لى .. هل ستطيعين الآن ان تحبنى .. أن تحبيى ولو كذب ؟ !

لقد رايتك يومها .. جئت لأتناول طعام الغداء معكما بعد ان خرجت الضيفتان .. ورأيتك .. رأيتك أشد نحولا مما كنت بالأمس .. كان البيت قد امتلأ برائحة الجريمة .. رائحة سامة تأكل من لحمك ، وتحرق دماغك .. وخيل الى انه لم يعد فيك الا عينان تنظران الى نظرات غريبة .. نظرات اخافها واحاول ان اتجنبها فتجذبانى اليهما بقسوة ، لتضعانى تحت شعاعهما . كأنهما تتهمانى .. كأن هاتين العينين تعلمان انى انا المجرم .. انا المتهم الوحيد ..

وكنت وانا ارى نحولك ، احس كأن شيئا فى صدرى يعصر

ويصيبه التحول هو الآخر .. شيء في صدري يمرض .. ويأكل فيه العمر .. واحاول ان اتخلص من هذا الاحساس .. احاول ان انسى جريمتي ، فانقاد الى جريمة اشنع منها لعلها تغطي جريمتي الأولى ..

وخرجت من البيت ، كأني اهرب منك .. اهرب من نفسي التي احتقرها .. وعندما احتقر نفسي ، احتقر معها كل الذين حولي .. احتقر هؤلاء الذين ينحنون تحت اقدامي ليجمعوا الذهب الذي القيه عليهم .. واحس بشهوة خبيثة الى التمادي في اذلالهم .. والقسوة عليهم .. وذبحهم الواحد بعد الآخر .. انهم يبدون حقيرا فلابد انهم أحقر منه ..

وحضرت في هذا المساء اجتماع مجلس ادارة شركة الخطوط المصرية . وجلست على رأس مائدة الاجتماع ، وانا اوجه نظرات الاحتقار الى حضرات الاعضاء الأماجد .. ان بينهم رئيس وزراء سابق يبدو دائما جادا صارما كأنه يخوض معركة لا تنتهي .. وحاجباه معقدان دائما كأنه عبقري الكون يبحث مشكلة القدر .. ويميل رأسه الضخم كرأس العجل فوق جسده المتلىء القصير . فلا تدرين ايهما المائل : رأسه أم جسده .. وبين الاعضاء الأفاضل اثنان من الوزراء السابقين .. وثلاثة من اعضاء مجلس النواب .. وانا انظر الى كل هؤلاء باحتقار ، ان احدا منهم لا يستطيع ان يتحامل هذا الاحتقار ، ولا يستطيع ان يعمى عن شفتي المقلوبتين اللتين اواجههم بهما كأني اشمئز منهم .. ورغم ذلك فهم يقابلون هذه التعابير على وجهي بالابتسام .. كأني اتعطف عليهم باحتقاري لهم .. ويخرج رئيس الوزراء السابق عن وقاره الكاذب ويلقي نكتة يفتتح بها الاجتماع ، لعلي اضحك لها .. فلا اضحك وأرد عليه بمزيد من الاحتقار .. فتتسع ابتسامته !

وركزت نظرى على شاب يجلس فى آخر مائدة الاجتماع .. شاب له وجه مستدير كالقمر .. وجلده لامع مورد كأنه يغيره كل يوم بجلد جديد « اجلسيه » .. ويداه ناعمتان مصنوعتان بالسكر .. وهو يتمايل فى جلسته ، ويتأوه ، ويزفر ، كأنه امرأة بين عشرة رجال ..

هذا الشاب هو مدير الشركة !!

وكل كفاءته انه نسيب رئيس وزراء اسبق .. وقد سقطت وزارة نسيبه .. ولكنه بقى فى منصبه لانى كنت معه عقدا مدته اربع سنوات ، يتناول خلالها مكافأة قدرها اربعة آلاف جنيه فى العام .

واحسست انى لا استطيع ان اطيق وجهه .. كنت ابحث عن فريسة التهمها فى هذا اليوم .. عن جريمة تقتل هذا الشىء المريض الذى يعيش فى صدرى .. وقررت ان يكون هذا الشاب هو فريستى وصرخت فى وجهه :

— انت قاعد فى الاجتماع ده بصفتك ايه ؟ !

وبوغت الشاب .. وكف عن التأوه والتثنى ، وازدرد وجهه ، وقال متلعثما :

— انا .. انا مدير الشركة !

قلت صارخا :

— لازم تفهم يا افندى ان مدير الشركة مش من حقه يحضر اجتماع مجلس الادارة !

قال وقد بدأ العرق يتصبب على وجهه :

— بس انا مدير وعضو مجلس ادارة كمان !

وصرخت :

— مين اللى قال الكلام ده ؟

قال :

— العقد بتاعى بيقول كده !!

قلت :

ــ اتفضل قوم هات العقد ده ، لما اشوفه !

وادار الشاب عينيه بين الأعضاء الأفاضل الموقرين ، فلم يتكلم أحد .. رغم انهم يعلمون أن عقده ينص فعلا على أن يكون مديرا وعضو مجلس ادارة ..

وقام الشاب وخرج ، ثم عاد بعد نصف ساعة يحمل العقد .. وأخذته من يده وأنا اقول :

ــ وريني لما اشوف !

ولم احاول ان أرى شيئا مما في العقد أو اقرا حرفا منه .. كنت اعرف انه عقد صحيح ، وان الشاب على حق .. ورغم ذلك فقد قلبت العقد بسرعة ، ثم امسكت بالصفحة الاخيرة منه التي تحمل توقيعي ، ومزقتها .. مزقت امضائي التي عليها .. هكذا بكل بساطة .. ووقاحة !

ثم اعدت العقد قائلا :

ــ اتفضل .. خده واشرب ميته .. حضرتك ما بقتش عضو مجلس ادارة ولا مدير .. واعمل اللي عايز تعمله .. روح ارفع قضية !

وصرخ الشاب :

ــ يا لص .. يا مجرم .. أنا حاوديك في داهية .. انت صاحب شركة انت ، ده انت زعيم عصابة ..

ثم حاول أن يهجم على ، فهب الأعضاء الأفاضل الموقرون كلهم مرة واحدة ، وكل منهم ينافس الآخر في محاولة ابعاد هذا الشاب عني .. ثم اخرجوه عنوة من غرفة الاجتماع .. وأنا جالس في مقعدي ابتسم في هدوء .. كانت شتائم الشاب لي كالمرهم على جرحي الذي ينزف من صدري .. كانت ترضي هذا الشيء المريض الذي يعيش في داخلي ..

وعاد المجلس الموقر الى الانعقاد ، وقال رئيس الوزراء السابق :

— يستاهل .. الحقيقة كان عبء على الشركة .

وقال عضو مجلس النواب :

— كان لازم سعادتك تعمل الحكاية دى من زمان .

والتفت الى عبد العظيم الذى يجلس دائما على يمينى فى كل اجتماع .. فرايته يبتسم .. ابتسامة كبيرة هادئة .. كأنه يبلغنى رضاء الشيطان عنى !!

وقد حاولت ليلتها ان اعيش فى رعاية الشيطان ..

قضيت ليله عربيدة فى شقتى الخاصة .. كنت احاول خلالها ان انسى .. انسى انى مزقت قلبك .. وحبك .. وأملك .

ولكنى لم انس ..

كان بينى وبين النسيان بحر من الجرائم يجب ان اخوضه .. وبعد أن خضته ، وجدت على شاطئه الآخر جثة .. جثة فتاة ينزف منها دم الفتيات ..

- ١١ -

حاولت كثيرا ان امتنع عن زيارتكم بعد ان حطمت حبك ، ومزقت أملك .. ولكنى كنت كالمجرم الذى ينساق الى مكان جريمته ، ليعذب نفسه بآثارها .. ليرى جثة القتيل — ويبكى عليها .. وكنت انت الجثة التى تجذبنى اليها .. جثة الحب الذى قتلته .. وكنت اغيب عنك اياما ، ثم أجد نفسى مدفوعا اليك ، كانى اعلل نفسى بأن ليس هناك جثة .. وليس هناك قتيل .. وانى لست مجرما .. ثم لا اكاد أراك فى صمتك وهزالك ، وعينيك الذبلين تشقان صدرى ، حتى ارى الجريمة .. اراها منتصبة امامى واصبعها يشير الى كانه يطالب بالثأر ..

هل كنت تحبين عادل الى هذا الحد ؟

الى حد أن تصمتى كل هذا الصمت ، ويذوب جسدك كأنه يتبخر فى آهاتك ؟

وهل هذا الحب موجود ؟

انى لم أعرفه .. لقد أحببت الثراء ، أحببت النفوذ ، أحببت النجاح ، أحببت العمارات والأطيان .. ولكنى لم أحب انسانا آخر لمجرد الحب .. ان الانسان شيء اشتريه ، أو يشتريه غيرى . أو شيء يشترينى اذا كان أقوى منى .. الرجال عمل اشتريه ، والنساء متعة اشتريها .. فهل أردت ان تشترى عادل ؟ ولكن . لماذا ؟ ان الدنيا مليئة بالشباب ، فلماذا تعذبين

نفسك كل هذا العذاب ؟ ثم لماذا الشباب .. انا مثلا ، الا استطيع ان اسعدك اكثر مما يستطيع عادل ؟ ! اسعدك بثرائى ونحولتى ؟! فلماذا لا تكونين ذكية كامك ؟

لقد فكرت فى تلك الايام ان اتزوجك !

لا تدهشى .. لقد فكرت فعلا ان اتزوجك .. خيل الى ان الطريق الوحيد للتكفير عن جريمتى ، ولانتزاع ابتسامة منك .. هو ان اعوضك عن عادل بنفسى .. ان امنحك آخر ما استطيع ان امنحه .. اسمى !

ولكنى لم اكن استطيع ان اتزوجك .. ولم اكن اجرؤ حتى على مجرد الاستمرار فى هذا التفكير .. انى لو حاولت ان اتزوجك فساهدم كل ما بنيته .. سافضح نفسى .. سابدو امامك كانى اطالب بالثمن .. وهذا ما لا اريده .. انى اريد ان ابدو امامك وامام امك ، وامام نفسى ، كانى رجل شريف .. اريد منكما ان تحترمانى .. واريد ان احترم نفسى .. اريد ان اكون كابيك .. واريدك ان تحبينى كاب .. وان تحترمينى كاب ..

وقد حاولت كثيرا ان ابدو كاب ..

ولكنى فى دخيلة نفسى لم اكن ابا .. كانت شهوة امتلاكك تلوث دمائى .. وكان الشىء الذى فى صدرى يتحرك كانه يئن .. كانه يتوجع .. كانى احمل فى صدرى مريضا يلفظ انفاسه .. لا يريد ان يموت ، ولا يريد ان يصحو .

وكان يجب ان اسكت هذا الشىء المريض ، كان يجب ان اجد علاجا له .. ولكنى فشلت .. لانك لم تساعدينى على اخماد شهوتى .. لم تحاولى ان تقتنعى بى .. كنت دائما تنظرين الى من بعيد ، وتنشبين صدرى بعينيك ، ثم تتعففين عنى .. تتعففين من كل النعم التى اسبغها عليك :: عن مالى ، وعن اسمى الكبير . وعن نفوذى ، وعن نجاحى ، وعن كل هذه الفخامة التى احيطك

بها .. وقد حدثتك كثيرا عن نفسى لعلى اقنعك بها .. كنت اجلس معك ومع امك ، واقص عليكما اخبار تبرعاتي للجمعيات الخيرية .. واخبار النوادى الرياضية التى اشـــجعها وانفق عليها .. واخبار الوف العمال وللموظفين الذين ارزقهم وارزق عائلاتهم .. وكنت احرص على ان تصل اليكما الصحف التى تكتب عنى ، وتشيد بكفاءتي .. و .. و .. ولكن كل هذا لم يقنعك .. كانت امك تستمع الى ، فتقفز الفرحة فوق وجنتيها ، كأن كل خلجة من خلجاتها تزغرد ، ثم تقول :

ــ ربنا يخليك للناس يا باشا ، ويزيدك من نعايمه .. ويا بخت من نفع واستنفع ..

أما انت فكان لا يبدو عليك شيء .. كانك تستمعين الى كلام لاتصدقينه .. وتظل يداك تحيكان فى ثوب ، او تطرزان قطعة من قماش ـ دون اهتزاز او توقف تحية لجهادي الذى أسرده عليك .. واظل انا متربصا بعينيك حتى التقى بهما لعلى ارى فيهما اقتناعك ورضـائك .. والتقى بهما ، فلا اجد فيهما شيئا سوى هذه النظرة الهادئة العميقة التى تثقب صدرى ، وابتسامة باهتة حزينة ـ كانك تستسلمين للمأساة كتبت عليك .

وفعلت اكثر من ذلك ..

حاولت أن ادفعك الى حياة مرحة لعلك تمرحين .. وحاولت أن احيطك بالشباب لعلك تحسين بشبابك .. وادخلت التليفون الى بيتكم بعد أن اطمأننت الى أن عادل قد سافر فعلا الى القصير .. لعلك تجدين فى التليفون شيئا يخرجك عن عزلته وعن صمتك ..

ولكنك لم تستعملى التليفون الا عندما كنت اطلبك او تطلبك خيرية أو ابنتها ، فتردين علينا كأنك تؤدين واجبا ثقيلا .. لم يكن يستعمل التليفون الا امك ، وكأنها وجدت فيه لعبة مسلية ، فلم تكف عن استعماله .. انه دائما مشغول ، كأنه تليفون فتاة

مراهقة .. ولم تكن تحادث الا خيرية ، وبعض صديقات خيرية اللاتى يأمن منها .. ثم لما يئست من ان تشغل يومها كله بالحديث مع خيرية وصديقاتها بدأت تشغله بالحديث مع الخياطات . والحلاقين ، وأصحاب الدكاكين التى تتردد عليها ..

ثم حاولت أكثر من ذلك ؛ فحملت شوشت ابنة خيرية تصحبك الى نادى الجزيرة .. وقد عارضت شوشت فى ان تصحبك .. قالت لأمها ؛ انك لخمة ؛ وباردة ، وبلدى .. وان كل صديقاتها وأصدقائها سيهزءون بك .. وعارضت أنت أيضا .. كنت تعارضين فى كل مرة يدعونك فيها للخروج من البيت ، كأنك تخافين الدنيا ، أو كأنك تكتفين من الدنيا بهذه الجدران الأربعة التى تحيط بك .. أو كأنك تكتفين من الدنيا بنفسك .. ولكن أمك وأمها ألحتا عليكما الى أن ذهبتما الى نادى الجزيرة ..

وكنت أنا هناك ، جالسا بالقرب من حمام السباحة ..

ورأيتك تدخلين بوجهك الحزين النحيل .. وعودك الرقيق المتصب .. وليس فيك من علامات الحياة سوى خطاك . وابتسامتك الباهتة الضعيفة .. وثوبك الغامق البسيط .. لماذا اخترت هذا الثوب ؟ لماذا لم تنتقى ثوبا أبيض مرحا .. كالنهار .. كالشباب ؟ ! .. لماذا كل ما أراه فيك قاتم ، يكتم صدرى .. ويزهق أنفاسى ؟ ..

ولم ترينى وأنا فى جلستى أرقبك .. كنت بعيدا عنكما . وعيناى قريبتان جدا منكما .. ورأيت « شوشت » وابتسامتها تبلع نصف وجهها .. مرحة .. منطلقة .. تقفز فى خطواتها .. وتلتفت حولها ، وتطل فى وجوه الناس بجراءة .. وكل قطعة من جسدها تتحرك ، وتتكلم ، وصدرها لا يكتفى بالكلام ، فيهمس .. وأنت بجانبها كأنك فى عالم آخر .. كأنك الهدوء بجانب العاصفة .. الماء بجانب النار .. أنت الانسان الذى يعيش

فى قلبه .. وهى الانسان الذى يعيش فى جسده .. والقلب قنوع ، والجسد لا يشبع !!

وتساءلت من منكما الحياة ؟

أنت أم هى ؟

القلب أو الجسد ؟

لا أدرى .. ولكن الحياة التى عشتها أنا هى حياة شوشت .. حياة الجسد .. متعة الجسد ، والثراء الذى ينعكس على الجسد . والعمارات التى تضم الجسد .. والنفوذ الذى يتباهى به الجسد ..

لم يكن لى نصيب من حياة القلب .. نصيب كنصيبك .. ولم أستطع يوما أن أجمع بين جسدى وقلبى .

وصاحت شوشت بمجرد أن دخلت الى النادى :

ــ ديدى .. هشام .. مدحت .. هاى .. هاللو ..

والتف حولكما فريق من البنات والشبان يهللون فى وجه شوشت .. ثم نظروا اليك كأنهم ينظرون الى مخلوق طلع عليهم من عالم آخر .. عالم بعيد .. عالم الفقراء .. نظروا الى ثوبك البسيط .. ووجهك الخالى من المساحيق .. وشعرك الناعم المسدل خلف رأسك فى بساطة دون أن تتدخل فيه يد الحلاق .

وقدمتك اليهم شوشت ، وفى عينيها نظرة أسف ، كأنها تعتذر لهم عن تقديمك اليهم ، وعن صحبتها لك ..

وجلستم حول مائدة . واخذوا جميعا يتحدثون ما عدا أنت .. ووجه اليك واحد منهم حديثا فلم تردى عليه سوى بكلمات مقتضبة .. لم أرك تضحكين ، كما يضحكون .. ولم أرك متحمسين لشىء كما يتحمسون .. كنت كأنك سرحانة .. فيم سرح فكرك ؟ فى عادل ؟ ! ألا تستطيعين نسيانه ، حتى وسط كل هذا الصخب الذى يملأ النادى ؟

وبدأ الشبان والفتيات ينصرفون من حولك الواحد بعد الآخر

.. ويتفرقون في الملاعب .. لم يبق معك الا شوشت واحدى صديقاتها .. ثم انصرفت ايضا شوشت وصديقتها .. وتركاكِ وحدك .. دون أن تعترضي .. ودون أن تحاولي اللحاق بهما .. بل كانك حمدت الله أن تركاك وحدك .. وعدت تسرحين في خيالكِ .. ونظراتك تضيع في الافق ..

ولم تخل عيناي عنك .. وكنت احس بأني اهم بالقيام من مقعدي واهجم عليك ، واحملك عنوة والقي بك وسط الشبان والبنات .. وسط الحياة التي احياها .. وسط الضجيج .. ضجيج الأجساد التي تلعب وتجري وتهتف .. ضجيج حياتي !

وعادت شوشت بعد فترة ، وجلست معك ، وعلى وجهها طبقة سميكة من الامتعاض .. كان مجرد جلوسها معـك هم كبير !

ثم جاءت ست أخرى ووقفت تحدث شوشت ، ولمحت انت أن ثوبها قد تمزق ذيله قليلا .. فقلت لها :

ــ ده فستانك مقطوع !!

سكت كل هذه المدة ولم تنطقي الا عندما وجدت ثوبا مقطوعا !!

ونظرت الفتاه الى حيث اشرت لها الى مكان المزق ، ثم هزت كتفيها وقالت :

ــ ما يهمش .. عمري ما جيت اسادي بفستان الا وانقطع .

وقلت انت فورا كانك تقدمين خدمه جليلة :

ــ تحبي اخيطه لك ؟

وبدت الدهشة على وجه الفتاة ، وقالت في عجب :

ــ تعرفي ؟ !

وقلت انت في تياه :

ــ أمال .. ده قطع صغير ؟ !

وسحبت حقيبة يدك بسرعة ، واخرجت ابرة وابرة ، ولضمتها

بسرعة عجيبة كأنك تعرفين الطريق الى ثقب ابرتك جيدا .. وامسكت بذيل ثوب الفتاة ، واخذت ترتقين فيه ..

ووضعت الفتاة يدها على فمها حتى لا تسمعى ضحكتها الساخرة ..

وغطت شوشت وجهها بيدها كأنها تخفى خجلها منك ..

والتف الشبان والبنات حولك يرقبونك ساخرين ، ويكتمون ضحكاتهم .. ثم بدأ كل من فى النادى يرمقك من مكانه كأنه يرقب شيئا غريبا .. يرقب بهلوانه فى سيرك ..

وانطلقت النكات من حولك .. قال واحد :

ــ يظهر انهم جابوا خياطة مخصوص للنادى ..

وقالت سيدة :

ــ باين عليها شاطره .. انا حابعت لها هدوم الخدامين تخيطهم .

وقالت احدى الأميرات :

ــ ايه ده .. مين دى .. ما يصحش الداد'ت يقعدوا معانا .. فيه لهم مكان مخصوص .. هناك .. بعيد ..

وكل ذلك وأنت منحنية على طرف الثوب منهمكة فى رتقه . دون أن تدرى ما يدور حولك .. دون أن تلحظى هذه الابتسامات الساخره والضحكات المكتومة التى يسقطها فوق رأسك البنات والشبان الملتفون حولك ..

وفجأة اشارت صاحبة الثوب الى شـــاب يقف بعيـــدا ، وصرخت :

ــ شريف .. هاللو .. شريف ..

ويظهر أن شريف لم يسمعها ، فجرت اليه بعد أن شدت ثوبها من بين يديك وأنت لا تزالين منحنية فوقه .. وشدت مع الثوب الابرة والفتلة ، فجرحت اصبعك ..

وضحك كل الناس .. كل اعضاء نادي الجزيرة .

ورفعت أنت رأسك في دهشة .. لا تدرين لماذا جرت الفتاة ، ولا لماذا يضحك الناس .. ثم اكتفيت بأن مصمصت بشفتيك قطرة الدم التي انبثقت من اصبعك ، وأنت تنظرين وراء الفتاة في حنان ، وابتسامتك الحزينة فوق شفتيك كأنك تعذرينها ، وتصفحين عنها ..

وقمت أنا مغتاظا .

قمت كأني أهرب من نفسي .. كأن هؤلاء الناس يضحكون علي أنا .

اني لا أستطيع أبدا أن انقلك الى دنياى ..

لن أستطيع أبدا أن أجعل منك الفتاة التى أريدها .. فتاة تؤمن بايماني ، وتطمع في مطامعي ..

ستظلين دائما ملتصقة بأبيك الموظف الصغير في وزارة الأشغال .. ملتصقة بعقلية أبيك ، وقناعة أبيك .

ان أباك أقوى مني !!

وأنت أيضا أقوى مني !!

وأنا انسان فاشل .. انها أول مرة أحس فيها أني فاشل .. فشلت رغم الجرائم التي ارتكبتها في سبيلك .. في سبيل أن أربط حياتك بحياتي ..

وقد ارتكبت كثيرا من الجرائم قبل أن اعرفك ، وكان النجاح الذي تحققه لي هذه الجرائم يعوضني عن الاحساس بالجريمة ، ويبرر ارتكابها .. ولكني عندما أرتكب جريمة ولا أحقق من ورائها نجاحا أو نتيجة ، فاني أحتاج الى جريمة أخرى .. لعلي انجح .. ولعلي أنسى احساسي بالجريمة الأولى ..

وأصبحت في حاجة الى ارتكاب جريمة أخرى جريمة أكبر !

هل تفهمينني يا هدى ؟

ان المجرمين ليسوا دائما من هواة الجريمة ، انهم احيانا يحاولون الهرب من الجريمة ، فلا يجدون سبيلا للهرب الا بارتكاب جريمة اخرى .. وينساقون الى سلسلة من الجرائم كل جريمة اكبر من الاخرى .. كأنهم يتحدون ضمائرهم وهم فى تحديهم للضمير يحاولون خنقه .. يحاولون قتله .. ليستريحوا منه .. وتهدأ نفوسهم ، بلا ضمير !

وهكذا بدات اندفع الى جريمة اخرى بعد جريمة تحطيم حبك .. وكانت جريمة اكبر .

- ١٢ -

وكلنا مدعوا الى تناول العشاء عند خيرية .. كنا اربعة فقط .. خيرية وزوجها ، وانا وعبد العظيم .. مجرد سهرة خاصة نحتاج اليها بين الحين والحين ، عندما نريد ان نستريح من المجتمع ..

واستأذن زوج خيرية بعد العشاء ، ودخل الى غرفته .. ونام .. ولم يكن فى ذلك مفاجأة لى او لعبد العظيم .. او لخيرية .. فهذه عادته .. انه شخص يهتم كثيرا بصحته .. ونظام حياته .. ينام كل ليلة فى الساعة الحادية عشرة مساء بعد ان يشرب ثلاث كئوس من الويسكي بالضبط .. ويستيقظ فى السابعة .. ويذهب الى نادى الفروسية فى الثامنة والنصف .. ويركب حصانه حتى العاشرة .. ثم يعود الى بيته فى العاشرة والنصف ليتناول افطارا دسما يراعى فيه ان يضم كل انواع الفيتامينات .. ثم يذهب الى مكتبه — وهو مكتب شركة كبيرة لا يفهم من اعمالها شيئا الا انه عضو فى مجلس ادارتها ، ويبقى فيه نصف ساعة ، ثم يذهب الى نادى سليمان باشا ليلعب بلياردو ويشرب كاسا من « الامريكانو » ثم يعود الى البيت فى الثانية تماما ليتناول غذاءه ، ثم يذهب الى نادى الجزيرة فى الرابعة تماما ليلعب الجولف .. و .. و .. وهو دائما سعيد ، ما دام مطمئنا الى صحته ، والى لون وجنتيه ، والى سلامة عضلاته ، والى ان

وزنه لا ينقص نصف كيلو أو يزيد نصف كيلو .. وليس فى ذهنه ما يمكن ان يعكر صفاءه .. انه لا يقرأ كتبا او مجلات يمكن ان تشغل ذهنه .. ولا يهتم بشىء صغير او كبير يمكن ان يأخذ من تفكيره شيئا .. انه انسان سعيد .. سعيد بمجرد وجوده .. وليس بينه وبين خيرية ما يمكن أن يسمى حياة زوجيه .. انه لا يحاسبها على شىء ، ولا يسألها عن شىء .. كل ما يطالبها به هو الا تعكر هدوءه ، او تلقى عليه أى لون من مسئوليات الحياة ، او تطالبه بشىء ، او ترتبك نظام حياته .. وربما رآها يوما مخمورة ، او رآها مرة تقبل رجلا ، فلا تثور اعصابه ، ولا يهتز شاربه الاصفر المرفوع الذى يتباهى به .. ان رأسه يرفض ان يحتمل الشك فى تصرفات خيرية .. واعصابه ابرد واقوى من أن تحاسبها .. وحتى لو غابت عن البيت أياما لا يكلف نفسه حسابها .. انه سعيد .. سعيد جدا .. ما دام مطمئنا الى لون وجنتيه ..

هذا هو شريف بك زوج خيرية ، كما يعرفه مجتمعنا .. انهم يعرفون كل مواعيده ، حتى المواعيد التى ينتقل فيها من غرفته الى غرفة زوجته .. مواعيد محددة بالضبط ، محسوب حسابها حسابا علميا ، حتى لا تؤثر فى صحته !!

ولم يتغير الموقف بعد ان قام شريف بك لينام ، فان كل ما نستطيع ان نفعله فى غيبته نستطيع ان نفعله فى حضوره ، ونحن مطمئنون الى سعادته !

وقالت خيرية :

— تيجوا نلعب بوكر مكشوف ؟

ولم استرح الى الفكرة ، لم تكن أعصابى لينها تحتمل ان أجلس الى مائدة البوكر .. كنت أريد شيئا عنيفا .. شيئا جديدا .. أريد جريمة تخرجنى عن احساسى بفشلى معك .. فقلبت لخيرية كأسى التى اليها بمفاجأة :

— ايه رأيك نبعت نجيب تفيده ؟

وقالت خيرية متأففة :

— دى زمانها نامت ، وشبعت نوم !

قلت كأنى الح عليها :

— حربى .. يمكن تكون لسه صاحية .. قومى اضربى لها تليفون !

وقال عبد العظيم وهو يكور شفتيه كأنه سيبصق على الارض ، ثم يعدل ، ويبتلع بصقته :

— ما احنا اتفقنا على ان الحمامة دول يبقوا فى النهار بس .. خلينا نروق بالليل !!

وعادت خيرية تقول :

— والنبى عايز من تفيدة ايه دلوقت ؟ !

قلت وانا اخفى عينى عنهما :

— اهو نضحك عليها شويه .

قالت وهى تنظر الى كأنها تحاول ان تفهمنى :

— والنبى انا مش قادرة افهمك يا حسين .. بقالك سنتين وانت محيرنى .. ما تقول لي عايز منها ايه ، وتخلص .

قلت :

— وحياتك ولا حاجة .. اصلى كل ما اشوفها وهيه بتحاول تقلدك اموت على نفسى من الضحك .. قومى يا شيخة اضربى لها تليفون ..

وقامت خيرية واتصلت بأمك فى التليفون .. ووجدتها لم تنم بعد .. واستطاعت ان تقنعها بان تأتى الينا .. ولم تكن فى حاجه لجهد كبير لاقناعها ، كان يكفى ان تقول لها انى موجود .. وانها ستراني !

وقال عبد العظيم بينما خيرية تتحدث فى التليفون :

— نسيت اقول لك .. الجدع اللى اسمه عادل .. عامل

دوشه في التصير .. وابتدا بلم العمال وعايز يعمل لهم نقابة ..
ونظرت اليه شذرا ، وقلت في حسم كأني اعنفه لمحاولته افساد سهرتي :
— مش وقته !
وارسلنا السائق الى امك ، وعاد بها .. ودخلت علينا وهي تتأرجح فوق كعب حذائها العالي .. تميل الى الامام حتى تكاد تسير على ركبتيها ، وتميل الى الخلف حتى تكاد تسقط على ظهرها .. وقد اهتمت كثيرا بزينتها ، أكثر من عادتها .. فقد كانت الليلة الأولى التي تجمعنا سويا .. ولم تكن خبرتها بحانتها وهي تتزين ، ماكثرت من كل شيء .. أكثرت من الكحل حول عينيها ، ومن « الريميل » فوق جفونها ، ومن البودرة فوق وجهها وعنقها .. ورسمت باصبع الاحمر فما آخر حول شفتيها ؟ ربما كانت تحاول أن تقلد به فم خيرية .. وبدت في كل ذلك كأنها بلياتشو جاء اليك من السيرك قبل ان يمسح المساحيق عن وجهه .
ونظرت اليها في شماتة ..
هذه هي زوجة محمد افندي السيد ..
هذه هي زوجة الزميل الشريف النزيه الذي رفض أن يتعاون معي منذ كنا معا طالبين في مدرسة الفنون والصنايع ، والذي تحداني بشخصيته .. فلم استطع ان آخذه في طريقي او اقنعه بنفسي .. الزميل الذي تعفف عن طول حياته حتى انه رفض أن يحضر حفلة تكريمي ؟ .. لعله الآن يندم في قبره .. لعله الآن يخضع لي وهو يرى زوجته وشريكة حياته العوبة في يدي .. ألهو بها .. واضعها أمامي كالمسخ لتضحكني .
وقالت أمك وهي تصافحنا :
— صحيتوني من النوم يا جماعة .
وأمسكت يدها وانحنيت اقبلها ، واضغط فوقها بشفتي ؟ .

وانا اخمى ضحكتى فى صدرى ، ثم رفعت اليها وجهى ، وقلت لها وانا انظر اليها بكل عينى كانى ابثها حبى :

ـــ اصلك وحشتينا يا نفيده .. ما نقتش قاعدتنا تحلى الا بوجودك .

وتسلل العطر الذى سكبته على نفسها الى انفى .. لابد انها عطرت نفسها بكل انواع العطور التى اشتريتها لها ، فانى لم استطع ان اميز رائحة « الاربيج » من « جى رفيان » من « فام » ..

وقالت خيرية :

ـــ احنا كنا ناويين نلعب كوتشينه ، قلنا تيجى تلعبى معانا .. بدل ما تنامى كل ليلة زى الفراخ ..

وقالت امك وهى تتلفت حولها :

ـــ امال فين شريف بيه ؟

وقال عبد العظيم :

ـــ نام .. اسم الله عليه ..

ونظرت اليه كأنى احذره من ان يتمادى فى افساد الجو الذى نحيط به امك .. ثم التفت الى خيرية قائلا :

ـــ كوتشينة ايه يا شيخة .. دورى لنا شوية اسطوانات !!

ونظرت اليها نظرة تفهمها .. نظرة تفهم منها انى اريد تهيئة جو خاص .. وكنت قد قررت ليلتها ان اجر امك خطوة اخرى الى الفساد ، بحيث لا تشعر انها تنقاد الى فساد ، انما كل ما تشعر به انها تتلقى دروسا جديدة فى تقاليد المجتمع الذى انتقلت اليه ..

واعدت خيرية كأسا من الوسكى وقدمته الى امك ، فقالت فى شك :

ـــ ايه ده يا خيريه ؟

وقالت خيرية فى بساطة :

ـــ ويسكى .
ثم رفعت كاسها الى شفتيها وقالت :
ـــ الا فوتر .
ونظرت اليها امك فى تعجب .. لم تكن قد رأتها من قبل وهى تشرب الويسكى .. وقالت :
ـــ لا يا اختى .. ماشربوش .. كفاية على المتاع اللى اسمه البيرمو اللى هو النعناع !
وقالت خيرية وهى تنزل الكاس عن شفتيها :
ـــ انا الحقيقة جربته قبل النوم استريحت فيه قوى .. كاس واحد ، يخلى الواحدة تنام مرتاحة ..
وقلت وأنا انظر الى امك ساخرا ، واتناول الكاس من يد خيرية واضعه على مائده صغيرة امامها :
ـــ اهو خلى الكاس قدامك ، علشان تبقى زينا .
وقالت امك :
ـــ ده كان عندنا فى شبرا واحد صاحب كباية .. انما كانت حالته تقطع القلب ..
وقالت خيرية كانها تؤنب امك :
ـــ يظهر شبرا دى حتفضل معششة فى دماغك على طول ... ما خلاص يا نفيده .. ما سبنا شبرا من زمان .
ونكست امك رأسها كانها تعتذر عن ذكر شبرا ..
ووضعت خيرية فى « البيك آب » عدة اسطوانات راقصة . ثم عادت متجهة الى عبد العظيم قائلة فى دلال وهى تفتح له ذراعيها :
ـــ قوم ارقص يا عبد العظيم !
وقام عبد العظيم وقد تهلل وجهه ، واحتضنها قائلا :
ـــ اوى .. ارقص ونص !
واخذ يراقصها ، وامك جالسة بجانبى تراقبها باعين مشدوهة

.. ثم قالت لى هامسة :

ـــ اللى يشوف عبد العظيم بيه بيرقص مع خيرية ، يقول انه بيحبها .

قلت وبين شفتى ابتسامة ساخرة :

ـــ ليه ؟ !

قالت :

ـــ ده حاضنها قوى .

قلت كأنى أعايرها بتفكيرها :

ـــ وماله . ماكل الناس بترقص كده .

ونظرت الى نظرات حائره ، كأنها تتمنى أن تصدقنى .. ثم قالت فى ارتباك :

ـــ يعنى تسمح للست ساعتك ترقص كده ؟

قالتها فى صوت ضـــعيف ، والدماء تتصاعد الى وجنتها المهدلتين ، كأنها كانت تعنى نفسها .

قلت وأنا أحاول أن أشعرها بأنها متأخرة فى عقليتها :

ـــ طبعا .. الرقص مش عيب .

قالت وهى لا تنظر الى وأصابعها تمسك بحرف الأريكة التى نجلس عليها :

ـــ يمكن علشان الست بتاعتك انجليزية .. انما لو كانت مصرية و ..

وقاطعتها قائلا :

ـــ برضه كنت أخليها ترقص .. ما دام أنا بارقص مع ستات أصحابى . يبقى لازم هيه كمان ترقص مع أصحابى .. انتى فاكره ان الرقص عيب .. أبدا ..

وتركت خيرية عبد العظيم فجأة ، ثم جاءت الينا وشدت تفيدة من يدها ، وهى تقول :

ـــ تعالى لما أعلمك الرقص يا تفيده .. تعالى والنبى ..

وقالت امك وهى تتشبث بمقعدها :

ــ لا .. كله الا كده .

وقالت خيرية ، وهى لا تزال تشدها اليها :

ــ تعالى يا شيخة .. ولا برضه حاتقولى شبرا .

ومست كلمة شبرا كبرياء امك ، فتراخت مقاومتها ، واسلمت نفسها لخيرية ، وهى تقول :

ــ اصلى مش واخده على الحاجات دى !!

وقامت واقفة ، ولفت خيرية ذراعيها حولها ، وبدأت تخطو بها على الانغام .. وانطلقت منى رغما عنى ضحكة كبيرة .. وكتم عبد العظيم ضحكته بيدا كأنه يبكى .. وخيرية اذابت ضحكتها فى ابتسامة تفتر فوق شفتيها ، وهى تقول لامك :

ــ مش كده يا نبيده .. بصى .. اعملى زيى .. واحد ، اتنين ، تلاتة ..

وكانت امك حائرة مرتبكة .. تحاول أن تقف فوق كعب حذائها العالى .. فلا تستطيع ، وتحاول ان تنقاد الى خيرية فتكاد تقع من فوق الكعب العالى .. وفى عينيها نظرات مرتعشة ، وفوق شفتيها ابتسامة بلهاء .. والدماء تجمعت فى وجنتيها فبدت كل منهما كأنها دمل كبير .. كانت كطفلة تخطو خطواتها الاولى .. طفلة مسكينة اصيبت بتضخم فى الغدد فبدت كبيرة ..

وقالت خيرية :

ــ خدى بالك من المريكة .. امشى على حسب الطبلة .. بصى ..

وتركتها خيرية ، واخذت ترقص امامها وحدها .. وامك تقول :

ــ والنبى بلاش الحكاية دى يا خيرية .. يعنى هو ضرورى الرقص ده .

وقمت انا واقفا واقتربت منها قائلا :

— انتى مش عارفه تطلعيها يا خيرية .. سيبيها لى .. أنا حاطلعها !

وقبل أن تشده امك الى ما انويه ، احطتها بدراعى .. وضممتها الى صدرى بقوة .

وبحركة لا ارادية ابعدت امك نصفها الاسفل منى .. عن جسمى .. فبدت كأنها رقم «٦» .. ثم نظرت الى بعينين مذعورتين كانى سادبحها .

وقلت لها وانا اتجاهل نظرتها :

— اقفى كويس .. خلى جسمك دغرى !!

واهتزت شفتاها كانها تهم بالكلام .. ولكنها لم تتكلم .. ونصفها الاسفل لا يزال مندفعا الى الوراء .. بعيدا عنى !

هده عقلية نساء الطبقة الوسطى ..

كل ما يخافون عليه هو النصف الاسفل ..

كأن الشرف له مناطق محدودة .. وما يحدث خارج هده المناطق مباح ، لا يمس الشرف .

وحاولت أن اخطو بها .. ولكنى لم استطع ، فقد تصلبت قدماها ، كأنما سمرتا فى الأرض .. وعيناها لا تزالان مذعورتين كانى سأذبحها .. وقالت فى صوت متهدج ، من بين أنفاسها المتلاحقة :

— بلاش يا حسين .. بلاش والنبى !

قلت وانا لا ازال اضغطها الى صدرى :

— يا شيخة اتلحلحى .. امشى مع رجليه .

وملت عليها بوجهى ، ووضعت خدى على خدها .. وحاولت أن اجعلها تتحرك ، فلم استطع .. قدماها لا تزالان مسمرتين فى الارض .. ويداها اصبحتا قطعتين من الثلج فى يدى ..

ووجهها يتقد نارا .. وانا انفخ انفاسى فى اذنيها كأنى انفخ فى النار لتشتد .. وفجأة نزعت امك نفسها من بين ذراعى بقوة .. قوة عجيبة لا قبل لى على مقاومتها .. وهرعت الى مقعد وجلست عليه ، وهى ترتعش .. وقالت فى حزم :

ـ لا .. لا .. مش عايزه اتعلم الرقص .. مش حاتعلم الرقص عمرى .

وتلفتت حولها ، كأنها تبحث عن ثقب تهرب منه .. ثم مدت يدها المرتعشة فى انفعال ، والتقطت كأس الويسكى من فوق المائدة الصغيرة .. ورفعته الى شفتيها .

كانت تريد أن تهرب من خطيئة ، فلم تجد مهربا الا فى كأس الخطايا .

وسكتنا جميعا ..

كانت حيرية تنظر الى كأنها تقول : عاجبك كده !!

وانا اتسحبح واحاول الا تلتقى عيناى بعينى امك حتى لا ترى فيهما سخريتى منها ..

وعبد العظيم يرفع كأسه الى شفتيه ويطل علينا بعينيه من فوق حافة الكأس ، ثم يحسى ويلتقط قطعة من الخيار .. كأن ما يجرى حوله شىء عادى شاهده كثيرا ، وعرف نهايته ..

وقالت امك وهى تبعد الكأس من بين شفتيها :

ـ ياه .. ده مر قوى .

قلت فى غضب مفتعل :

ـ ما تشربيش منه .

ونظرت الى امك كأنها تلومنى على غضبى منها .. ثم كأنها تعتذر لى وقالت :

ـ انت زعلت منى يا حسين ؟

قلت وانا اهز كتفى :

ـ ابدا .. انتِ على حق .. ما كنتش لازم تتعلمى الرقص .

وقالت خيرية كأنها تقدم لنا شيئا جديدا :

ــ انا باقول نقوم نلعب كتشينه .

وقالت أمك بسرعة كأنها تحاول أن تندمج فينا وتتقرب الينا :

ــ انا ما اعرفش العب الا الشايب .

وقالت خيرية :

ــ فكره .. يللا نلعب الشايب .. انا لسه فاكراها من يوم ما كنت بالعبها مع دادتي .

والتففنا حول المائدة ..

ودون سابق اتفاق .. التقط عبد العظيم ورقة « الشايب » وعلمها .. ثنى أحد أطرافها ثنية خفيفة .. وأشار لنا بعينيه لنعرف أنه علمها .. هكذا بحكم العادة .. عادة عبد العظيم .. ولم يعد بيننا من لا يعرف ورقة « الشايب » الا امك .

واتفقنا عن طريق تبادل النظرات على أن تقع ورقة الشايب في يد خيرية .. ثم كتمنا ابتسامتنا في صدورنا ..

وبدأت الأوراق تطوف بنا ..

وقالت خيرية خلال اللعب :

ــ أنا مش عارفه شريفه هانم حتفضل تحب محمود باشا لغاية امتى .. ده مش سائل فيها خالص ..

وانتبهت أمك ، وقالت :

ــ هو مش عايز يتجوزها ؟

قالت خيرية كأنها تتهم امك بالغباء :

ــ يتجوزها ازاى .. مش لازم الأول يحبها ، ويخرجوا سوا .. ويعرفوا بعض كويس .. دى ست عندها خمسة وثلاثين سنة .. ماهيش صغيره ، علشان ييجى واحد يتجوزها على طول كده !!

ونظرت الى خيرية كأنها تقول لى : « كويسه دى » !

وسرحت أمك بأفكارها .. كأنها كانت تقارن بين حالها معى ،

وحال شريفه هانم مع محمود باشا .. وكأنها اكتشفت شيئا جديدا .. اكتشفت أنها لكى تتزوجنى يجب أن تخطو خطوات أخرى كثيرة ..

واضطررت ان اقول لها كى انبهها حتى تفيق من خيالها :

ـــ ما تلعبى يا نفيده ..

واهتزت كمن تستيقظ من النوم على مفاجأة ، واخذت تلعب ..

وانتهى اللعب ، بأن سقط « الشايب » فى يد خيرية .. وكان على ان اصدر عليها حكما كما تقضى اصول اللعب . فالتفت الى عبد العظيم وقلت له وانا اضحك :

ـــ دبرنى يا وزير ؟!

وقال عبد العظيم فى منتهى الجد كأنه فعلا فى مجلس الحاكم :

ـــ التدابير لله يا ملك !

وقلت بعد برهة كأنى افكر فى قضية عويصة :

ـــ حكمنا عليكى يا خيرية يا بنت الناس .. بأن كل واحد منا يبوسك بوسه .

وصفقت خيرية بيديها فرحة ، وقالت :

ـــ مرسى يا مولاى .. ده حكم لذيذ قوى .

ونقلت أمك عينيها بيننا فى دهشة ، ثم كأنها خافت أن تفسد علينا لهونا . فابتسمت ابتسامة مترددة ..

وقمت وقبلت خيرية فوق وجنتها قبلة سريعة .. بريئة !

وقام عبد العظيم فى منتهى الوقار كأنه يؤدى مهمة رسمية خطيرة ، وقبلها فوق رأسها ..

واتسعت ابتسامة أمك .. لقد اطمأنت الى أن قبلاتنا بريئة .. واننا نلهو .. مجرد لهو برىء .. وقامت وقبلت خيرية قبلتين .. قبلة على كل خد !

وبدأنا نلعب دورا ثانيا ..

واتفقنا نحن الثلاثة ـــ انا وخيرية وعبد العظيم ـــ على أن نترك الشايب يسقط فى يد امك ..

واسمي الدور . وامسكت امك بورقة الشايب في يدها ، وقالت وهي مرحه،كأنها سطر امسة جميلة .

ــ يا ترى حتحكموا على بايه ؟

والتفت الى عبد العظيم في وصر قائلا دون ان ابتسم :

ــ دبرني يا وزير .

وقال عبد العظيم في منتهى الجد .

ــ التدابير لله يا ملك ..

وفكرت برهه . ثم رفعت رأسي كأني سأتكلم .. ثم خفضتها قبل ان اتكلم كأني في حاجه الى التفكير من جديد .. ثم قلت في صوت عميق :

ــ حكمنا عليك ما تبيده يا ست الناس ..

وسكت برهة ..

ووجه امك مبلل بالفرح . وعيناها معلقتان بشفتي .. ثم استطردت :

ــ حكمنا عليكي بانك تقومي تجيبي كباية ميه ..

وانهارت خلجات وجه امك ..

وكست حبه الأمل ملامحها ..

وقامت . وعادت بكوب الماء .. وفي عينيها طبقة لامعة كأنها تهم بالبكاء !!

.. لقد كانت والدتك تحاول ليلتها ان تندمج فينا .. ان تشعرنا بأنها واحدة منا .. كانت مستعده ان تذهب الى آخر الحياة ما دامت معنا ..

وكانت في دخلة نفســـها تتمنى ــ ونحن نلعب بأوراق الكتشينه ــ أن تقع ورقة الشايب في يدها كما وقعت في يد حيرمه . وأن تقوم وتقتلنا كما قتلنا حبرية .. ولكني تعمدت أن أصدمها في امانيها .. وتعمدت أن احكم عليها ــ عندما وقعت ورقه الشايب في يدها ــ بأن تقوم لتأتي الى بكوب ماء . حتى

اشعرها بأنها أقل منا .. بأنها مجرد امرأة نشفق عليها .. وأن علينا لكي نرفع لها . ولكي نعيش في مجتمعنا . أن تضحي أكثر .. أن تتحرر .. وأن تتخلص من معاني الشرف كما تفهمها .. هذه المعاني الضيقة . التي تدفعها لأن تقعد على مقعدها الأسفل وأنا أعلمها الرقص .

لماذا أفعل بها كل هذا ؟

لماذا أعذبها ؟

لا أدري .. ولكن كانت بي رغبة عنيفة في إذلالها .. في أن أسحق منها كل المعاني الشريفة التي تخلفت عن الطبقة التي عاشت منها .. الطبقة القنوع المستسلمة التي ضمتها مع زوجها محمد أفندي السيد ..

إني لا أستطيع أن أكون قنوعا ولا مستسلما . فلأسحق القناعة والاستسلام . ولأسحق معهما محمد أفندي السيد . ووالدتك ؛ وأنت ..

وانتهينا من اللعب بأوراق الكوتشينة .

وجلسنا نتحادث . ونحن الثلاثة — أنا وخيرية وعبد العظيم — نشهد تجاهل أمك .. وهي بيننا حائرة . تبدو كالعبيطة . وتدير عينيها بيننا في بلاهة . وتضحك عندما نضحك . وتفتعل الاستماع عندما نتحدث .. وتحاول طول الوقت أن تقلد خيرية .. إذا مالت خيرية تكلمه مالت مثلها . وإذا نظرت خيرية إلى عبد العظيم نظرت إليه هي الأخرى . وإذا شربت خيرية من كأسها شربت معها أمك .. وهي تنظر إلي بين الحين والحين كأنها تسألني رأيي في تصرفاتها . وهل سمع روحه لي ؟

رأيي في تصرفاتها . وهل شفع روحه لي ؟ !

وقد شربت خيرية ليلتها كثيرا .. وشربت معها أمك كثيرا . دون أن تشكو من مرارة طعم الويسكي .. فقد خافت أن تعيد شكواها . فتبدو كأنها ليست من طبقتنا .. ثم بدأت تبذل مجهودا كبيرا لتحتفظ بتوازنها . وبدأت تكثر من الحديث وهي تحاول أن

ستسيطر على لسانها حتى لا تخرج كلماتها مترنحة .. وبدأنا نستمع اليها . ونحن نكتم ضحكاتنا !!

وكنت أعتقد أن الخمر تطلق لسان شاربها بما في أعماقه . أو بما يعبر عن حقيقته .. ولكن الخمر في هذه الليلة أطلقت لسان والدتك بما تحاول أن تدعيه .. أطلقت لسانها بأطماعها وتصور العالم الذي تتطلع اليه .. وقالت وهي تمسك لسانها بشفتيها حتى لا ينزلق من بينهما :

الراجل الناكم ده ما تعجبنيش المنور بتاعه .. الخاتم اللي شفته عنده ، بلدي خالص !

وكانت تقصد « الموبير » أي « أصابعه » .. وقد ردت عليها خيرية مائلة وهي تداري عنها ضحكتها الساخرة :

ـــ ما لكش حق يا نبنده .. ده عامل خاتم للأميرة انجي . اسما حنان !

والتوى لسان والدتك وقالت وهي تخبط على المائدة بكفها :

انه تعنى الأميرة انجي .. فقط في الأميرة انجي .. دي عاملة زي الأموات .. ولا تعنى علشان ما هي أميرة .. مش أمير الا الناس الأمرا ..

ثم مالت على تحسمها واستطردت قائلة :

ـــ تصحك الأميرة انجي يا حسين .. مش بالذمة زي الأموات .. ولا لازم الواحدة تكون أميرة علشان تعجبك !

قلت وأنا أهم بالقيام :

ـ أبدا .. بس قومي بأه علشان اوصلك !!

ونظرت الي في جزع . كأنها خافت أن تكون قد أغضبتني .. وسكتت كأنها تحاول أن تسترجع كل كلمة قالتها لتكتشف أين أخطأت ..

واشفقت عليها .. وابتسمت لها ابتسامة صغيرة كأني أطمئنها الى أنها لم تخطيء ، ثم وضعت يدي تحت ذراعها محاولا أن أرفعها عن مقعدها .. وحملت قليلا عندما أحسست بيدي

تلامس جسـدها .. ولكنها عادت واستسلمت كأنها تذكرت الحياة الجديدة التي نعيشها . وتذكرت التقاليد التي تبيح للرجل أن يضع يده تحت ذراع امرأة ، دون أن يعتبر ذلك ماسـا بشرفها ..

وقامت . واستطاعت أن تكون أكثر توازنا .. وودعتنا خيرية حتى الباب . وأنا لا أزال أضع يدي تحت ذراعها ..

وخرجنا الى الطريق .. والساعة جاوزت الثانية صباحا ..

وركب عبد العظيم سيارته ، وهو يودعنا بنظرات تطل من بين جفنيه الملونين .. نظرات تعبر عن خيبة أمله ، كأنه لم يكن ينتظر أن ينتهي برنامجه الطويل في خدمتي .. وفي خدمة نزواتي .. بأن يراني مع مثل هذه المرأة !!

وركبت امك بجانبي في السيارة . وقد أطاح الهواء الطلق حدة الخمر من رأسها ، وان كانت نشوتها لا تزال باقية ..

وبدأت اتبع معها أسلوبا جديدا .. اسلوبا رقيقا يثير أطماعها من جديد .. وزحفت بيدي حتى لامست يدها ، وثبت وأنا أنظر اليها كأني أطارحها الغرام .

ــ اوعى تكوني اتضايقت الليلة يا تفيده ؟

واحسست بالرعشة في يدها ، ثم سحبتها برفق . وقالت .

ــ أنا خايفه أنا اللي اكون ضايقتك .. أصلي وانني لسه مش واحده على الرقص !

قلت كأني أطمئنها :

ــ رقص أيه يا شيخه .. يعني شايفني بارقص كل يوم .. ده ممكن تموت السنة ولا ارقصش ولا مره .. انما كلها مسالة مجاملات .. ساعات الواحد يضطر يرقص .. اعمل ايه .. اذا كان الناس كلها كده .. انما بيني وبينك ، أنا لا أحب الرقص ولا اللي بيرقصوا ..

وقالت فرحة :

— والنبى حد يا حسين .. يعنى مش ضرورى اتعلم الرقص ؟

قلت :

— ابدا .. هوه اللى يقعد معاكى يفكر فى الرقص ؟

وابتسمت فى ارتياح كأنها نجيت من عذاب كبير ، والتفتت الى وهى تميل برأسها نحوى كأنها تشكرنى فى دلال .. ثم تسللت يدى مرة اخرى ، وامسكت يدها ، فاستسلمت ، وتنهدت تنهدة كبيرة منفعلة ، خيل الى معها ان بالونا ارتفع فوق صدرها وافرغ ما فيه من هواء ..

ونظرت اليها بامعان .. الى وجنتيها اللتين طاشتا حتى دب فيهما العطش .. والى عينيها وقد خبا ما فيهما من ذكاء ساذج ، ولمعت فيهما أحلام كثيرة .. والى شفتيها المضمومتين كأن كلا منهما تلتف بالاخرى ، وكلا منهما تشفق على الاخرى .. نظرت اليها طويلا .. ليس فيها قطعا شيء يغرينى بها .. ليس فيها شيء من صفات المرأة التى اشتهيها .. ولكن الدافع الخبيث الذى يحرك بين حسى يدفعنى الى أن انالها .. انها شيء امتلكه .. انها تعيش من مالى .. ثيابها ، وحليها ، وهذه الأصابع التى تكسو وجهها .. كل شيء فيها دفعت ثمنه من جيبى .. فلماذا اتركها .. ولنفرض انها لا تستحق .. لنفرض انى كنت غبيا منذ أقدمت على هذه الثروة .. ثروة اعالة عائلة محمد افندى السيد .. فلماذا لا استفيد من غبائى .. أستفيد — على الاقل — الاحساس بأنى امتلكت كل شيء فى هذه العائلة .. انا لا احب الفجل ، ولكنى اذا اشتريت حزمة فجل ، مجبر لى ان آكلها ، من أن اتركها لغيرى او القى بها فى عرض الطريق ..

كنت اقول لنفسى هذا الكلام ، ثم اسمع صوتا آخر ينبعث من داخلى ، ويرد على قائلا : الا تستطيع أن تسمو بنفسك .. الا تستطيع ان تكون شريفا ولو فى هذه الحالة .. الا تستطيع

ان تكون فاعل خير .. اترك هذه المسكينة .. اتركها .. انها تقزز النفس .. انك تبدو معها ككلب يلعق فى صندوق زبالة .. اتركها لوجه الله .. اتركها لعلك ترضى عن نفسك .. لعل هذا الشىء الذى يتحرك فى صدرك ويكتم انفاسك ، يرتاح !!

ووصلت بنا السيارة الى باب العمارة .. وهذه المناقشة لا تزال دائرة فى نفسى .. ووجدتنى انزل مع امك من السيارة .. واسير معها حتى الباب .. ثم وصلت الى باب المصعد ، ثم قلت لها فجأة :

ــ تيجى تتفرجى على الشقة بتاعتى ؟ !

وقالت امك فى سذاجة :

ــ شقة !! شقة ايه ؟ !

قلت وانا ابتسم لاطمئنها :

ــ ما انا ليه شقة مخصوصة فى العمارة دى .. مخليها علشان الضيوف اللى بيجوا من بلاد بره ، ينزلوا فيها .. وساعات اضايق من بيتنا ، آجى استريح فيها !

قالت فى دهشة :

ــ ده انا عمرى ما سمعت عن الشقة دى .. ده انا سألت عم جابر البواب عن السكان كلهم واحد واحد !

قلت :

ــ الشقة اللى فوق .. آخر شقة فى العمارة !

قالت :

ــ ده بيقولوا ساكنها واحد خواجه ، ومسافر ؟ !

قلت وانا اقترب منها خطوة :

ــ آهى الشقة دى تبقى بتاعتى .. تعالى افرجك عليها !

قالت فى تردد :

ــ بس الوقت متأخر يا حسين !

قلت :

تعالى يا شيخه .. انا مش جاى لى نوم .. تعالى اعمليلى فنجان قهوه .. اصلى متعود اشرب القهوة قبل ما انام .
قالت وهى اكثر ترددا :
— طيب ما تيجي تشرب القهوة عندنا !
قلت :
— بعدين هدى تصحى .
وكان ذكر اسمك قد نبه حواس والدتك ، واثار فيها حرصها ، فعقدت ما بين حاجبيها كأنها تستعين بكل ذكائها لترى موضع خطوتها التالية .. ولكن ذكاءها لم يستطع أن يتغلب على اطماعها .. على الحياة الجديدة التى تحاول ان تندمج فيها .. ثم انها مطمئنة الى .. لقد عشت فى حياتها عامين لم احاول خلالهما ان انال منها .. وقد رأت فى المجتمع الجديد مظاهر عدة كان يخيل اليها انها تجرح الشرف ثم اكتشفت انها لا تخل بالشرف .. رأت نساء فى أحضان رجال يراقصونهن بموافقة ازواجهن .. ورأت نساء يشربن الخمر والسجائر .. ورأتني اقبل حرية قبلات بريئة .. و .. و .. ولعلها تذكرت كلام حرية عندما قالت ان المرأة وهى فى الخامسة والثلاثين من عمرها لا تستطيع ان تتزوج الا اذا وجدت رجلا يحبها .. وهى تريدنى ان احبها .. وتريدنى أن اتزوجها .. لأنها لا تجد تعليلا لاهتمامى بها الا رغبتى فى الزواج بها ..
وطال ترددها .. تردد فيه خوف وفيه حرج ..
وظلت صامتة ..
وجذبتها من ذراعها الى ناحية المصعد الخاص الذى يصل الى « عش النسر » — كما كنت أسمى شقتى الخاصة .
فاستسلمت ، وهى منكسة الرأس ، ساهمة العينين ، كأنها مستسلمة للذبح ..
وصعدنا ..

وفتحت الباب بمفتاحى الخاص ..

ودخلنا ..

وبذلت أمك مجهوداً كبيراً لترفع رأسها وتفيق من استسلامها .. وقالت فى صوت ضعيف :

ـ دى باين عليها أكبر من شقتنا !!

وتركتها تدير عينيها فى أنحاء الشقة .. وتقترب فى احتراس من أبواب الغرف .. وتطل منها .. واتجهت أنا الى « البار » واعددت كأساً واحداً من الويسكى ، ووضعته على مائدة صغيرة أمامه على مقعد مريح ، وقلت وأنا أتنهد :

ـ أنا يظهر عجزت يا سيده !

قالت فى صوت مرتبك ، وهى واقفة بعيداً عنى ، تخاف أن تقترب :

ـ بعيد الشر يا اخويا .. ده انت لسه فى عزك .. اللى يشوفك ما يدكش أكثر من اربعين سنة ..

وسقطت عيناها على كأس الويسكى الذى أمامى ، وارتعشت جفونها .. كانت تخاف أن أدعوها اليه .. كانت على حذر .. وقالت كأنها تذكرنى :

ـ مش أعملك القهوه ؟

قلت :

ـ بلاش .. اشربها أما ارجع البيت أحسن ..

ثم غيرت لهجتى واستطردت فى لهجة آمره ، كأنها حلاوه آمرها بأن ترتفع الى درجة الأسياد :

ـ اقعدى ..

وجلست طائعه كأنها لا تجرؤ على أن تخالف لى أمراً .. جلست بعيداً عنى .. فوق أريكة .. ويداها فى حجرها ، وبين شفتيها ابتسامه صغيره حائرة تحاول أن تطمئن بها نفسها .. انها المره الأولى التى تخلو فيها الى رجل ، فى شقة خاصه - وفى

الساعة الثامنة صباحا ، وبينها وبينه كأس من الويسكي ..
وهي لا تدري ماذا تفعل .. هل تضحك ، أم تستسلم لحيائها ؟ هل تقترب مني ، أم تبتعد على حذر ؟ هل تتكلم ، أم تتركني أبدأ بالكلام ؟ !

وهي في حيرتها .. وفي انتظارها لما يمكن أن يحدث ، تقوم بحركات غريبة تكاد تضحكني .. فهي تنثني حينا وتسند جذعها على مسند الأريكة .. ثم تعتدل ، وتميل الى الوراء .. ثم تتنهد وترفع الفستان فوق صدرها وتفرغ ما فيه من هواء .. ثم تميل الى الأمام وتنظر بين قدميها وتعصر احدى يديها باليد الأخرى .. ثم ترفع الى عينيها في لمحة سريعة كأنها تسألني : ماذا تريدني أن أفعل ؟ !

وأنا أطيل النظر اليها ، كالقط الذي يشفق على الفأر المسكين قبل أن يأكله ..

ولكن هذه الفأرة لا تفتح شهيتي ..

وأحاول أجمع أعصابي ، وأضغط عليها ، حتى أثير شهيتي .. حتى أعد نفسي لأكل امك ..

ولكني لم أستطع ..

ان أعصابي في هذه الليلة كانت باردة لا تتحمس ، ولا تسخن ، ولا تستطيع أن تهضم امك ..

ان فحولتي تخونني لأول مرة ..

وصوبت كل عيني فوق ساقيها .. وارتفعت بهما الى فخذيها .. وطفت بهما فوق عجزها وصدرها .. وأنا أحاول أن أجد فيهما ما يثيرني ، وما يساعدني على اذكاء أعصابي ، وما يحرك فحولتي .. وكنت أهمس لنفسي كأني أدعو الشيطان الى نجدتي .. فاللا .. ماله هذا الجسد .. انه جسد والسلام .. وأنت زمرام .. مشهور بالدناوة .. فلماذا لا تريد أن تأكل هذه الليلة .. حرف حرمة المجل .. لقد مضى عليك زمن طويل منذ

كنت مقاولا صغيرا في الجيش البريطاني ، ثم تأكل فيه المحل .. و ..

ولكني لم استطع ..

ان شهيتي لا تزال مسدودة ..

وأنا جالس في استرخاء ، لا استطيع أن أتحرك ..

ويئست من نفسي ، وعندما يئست أخذت أحاول أن أخدع نفسي ، وأقول في صدري : « دعها هذه الليلة .. انها أول ليلة تخلو بها .. فدعها لتطمئن اليك .. لتزداد ثقة بك .. انك تستطيع أن تأكلها ليلة أخرى .. والليالي كثيرة » !!

وقررت أن أتركها هذه الليلة ..

ولم يكن في ذلك فضل لي .. لم أتركهـا بناء على خطـة موضوعة ، ولا لاكسب ثقتها .. انما لمجرد أن معدتي لم تكن تستطيع أن تهضم حرمة المحل .

وأمك لا تزال تشي أمامي كأن جسدها يقمر تحت لسعات عيني ، بينما تقول كلاما سخيفا .

وقلت لها وأنا أخفي عنها عيني كأني أرحمها من لسع النار :

ــ نقوم نروح بأه يا نفيده ؟ !

ونظرت الي في دهشـة مشوبة بخيبة الأمل .. لعلها كانت تنتظر أن يحدث بيننا شيء .. شيء أكثر من أن نجلس هكذا قبالة بعضنا البعض ، ونشرب كئوس من الويسـكي أبلل بل شفتي ولا أدعوها اليه .. لعلها كانت تنتظر أن أصرح لها بحبي .. أو أن أعرض عليها الزواج .. أو أحاول معها أي شيء .. والا فما معنى أن تختلي بي في شقة خاصة في الساعة الثانية صباحا .. وما معنى هذا التردد والحيرة والخوف والحذر الذي عانيته منذ خلوت بها ..

وقالت وكلماتها تقع من بين شفتيها ، كأنها كلمات تخرج ميتة :

— نقوم يا اخويا !!

ثم قامت من فوق الأريكة ، وهى تقول :

— انا حقى كل يوم اطلع الشقة دى علشان انضفها لك ..

قلت وانا أمد يدى اليها لتجذبنى من فوق مقعدى :

— اوعى .. ده ماحدش عارف خالص ان الشقة دى بتاعتى . ما حدش عارف دلوقت الا انتى ..

قالت وهى تجذبنى :

— ليه .. ودى فيها عيب كمان ايه ؟ !

قلت :

— مش حكاية عيب .. انما مش ضرورى الناس تعرف عنى كل حاجة .. ثم ان عم جابر البواب بيطلع ينضفها كل يوم ..

قالت وهى تمصمص شفتيها فى تعجب :

— أمرك ..

واتجهنا نحو الباب ، وقبل أن افتحه ، استدرت لها مرة واحدة ، وأنا أحاول الا انظر حتى لا أعدل عما نويته .. ثم جذبتها الى صدرى ، وقبلتها فوق خدها .. قبلة تعمدت ان تطول على قدر طاقتى .. على قدر ما تحتمله انفاسى ..

وارتعشت بين ذراعى .. وحاولت ان تدفعنى عنها .. ولكنها استسلمت سريعا لقبلتى .. وهدأت بين ذراعى ، كأنها استقرت بينهما الى الأبد ..

وابتعدت عنها .. وطعم قبلتها بين شفتى كطعم التفاح المعطر .. ورائحتها تملأ انفى .. رائحة عجيبة .. رائحة الطبقة الوسطى الصغيرة .. هل تعلمين ان لكل طبقة رائحة تميزها .. الطبقة الكادحة التى تضم الفلاحين والعمال لها رائحة خاصة يتميز بها كل افرادها .. والطبقة الوسطى الصغيرة لها رائحة خاصة .. والطبقة الوسطى الغنية لها رائحة اخرى .. والطبقة العليا التى تبدأ من الملك وتجمع اصحاب رءوس الأموال

وأصحاب الأرض لها رائحة تميزها .. كل طبقة لها رائحة تنبعث منها دائما ، ولا تزول مهما تغيرت ظروف الفرد الذى ينتمى اليه .. ولو سكبت زجاجة من عطر باريس على احدى بنات الفلاحين ستظل رائحة طبقتهــا تنبعث من وراء عطر باريس .. ولو تعطرت احدى الراقصات واحدى بنات الذوات بعطر واحد .. عطر « اربيج » مثلا .. فسيمتزج « الأربيج » برائحة الطبقة التى تنتمى اليها كل منهما فتختلف رائحته فى الراقصــة ، عن رائحته فى بنت الذوات .. ولن تكون رائحتهما أبدا واحدة .. وقد مررت أنا بكل هذه الطبقات ، وعرفت رائحتها جميعا .. لم تستطع واحدة أن تخدعنى فى طبقتها ، بفضل أنفى ورغم ذلك ، فقد صمت عندما شممت رائحة والدتك .. تقززت .. ربما لأن أنفى كان قد تعود على رائحة معينة منذ زمن طويل .. منذ صنعت ملابسى ، ولم أعد أشم الا رائحة واحدة .. رائحة .. رائحة نساء الذوات !

وقلت لها ، وأنا أتحسس أنفى بأصابعى كأنى أتذكره بعد أن نسيته :

— أنا كان نفسى أبوسك يا تفيده من ساعة ما كنا بنلعب الشايب !

ولم تحاول أن تبتعد عنى .. ظلت فى مكانها ملتصقة بصدرى ، كأنها تنتظر منى قبلة أخرى ، ورأسها مدلى فوق صدرها فى حياء .. ودماؤها مكتنزة فى وجنتيها .. وأنفاسها تتلاحق كأن شيئا قد نشط بعد رقاد طويل .. وقالت فى كلمات خفيضة لا تكاد تسمع :

— يغنى ضرورى البوس ده !!

قالتها ورأســها يترنح فوق كتفيها ، كأنها تدعــونى لأقبل خدها الآخر ..

وقلت لها ، وقد بدأت أحاول الابتعاد عنها :

ـــ احنا خلاص يا نفيده .. ما بقاش بينا تكليف !

قالت في دلال سمج وكأنها غاضبة :

ـــ ما انت بتبوس كل الناس .. لسه من شوية كنت بتبوس جيريه .. يعنى كل دول ما فيش بينك وبينهم تكليف ؟

قلت في امتعاض :

ـــ لا .. انتي حاجة تانية !

قالت وقد تدفق مزيد من الدماء الى وجنتيها

ـــ ازاى ؟ !

قلت وأنا افتح الباب كأني لم أعد اطيقها :

ـــ بأه يعنى مش عارفة ؟ !

وارتعش جسدها كأن كل خلجة فيه تزغرد .. ثم سارت نحو الباب وهي تمايل فوق كعب حذائها العالي ..

وأنا خلفها اتعجب من نفسي ..

ماذا اريد منها ؟

ماذا يريد شيخ في السابعة والخمسين من امرأة في الخامسة والثلاثين ولعلها تعديها نحو الاربعين ـــ ليست جميلة ولا مثيرة ؟

وهل لا احد وسيلة لاذلال محمد امدى السيد وعائلة محمد امدى السيد الا هذه الوسيلة .. الا ان احصل على جسد زوجة لا تستحق ان يستولي عليه احد ؟!

وتذكرتك ..

لو كنت انت .. لكان لي بعض العذر . فأن في شبابك ما اشتهيه ، وما يثيرني ، وما يستحق الامتلاك . ولكن هذه المرأة .. أمك .. يا حفيظ !

ونزلنا وقد خيل الى انى انزل من شاهق .. انى أهوى .. وركبت أمك المصعد الآخر عائدة الى شقتكم .. وركبت أنا سيارتي وأنا اشعر بالخيبة .. خيبة في رجولتي .. وخيبة في احترامي لنفسي .. وطعم قبلة أمك لا تزال بين شفتي . طعم انتفاخ العطر .. ورائحتها لا تزال في أنفي .. رائحة الطبقة الوسطى الصغيرة !!

- ١٣ -

وذهبت الى مكتبى فى اليوم التالى ، وانا شرير .. اريد ان اسحق اول من يقابلنى .. اريد ان استخلص احساسى بقوتى وجبروتى ، عن احساسى بانى لا استطيع ان احترم نفسى .. عن احساسى بالخيبة واليأس من نفسى ..

وجاء عبد العظيم ، وهو يضع على وجهه قناعا عابسا ، كانه يحمل خبرا خطيرا .. انى اعرفه عندما يلبس هذا القناع .. ان هذا القناع معناه انه اتم تنفيذ احدى جرائمنا .. فاذا افلست شركة منافسة ، جاء لينعيها الى وهو يكاد يبكى .. كانه ليس القاتل .. واذا مات عدو له وضع على وجهه هذا القناع العابس ، وهو يستعد ليمشى فى جنازته

وقلت له :

ــ خير على الصبح ؟

قال :

ــ والله حاجة مؤسفة يا سعادة الباشا !

قلت :

ــ ايه .. حصل ايه ؟

قال :

ــ اسماعيل افندى عبد الجواد اخو الست بثينة ..

وابتسمت ابتسامة صغيرة لم استطع ان احبسها بين شفتى ،

ثم قلت مجاريا عبد العظيم فى نفاقه :

ــ ماله ؟

قال :

ــ بعد كل اللى عملته له سعادتك .. وبعد كل نعايمك عليه وعلى عيلته .. اتضـــح انه نازل اختــلاس فى امـــوال شركة اسكندرية ..

قلت فى برود :

ــ وعملت فيه ايه ؟

قال وهو يخفى عينيه تحت جفنيه الملوثين ، حتى لا تفتضح شماتته :

ــ والله مستنى أمر سعادتك !

قلت فى اختصار قاس :

ــ بلغ النيابة !

وفغر عبد العظيم فمه دهشة ، ورفع يده كأنه يصد بها مصيبة ، وقال :

ــ ما بلاش النيابه .. ده مرضـه بقى سيب زميلنا المرحوم محمد افندى السيد ..

وكنت أعلم أن عبد العظيم لا يريد أن يسلم خالك الى النيابة حتى لا يفلت من يده .. انه يريد أن يحتفظ به ليذله .. ليعاقبه على مساومته له عند أول معرفته به .. وعبد العظيم هو الذى دفعه الى الاختلاس .. دفعه بقوة وبالحاح .. عينه صرافا فى الشركه حتى تتراقص أموال الشركة امام عينيه وحرضه على نفسه .. وقد حاول خالك أن يقاوم اغراء أوراق البنكنوت .. حاول أن يظل شريفا .. فسلط عليه عبد العظيم احد اعوانه .. موظف آخر فى الشركه .. اخذ يغرى خالك بالاختلاس ، ويفهمه أن كل الصرافين مختلسـون .. وأن احدا لم يستطع أن يكتشف هذا الاختلاس .. وماذا يصير شركه تملك مليونا من الجنيهات اذا فقد منها الف او الفان .. و .. و .. وبدأ خالك يضعف ..

وكانت القفزة التى تقفزها فوق كتفى .. قد أغرته بمزيد من القفزات .. لم يعد يكفيه مرتبه الذى لا يتجاوز الخمسين جنيها فى الشهر بينما آلاف الجنيهات تتراقص أمام عينيه كل يوم ..

واختلس ..

كان يكتب بمساعدة مندوب عبد العظيم ايصالات وهمية ، ويقبض قيمتها ..

وقلت لعبد العظيم :

ـــ امال ناوى تعمل فيه ايه ؟

قال وشفتاه تنضحان بلعابه :

ـــ اهو نسوى الحكاية بيننا وبينه ..

قلت ووجهى جامد لا يتحرك :

ـ اختلس كام ؟

قال كأنه يعلن انتصاره :

ـــ الفين جنيه !

قلت :

ـــ بس ؟ !

قال وهو يبتسم :

ـــ كفاية عليه كده !

قلت :

ـــ طيب اعمل اللى تشوفه !

قال :

ـــ انا بعت اجيبه من اسكندريه .. انما خايف يروح للست تميده علشان تتوسط له !

قلت فى ادعاء :

ـــ مش ممكن اسمح لحد يتوسط لحرامى .. الحرامى لازم ياخذ جزاؤه ..

واتسعت ابتسامة عبد العظيم ..

لقد فهم شيئا كان يخشى الا يفهمه .. فهم انى لا زلت كما انا .. لا زلت شريرا حتى فيما يختص بعائلة محمد افندى السيد ..

.. وجاء الى القاهره .. جاء ذليلا مرتجفا ويداه مضمومتان الى صدره كانه كبلهما باعترافه ..

انه لم يعد شريفا ..

انه الآن لا يستطيع ان يساوم .. ليس عنده ما يساوم عليه .. وقد كان يساوم من قبل لانه كان انسانا شريفا .. كان شخصية مستقلة واقفة على قدميها .. وكان يستطيع ان يقول : لا .. ويخرج مرفوع الرأس .. اما اليوم .. فهو لا شيء .. انه مختلس .. لص .. لا يستطيع ان يرفع رأسه .. ولا يستطيع الا ان يتوسل ويرجو ، لعلنا نصفح عنه ..

وتركه عبد العظيم ينتظر على الباب ساعات ، ثم ما كاد يسمح له بالدخول ، حتى سقط على يديه يقبلهما وهو يصرخ :

— انا فى عرضك يا سعادة البيه .. اعمل فيه اللى انت عايزه بس استرنى ، واستر ولادى ..

وتركه عبد العظيم يقبل يده ثم سحبها منه فى قرف .. وأخذ ينظر اليه فى احتقار كأنه ينظر الى بعوضة .. ثم اخذ يدور حوله كأنه يتمعن فى جثة حيوان نافق .. وقال فى شماتة :

— ولما انت عايز تستر ولادك ، كنت بتسرق ليه ؟ ..

وانفجر الرجل باكيا ..

الرجل الذى كان يعتز بمكانته الرسمى .. وبايمانه بالله .. يبكى الآن ، لا بين يدى الله ، بل يبكى بين يدى عبد العظيم .. وقال وهو ينحنى ليقبل طرف سترة سيده :

— ابوس رجلك يا سعادة البيه .. ارحمنى يا سعادة البيه .. انا غلطان .. الشيطان .. الشيطان يا سعادة البيه .. و ..

وقاطعه عبد العظيم :

— انتى جاى السانه ترحمك . المسأله خرجت من ايدى

خلاص !

وصرخ اسماعيل افندي عبد الجواد :

ـــ النيابة .. ده انا عمري ما دخلت كركون .. النيابة .. ده انا اموت نفسي !

وانهار على مقعد وهو يجهش بالبكاء .. ثم استطرد قائلا :

ـــ انا مستعد اكون خدامك لغاية ما اموت .. اعمل معروف . بلاش النيابة .. ما تبلغش عني .. واعمل في اللي انت عايزه ..

وجلس عبد العظيم وراء مكتبه . واخذ ينظر الى فريسته في تلذذ كأنه يشهد ذبيحة تعد للشواء .. وقال في تمهل :

ـــ والالفين جنيه ودنهم فين ؟

قال الرجل بسرعة :

ـــ فاضل معايا منهم خمسماية .. ومستعد أبيع عفش بيتي وصيغة مراتي . واكمل عليهم ..

وقال عبد العظيم :

ـــ ومش عاوزني اودنك النيابة !

وقال اسماعيل افندي ودموعه تشق خديه :

ـــ انا في عرضك ..

وعاد عبد العظيم يقول في تمهل :

ـــ ومش عايزني اطردك من الشركة .

قال الرجل وهو ينهنه :

ـــ اللي تشوفه يا سعادة البيه ..

وصمت عبد العظيم قليلا . كأنه يفكر . ثم عاد يقول :

ـــ اذا طردتك من الشركة حتى مش حاقدر احصلك .. ماحدش حايشوف وشك بعد كده .. يبقى لازم تفضل في الشركة ..

وقال الرجل في ضعف :

ـــ حاضر .. اللى تشوفه !

واخرج عبد العظيم ورقة معده ، من درج مكتبه ، وقدمها الى اسماعيل افندى ، قائلا فى لهجة آمرة :

ـــ خد .. امضى على الورقة دى !

وقام الرجل المنهار عن مقعده ، واخذ ينظر فى الورقة من خلال دموعه ، ثم ارتفع حاجباه فى ذعر ، وقال فى صوت محشرج :

ـــ ايه ده ؟ !

وقال عبد العظيم فى هدوء :

ـــ ده وصل امانة باربعة آلاف جنيه .

وقال اسماعيل افندى :

ـــ انما انا ما خدتش غير الفين !

وارتفع صوت عبد العظيم وجهه قائلا :

ـــ انت فاكر احنا حرامية زيك .. حانمضى ، ولا ابلغ النيابة ؟

وقال الرجل وهو يرتعش :

ـــ يا سعادة البيه انا ..

وقاطعه عبد العظيم قائلا :

ـــ عارف انك ما خدتش غير الفين .. انما انت حاتفضل موظف فى الشركة ، ولازم اطمن انك مش حاتسرق تانى .. لازم يبقى فى ايدى سلاح اخوفك بيه .. ما تنساش انك راجل مش امين .. انك حرامى .. والحرامية اللى زيك ما يحوش بالذوق .. انما بيحوا بالخوف .

وانهمرت الدموع من عينى اسماعيل افندى ، وقال وهو يشيح بوجهه عن الورقة :

ـــ يعنى بدل ما اروح فى داهية علشان الفين جنيه .. يبقوا اربعة آلاف !

وصرخ عبد العظيم .

— انت راحل عبى .. لازم تفهم انى لو كنت عمر اودتك فى داهية كنت وديتك من زمان .. انما انا رحمتك علشان ما انت نسيب المرحوم محمد افندى السيد .. وعلشان خاطر الست اختك ، وبنت اختك .. حا تمضي ولا لا ؟

وقال اسماعيل افندى وهو يتكىء على حافة المقعد حتى لا يسقط على الارض :

— بس حاادفع الاربعة آلاف جنيه دول منين ؟

وقال عبد العظيم وقد هدا صراخه :

— مش حاتدفع .. انا انا مش عاوز منك حاجة .. حانفصل الورقة دى فى مكتبى لغاية ما تحتاس مرة تانية اطلعها لك ..

وهز خالك راسه كانه يريد ان يتخلص منها . ثم ازاح طربوشه الى مؤخرة راسه ، ومسح دموعه بمنديله . ثم امسك بالقلم وقال :

انا تحت أمركم اللى تعملوه فى اعملوه . انا بين ايديكم "

ووقع بامضائه على الورقة ..

وقع « وصل أمانه » باربعة آلاف جنيه ، وهو لم يأخذ من أموال الشركة سوى الفين ، شاركه فيها الموظف الآخر الذى سلطه عليه عبد العظيم .. فلم يصبه منها سوى الف ومائتى جنيه ..

وهكذا ..

هكذا باع خالك حريته وحياته لعبد العظيم .. وبى

ان هذه الورقة تكفى لطرح به فى السجن ثلاث سنوات على الأقل . يكفى ان يخرجها عبد العظيم من درجه . لتدخل خالك الى السجن ..

وارتمى خالك على مقعد من شدة الاعياء ، سبب احد عند

العظيم يبص في الورقة . وابتسامة تملأ وجهه .. ابتسامة النصر ..

ثم أخفى ابتسامته سريعا ، وقال لخالك :

ــ وناوى تقول ايه لست اختك ؟ ..

وقال الرجل وانفاسه تصعد كأنه يموت

ــ حا اقول ايه ، واعيد ايه .. هوه باه فيه حاجه تتقال !

وقال عبد العظيم :

ــ اسكر بلاش تقول لها حاجة .. بلاش فضايح .. خصوصا ان الباشا بيضايق قوى لو حد جاب السيرة دى قدامه !

وقال اسماعيل افندى في استسلام :

ــ حاضر !

وعاد عبد العظيم يقول في هدوء :

ــ الموظف اللى اشترك معاك في الاختلاس طــردناه من الشركه ، وحرمناه من المكافأه .. وحضرتك مش ممكن ترجع في وظيفتك .. حتمشى كاتب في قسم الحسابات ومرتبك حاينزل شوية ، حيبقى عشرين جنيه بس ..

وقال خالك هامسا :

ــ حاضر ..

وقال عبد العظيم وهو يدير عنه وجهه :

ــ اتفضل حضرتك من غير مطرود .. وبكره تصبح تكون في اسكندرية .. علشان تستلم الوظيفه الجديدة !

وخرج خالك يلهث ..

***

هذا ما حدث بين خالك وبين عبد العظيم .. بلا مبالغه .. ان كل ما احدثك عنه لا يشير معنى المبالغة الا في رءوس السذج الاغبياء الذين لا يعلمون كيف نعيش ، وكيف نعمل .. الذين لا يرون الا ثيابنا الانيقه ، ووجوهنا الحليقة ، وايدينا المصبغه

بالعطر .. وأحاديثنا الناعمة وابتساماتنا الحلوة .. ثم لا يرون الابر المدببة التى حكنا بها هذه الثياب . ولا الأمواس المحددة التى نحلق بها ذقونهم . ولا الأظافر التى تطل من أيدينا . ولا المعانى التى نخفى وراء أحاديثنا . ولا الأسنان التى تبدو من خلال ابتساماتنا ..

وقد استمعت الى ما جرى بين عبد العظيم وخالك . وأنا أتشوى .. لم يتحرك فى عصب واحد ليرحم الرجل .. ولم أحاول أن أسمو بنفسى عن ابداء احساس ضعيف تافه لا يتحمل ضغط أصابعى عليه .. كنت احس بالنشوة وأنا أهبط .. اهبط .. اهبط الى الظلام ظلام الحقد والتشفى اللذين أحسهما نحو الناس جميعا .. وكان منطقى يبرر لى هذا الظلام . وهذا المنطق .. كان منطقى يقول لى : « لقد حاولت أن تشترى هذا الرجل بكرمك . بتساهلك . وطمع فيك .. ولو تركته لما وقف طمعه عند حد .. لطمع فى أن ينهش لحم كتفك .. ولكنك بالخديعة . وبالسفالة . اشتريته .. امتلكته .. انك تستطيع أن تفعل به الآن ما تشاء .. تستطيع أن تذبح أخاه وتمثل أخاه امام عينيه . دون أن يعترض .. انك لن تملك الناس بالكرم . ولكنك تملكهم بالخوف .. ان الكرم ينتهى بالناس الى أن يحقدوا عليك .. والخوف ينتهى بهم الى احترامك » !!

وقد خرج خالك من مكتب عبد العظيم . وذهب اليكم .. ولم يكلمكم .. لم يروِ لأمك شيئا مما حدث له .. وربما برر لها ذهوله والشقاء الذى يبدو على وجهه . بالمرض أو بالضيق .. ولكنه حرص على الا يروى قصته ..

وذهبت أنا فى نفس اليوم لأتناول طعام الغداء عندكم . والتقيت به .. ووقف أمامى ذليلا . لا يرفع رأسه . ولا يرفع صوته بالدعاء لى كما كانت عادته .. عيناه منكستان ، وشفتاه منكستان . وقامته منكسة .. كأنه يكاد يقع على الأرض ..

ونظرت اليه باشمئزاز ، ولمست يده لمسة سريعة بدل أن أصافحه .. ثم جلست وأنا أتعمد أن أشعره بأنى صاحب البيت .. بأنى السيد .. فقد كانت هذه أول مرة نلتقى فيها بعد تسلم وظيفته فى الاسكندرية .

وناديت على الخادم ، وقلت له بلهجة آمرة :

— روح شوف الطباخ عامل ايه النهارده ..

وقالت أملك وأحلام ليلة الأمس لا تزال تضحك فوق وجنتيها :

— أنا موصياه يعمل الرز بالكبد والكلاوى ..

وقلت وأنا أمد ساقى امامى :

— هاتى لى الشبشب يا تفيده ، احسن الجزمة تعبانى ..

وقامت أملك ، وعادت بالشبشب ، وانحنت تضعه بجانب قدمى ..

كل ذلك وخالك صامت .. لا يتكلم .. ولا يثور .. ولا تبدى دهشة ، أنه يرانى وأنا أعامل أخته كأنها عشيقتى .. أو على أحسن الفروض كأنها خادمتى ، ورغم ذلك فهو لا يثور .. انه لم يعد له شىء يثور من أجله .. لم يعد شريفا .. أصبح قريبا جدا من عبد العظيم .. كلاهما مسلوب الشرف والكرامة .. ولكن عبد العظيم باع شرفه وكرامته بثمن كبير .. ثمن كبير .. لقد نال بدل الشرف والكرامة ، لقب بك .. ونال ثراء كبيرا .. ونال مكانة مرموقة بين رجال الأعمال .. أما خالك فقد باع شرفه بلا ثمن .. باعه بنذالة ..

وجلسنا على مائدة الغداء .. وأنا لا أبادل خالك سوى كلمات مقتضبة ، دون أن أشير الى مأساته .. وهو يجلس منكس العينين كأنه يقف بين يدى ربه .. وأملك متهللة الوجه دائما ، لا تزال الأحلام ترقص فوق وجنتيها .. وتلح كعادتها فى تقديم الطعام الى .. دون أن تراعى وجود أخيها بيننا .. كأنه لم يعد له وجود فى الحياة الجديدة التى تحياها .. وتذكرت

حول مرة رأيتها فيها عندما أصرت على الا اقابلها مرة ثانية الا ى حضور أخيها .. هذا هو الأخ الذى ظننت انها تستطيع أن تحتمى به .. أو الذى فرضت التقاليد الشعبية الاحتماء به .. انه مستعد الآن أن يبيعها لقاء الورقه التى يخطط بها عبد العظيم ى درجه .. بل ربما بأقل من ذلك .. لقاء رفع مرتبه الى خمسين جنيها ..

ولم يكن حول المائدة من افراد عائلتك من لا يزال يحتفظ بشخصيته الا انت .. انت وحدك .. لم تتغير فيك شيء الا انك ازددت نحولا .. نفس حديثك الخافت الذى لم تتسع آفاقه ، رغم اتساع آفاق الحياة التى تحيط بك .. ونفس ابتسامتك الحزينة .. ونفس عينيك اللامعتين اللتين تتقان صدرى ، وقد استقر فيهما ألم دفين .. الم يحيط بك كهالة الملائكة ..

وكنت انت وحدك ، تظلين تمثل امامى .. متشفى !

انى لم استول عليكم بعد ، مادمت لم استول عليك ..

انى لا استطيع أن احترم نفسى وارضى عنها ، ما دمت لاتحترميننى ، ولا ترضين عنى ، ولا تقتنعين بحياتى ..

انى لا استطيع أن أكون شريفا .. لأنك لا تعترفين بى كرجل شريف !

وكنت أدير عينى عنك ، الا ى مرات متقطعة اتبادل فيها بضع كلمات .. الى أن انتهينا من تناول الغداء ، وقمنا الى الصالون .. وجلست مرتاحا ، وأمك تطوف حولى ى انتظار لمحه منى .. ودخلت انت الى غرفتك .. وتلفت خالك ى استعداء ، ثم قرر أن يخلى لى الجو مع اخته ، فاستأذن ى الانصراف .. وقال وهو يمد يده يصافحنى :

— والله يا سعادة الباشا .. أصل .. يعنى .. كنت عايز اكلم سعادتك ى ..

واستشعرت أنه يريد أن يحادثني في مأساته ، فقاطعته وقلت بحدة :

ــ معدين .. مش وقته ؟

وقال في ضعف :

ــ حاضر .. أمرك ..

وقالت أمك وهي تودعه الى الباب :

ــ مش تقعد لما تستريح يا اخويا ..

قال وراسه لا يزال منكسا :

ــ لا معلهش .. ورايا مشوار ..

وقالت أمك بلا حماس :

ــ مش جاييات هنا الليلة ؟

وقال وهو يهز راسه :

ــ ما اقدرش والله يا تعدوه يا احمى .. لازم اسافر الليه اسكندرية !

قالت بسرعة :

ــ مع السلامة يا اخويا .. ما تنساش السلام !!

وخرج خالك ..

وعدت الى أمك وخصاها يرعردان فوق عينيها ، كأنها تزف نفسها الي .. وقالت في اغراء يثير الشفقة :

ــ مش حانسهر الليلة عند حرية ؟

ونظرت اليها في تعجب !!

انها تلح في دعوة نفسها الى ليلة كليلة الأمس .. ليلة عند حرية ، ثم في شقتي الخاصة ..

وقلت :

والله نفسه مش عارف . لما أشوف مواعيدي ايه الليلة !!

وقمت من مقعدي كأني أقطع عليها أحلامها ، واتجهت الى الحمام .. وعند خروجي منه لمحت باب غرفتك مغلقا .. وملكتني

رغبة عنيفة في أن أسبح هذا الباب المغلق .. وقد خيل الى أنى سأراك وراءه . كما لم أتعود أن أراك .. خيل الى انى قد أفاجئك وابتسامتك أكثر حياة . وعيناك ضاحكتان .. ووجهك نضر ينبض بالنشاط .. كوجوه بنات نادي الجزيرة .. كوجه « شوشت » ابنة جيرية .. كوجه الطبقة التي أعيش فيها ..

ودون أن أنقر على الباب ، فتحته ..

ورأيتك ..

رأيتك بدنين شيئك ..

كنت قد خلعت عنك ثوبك ، ووقفت وسط الغرفة لا يسترك سوى قميصك الداخلي .. وكتفاك عريتان .. وصدرك الصبي ينطلق في كبرياء وغرور .. وساقاك مفصلتان من تحت ثوب الحرير .. و .. والنافذة الخشبية مغلقة .. والضوء هادىء خافت .. وأنت كهالة من النور .. و .. وسقطت عيناى عليك ، والتصقت بك .. التصقت بجسدك .. عينان مبهورتان .. خشعتان .. محرمتان .. تكادان تمزقان الثوب عنك ، ثم تمزقان الجسد ..

وذعرت أنت عندما فتحت الباب ..

وارتسمت على وجهك صرخة مكتومة .

ثم التقطت ثوبك وحاولت أن تحمي به جسدك عني .. وقلت في صوت مرتعش ضعيف كصوت صمري :

ـــ ايه ده .. كان لازم تخبط على الباب ..

قلت في صوت مذبوح ، وأنا أحاول أن أبتلع لعابي حتى لا يسيل من بين شفتي ، وعيناى لا تزالان ملتصقتين بك :

ـــ ما خدتش بالي .. آسف ..

ولم أخرج من الغرفة .. بل تقدمت اليك خطوة . وعيناى المحرمتان ستدمانى ، واستطردت في كلمات لاهثة . وأنا أمد ذراعى كأنى أهم أن أربت على كتفيك :

— على كل حال انى رى ستى .. حد ينكسف من ابوه ؟ .. يواصلى مايزك فى حكاية ..

قلت وانت تتعمدين عنى حطوة . وقد استقرت عيناك ، فى مطرد ثابت . حملت كل شخصيتك القوية :

— انفصل حضرتك ، وانا جايه وراك .

وخفت ..

خفت منك ..

لا ادرى لماذا ؟ !

ولم تشعرى انت بخوفى ، ولكنى كنت خائفا فعلا .. شيء فى صدرى حركته عيناك فأشاع الرعب فى قلبى .. وخفضت ذراعى المرفوعة .. واستعنت بكل ارادتى لأحول عينى عن جسدك .. وقلت بصوت حاولت الا يكون مرتعشا :

— بس ما تتأخريش ؟ !

وخرجت من الغرفة .. وانت ورائى تغلقين الباب على نفسك بالمفتاح ..

وسمعت صوت صرير المفتاح كأنه صوت اعصابى وهى تعصرنى . وانا لا زلت فى شبه ذهول .. وجسدك لا يزال امام عينى يهتز كوشاح النور .

وحاولت ان اطرد هذا الجسد من امام عينى .. انه ليس جسدا جميلا .. انه جسد نحيل .. اكثر نحولا مما تعودت ان اشتهى فى الاجساد . ان العظمتين اللتين يبدأ بهما صدرك . ويحددان كتفيك . بارزتان .. اكثر بروزا مما يتطلبه الجمال .. ولكنه ليس الجمال الذى يفتنى فيك .. ليس الجمال الذى اشتهيه منك .. انه الصبا .. صباك .. اننا فى عمرنا هذا .. عمر الشيوخ .. عمر الخمسين والخمسين .. نحتاج الى الصبا اكثر مما نحتاج الى الجمال .. يفتننا الصبا اكثر مما يفتننا الجمال .. وقد نتنازل عن كثير من ملامح الجمال فى سبيل

مزيد من الصبا .. ان الصبا يعوض النقص فيه .. يبعد عنا شبح تكبر الذى يقترب منا .. يعيد الينا شبابنا .. يحقق دماءنا بسحبه من الماضى .. الماضى القوى المحبب ..

ولكن لماذا اقول هذا الكلام ؟ ..

لماذا افكر فيك كجسد ، وانا اريد ان اقنعك بأنى بمثابة ابيك .. اريدك ابنة لى ..

لماذا ؟

لأنى لا استطيع ..

لا استطيع أن احترم نفسى ..

وعدت فى خطوات يائسة ، والقيت بنفسى على الاريكة وانا الهث .. كل شىء فى يلهث .. وجاءت والدتك وجلست بجانبى ملتصقة بى .. ونظرت اليها فى قرف .. الى وجنتيها المطليتين .. والى شفتيها الملتصقتين احداهما حول الاخرى .. والى الاخاديد تحت عينيها .. والجلد المهدل تحت ذقنها وحول عنقها .. والى لونها الذى يشوبه الاصفرار ، كأنه اختزن طويلا فى مخزن تاجر العاديات .. والى نهديها المهدلين كأنهما تعبا من الوقوف جيلا بأكمله .. والى جسدها الذى لا خطوط له .. ثم صحت فيها رغم ارادتى ، كأنى ابعد عنى شبحا مخيفا :

ـــ ابعدى عنى !

وانحدفت المسكينة الى الوراء مذعورة .. فعدت وتمالكت أعصابى ، وقلت فى صوت اكثر هدوءا :

ـــ اصلى تعبان شوية .. نفسى ضيق .. يظهر اكلت كتير !!

– ١٤ –

ومضت أيام طويلة تعمدت خلالها الا اراك ، او ازور البيت ..

وأمك تتصل بي بالتليفون كل صباح ومساء ، تدعوني اليها ، وتدعو نفسها الى ..

وانا اتعذب ..

اتعذب بحبك ..

نعم .. انه الحب .. نوع غريب من الحب .. ان تفاعل الشهوة ، مع غريزة الامتلاك ، مع الاحساس بالفشل ، مع محاولة مقاومة النفس .. كل هذا ، ينتج نوعا من الحب .. حب شرير قاس لا يرحمني ، ولا يرحمك ..

وقد حاولت ان اقاوم هذا الحب ..

حاولت كثيرا ..

وكانت المحاولة ترهقني ، وتحرق اعصابي .. وكنت ابدو كما لم يرني احد من قبل .. ضيق الصدر ، لا احتمل الناس ، ولا احتمل العمل ، ولا احتمل نفسي .. وكنت انزوي بعيدا .. احبس نفسي في بيتي ، او اخرج في سيارتي واقضي الساعات اطوف بضواحي القاهرة .. وانا هائم ، اخاطب نفسي ، واحاول ان اخدعها عن حقيقتها .. ثم افشل في خداعها ، وافيق من هيامي ، لاحطم شيئا .. اي شيء .. احطم كوبا ، او احطم امرأة او رجلا ممن يعيشون في دائرة حياتي .. وفكرت في ان

اسافر الى الخارج ، وكان لدى من شئون عملى ما يدفعنى الى السفر .. ولكنى لم اسافر .. احسست كأن هناك صفقة يجب ان اتمها قبل السفر .. الصفقة التى تتمثل فيك ، وفى حبى لك .. فبقيت مع عذابى قريبا منك ، كأنى أجلس قريبا من البورصة ارقب تقلبات الاسعار ، لاضرب من خلالها ضربتى ..

ثم لجأت الى محاولة أخيرة .

لجأت اليك ..

هل كنت مخلصا فى الالتجاء اليك ؟؟ .. لا ادرى .. ولكنى كنت امنى نفسى بأنك قد تساعديننى على حبى .. وانك قد تستطيعين ان تحررى هذا الحب من الشهوة ، ومن الفجور ، ومن رغبة التملك التى تسيطر على . وتجعلين منه حبا نقيا .. حبا ابويا مجردا من الانانية .. انك انسانة نقية شريفة ، فهل للنقاء والشرف قوة تستطيع ان تهزم الدنس الذى يملأ نفسى ؟ !

لقد تمنيت ان تكون لك هذه القوة ..

القوة التى تستطيع ان تهزمنى ..

وذهبت اليك ..

وجلست معك ومع والدتك ، وانا ادير عينى عنك كأنى كنت اخشى اذا نظرت اليك ان اراك عارية مرتدية قميصك الداخلى ، كما رأيتك آخر مرة ..

وقامت والدتك تشرف على بعض شئون البيت ، وتركتنا وحدنا .. وقلت لك ، وانا انظر الى الارض ، وأحاول ان اضع فى صوتى نبرة حنان وتواضع :

ــ فيه حاجة مضايقاكى يا هدى ؟ !

وتنهدت فى هدوء وقلت فى صوت خفيض :

ــ لا .. ابدا !

قلت :

ــ متهيألى ان فيه حاجة مضايقاكى .. شايفك دايما مش

مبسوطة .. ومش عارف اعمل لك ايه علشان تنبسطي .. عمرك ما طلبتي مني حاجة .. وعمري ما عرفت ايه اللي ناقصك .. انا زي ابوكي يا هدى ، ولازم تعامليني زي ابوكي ..

ورفعت رأسك لتذكر والدك ، كانك تبخلين على حتى بذكره .. ثم قلت :

— انا عمري ما طلبت من المرحوم بابا حاجة ..

قلت في تعجب :

— يعني طول عمرك كنتي كده .. زهقانة .. وساكتة ؟ !

واجبت بسرعة :

— لا .. علشان كان بابا مايش !

ونظرت اليك ، وسقطت نظرتي على نهديك ، فرفعتها سريعا الى وجهك ، وقلت :

— وانا مش زي بابا ؟ !

واطلت من عينيك هذه النظرة الثابتة التي تثقب صدري ، وابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة .. ولم تردي علي .. فعدت أقول لك :

— يعني كنت مبسوطة في شبرا اكتر ؟ !

وعدت تتنهدين في أسى ، وقلت :

— انا كل صاحباتي في شبرا !

قلت :

— وهنا ما لكيش صاحبات .. ده النادي مليان بنات من سنك ، وكلهم تعرفيهم !

واحنت في أسى حوانا بعيدا عن سؤالي :

— كل اللي يجيبه ربنا كويس !

قلت :

— واللي اجيبه انا ؟ !

واجبت كانك تهربين مني :

ـ حضرتك حبت لنا حاجات كتير .. كتير قوى .. عن انك يا عمى ، أما أقوم أوضب السفرة !

وقمت من أمامى ..

وكان هذا هو كل جهدك فى معاونتى على نفسى .. كلمات كأنها الصفعات ، وكأنك توجهينها الى سجانك .. الى رجل يحاول اغتصابك .. وقد كنت فعلا سجانك ، وكنت فعلا أحاول اغتصابك .. ولكنك لم تحاولى ان تقدمى للسجان رشوة حتى يطلق سراحك .. ولم تحاولى ان تقدمى له شيئا يعوضه عن اغتصابك !

هل الشرف والنقاء يقفان دائما هكذا .. موقفا سلبيا .. ويتركان الناس تعتدى عليهما ؟ ..

لقد وقف منى أبوك موقفا سلبيا ، وتركنى أسير فى طريق الأعمال القذرة ، لم يحاول ان يقفنى او يقنعنى ، الا بهذه النظرة الساخرة التى كان يوجهها الى .. النظرة التى كانت تحرك شيئا فى صدرى ، ولكنها لم تكن أبدا تقفنى عن طريقى ..

وقد حمى أبوك نفسه منى بأن ابتعد عنى ..

ولكنك لن تحمى نفسك منى .. لأنك لن تستطيعى الابتعاد عنى !

ونظرت اليك وانت تطوفين حول مائدة الطعام ، وعيناك غائمتان على تحت جفنيك .. نظرت الى جسدك .. الى الجسد البكر الصبى .. انى أعرف سر عذابك .. انه هذا الجسد .. لقد أردت ان تمنحيه لحبيبك عادل ، فلما حرمتك من حبيبك ، وحرمت جسدك منه ، تعذبت .

هذا هو كل شىء ..

هكذا صور لى منطقى عذابك .. عذاب محصور فى جسد .. وما هو الحب ؟ انه تبادل أجساد لا أكثر .. فاذا لم تتبادلى جسدك مع عادل ، فيكفى ان تتبادليه مع أى رجل آخر ، حتى

ستخلصى من العذاب .. ان الأجساد كالبضاعة ، لا يهم من يشتريها ، ولكنها يجب ان تباع ..

هذا هو منطقى !!

المنطق البشع الدنس ..

وانا لا زلت أنظر الى جسدك ، بعينين محرمين ..

ولكن ، كيف ؟

كيف اشترى هذه البضاعة ، واحصل عليها ؟ !

وشعرت بانفاسى تضيق .. واعصابى تلتهب .. وراسى يصبح بأزيز كأن عشرات من الدبابير تملؤه وتلسعه .. وكلما القيت نظره اخرى على جسدك ، ضاقت انفاسى اكثر ، واشتد التهاب أعصابى ، وارتفع الأزيز .. وبدات اخبط الأرض بقدمى كأنى ثور لا يطيق الحبل الذى يشده الى الوتد ، وامسح على وجهى بكفى كأنى أرطب النار التى تندلع منه .. انى ساجن .. طاقة هائلة من الشر تتملكنى .. أريد ان احطم شيئا .. اى شيء ..

وجاءت امك ، وجلست بجانبى وهى تتمايل فى دلال سادج ..

هذه هى ..

سأحطمها ..

وملت عليها وقلت هامسا فى كلمات متلاحقة كأنها السنة النار تنطلق من فوهة الجحيم :

— انا حاطلع الشقة اللى فوق دلوقت ، وانتى حصليني بعد شوية ؟

قالت وقد فوجئت بهذه الدعوة :

— دلوقت ؟ !

قلت :

— ايوه .. دلوقت حالا !

قالت :

ــ مش لما تتغدى ؟

قلت :

ــ لا .. ما ليش نفس .. اصلى تعبان ، وعايز استريح شويه !!

ثم قمت قبل أن اسمع ردها ، وخرجت من الشقة ونزلت الى اسفل العمارة ا ووضعت نفسى فى المصعد الخاص ، وصعدت الى شقتى الخاصه .. الى عش النسر .. وبسرعة خلعت سترتى واتجهت الى « البار » وأعددت لنفسى كاسا ثقيلة من الويسكى ، ولم اضعها امامى لاتلذذ به شمتى كالعادة ، بل قذفت به الى جوفى .. وانبت عليه فى جرعتين ، كانى اصبه على مارى .. ثم اعددت كاسا اخرى ، واحتفظت بها فى يدى ، وجلست فى انتظار امك ..

وجاءت ..

جاءت المسكينة ..

وكانت قد غيرت ثوبها بثوب خيل اليها انه اكثر اغراء ، وأكثرت من البودرة فبدت بشرتها كحائط فرغ المبيض لتوه من طلائه بالبياض ، واكثرت من اللون الاحمر فوق شفتيها فبدت كانها اكلت ذبيحة بدمها ، ثم لم تغسل الدم عن شفتيها ..

وجرعت من كاسى كانى خمت ــ بعد أن رأيتها ــ أن افيق من شرى المجنون .. وقلت لها وانا ابتسم من بين اسنانى .

اعمل لك كاس ؟

قالت وهى تقترب منى متارجحة فوق كعب حذائها العالى :

ــ ده احنا لسه نهار يا خويا !

قلت وانا اعد لها كاسا اثقل من كاسى :

ــ هوه يعنى حرام بالنهار ، وحلال بالليل .. خدى يا شيخه !

وناولتها الكاس ..

واخذتها وهى تبتسم فى زهو ، كأنها تعلن لى أنها أصبحت لا تخاف الكأس ، وقالت فى جراة :

ــ الا فوتر !

قلت وأنا اقترب منها حتى التصقت بها .

ــ فى صحتنا احنا الاتنين !

ولم أحاول ان انظر اليها .. كانت عيناى تنظران الى داخلى .. الى وعاء الشر الذى بغلى .. وكانت الرغبة فى التحطيم تشتد بى .. الرغبة فى الانتقام .. الانتقام من نوازع الشرف التى تتملكنى بين الحين والحين ، والتى دفعتنى الى اعالة عائلتكم والصرف عليها دون داع .. ودون منطق يبرر لى هذا الشرف الموهوم !

سأنتقم لنفسى من الشرف !

سأنتقم منك ..

سأسترد مالى الذى انفقته عليكم ..

وتركتها تشرب جرعة كبيرة من كأسها ، ثم ابعدته عن شفتيها ، وشهقت فى حدة . واخذت تسعل سعالا حادا ، وتخبط على صدرها بيدها وهى تقول بين حشرجات سعالها :

ــ ايه ده يا حسين .. الدور ده تقيل قوى ؟ !

قلت وأنا اربت ظهرها :

ــ خليكى جدعه أمال .. انتى حتفضلى خيبه طول عمرك يا تفيده ؟ !

ثم قبلتها فوق وجنتها . وذقت طعم التفاح العطن .. ورائحتها تملأ أنفى .. رائحة الطبقة المتوسطة الصغيرة مختلطة برائحة عطور باريس ، وبرائحة الويسكى ..

وابتسمت لقبلتى ، كأنها تلقت منى وساما ..

وابتعدت عنها ، ورفعت كأسى الى شفتى ، كأنى احاول ان اغسلهما من أثر قبلتها ..

وتمايلت في حياء ، كأنها فتاة تتلقى القبلة الأولى ، ثم قالت في دلال :

— هو انت ما تطلبش بوس يا حسين !

ومالت بوجهها الى كأنها في انتظار تلقى القبلة الثانية .. ثم رفعت كأسها ورشفت منها رشفة ثانية ، لم تسعل لها .. ثم رشفة ثالثة .. ثم اتت على الكأس .. واعددت لها كأسا ثانية .. وانا انظر اليها دون ان احاول أن اراها حتى لا انفر منها .. انما عيناى تنظران الى داخلى .. الى وعاء الشر الذى يغلى ..

وحملنا كأسينا وجلسنا فوق الاريكة الواسعة ..

وبدأت تتكلم ..

ولكنى اقتربت منها ، واحطت كتفها بذراعى ، واطلت النظر اليها ، حتى سكتت عن الكلام .. احست ان هناك شيئا سيحدث .. ولم تكن تدرى ما هذا الشىء بالضبط .. ولكنها كانت تنتظره في صمت ..

وفجأة سقطت على شفتيها ، وعصرتهما بين شفتى ..

واستسلمت وفى عينيها نظره مبهورة خائفة .. ثم لما طالت القبلة اسدلت جفنيها فوق عينيها ، فاختفت نظرتها .. وتركت شفتيها بين شفتى .. تركتهما دون ان تضع فيهما حياة .. كأنهما قطعتان من لحم مذبوح ..

واحطتها بذراعى الثانية ..

وقالت في صوت ضعيف مبهور ، ورائحة الويسكى مختلطة برائحة الطبقة المتوسطة الصغيرة ، تنفخ في وجهى :

— مش لما نتجوز يا حسين ؟ !

قلت ووعاء الشر في نفسى يدوى بالغليان :

— الجواز بعدين يا عبيطه ..

وسكتت .. سكتت بلا حياة وبلا مقاومة .. كأنها ماتت بين ذراعي .. ثم ..

ثم تملكتني طاقة هائلة من الحقد .. انى احس بالحقد وبين ذراعي جسد امرأة .. حقد أسود .. واحس كأنى انتقم فى هذا الجسد من الناس كلهم .. من الفقراء والاغنياء .. انتقم منك ، ومن ابيك ، ومن عادل ، ومن خالك .. وهذا الجسد ليس جسد امك .. انه جسدكم جميعا .. جسدك انت .. وجسد ابيك ، وجسد عادل ، وجسد خالك .. ان صوركم تتراءى لى كأنها تنبعث مع انفاس امك .. وانا اتعالى فى انتقامى .. اطعن .. واطعن .. بلا رحمة .. وبلا نشوة .. سوى نشوة الانتقام ..

ثم ..

ثم تركتها ..

تركت الجسد المسكين ..

وقمت واتجهت الى البار وفتحت زجاجة صودا ورفعتها الى شفتى ، وسكبتها فى جوفى ، وانا مدير ظهرى الى امك ..

كنت لا اريد ان انظر اليها .. كأنى كنت اخاف اذا نظرت اليها ان ارى دم الذبيحة مسفوكا على الارض .. ولكنى تحاملت على نفسى ، والتفت اليها .. ورأيتها ..

رأيت مأساة مكومة فوق الاريكة ..

— لم تكن نشوانة ، ولا خجولا .. بل كانت مذهولة .. كأنها غائبة فى عالم بعيد .. عالم كانت تعيش فيه يوما كزوجة شريفة .. وكان كل شىء فيها يسيل فى حزن كأنه الدموع .. شعرها يسيل فوق جبهتها . ووجنتاها تسيلان فوق وجهها .. وشفتاها تسيلان فوق ذقنها .. ورأسها سائل فوق صدرها .

وانقبض صدرى حتى كاد يخنقنى ..

وبقيت صامتا لا استطيع ان احول عينى عنها .. انظر الى

جريمتي .. جريمة اخرى .. ولم اعد ثائرا .. ان وعاء الشر هدا ولم يعد يغلى .. ولكنى اريد ان اهرب .. اهرب من امام جريمتى !

وناديتها فى صوت خافت :

ــ تفيده !

ولم ترد .. بقيت مستغرقة فى ذهولها ..

ورفعت صوتى وناديتها وقد بدا الهلع يتسرب الى قلبى

ــ تفيده .. تفيده .. مالك ؟!

ورفعت راسها فى بطء ، وتلفتت حولها كأنها تبحث عن مصدر الصوت الذى يناديها ، ثم استقرت عيناها فوق وجهى ، وقالت وهى لا تزال فى ذهولها :

ــ هيه .. بتقول ايه ؟!

وصرخت فى وجهها :

ــ مالك ؟

قالت وراسها يعود فيسيل فوق صدرها :

ــ مالنش !!

ــ انها لا تحاول الآن ان تقلد خيرية .. ربما لأنها لم تر خيرية فى مثل هذا الموقف .. ولا تحاول ان تتظاهر بالاندماج فى الحياة الجديدة التى تعيشها ، ربما لأنها لم تكن تتصور ان هذه الحياة الجديدة تصل الى هذه الحدود .. وهى فى الوقت نفسه لا تستطيع ان تعود الى شخصيتها القديمة .. الى طبقتها .. انما هى الآن شىء لا طابع له .. شىء مكوم فوق الاريكة يمثل مأساة !

وتضايقت ..

زهقت من هذا الشىء !

ماذا حدث مما يحمل معنى المأساة .. امرأة اخرى فى فراشى سبقتها عشرات النساء !

مما هى المأساة .. اين هى المأساة ؟ هل هذه هى المراة الشريفه الوحيدة فى مصر حتى تحمل كل هذا الهم ؟ !

وقلت وانا ارفع زجاجة الصودا الى شفتى مرة اخرى :

— اظن تقومى تنزلى دلوقت يا نفيده .. احسن حد يسال عليكى !

ولم تجب ..

انما قامت واقفة وهى تضغط على ركبتيها بكفيها ، كأن عمرها زاد فى لحظة ستين عاما .. وازاحت خصلات شعرها السائل فوق جبينها .. ثم انحنت تجمع بضعة مشابك للشعر سقطت من رأسها فوق الأريكة .. ثم اتجهت فى خطوات بطيئة نحو الباب دون ان تنظر الى ..

وقبل أن تصل الى الباب ، التفتت ونظرت الى بكل عينيها ، ثم قالت فى صوت لا انفعال فيه .. صوت ذكرنى بصوتها عندما سمعته لأول مرة فى شبرا :

- انت حاتتجوزنى يا حسين ؟ !

قلت وزجاجة الصودا لا تزال فى يدى :

— مش وقته يا نفيده السؤال ده !!

وعادت تقول فى نفس الصوت الحازم :

— انت حا تتجوزنى ؟ !

قلت وانا احاول أن ابتسم لها :

— يا ستى اطمنى .. انا حاكلمك فى التليفون الليلة .. حاكلمك كتير !!

واحنت رأسها كأنها مهزومة لا تملك الا الاستسلام .. وفتحت الباب .. وخرجت !!

ووضعت زجاجة الصودا على النار فى عنف ، كأنى ادق بها عنق امك .. واحسست برغبة شديدة فى أن ابصق ..

امصق قبلاتها ، وامصق رائحتها ، وامصق جسدها .. ابصق كل ما لمسته منها ..

ثم دخلت الى حجرة النوم ، وخلعت نصف ثيابي ..

ونمت ..

وقمت من النوم في الساعة السادسة مساء وانا احاول ان اقنع نفسي بانى سعيد .. بانى انتصرت .. بانى قضيت متعة ..

ولكن لا ..

ان عينيك تلاحقاني .. وشيء يتحرك في صدري ويكاد يكتم انفاسي ، ويمزق رئتي .. وانا احس بالقرف .. القرف من نفسي .. احس اني قذر .. قذر جدا .. وفي حاجة الى حمام من الماء المغلي يغسل صدري ، وقلبي ، وعقلي .. يغسل عني الطين المكوم في داخلي .

وفي الوقت نفسه احس برعدة كانى خائف .. خائف من عينيك .. خائف من هذا الشيء الذي يتحرك في صدري .. وخائف من عدو مجهول .. يتربص بي في مكان ما .. ان كل هؤلاء الأعداء الذين قضيت عليهم ليسوا كل اعدائي ، بل يخيل الي اني كلما قضيت على عدو نبت في مكانه عشرة اعداء ..

انى اريد ان استريح ..

استريح من اعدائي ..

انى لا استطيع ان استريح منهم .. انهم يعيشون في صدري ..

وذهبت الى مكتبي في المساء وانا يائس .. ان عشرات السعاة ينحنون امامي .. وعشرات الموظفين يقفون بين يدي .. والدار الكبيرة تصمت تحت وقع خطواتي كانها وقع خطوات القدر .. ورغم ذلك فانى يائس .. كل هذه المظاهر تحيطني بهالة من الاحترام والتقديس .. وانا يائس !..

وجاء عبد العظيم يقول لى . وبين شفتيه ابتسامة كبيرة كأنه يرشونى بها :

— الجماعة بتوع اتحاد المصدرين ، بقالهم اسبوعين بيلحوا علشان يعملوا حفلة تكريم لسعادتك .. ومستنيين ان سعادتك تحدد الموعد !!

وفكرت برهة .. انى فى حاجة الى حفلة التكريم هذه .. فى حاجة اليها لاقنع نفسى بأنى انسان محترم مكرم .. وقلت لعبد العظيم وانا ساهم :

— بكره !!

ودهش عبد العظيم ، وقال وهو يحدق فى عينيه كأنه يحاول ان يكتشف سرى :

— بس الجماعة ما يلحقوش يوضبوا حاجة لبكره . على الاقل نديهم فرصة علشان يبعتوا الدعوات ..

ونظرت اليه كأنى لا اراه ، وقلت :

— طيب .. خليها بعد بكره !

قال وهو يبتسم فى بلاهة كأنه عجز عن ان يفهمنى .

— نخليها الجمعة الجايه !!

قلت فى حدة :

— بلاش .. هم عايزين يكرمونى على كيفهم .. انت عارف انى ما احبش حفلات التكريم .. ثم انى الجمعة الجاية مشغول !

قال وهو يهز كتفيه مستسلما :

— خلاص نخليها بعد بكره .. الحقيقة يا باشا دول لازم يعملوا لك حفلة تكريم كل يوم .. اللى عملته للبلد مش شويه !!

ولم ارد عليه .. وخرج من مكتبى وهو يلتفت وراءه ليعيد التحقيق فى وجهى ، لعله يكتشف سرى ..

ولم احادث والدتك بالتليفون كما وعدتها .. كنت اريد ان اهرب منها .. من حريمنى .. وفضلت ان اذهب الى نادى

السيارات .. انى احد نفسى هناك فى دنيا تبرر لى أعمالى .. تبرر لى كل مالا استطيع ان أبرره لنفسى فى ساعات ضعفى ، فى هذه الساعات التى يتحرك خلالها شىء فى صدرى .. ان الملك يذهب الى هناك ، والوزراء ، وكل رجال وسيدات الطبقة الارستقراطية يدعون الى هناك .. وكلهم يحترموننى ، لانهم يعرفون انى اشدهم سفالة ، واقواهم اجراما .. وقد كنت ليلتها فى حاجة الى ان اشعر بقوتى .. كنت فى حاجة الى ان اشعر باحترام هؤلاء الناس .. واشعر بهم حولى ، حتى اقنع نفسى بان هذه هى الدنيا .. كل الدنيا ..

والتقيت بشريف بك زوج خيرية جالسا على البار ، يضحك ضحكته الضخمة الفارغة ، ولا يضحك معه سوى شاربه المرفوع .. وخيرية جالسة على مائدة بعيدة تهمس فى اذن عبد الرحيم باشا وصدرها مستريح فوق ذراعه .. والسيدة شهيرة هانم رئيسة جمعية البر ، ترمع يدها بكأس الويسكى .. فى صحة الفقراء .. والاميرة الصغيرة شاهندا جالسة وحولها ثلاثة من الضباط فوق كتفى كل منهم اقة من اسلاك الفضة ، وشفتاها تحادثان واحدا ، وعيناها تحادثان الآخر ، وساقها تحادث الثالث .. وعارف بك بقامته القصيرة وكرشه المنتفخة وانفه الكبير يجوب بين الموائد ، وكلما حط على واحدة ارتفعت من حوله الضحكات .. انه مضحك الملك .. ويجب أن يضحك الجميع له ، ما دام الملك يضحك له .. وشديد باشا جالس على مائدة منعزلة مع وزير المالية .. لابد انه يسعى الى صفقة جديدة .. و ..

والتفت الانظار حولى .. ومرت لحظة صمت سريعة حيا بها الحاضرون مقدمى .. وادرت عينى بينهم فى نظرة متعالية .. انى هنا السيد .. ان كل هؤلاء بين اصابعى .. كلهم اشتريتهم واشتريت زوجاتهم ..

وشددت ظهري ، ومنحت صدري ، لأبدو في هيئة الأسياد ..
ولكن لا يزال في صدري فراغ كبير .. يدور فيه شيء حاد كأنه المنشار ..

وجلست على مائدة وحدي .. وجاء مضحك الملك ليضحكني .. وقال وريحه الثقيل تحيط بي :

— سمعت آخر نكتة .. واحد مرة راح يشتري علبة سجاير ملك مصر .. فالبياع سأله .. .. بدقن ولا من غير دقن !

وكان فاروق أيامها قد أطلق لحيته ، وأطلق الناس عليه هذه النكتة .. وعرفت أنك هو الوحيد الذي من حقه أن يحمل نكت الناس عن الملك الى الملك .. ومن حقه أن يطوف بها في انحاء النادي ..

وضحك عارف بك ضحكة كبيرة بعد أن أطلق نكتته .. وربما أطلقها في تلك الليلة ألف مرة وضحك عليها ألف مرة .. وحاولت أن أضحك معه ، ولكني لم أستطع إلا مجرد الابتسام ..

وعاد مضحك الملك يقول :

— وفيه واحدة أحسن منها .. اسمع .. كان مرة واحد ...
ولم احتمل ..

وقاطعته وأنا أقوم من مقعدي قائلا :

— عن اذنك دقيقة واحدة ..

وقمت ووقفت بجانب شريف روح حمزة عند « البار » .
وتركت عارف بك يهز كتفيه ويبحث لنفسه عن مائدة أخرى يلقي عليها نكاته ..

ونظرت في وجه شريف طويلا .. الى وجنتيه الموردتين .
وشاربه المرفوع .. انه الوحيد الذي أحسده هذه الليلة .. انه سعيد لأنه لا يحس .. لا يحس لأنه لا يعقل .. انه حيوان سعيد .. لا يشغل رأسه هم .. ولا يحاول أن يفرق بين الخطيئة والشرف .. بين رضاء الناس عنه ورضائه عن نفسه .. بين

الزوجة المخلصة والزوجة غير المخلصة .. ان كل هذه معان لا وجود لها في دنياه .. كل ما في دنياه طعام جيد ، وشراب جيد ، وفراش وثير ، وبدن قوي .. وامرأة يستدعيها في أوقات منظمة ، طبقا لأحدث التعاليم الطبية ..

ولكن شريف بك — للأسف — لا يستطيع أن يفيض بسعادته على أحد .. لا يستطيع ان يفسح في دنياه مكانا لانسان غيره .. انك تجلس معه فتحس انك جالس مع حمار .. والحمار سعيد ، ولكنه لا يستطيع أن يشركك في سعادته !

وتركت شريف ، وذهبت الى غرفة اللعب .. وجلست على مائدة البكاراه .. وجاء محمود الساعي يحمل الي « فيش » قيمته مائة جنيه .. ولكني لو عددته لوجدته تسعين جنيها فقط .. ولم أعده ، فمحمود لا يسرقني ، ولكنه اتفاق بيني وبينه ..

ولعبت ..

وكسبت ..

وكرهت أن اكسب في هذه الليلة .. كنت اتمنى أن اخسر .. كنت أريد أن احس بأني أعاقب على جريمتي .. بأن شيئا ينقص مني حتى لو كانت هذه المائة جنيه .. ولكن احدا لا يستطيع أن يعاقبني حتى الحظ .. حتى الله .. اني اكسب دائما .. اكسب كل جرائمي .. والنقود من كثرة ما عاشت معي ، أصبحت تكبر في يدي من تلقاء نفسها .

وقمت عن مائدة اللعب .. وتركت « الفيش » الذي ربحته لمحمود ليصرفه من الخزينة ، ويعيده الي ناقصا عشرة جنيهات أخرى ..

وعدت الى منزلي ..

وانا لا زلت يائسا ..

والجسد المكوم فوق الاريكة .. جسد امك لا يزال يلوح أمام عيني ..

وانقضى اليوم التالى ..

واقيمت حفلة التكريم .. وجلست فى صدر الحفل استمع الى الخطباء باتساه شديد .. كنت احاول ان اقنع نفسى بما يقولونه عنى . كنت احاول ان اقنع نفسى فعلا بانى اديت خدمات جليلة لمصر .. وللشعب .. وللعمال .. و .. و .. ولكنى لم اقتنع وشعور الاحتقار للمحتفلين بى يزحف على صدرى .. كيف احترمهم . وانا لا احترم الشخص الذى يكرمونه .. لا احترم نفسى ..

وقمت بعد ان انتهى الخطباء لاقول كلمتى .. واخذت ادير عينى فى الجمع المحتشد امامى .. انى اراهم صغارا .. صغارا جدا .. وظلوا صامتين واعناقهم مشرئبة الى فى تطلع . وفى شوق .. وفى ابتهال .. كانى ربهم الاعلى .. وكأنهم ينتظرون الدرر من شفتى ..

وخيبت أملهم ..

لم القِ خطابا طويلا كما كانوا ينتظرون . انما قلت فى صوت محشرج :

— متشكر .. متشكر !!

ثم جلست ..

ودوت القاعة بالتصفيق ..

هؤلاء المنافقون ؛ لماذا يصفقون ؟

وقام رئيسهم وقال فى لهجة حارة :

— لقد اثبت حسين باشا شاكر مرة اخرى انه رجل اعمال .. لا رجل كلام .. انه درس بليغ القاه علينا ..

وكدت اتقيأ من كثرة ما شربت من نفاق ..

وخرجت وانا ادوس بحذائى عيون المنافقين ..

ولا زلت يائسا ..

انى لا ادرى ما اريد ان افعله .. لا ادرى كيف اتخلص من

شعوري بالعجز من نفسي .. انى ابطش فى عملى .. انى اتمادى فى ظلمى وفى قسوتى .. ورغم ذلك مانى اريد شيئا اكثر ليسيني نفسي .. ليشغلني عن نفسي .

ومر اسبوع أو عشرة ايام ، واتصلت بي خيرية فى التليفون ، وقالت فى لهجة حادة كأنها تستنجد بى :

ــ انت تشوف لك حل فى الست تفيدة بتاعتك دى .. انا خلاص ، ما بقتش استحملها !

قلت فى هدوء :

ــ مالها ؟ !

قالت كأنها تصرخ :

ــ مالها .. مش عارف مالها .. دى ما بقتش ليل ولا نهار .. من ساعة ما تصحى من النوم لحدى ما تنام بتشرب ، وما بطلتش شرب الا لما تنام تاني .. باين عليها اتجننت ..

قلت وانا اتنهد كأني اواسي نفسي :

ــ معلهش يا خيرية .. طولى بالك عليها .. وبطليها الشرب !

قالت وهي لا تزال محتدة :

ــ ابطلها ازاى .. دى كانت تيجى تزورني وتخلص على نص الشرب .. وبعدين دلوقتى بيجى ، وتجيب قزازة الويسكى معاها وتفضل تهلوس ، وتقول كلام ما تفهمش منه حاجة ..

قلت فى رجاء :

ــ علشان خاطرى .. خليكي معاها .. وشوفى لها دكتور .. انا اصلى مش قادر افهم الست دى ابدا ..

وقبل أن ترد خيرية ، استطردت قائلا :

ــ على فكره ، قبضت الكوبونات بتاعة اسهم التصدير ؟

وبسرعة اتجه عقل خيرية اتجاها آخر ، وقالت فى صوت هادئ :

— ودى كوبونات دى .. السهم يدفع خمسين قرش .. يعنى اللى عنده الف سهم يموت من الجوع ..

قلت ضاحكا :

— يا شيخة حرام عليكى .. على كل حال انا حابعت لك كلم سهم باركليز علشان تجربيهم ..

قالت كأنها تقفز فى سماعة التليفون :

— مرسى يا حسين .. طوّل عمرك حنين !

ثم استطردت :

— ما تحملش هم لتعيده ، انا حابوتها لك !

ووضعت سماعة التليفون ..

واحذت أتخيل امك وهى سكرانة .. اتخيل جسدها كله وهو يترنح كأنه مدلى من حبل المشنقة .. وانحيلك وراءه واقفة كالشبح ، وعيناك العميقتان مصوبتان الى صدرى .. تتقانه .. وتنبشانه لتخرجا منه جثة ميت ..

ودق جرس التليفون فى ليلة تالية ؛ وسمعت صوتا مترنحا محشرجا كأنه خارج من تحت قبر .. صوتا يقول لى :

— مش حا تتجوزنى يا حسين !!!

وبهت لحظة .. ثم صحت :

— تفيده !!!

وعادت تقول فى صوتها المترنح المحشرج :

— مش حاتتجوزنى يا حسين ؟ !

ثم ضحكت ضحكة كأنها صرير الريح .. والقت سماعة التليفون ..

***

واستمرت هذه المهزلة اياما طويلة .. كانت امك كلما استبدت بها الخمر رفعت سماعة التليفون وصاحت فى وجهى بصوت مترنح محشرج كأنه خارج من تحت قبر :

ـــ مش حا تجوزني يا حسين ؟ !

ثم تضحك ضحكة كأنها صرير الريح فتلقى سماعة التليفون في وجهي ..

وكدت أجن ..

انها تعذبني ..

انها تطلق من مأساتها شبحا يلاحقني .. وأصبحت كلما حضرت الى التليفون شعرت بالخـوف ، كأني أنظـر الى آلة تعذيبه ..

وغيرت رقم تليفوني الخاص في مكتبي ورقم تليفون بيتي ، ولم تعد أمك تستطيع أن تتصل بي ، ورغم ذلك فاني لا زلت أسمع صوتها المريح المحشرج ينبعث من تحت قبر ويصيح بي : « مش حا تتجوزني يا حسين » ؟ ! ثم أسمع ضحكتها كأنها صرير الريح .. ولم أكن أسمعها عندما أخلو بنفسي فحسب ، بل كنت أسمعها في كل وقت .. أجلس في اجتماع مجلس ادارة احدى شركاتي ، وأكون منفعلا في مناقشة حادة .. أو أكون في حفلة منهمكا في مغازلة امرأة .. وفجأة أسمع صوت أمك يملأ أذني .. دون أن يكون هناك سبب يثيره .. وبلا ارادة مني أضع أصبعي في أذني وأهزه بعنف كأني أحاول أن أقتل هذا الصوت .. وأحس بثقل يجثم فوق صدري ، وأنفاسي تضيق .. ثم أجمع كل ارادتي لأضـغط بها على أعصـابي ، وأبعـد بهـا شـبح أمك ، وأعود الى مناقشة أعضاء مجلس الادارة ، أو الى مغازلة المرأة ..

هل تدرين ماذا يعني هذا ؟

يعني اني بدأت أفقد القدرة على تركيز ذهني في موضـوع واحد .. يعني اني بدأت أعيش بذهن مشتت !!

وقد كانت قدرتي على تركيز ذهني في موضوع واحد ، هي

سر نجاحي .. سر هذه الملايين التي جمعتها ، وسر هذا النفوذ الكبير الذي انمتع به .. كنت دائما استطيع ان احصر ذهني في الموضوع الذي اختاره ، حتى لو كانت هناك عشرات المواضيع الاخرى التي يمكن أن تشغلني .. كنت استطيع أن افكر في شركة التعدين مثلا ، حتى لو كانت شركة اخرى من شركاتي على شفا الفلاس .. وكنت أستطيع أن احصر ذهني في جسد امراة ، حتى لو كان ينتظرني على الباب ضابط بوليس وفي يده امر بالقبض على ..

وهذه القدرة على التركيز هي سر عظمة الرجال .. هي سر عظمة نابليون .. وكانوا يشبهون عقل نابليون بدولاب فيه عدة ادراج ، وفي كل درج موضوع .. وكان يستطيع أن يفتح احد الأدراج وتظل باقي الادراج مغلقة لا يشعر بما فيها .. يفتح درج الخطط الحربية فلا يفكر الا في الخطط الحربية .. ويفتح درج التنظيم الحكومي فلا يفكر الا في التنظيم الحكومي .. ويفتح درج ماري تريز وجوزفين ، فلا يفكر الا في ماري وجوزفين .. وكان وهو في ساحة القتال ، والمعركة مشتعلة ، يفتح درج النوم ، فينام ، دون أن تقلقه طلقات المدافع ، أو احتمالات الهزيمة والنصر

هذا هو سر عظمة نابليون .. ولو انه كان يفكر في كل مشاغله في وقت واحد ، ولو أن عقله لم يكن فيه هذه الأدراج . وكان مجــــرد خزانة تتـــكدس فيها آراؤه واطماعه وخططــــه بلا ترتيب ــ لأصبح مشتت الذهن .. ولما اصبح عظيما ..

وقد كنت افخر بأني مثل نابليون .. وان في عقلي ادراجا ، افتح منها ما أشاء في الوقت الذي اشاؤه ، وتبقى باقي الادراج مغلقة .. ولكني بدأت افقد هذه الميزة .. بدأت افقد سر عظمتي .. اني كلما فتحت درجا ، انفتح معه درج آخر .. الدرج الذي يضم قصتي معك ومع امك ..

وقررت أن أنسى .. أنساكما .. حتى أستعيد عظمتى ، وحتى احتفظ لذهنى بالقدرة على التركيز ..

قررت أن أخلع من عقلى هذا الدرج الذى يفتح من تلقاء نفسه ، ويخرج منه صوت أمك ، وصورة حياتك المدلل ..

ولكى أنسى ، كان يجب أن أعترف بفشلى .. فشلى فى أن أكون إنسانا شريفا .. فشلى فى أن أسيطر عليكما وأقنعكما بنفسى ..

وكدت أستسلم للفشل ..

وامتنعت عن زيارتكما منذ تركت جثة أمك مكومة فوق الأريكة العريضة تمثل مأساة ..

كدت أرحمكما ..

لولا عادل ..

حبيبك عادل ..

ـ ١٥ ـ

كان عادل قد سافر الى القصير ليلتحق بوظيفة فى شركة المعدن . بعد ان يئس من مشروع زواجكما .. وبعد ان جاءت امه واحيه تخطبانك اليه فاستقبلتهما امك وخيرية استقبالا اشبه بالطرد ..

واعتقدت انه خرج من حياتك وحياتى الى الأبد ؛ وان هذه هى نهاية قصته معى ..

ولكن عادل بدأ يتصل هناك بالعمال .. لم يكن عاملا .. ولكنه عين وكيلا لادارة الحسابات .. والمفروض ان يرتفع الموظفون بأنفسهم عن العمال .. اننا نحاول دائما ان نضع بينهما حاجزا طبقيا . وان نقنع الموظفين بأنهم طبقة ارقى من العمال .. نقنعهم بأنهم « افندية » يرتدون الحلة والطربوش . ويجلسون فوق مقاعد مريحة وراء مكاتب انيقة . ولا يغمسون ايديهم فى التراب ، ولا يخوضون باقدامهم فى التراب ، ولا يملئون صدورهم بذرات التراب .. انما التراب من نصيب العمال وحدهم ..

وحتى نبقى على هذا الحاجز بين الموظفين والعمال ، كانت الشركة تتعمد أن تبنى للموظفين بيوتا بعيدة عن عشش العمال ، وان تقدم لهم طعاما وشرابا أرقى من طعام وشراب العمال ، وان تخصص لهم ناديا لا يدخله العمال .

ليست شركاتي وحدها . ولكن كل الشركات تتعمد تفصل بين الموظفين والعمال . خوفا من أن يختلط ثقافة الموظفين بمجاميع العمال . فيتفتح وعيهم . وتتحرك أطماعهم . وتفلت زمامهم من بين أصابع الشركة ..

وكانت الشركات تفصل بين الموظفين والعمال لتستعدي كل طائفة على حساب الأخرى . وتضرب كل طائفة بالأخرى .. وإحدى وسائلها للفصل بينهما هي إقامة هذا الحاجز الطبقي بينهما .. هي إقناع كل طائفة بأنها تنتمي إلى طبقة لا تشمل الأخرى ..

ولكن عادل حاول أن يحطم هذا الحاجز .. بل حطمه فعلا .. فكان يتسلى من عمله ليذهب إلى العمال .. إنه يختلط بهم في المناجم .. ويقضي لياليه ساهرا معهم في عششهم .. يغني أغانيهم . ويمرح مرحهم .. ويتعرف إليهم واحدا واحدا . ويتعرف إلى مشاكلهم مجتمعة ومشاكلهم فرادى .. بدأ يغمس يديه في التراب الذي يغمسون فيه أيديهم . ويخوض بقدميه في التراب الذي يخوضون فيه بأقدامهم . ويملأ صدره بالتراب الذي يملأ صدورهم ..

وكان هذا يكفي لكي تفصله الشركة .

إن اختلاط أحد الموظفين بالعمال . سبب كاف للفصل من أي شركة ..

ولكن عادل لم يفصل ..

أنا الذي حميته من الفصل .. ولم يكن عادل يعرف أني أنا الذي أحميه . بل لم يكن يعلم أن هذه الشركة التي يعمل فيها أنا الذي أسيطر عليها . وأنا الذي أملك أغلب أسهمها باسم شركة أخرى ..

وقد حميته من الفصل رغم الحاج عبد العظيم . فقد كان أهون

على ان تبقى بضاعته في القصير ، من ان يأتي ببضاعته الى القاهرة ..

ولكن عادل لم يقف عند حد .. لقد أصبح احتلاطه بالعمال يمثل نشاطا منظما .. ليس نشاطا شيوعيا .. انه لم يكن يحدثهم عن كارل ماركس . ولا بمنطق كارل ماركس .. ولم يكن يثير منهم كراهية الطبقات .. كان فقط يفتح وعيهم على حقوقهم ، ويفسر لهم أسباب متاعبهم .. كان يقول لهم ان هذا الماء العطن الذي يشربونه والذي تستورده لهم الشركة في مراكب عبر البحر الأحمر .. يمكن ان يكون ماء صالحا لو تنازلت الشركة عن جزء من أرباحها ، وأقامت خزانات صحية ، وسيرت مركبين لنقل الماء بدلاً من مركب واحد .. وان هذا الطعام الجاف الخشن الذي يأكل منهم بقدر ما يأكلون منه ، يمكن ان يكون طعاما عنبا لو اقامت الشركة مطبخا كبيرا ومخبزا بجوار المنجم ، يقدم لهم طعاما ساخنا ، وخبزا طازجا .. و .. و ..

وبدات نغمة جديدة تبدو في احاديث العمال ..

نغمة خطرة ..

لقد كانوا راضين بهذا الطعام وهذا الشراب . لانهم هم أنفسهم لا يستطيعون ان يحصلوا على خير منه . ولكن عادل أقنعهم بأن الشركة تستطيع ان تقدم لهم ما لا يستطيعون ان يقدموه لأنفسهم .. اقنعهم بالا يكتفوا بالحياة التي عاشوها في قراهم قبل ان يصبحوا عمالا .. وان يسعوا الى حياة أرقى .. انهم يعملون ليرتقوا ، لا ليعيشوا ..

وبدا التذمر ..

لم يكن تذمرا جماعيا . ولكنه تذمر محصور في بضع كلمات ينطق بها هذا العامل او ذاك في مناسبات عابرة ..

والشركات تحسب حسابا كبيرا لكل كلمة يتداولها العمال .. ان كلمة واحدة تكفي لتدل على اتجاه التيار ..

واسبار ىذا ينحه اتجاهاً لا تطمئن اليه الشركة ..

ان العمال يريدون طعماً أفضل .. هؤلاء الكلاب .. ان اي طعام أفضل مما عاشوا عليه في قراهم ، وعاش عليه آباؤهم وأجدادهم .. لقد جاءوا من قرى الصعيد قبل ان تدخل بطونهم شيء سوى قمح من الحجر يسمونها « البتاوى » وقطع من الملح الشرح يسمونها « المش » .. والآن لا يعجبهم الطعام المحفوظ .. يريدون طعاماً ساخناً ، ولحماً ، ولبناً .

والشركة ليست مستعدة لاجابة هذه المطالب .. ان اجابتها معناها أن تقل الأرباح ، وعندما تقل الارباح ينخفض سعر الأسهم .. وأصحاب الأسهم في القاهرة لا يرضون بأن ينخفض ثمن أسهمهم .. ثم اننا لو حققنا هذه المطالب ، فهل يكتفي بها العمال ؟ ! من يضمن لنا أنهم سيسكتون ؟ !

اننا لو حققنا هذه المطالب فسينتشر خبرها الى باقي العمال في الشركات الأخرى التي تشمل القطر كله .. ان مطالب العمال لا تمس شركة واحدة أو شركتين .. انها تمس نظاماً اقتصادياً كاملاً يشمل مصر كلها .. ونحن نقاوم هذه المطالب لنحمي هذا النظام .. النظام الذي يسمح لي أن أكون مليونيراً ، وأن احتفظ بملاييني ونفوذي ..

ما العمل ؟

لقد كان يكفي أن أنزع عادل من بين العمال حتى تهدأ بطونهم ويرضون بما نقدمه لهم من طعام .

ولكني لا زلت اصر على أن يبقى عادل في التصبير ..

وبدأت الشركة تتخذ الاجراءات لتهدم عادل وهو بين العمال ، تهدمه أمام عيونهم .. والشركات لا تعجز أبداً عن هدم هؤلاء المغرورين الذين يسمون أنفسهم دعاة للانسانية ..

وكان الاجراء الأول الذي اتخذته الشركة هو انها بدأت تخلق طبقة ارستقراطية بين العمال ..

ان العمال أيضا يمكن تقسيمهم الى طبقات تحارب كل طبقة الاخرى ..

وخلق الطبقة الارستقراطية العمالية لا يستلزم أكثر من ان تنتقي الشركة فريقا منهم . وترفع أجورهم وتعينهم رؤساء على بقية العمال ..

وهذا ما حدث ..

انتقت الشركة خمسة أو ستة من العمال العاديين ورفعتهم الى طبقة الرؤساء .. رفعت أجورهم . ومنحتهم امتيازات كثيرة .. ورفعت أيديهم من التراب . وأصبحت مهمتهم أن يقفوا فوق رءوس العمال . ويفتتوا تجمعهم . ويثيروا بينهم روح النفاق . والضعف ..

ان الشركات تسيطر على العمال من خلال أصابع هؤلاء الرؤساء .. من خلال الطبقة الارستقراطية العمالية ..

وقد بدأ هؤلاء الرؤساء فعلا في تشتيت العمال من حول عادل .. واجتذابهم الى صفوفهم بطريق الرشوة حينا . والتهديد حينا .. ولكنهم لا يستطيعون رشوة كل العمال .. ان رشوتهم جميعا بمثابة رفع أجورهم .. والشركة ترفض ان ترفع أجورهم .. والتهديد أيضا لا يمكن أن يشملهم جميعا .. ان التهديد لو شملهم جميعا سيزداد التفافهم حول عادل . وسيصبح من السهل عليه أن يحركهم في ثورة ..

وبذلك لم تستطع طبقة الرؤساء أن تجتذب اليها الا قلة من العمال وظلت الاغلبية ملتفة حول عادل ..

وبدأت المعركة تشتد ..

وبقى عبد العظيم القنادة نفسه . وهو جالس خلف مكتبه الوثير في القاهرة .. ان هذه المعارك لا يترك قيادتها للمرءوسين . انما يتولاها أصحاب الشركة أنفسهم .. انها معارك يتوقف عليها كل كيان الشركة ..

وفى الناحيه الاخرى كان عادل يدير معركته وهو جالس على الارض بين العمال .. يغنى اغانيهم . ويمرح مرحهم . وينظم لهم مباريات فى التحطيب . ويملأ صـــدره بالتراب الذى يمـــلأ صدورهم ..

وانطلق عبد العظيم طلقة ..

امر بان يشاع عن عادل انه جاسوس . يعمل لحساب البوليس السياسى . ولحســاب اصحاب الشركة ..

وبدا عملاء عبد العظيم يطوفون بين العـــمال ويثيرون الهمسات .. لماذا يختلط بكم .. ماذا يهمه اذا اكلتم او لم تأكلوا .. من امتى الافندية بيقعدوا على الارض .. ده جاسوس .. ده كل يوم يسهر فى اودته ويكتب عن كل واحد منكم تقريرا !!

وتشكك العمال فى هذه الهمسات .. رفضوا ان يستجيبوا لها . وفى الوقت نفسه لم يستطيعوا ان ينزعوها من رءوسهم .. فبداوا ينظرون الى عادل بحذر . وبداوا يلتقون فى وجهه جانبا من قلوبهم .. ويناقشونه كأنهم يحسبونه لا كأنهم يستشيرونه .

ولكى تثبت الشركه هذه الهمسات فى ادمغة العمال . اصدرت قرارا بمنح عادل علاوة . بلا سبب ، وفى غير موسم العلاوات ..

ثم لكى تزيد هذه الهمسات تأكيدا . اصدرت قرارا بنقل خمسة عمال من اقرب العمال الى عادل . الى فرع الشركة فى الاسكندرية يعملوا كحمالين . ثم اطلقت اشـــاعه بان هؤلاء العمال قبض عليهم فى القاهره . بناء على التقرير الذى يرسلها عادل الى البوليس السياسى .

وبدات جبهه عادل تتفتت ..

بدا العمال يديرون ظهورهم لعادل كلما مر بهم . ويسكتون عن حديثهم كلما جلس اليهم ..

وكف العمال عن المطالبة بتحسين طعامهم . وبداوا يصبغون كل حديثهم فى مناقشه . هل عادل جاسوس . او لا ؟

وتبسم عبد العظيم في مكتبه .. ابتسامة النصر .. وجاء الى ليقدم تقريره ، قائلا :

ــ اهو دلوقت نقدر نخلى عادل فى القصير ، واحنا مطمئنين .. الولاد دول متعبين ، انما عضمهم طرى .. ما يستحملوش حتة !

ولكن عظم عادل لم يكن طريا الى الحد الذى تخيله عبد العظيم ..

انه لم ييأس ..

احس بالاشاعات التى تدور حوله ، وعرف لماذا منحته الشركة علاوة ، ولماذا نقلت جميع من أصدقائه ، ولماذا انصرف العمال عنه .. عرف كل ذلك ، وجمع كل ما استطاع ان يجمعه من تفاصيل ، ثم سار فى خط مستقيم الى عشش العمال ..

وطلب منهم ان يستمعوا اليه ..

ورفض العمال .. رفضوا ان يجلسوا حوله ، كما تعودوا .. .. رفضوا حتى ان يبادلوه التحية ..

وجلس عادل على الارض بجوار احدى العشش ، وأعلن انه لن يتقل من مكانه الا اذا استمع له العمال ، ولو اضطر ان يقضى الليل كله جالسا فى العراء ..

ومرت ساعات والعمال لا يلتفون حوله ، ويرفضون ان يستمعوا اليه .. وواحد منهم يمر امامه على عجل ، ثم يسرع لينضم الى زملائه بعيدا عنه .. وآخر يطل برقبته من وراء جدار عشته ، ثم يسحب رقبته ، ويهمس لزملائه : « ده لسه قاعد !! » .. وعامل صغير لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، يتسلل على أطراف اصابعه ، ثم يقف أمام عادل وينظر اليه كأنه ينظر الى حيوان عجيب .. ان قلبه يهفو الى عادل .. لقد لعب معه مرة الكرة .. وعلمه التحطيب .. وتبادل معه نكت كثيرة .. وظل العامل الصغير واقفا ينظر الى عادل ..

قلبه يهفو اليه ، وراسه مليء بالاشاعات التي سمعها . الى ان اشار اليه عادل :

ــ تعال اقعد يا محمد ..

وقال محمد في صوته الصبي :

ــ مااقدرش يا سي عادل .. احنا متفقين اننا ما نتكلمش معاك !

وقال عادل وهو يبتسم في هدوء :

ــ طيب تعال علشان اقول لك حاجة تبلغها للجماعة !

وتقدم العامل الصغير في خطا متلصصة وجلس بجوار عادل ، وما كاد يجلس حتى خرج عامل ضخم من وراء احدى العشش ، وصرخ في وجه الصبي :

ــ قاعد تعمل ايه هنا يا وله .. قوم فز .. جتك النار !

وقام الصبي مذعورا .. وجذبه العامل الضخم من ذراعه واختفى به خلف العشش ..

ولم يتكلم عادل ..

ظل جالسا في مكانه لا يتحرك ..

والساعة بلغت الواحدة صباحا ..

والعمال لا يزالون ساهرين في مكانهم يتداولون في أمر عادل .. وبدأ حماسهم في مقاطعته يفتر خلال الساعات الطويلة .

وبدأ حب الاستطلاع يسيطر على بعضهم .. انهم يريدون ان يسمعوه .. يريدون ان يعرفوا لماذا جاء .. وهو مصمم كل هذا التصميم على ان يتحدث اليهم .. وبداوا ينقسمون ، بعضهم يطالب بالاستماع اليه ، وبعضهم يطالب بالاستمرار في مقاطعته حتى لو ظل جالسا في مكانه طول عمره ..

واخيرا اتفقوا على ان يرسلوا الى عادل رسولا من بينهم ليستمع الى اقواله ..

ورفض عادل ان يقول كل ما عنده للمندوب ، انما اكتفى

بأن يقول له . ان من حقه ان يدافع عن نفسه أمام أصدقائه العمال ، قبل ان يصدروا حكمهم عليه .. وهم لن يخسروا شيئا بالاستماع اليه ..

وعاد المندوب الى زملائه ..

وتناقشوا طويلا .. ثم تغلب انصار الاستماع الى عادل .. انهم فعلا لن يخسروا شيئا بالاستماع اليه ..

وخرج العمال من مكانهم الواحد تلو الآخر وانعكست ظلالهم فوق الأرض وفوق جدران العشش ، كأنها جيوش من الوهم ترجف نحو أمل بعيد .. والتموا حول عادل صامتين .. بعضهم جلس على الأرض . وبعضهم ظل واقفا .. وعيونهم تلمع في ضوء القمر من فوق وجوههم السمراء .. عيون تتحدى ، وعيون غاضبة ، وعيون مشفقة ، وعيون عابثة ضاحكة تستخف بالأمر ولا ترى فيه الا موضوعا مسليا لتمضيه سهرة المساء ..

وطال الصمت ..

صمت ثقيل ..

ثم تكلم عادل في صوت بطيء هادىء :

— أنا سمعت انكم بتقولوا عني اني جاسوس ..

وساد الصمت .. لم يكن العمال يتوقعون أن يواجههم عادل بهذه الصراحة ، والبساطة ..

واخذوا يتبادلون النظرات . وتنحنح بعضهم ، وسعل احدهم سعالا حادا . وطالت فترة الصمت .. ثم انطلق العامل عبد التواب محمود يصيح في حدة ، وفي غضب محتمل :

— أيوه انت جاسوس ..

ونظر اليه عادل ، وابتسم ابتسامة ساخرة ..

وقال الريس عبد الفتاح وهو عامل تدثر ورع :

— الحقيقة الكلام ده سمعناه يا سي عادل افندي .. وماحناش نصدقه .. انما ..

وسكت الريس عبد الفتاح ..

وقال عادل وهو ينظر اليه فى احترام :

— اما ايه يا ريس .. ايه الدليل على انى جاسوس .

وانطلق العامل عبد التواب صارخا :

— الدليل .. هو فيه دليل اكتر من كده ؟ .. ده انت وديت خمسة منا المعتقل .. سفرتهم من هنا . وانقبض عليهم فى مصر ..

ونظر اليه عادل فى احتقار وقال :

— الخمسة دول ما انقبضش عليهم .. دى اشاعه مطلعاها الشركة علشان تفرقنا عن بعض .. علشان تقنعكم بأنى جاسوس .. وأدى تلغراف جاى لى من زملائنا الخمسة ..

واخرج عادل ورقة برقيه من جيبه . وقرأ منها : « وصلنا الاسكندريه سالمين واستلمنا العمل . بحساباتنا الى جميع الاخوان » ..

ثم مد يده بالبرقيه الى الريس عبد الفتاح قائلا :

— خد يا ريس .. اقرا بنفسك .. واذا ما صدقتوش ، اسألوا مكتب التلغراف . يوريكم الاصل ..

وسرت همهمات بين العمال .. وتجمعت رءوسهم فوق راس الريس عبد الفتاح . يقراون معه البرقيه ..

ثم قال الريس عبد الفتاح وهو يعيد البرقيه الى عادل :

— الحقيقة احنا صدقنا انهم انقبض عليهم ..

ورد عادل بسرعة :

— يقدر اى واحد فيكم يبعت لهم جواب ولا تلغراف علشان يتاكد زيادة .

وقال احد العمال :

— مصدقينك ..

وقال آخر :

ــ حقك علينا يا سي عادل .. الحقيقة الواحد مش عارف يصدق مين ولا مين .

وانطلق العامل عبد التواب وقد بدا صوته يرتعش في انفعال :

ــ انت بتقول ان الشركة هي اللي بتشيع عنك انك جاسوس .. ولما الشركة زعلانه منك قوى كده ، كانت بتصرف لك علاوة ليه .. انت لسه قابض علاوة الشهر اللي فات ، وكلنا عارفين .. ولا ايه يا جدعان ؟ !

وهز العمال رءوسهم في صمت ..

وقال عادل :

ــ الشركة صرفت لي علاوة ، علشان تخليكم تصدقوا اني جاسوس .. لو كنت جاسوس صحيح ما كنتش صرفت لي علاوة .. كانت غطتني قدامكم ..

وقال عبد التواب :

ــ لا يا شيخ .. باه كده ؟ !

وقال عامل من بعيد :

ــ سي عادل بيتكلم كلام معقول ..

وقال الريس عبد الفتاح :

ــ على كل حال .. احنا نفضنا من الموضوع ده ..

وقال عبد التواب :

ــ معنى الشركة ما كنتش تقدر ترفدك بدل ما تصرف لك علاوة ؟ ..

ــ يعني اقول لهم ارفدوني ؟ .. يمكن الشركة ما رضتش ترفدني علشان خاطركم .. علشان ما تعملوش حركة ، لما تشوفوني اترفدت بسببكم ..

وقال أحد العمال :

ــ والله انا شايف ان سي عادل مظلوم ، الراجل عايش معانا ، وأكل ويانا عيش وملح ، وما شفناش منه الا كل خير ..

وباقى الافندية اللى قاعدين على المكاتب نازلين فينا خصومات ..
وعاد الريس عبد الفتاح يقول :
ـــ أنا باقول نفضنا من الموضوع ده ..
وقال عادل : .
ـــ انا عشت معاكم لانى طول عمرى عايش مع العمال .. كنت عايش معاكم ف شبرا .. واخويا عامل .. وعمى عامل .. وابن عمى عامل .. انا تربية عمال .. وأنا مش عايز منكم حاجه .. كنت اقدر أومر على مبنى المصنع وما احيش هنا الليلة .. انما ما هنش على انى اخرج من وسط عيلتى . وانا متهم متهم .. متهم بتهمة حقيرة وسخة .
وقال عامل يقف بجوار عادل :
ـــ تعيش يا سى عادل ..
وقال العامل عبد التواب فى حقد .
ـــ احنا حنستنى نخطب .. ياللا بينا ع رحاله .. الفجر قرب يطلع علينا ..
وهب عادل واقفا وصاح كأنه يسد بصوته الطريق :
ـــ استنا شويه يا عبد التواب .. الحطبة لسه ما خلصتش ..
ثم التفت الى باقى العمال قائلا :
ـــ احب اقول لكم ان اذا ما كنتش أنا جاسوس .. يبقه بيننا جاسوس غيرى ..
وارتفعت الهمهمات ..
وقال الريس عبد الفتاح :
ـــ ما بلاش السيرة المقندلة دى ..
وقال عادل فى قوة :
ـــ لازم نعرف من دلوقت مين معانا ومين علينا .. احنا ما فكرناش نحارب الشركة .. انما الشركة هى اللى بدأت تحاربنا .. بتحاربنا علشان طلبتم انها تصرف لكم أكل نصيف ..

والشركة لها جواسيس بينكم .. الجواسيس دول هم اللى اشاعوا انى جاسوس .. هم اللى خلوا بيعدونى عنكم .. فاكرين انى انا باحرضكم عليها .

صاح فريق من العمال :

— قصدك مين .. مين الجواسيس دول ؟ ..

وصرخ عبد التواب :

— اتكلم عن نفسك بس يا سى عادل .. مالكش دعوة بغيرك .. السلام عليكو .. الحكاية زادت قوى .. السلامو عليكو يا جدعان ..

ورفع عادل صوته :

— عندك يا عبد التواب .. اسمح لى بسؤال واحد .. انت يوميتك كام ؟

والتفت اليه عبد التواب ، وهو يخطو خارج الجمع ، وقال :

— وانت مالك .. ما انت عارف بتسال ليه ؟ !

وقال عادل :

— بس ما تخربش .. اقف مكانك وجاوبنى !

وقال عبد التواب وقد بدا وجهه يمتقع :

— انت فاكرنى خايف منك ؟ ..

وبدا العمال يحيطون بعبد التواب ، وعيونهم تتحفز كأنها فى انتظار مفاجأة .. وقال واحد منهم :

— ما تجاوب امال ..

وقال آخر :

— مالك يا عبد التواب .. مال وشك اصفر كده ؟ ..

وقال عبد التواب وهو يرتعش :

— يا عالم .. يا هوه .. باه بيجوا مع الاسدى على انا ؟ .. ده انا واكلها معاكم ..

وصاح فيه عادل :

ــ جاوب على سؤالى .. جاوب يا عبد التواب ..
واجاب عبد التواب فى صوت خفيض :
ــ يوميتى تلاتين قرش .. عايز ايه بأه ؟ !
وقال عادل وهو يقترب منه فى خطا ثابتة :
ــ ومحوش اد ايه يا عبد التواب ؟ ..
وقال عبد التواب وقد بدا صوته يذوب فى رعشه :
ــ محوش .. هو حد يقدر يحوش .. احوش منين ؟
قال عادل :
ــ وما خدتش علاوة من الشركة ؟
وقال عبد التواب فى ذل :
ــ ما خدتش ..
ثم رفع صوته قليلا كأنه يتعلق بآخر خيط من كرامته :
ــ انت فاكرنى زيك ، باخد علاوات من الشركة ؟ ..
ومد عادل اصابعه بعنة وقبض على صدر جلباب عبد التواب وجذبه اليه ، وقال له فى صوت عميق وعيناه مركزتان فوق وجهه :
ــ امال التلاتين جنيه اللى انت مخبيهم فى حشية مخدتك ، جبتهم منين !
وارتفعت همهمات العمال ..
وصرخ عامل :
ــ ما تتكلم يا عبد التواب .. ما ترد !
وقال آخر :
ــ تلاتين جنيه حته واحده !
وقال ثالث :
ــ ياس المرطوس .. ده انت لسه مسلفنى حته نخمسه اول امبارح !
وقال رابع :

— ما هوه اللي كان بيقول عن سي عادل انه جاسوس ..
والتفت اليهم عادل قائلا :

— ما تزعقوش يا جماعة .. بلاش صوتنا يوصل للمكاتب ..
اتكلم يا عبد التواب .

وقال عبد التواب :

— انت كداب .. انا ما عنديش .. ما عندتش فلوس ..
عمرى ما شفت تلاتين جنيه .. ما ..

وقاطعه عادل قائلا :

— يا ريس عبد الفتاح . اختار خمسة من الرجالة ييجوا
معايا انا وعبد التواب .. علشان يتحققوا من كلامى ..

وقال الريس عبد الفتاح . وهو يمصمص شفتيه كأنه يترحم
على أخلاق الناس :

— ما بلاش .. انا باقول نفضنا من السيرة دي !

وصاح أحد العمال :

— بلاش ازاى يا ريس .. لازم نعرف الحقيقة !

وتقدم عامل آخر قائلا :

— انا آجى معاك يا سي عادل ..

وصاح الريس عبد الفتاح :

— احوانا لو المكتب خد خبر . حطيتها على دماغنا .. أنا
باقول نفضنا من السيرة دي !

وتقدم عامل آخر :

— وانا آجى معاكم ..

وصاح عبد التواب وهو يحاول ان يتملص من قبضة عادل :

— سيبنى .. باقول لك سيبنى .. انت مالكش حق تفتشنى
.. بأى حق تفتشنى .. والله لاشكيك .. والله ..

ورفع عامل ضخم كفه الغليظة وهوى بها على قفا عبد
التواب . وهو يقول :

ـــ ما تسكت يا وله ..

وصاح عبد التواب .

ـــ حاى .. الحقونى .. حايموتونى .

وكتم عادل صوته بكفه . وقال ملتفتا الى العمال :

ـ مش عاوزين زيطه .. ما حدش يرفع صوته .. خللى الحكاية بينا ..

ثم التفت الى اثنين من العمال ، واستطرد :

ـــ امسكوا معايا الواد ده .. ما تخلهوش يرفع صوته .. يالللا بينا .

وتقدم عادل نحو عنابر النوم ومعه خمسه من العمال يجرجرون بينهم عبد التواب .. وقد سدوا فمه بكف غليظه ..

واتجه عادل مباشرة نحو « المرتبه » التى ينام عليها عبد التواب وامسك بوسادته ، ومزقها بيديه ، وأخرج من بين حبوط القش المحشوه به . اوراقا ثمنها ثلاثون جنيها ..

وحاول عبد التواب ان يتخلص من ايدى زملائه . ويهرب .. فهوت كف غليظة مرة أخرى على قفاه ..

وانهار عبد التواب ..

واجهش بالبكاء ..

وركع على قدميه ، وتعلق بساقى عادل متوسلا :

ـــ انا فى عرضك يا سى عادل .. المسامح كريم يا سى عادل .. الشيطان كان اشطر منى .. حتعملوا فى ايه ؟ .. ماتموتنيش ..

وقال عادل :

ـ ما تخافش . مش حانعمل فيك حاجة : كفاية اللى حصلك ؟

وعاد عادل ورفاقه الى بقية العمال وهم يجرجرون بينهم عبد التواب .. ولوحوا امامهم بالثلاثين جنيها التى استولوا عليها

.. وثار العمال .. وحاولوا أن يفتكوا بعبد التواب .. ولكن عادل صدهم .. واجلسهم حوله وقد اقنعهم بالهدوء .. ثم تداولوا يتداولون فيما يجب عمله .. وانتصر رأى عادل .. وكان رأيه الا يعملوا شيئا .. أن يكتموا بفضيحة عبد التواب بينهم .. وأن يردوا اليه الثلاثين جنيها .. وهو لن يجرؤ على الاستمرار في التجسس عليهم بعد ذلك .. ولكن عبد التواب رفض أن يأخذ الثلاثين جنيها .. ربما لأنه خاف من طمع بقية زملائه منه .. واتفقوا على ان يسلمها أمانة للاسطى عبد الفتاح ، على أن يستمر في اقناع الشركة بأنه يعمل جاسوسا لحسابها ويبتز منها مزيدا من المال ، يسلمه أمانة للريس عبد الفتاح ..

ولكن عبد التواب لم يكن الجاسوس الوحيد للشركة بين العمال ..

كان هناك جواسيس آخرون ..

وقد بذل عادل جهدا كبيرا حتى اكتشف جاسوسا واحدا ، ولكنه لم يستطع أن يكتشف الآخرين ..

ان الآخرين يقفون بجانبه ..

- ١٦ -

.. وجاءنا تقرير بكل ما دار فى تلك الليلة بين العمال .. كل كلمة قيلت ، وكل همسة ، عرضناها فى الصباح التالى ..

وواجهت الشركة مشكلة العامل عبد التواب ..

ماذا نفعل به ؟

هل نطرده ؟

لا .. ان طرده معناه اننا نتخلى عن اصدقائنا .. معناه اننا نبقى دريسا على العمال ، حتى لا يتجسسوا لحسابنا ..

هل نبقيه بين زملائه ؟

لا ايضا .. ان وجوده لم يعد له جدوى ، بل اصبح خطرا علينا .. انه قد يصبح عبرة من الجواسيس الذين يعملون لحسابنا ، ثم ان اذلال زملائه له هو اذلال للشركة ، وسيخاف بقية الجواسيس ، ، ويترددون فى تأدية مهامهم .

ورغم ذلك فقد كنا مضطرين أن نبقى عبد التواب فى مكانه مدة من الزمن حتى تهدأ نفوس العمال من حوله ، وحتى لا تبدو الشركة كأنها تعترف بأنه كان جاسوسا لها .. وقد عاش عبد التواب هذه المدة يخضع فى ذل لزملائه .. كان يخافهم ، ويخاف الشركة فى الوقت نفسه .. وكانوا يعاملونه فى احتقار قاتل .. يرفضون أن يجلس بينهم لتناول أقداح الشاى بعد انتهاء العمل .. ويرفضون ان يشاركهم طعامهم .. ويبصقون على الارض كلما

من بهم .. والبعض يحلو له ان يصفعه على قفاه .. ثم يلقون عليه بحزء من أعمالهم .. تعالى يا واد يا عبد التواب شيل المقطف ده .. يا واد يا عبد التواب تعالى شيل على الفاس .. شيل يا ابن المرطوس .. ثم صفعة على القفا ..

وعبد التواب يهمس في أسى : حاضر .

ثم يحنى قفاه ..

وبعدئذ ، وبعد مرور حوالى شهرين ، أصدرت الشركة قرارا بترقية عبد التواب الى درجة ملاحظ عمال ، ورفعت ماهيته الى خمسين قرشا ! ثم نقلته الى منجم آخر بعيد عن المنجم الذى كان يعمل به ..

وارتفعت همهمات العمال ..

ولكنهم لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئا .. وربما تمنى الكثيرون منهم في دخيلة نفوسهم أن يحظوا بالترقية التى نالها عبد التواب حتى لو اشتغلوا جواسيس للشركة ..

وعاد الى العمال حديث التجسس .. كان هذا الحديث قد انتهى بعد ان افتضح أمر عبد التواب بينهم .. كانوا قد اقتنعوا بأنهم طهروا صفوفهم ، وأنه لم يكن بينهم جاسوس الا عبد التواب .. فلما ابتعد عبد التواب عنهم ، بدأوا يبحثون عن جاسوس آخر .. ان طبيعة البشر هي التشكك بعضهم في بعض .. واذا لم يجدوا بينهم حقيقة ، اشتد هذا التشكك .. وقد كان عبد التواب هو الحقيقة التى اكتشفها العمال وحصروا حولها اذهانهم ، فلما ابتعدت عنهم هذه الحقيقة ، بدأ كل منهم يبحث في ذهنه عن جاسوس آخر بين زملائه .. عن حقيقة تصور شكوكه ..

والشركة ترحب بهذه الشكوك التى تثور بين العمال بعضهم وبعض ..

وقد يكون للشركة خمسة جواسيس ولكن الشكوك ترفع عددهم الى خمسين . ويصبح كل عامل يشك في زميله ،

ولا يطمئن اليه . ولا يشركه في سره وأمانيه . ولا يتعاون معه في هدف .. وبذلك تمت وحدتهم ، وسكتت الهمسات ، وضعف تبادل الآراء بينهم .. وتصبح الشركة هي الأقوى !

ان الجواسيس الذين يعملون لحساب الشركة فعلا ، اقل نفعا من الجواسيس الذين يخلقهم خيال العمال .. بل ان الشركة قد لا تكون في حاجة الى جاسوس ، الا لتخلق حوله جوا وهميا من التجسس ، يخيف العمال ويشتتهم . .

وقد حاول عادل أن يبدد هذه الشكوك التي تسيطر على أدمغة العمال .. كان يقول لهم انهم يجب أن يتحدوا وأن يطمئنوا بعضهم الى بعض . والا يتهموا أحدا الا اذا كان في يدهم دليل الاتهام ..

ولكن العمال ظلوا رغم هذا يتبادلون الشكوك ، وان كانت شكوكهم قد تبددت من حول عادل ..

ماذا يفعل بعادل ؟

انه لم يعد يستطيع أن يطرده من الشركة .. ان طرده معناه ان يجعل منه شهيدا .. بطلا .. وسيثير بين العمال معاني البطولة والزعامة .. وسيحاولون بعد طرده ان يبحثوا لأنفسهم عن بطل آخر .. عن زعيم آخر .. ان خيال الناس يبحث دائما عن جاسوس ، وعن بطل !!

والشركة لا تريد للعمال بطلا من بينهم .. ان عادل على الأقل ليس عاملا .. ووجوده يحجب ظهور بطل من العمال ..

ولذلك بقي عادل في وظيفته .. واكتفى مدير الشركة بأن استدعاه ، وحذره في رفق من اختلاطه بالعمال ..

وعبد العظيم في مكتبه بالقاهرة يكاد يجن .. انه لم ينتصر على عادل .. انه لم يكسب المعركة بعد .. ان عادل أقوى منه ، وأقوى من ذكائه ، وأقوى من كل محاربيه ..

وانا شامت في عبد العظيم .. وأشعر بسعادة غامرة وأنا

اراه حائرا فى محاربه عادل . لا يعرف كيف يمسك بعنقه ..
وقلت له وهو يقدم لى تقريره عن الحالة فى شركة القصير ،
وابتسامتى تكاد تفصح شماتتى فيه :
— يظهر ان الجدع عادل ده ، عضمه مش طرى زى ما كنت فاكر !
قال وهو يسدل جفونه على عينيه حتى يخفى هزيمته :
— انا ما كنتش من رأيى انه يتعين فى القصير خالص .. سعادتك اللى أمرت بكده !!
قلت وأنا ادعى الغضب :
— يعنى ايه .. قصدك ايه .. يعنى سيبه يبوظ الشركة ولا ايه ؟ !
قال :
— مش قصدى .. انما لو نقلناه مصر .. يبقى أريح لنا !
قلت وانا ابتسم فى سخرية :
— والله حسارتك يا عبد العظيم .. ماه عايز ينقله مصر .. يعنى ما نقاش ما يعود فى القصير .. ده احنا لو جبنا كل واحد تاعبنا لمصر ، مش حيفضل فى الشركات كلها حد .. قوم انجدع ، وشوف لك طريقة معاه ..
ومط عبد العظيم شفتيه كأنه يهم ان يبصق ، وعقد ما بين حاجبيه ثم حبط مسندى المقعد بكفيه وقفز واقفا ، وسار نحو الباب يدق الأرض بقدميه ، كأنه فى طريقه لارتكاب جريمة قتل ..
واطلقت وراءه ابتسامه كبيرة .. ابتسامه النشوى !
وقد تعمدت الا اضع لعبد العظيم خطه يسير عليها فى معاملته عادل .. تعمدت الا اشاركه بأفكارى .. فرجل الاعمال الناجح هو الذى يترك معاونيه يقدمون له افكارهم وخططهم .. هو الذى يلقى على اكتافهم المسئوليه كلها . ولا يتدخل بأفكاره الا عندما يفشلون . عندما تعجز رءوسهم عن التفكير ، وتعجز

اكتافهم عن حمل المسئولية .. انما نشترى من معنوييا أفكارهم وخططهم التى نحدثونا بها . ماذا اعطيناهم من التفكير . فكأننا لم نشتر منهم شيئا .. كأننا نجمع لهم رؤوسهم بلا مقابل ..

والواقع انى لم اكن حريصا على حالة الشركه فى العصير .. والتقارير التى كانت ترفع الى عما يجرى فى العصير . ليست اشنع من التقارير التى ترفع الى عما يجرى فى بقيه الشركات .. ان فى كل شركه انسانا مثل عادل يحاول ان يكون بطلا . ويتشدق بالكلمات الضخمه ، ويثير العمال .. والعمال فى كل الشركات لهم مطالب ولهم متاعب .. ان هذه المتاعب جزء من أعمال الشركات . وهنا فى كل شركه ادارة خاصه ، وميزانيه خاصه ..

وقد استمر عادل فى نشاطه . دون ان يأبه بتحذير مدير الشركة له ..

وكانت خطوته التالية ان اخذ يحض العمال على تكوين نقابة لهم ..

نقابة !!

انا اكره النقابات ..

هل تدرين ما هى النقابه ؟ انها شركة تتكون داخل الشركة .. شركه ليس لى حق ادارتها ولا السيطره عليها . شركة كاملة لها مجلس اداره ، ولها سياسة وأهداف . ولها مصالح .. ورأسمالها يتكون من اذرع العمال وجهدهم وعرقهم ..

وكلما تكونت نقابه لعمال احدى شركاتى . احسست كأن ذراعى انفصلا عنى ، ووقفا امامى يناقشانى الحساب .. لماذا تحركنا هكذا .. لماذا ترفع احدنا وتخفض الآخر .. لماذا تجهدنا .. انا اليوم لا نريد ان نعمل .. نريد اجازه .. و .. و .. ثم تواجهنى ذراعاى بعدة مطالب . والا رفضا العمل . ورفضا اطاعة أوامرى ..

هل تستطيعين تصور هذا الاحساس .. انه شيء اشبه

بمرض يسميه الأطباء « مرض الحساسية » واسمه باللاتينية « الرحى » .. ويشعر المريض به بحساسية مرهفة في احد أجزاء جسمه .. كأن يحس دائما بأنفه .. او بلسانه .. انك تعرفين أن انفك قائم فوق وجهك ، ولكنك لو احسست بوجود هذا الأنف ، واستمر احساسك به ، لأصبح هذا الاحساس مرضا .. مرضا مطبقا يسبب لك حالة عصبية تربك حياتك كلها ..

وعندما تتكون نقابة في احدى الشركات ، يحس صاحب الشركة بالعمال .. انه يعلم أن العمال كانوا موجودين في شركته قبل تكوين النقابة ، ولكنه لا يحس بهم الا بعد تكوين النقابة .. ويلازمه هذا الاحساس في كل تفكيره ، وفي كل تصرفاته .. ما رأى النقابة في كذا .. وما رأيها في كيت .. وماذا سيكون موقفها ازاء هذا التنظيم .. و .. و .. ويصبح هذا الاحساس مرضا لصاحب الشركة ، يسبب له ولشركتـــه حالة عصبية مستمرة ، تحتاج في كل يوم الى علاج ..

لذلك نكره النقابات العمالية .. ونحاربها ..

وليس في العالم كله صاحب شركة ، يرحب بهذا المرض او يستسلم له ..

وقد استطاع عادل أن يجمع توقيع عشرين عاملا على طلب تكوين نقابة باسم « نقابة عمال شركة مناجم القصير » .. هو الذى كتب صيغة الطلب ، ثم اعاد كتابته الريس عبد الفتاح بخط يده ، ثم طاف عادل بنفسه بجمع توقيعات العمال .. ثم أرســـل الطلب في خطاب موصى عليه الى وزارة الشـــئون الاجتماعية .

ووصلت الينا هذه الانباء ..

وكان من الســـهل علينا ان نترك هذا الطلب ينام في درج الموظف المختص بوزارة الشئون .. انما ندفع مكافأة شهرية

للموظف المختص حتى ينام فوق مكتبه ، وتنام معه كل الشكاوى والمطالب التى يرسلها اليه عمالنا ..

وكنا نعتقد أن اقامة عادل فى القصير ، ستحول دون ملاحقته لهذا الطلب فى وزارة الشئون ، ولكنه كلف صديقا له محاميا يعمل فى القاهرة ، بملاحقة الطلب ، وارسل اليه توكيلا باسم العمال الموقعين ..

ولم يكن هذا المحامى ايضا يستطيع أن يوقظ الموظف النائم ، أو يوقظ الأوراق التى فى درجه .. ان ما نقدمه له يكفيه لأن ينام الى الأبد .. ورغم ذلك فقد كنا فى حاجة الى حجة قانونية نعرقل بها طلب تكوين هذه النقابة .. لا نواجه بها وزارة الشئون الاجتماعية .. ان الوزارة كما قلت لك نائمة .. بل لنواجه بها العمال فى القصير حتى يسكتوا عن مطالبهم ، وحتى لا يتهموا الشركة بمحاولة عرقلة تكوين نقابتهم .

والتجأ عبد العظيم الى خطة قديمة ..

أوعز الى موظفى الشركة بأن يتقدموا طلبا آخر الى وزارة الشئون بتكوين نقابة لهم باسم « نقابة موظفى وعمال شركة مناجم القصير » .. وقدم هذا الطلب فعلا الى الوزارة .. وعرف به العمال .. وانقسم الموظفون والعمال .. العمال يريدون نقابة لهم .. والموظفون يريدون نقابة لهم ينضم اليها العمال .

ومن خلال هذا الانقسام اصبحت الشركة بريئة .. لا يستطيع أحد أن يتهمها بعرقلة تكوين النقابة ..

واصبح الموظف المختص فى وزارة الشئون ، بريئا أيضا .. فهو لا يستطيع أن يسمح بتكوين نقابتين تشترك فيهما عمال شركة واحدة .. ان القانون يمنعه من ذلك ..

واصبح عادل حائرا .. حاول أن يوفق بين الموظفين والعمال ، فلم يستطع .. فقد كان الموظفون يكرهونه ، لأنه يتباعد عنهم ، ويتعالى على عقلياتهم ، ويعتبر نفسه أرقى ثقافة

منهم .. وكانوا يكرهونه على الأخص لالتفاف العمال حوله .. كانوا يكرهونه لأنه زعيم .. ولأنهم ليسوا زعماء !

ومضت شهور طويلة والموظفون والعمال يتحدثون في موضوع النقابة . ويعقدون اجتماعا فاشلا بعد اجتماع فاشل .. والشركة مطمئنة هادئة .. لا أحد يتهمها .. ولا أحد يشك في نياتها . وليس هناك ما يدعو الى التجمع في وجهها .. انما الاتهامات والشكوك يتبادلها الموظفون والعمال .. ويتجمعون بعضهم في مواجهة بعض ..

وعلى مر الأيام بدأ اليأس يدب الى قلوب العمال .. وبدأ حماسهم لنقابتهم يفتر ويتحلل وتذروه رياح البحر الأحمر .

لم يعد عادل يستطيع أن يحتفظ بحماس العمال .. ان كل ما يقوله لهم ليس فيه جديد .. ولا يثير الحماس .. ان العمال يريدون شيئا جديدا .. يريدون شيئا ملموسا .. يريدون ان ينجحوا في مطلب من مطالبهم ، حتى يتحمسوا لمطلب آخر ..

لقد هزم عادل ..

هزمه عبد العظيم في معركة النقابة .

ولكن عادل لم ييأس ..

سكت عن حديث النقابة . ولكنه لم يسكت عن اثارة العمال .. انه لم يكف عن الاختلاط بهم .. انه دائما معهم .. يغمس يديه في التراب الذي يغمسون فيه أيديهم . ويخوض في التراب الذي يخوضون فيه بأقدامهم . ويملأ صدره بالتراب الذي يملأ صدورهم .. لقد أصبح جزءا من حياتهم ..

وقد مضت الشهور ، وهو هادىء .. يشرب مع العمال الشاي ، وينظم لهم مباريات التحطيب . ويتبادل معهم النكات ، ويشترك مع الريس عبد الصباح في حل المشاكل الفردية التي تثور بينهم ..

وفجأة خرج عليهم بمشروع جديد .

ولم يبد حديثه فى مبدأ الأمر كأنه يتحدث عن مشروع .. كان جالسا معهم بين عششهم يتناول معهم اكواب الشاى فى احدى الأمسيات .. وقال العامل حسنين ابو علي وهو يصب الشاى :

ـــ النهارده الكانتين رفع سعر باكو الشاى .. بقى بحته مخمسة ، حتة واحدة ..

وقال العامل عمران :

ـــ يا سيدى ما بدقش .. بعنى هيه جت ٥٠ اى !

ورد عادل بسرعة :

ـــ باكو الشاى بيقف على الكانتين بتلاته تعريفه ، يعنى بيكسب منا فى الباكو الواحد تلاته صاغ ونص ..

وقال عمران :

ـــ من حقه بحكم .. ما هم عارفين اننا نموت لو ماشربناش شاى .. وحانجيب الشاى منين فى المنفى ده ، الا من عندهم ؟ ..

وقال الريس عبد الفتاح :

ـــ حقهم يعملوا تسعيرة زى اللى فى مصر ..

وقال حسنين ابو علي :

ـــ وهيه مصر حاسه بينا .. لما حيعملوا رسها !

وقال عادل فى هدوء :

ـــ ويعملوا تسعيره ليه ؟ .. ما احنا نبعت نجيب الشاى ساعنا من السويس .. بوصل لحاية هنا الباكو بتلاته تعريفه ..

وقال عامل يجلس بعيدا :

ـــ يعنى كل واحد بحطله الشاى فى جواب ؟

وقال عمران :

ـ انا حابعت لامى اوصيها على شوية شاى ..

وقال الريس عبد الفتاح :

— وحانجيب الشاى ازاى يا سى عادل .. يعنى نفتح كانتين مخصوص على حسابنا ؟ ..

وقال عادل فى حماس :

— أيوه .. نفتح كانتين على حسابنا .. كل واحد فيكم يحط قرشين ، نبعت نجيب بيهم صندوق شاى .. واللى عايز ، يشترى من الصندوق ده .. متلاته تعريفة الباكو .. ونلم الفلوس ونبعت نجيب صندوق تانى .. وبالشكل ده الكانتين بتاع الشركة ما يقدرش يتحكم فيكم ..

وقال حسنين ابو على :

— طيب والصابون .. ده الكانتين بيبيع الحته بسته صاغ !..

ورد عادل بسرعة :

— ونبعت نجيب صابون .. وسكر .. وقماش .. ولا الحوجة لحد !

وسكت العمال كان الفكرة قد اصبحت اخطر من ان يناقشوها ..

ثم قال الريس عبد الفتاح :

— ودى تبقى ازاى الحكاية دى .. يعنى تتعمل ازاى ؟ ..

وقال عادل يوضح فكرته :

— تعمل جمعية .. لها مجلس ادارة منكم .. ونحط فى الجمعية دى خمسين جنيه مقسمة لميت سهم .. كل سهم تمنه خمسين قرش . يعنى لو كل واحد وفر من يوميته خمسة صاغ ، يقدر بعد عشر ايام يشترى سهم .. والجمعية دى تبعت واحد السويس يشترى البضاعة .. وتيجى تبيعها هنا بتمنها زائد المصاريف .. وماحدش له حق يشترى الا اصحاب الاسهم .. وبعدما نبيع البضاعة ، نبعت نجيب بالفلوس بضاعة غيرها .. وهكذا ..

وظل العمال ساكتين ..

لقد بهرتهم الفكرة ..
وقال الريس عبد الفتاح .
— واله كلامك معقــول يا سى عادل .. بس الرك على التنفيذ !
وقال عادل :
— التنفيذ سهل
وقال عمران :
— يعنى حا نفتح دكان ؟ ..
وقال عادل :
— مش ضرورى دكان .. البضاعة تنحط فى أى بيت .. وبعد ما الفكرة تمشى نبقى نطلب من الشركة تدينا حتة أرض نبنى عليها دكان ..
والتفت الريس عبد الفتاح وقال :
— ايه رايكم ياولاد ؟ ..
وقال حسنين ابو على :
انا محوش خمسين قرش .. مستعد احطهم .. وبا راحم يا جم !!
وقال عبد الرحمن الحجاوى :
— مش بس نعرف البضاعة حانجيبى ازاى ؟
وقال عادل :
— نجيبى زى ما اى حاجة بتيجى .. تتشحن على المركب !
وقال عبد العظيم مهران :
— والفلوس حتبقى مع مين ؟
ورد عادل بلا ملل :
— مع مجلس الادارة ..
وهم عامل آخر ان يتكلم . ولكن عادل قاطعه قائلا :
— اذا كنتم موافقين انتخبوا مجلس الادارة دلوقت .

وقال عامل :

ـ مش بس لما نفهم الاول ..

ورد عادل :

ـ يبقى مجلس الادارة يفهمكم .. ما تدفعش الا لما تفهم !

واغرت كلمه الانسحاب عقول العمال ، فصاح واحد منهم :

ـ انا انتخب الريس عبد الفتاح ..

وقال آخر :

ـ وانا انتخبه مرتين .. تعيش يا ريسنا ..

وقال ثالث :

ـ مين المرشحين ؟

وقال عمران :

ـ كلنا مرشحين .. انتخب اللى يعجبك !

وفى نفس الجلسة تم انتخاب مجلس الادارة برياسه الريس عبد الفتاح .. وعين عادل مستشارا للجمعية .. وبدا فى جمع النقود مقابل اسهم ، وهى اوراق مكتوبة بخط اليد ..

هكذا بكل بساطة ..

انهم يكونون جمعية تعاونية .. دون ان يعرفوا ان ما يفعلونه هو تكوين جمعية تعاونية .. وان الجمعيات التعاونيه انشئت للقضاء على طبقه الوسطاء .. على طبقه التجار .. وان التجار الذين يبيعون الشاى والسكر والصابون والقماش لعمال شركة القصير .. هم نحن .. اصحاب شركة القصير انفسهم ..

وكانت الشركة هى التى تملك « الكانتين » وهى التى تديره .. وكانت تربح من ورائه .. تربح ما يوازى اجور العمال كلهم تقريبا .. فالعمال هناك لا يفعلون باجورهم الا ان يعيدوها الينا تقريبا .. فالعمال هناك لا يفعلون شيئا باجورهم الا ان يعيدوها الينا عن طريق « الكانتين » ..

وكنا من خلال هذا « الكانتين » نزداد تحكما فى العمال ..

تتحكم فى مزاجهم بسيطرتنا على الشاى والسجائر التى نبيعها لهم .. ونتحكم فى راحتهم بسيطرتنا على الصالون وكل لوازم حياتهم التى لن يجدوها الا عندنا .. فى « الكانتين » .. وبفضل هذا الكانتين كنا نداين كثيرا من العمال . وبفضل هذا الدين كنا نملى عليهم شروطنا ونقيد اقدامهم فى سلاسل الشركة .. ان هذا « الكانتين » هو اقوى مظاهر سيطرة الشركة على العمال ..

وعادل يريد ان يحرر العمال من سيطرتنا ..

هكذا ، وبكل بساطة ..

كأننا غافلون .. كأننا كونا شركاتنا بعملتنا !!

وارسل مدير الشركة الى عبد العظيم تقريرا كاملا بكل ما دار فى هذا الاجتماع .. ارسله مع مندوب خاص .. وهو لا يهتم كل هذا الاهتمام الا اذا حدث حادث خطير .. وهذا حدث خطير !

وقرر عبد العظيم ان ينتظر . الى ان يجد ثغرة ينفذ منها ليحطم هذه الجمعية الناشئة . ويحطم معها عادل ..

كان يستطيع ان يمص هذه الجمعية باشارة من اصبعه . فان انشاء مثل هذه الجمعيات يتطلب اذنا خاصـــا من وزارة الشئون . والعمال لم يحصلوا على هذا الاذن .. ولكن عبد العظيم لم يكن يريد ان تقف الشركة موقفا صريحا فى محاربة هذه الجمعية .. لقد علمته التجارب ان محاربة العمال حربا صريحة تنتهى غالبا بخسارة الشركة . حتى لو خسر العمال ايضا .. ان هؤلاء العمال عندما يثارون يصـــبحون كقطيع من الثيران الهائجة العمياء . يحطمون فى طريقهم كل شىء حتى لو اصطدموا بخناجر من السكاكين بجرحهم جميعا .

وانتظر عبد العظيم ..

انتظر طويلا ..

وتم تكوين الجمعية . وعطيت اسهمها .. جميع العمال من

سهم خمسين جنيها . وقرروا أن تكون أول أعمال الجمعية هي استيراد صندوق شاى . وصندوق سكر .. وبدأوا يناقشون في ارسال مندوب عنهم لشرائهما من السويس . ولكنهم وجدوا أن نفقات سفر المندوب وعودته ، قد ترفع ثمن باكو الشاى الى أكثر مما قدروه .. كما أنهم لم يجدوا شخصا يطمئنون اليه يستطيع ان يحصل من الشركة على اذن بالتغيب عن العمل .. فاقترح عليهم عادل ان يرسلوا النقود الى صديق له في السويس . وهو يتولى شراء الشاى والسكر ، ويشحنهما الى القصير .

ووافقت الجمعية ..

وتسلم عادل من الريس عبد الفتاح عشرة جنيهات ، وقام بارسالها الى صديقه عن طريق البريد ، مع خطاب يشرح له فيه مهمته ..

وعرف عبد العظيم اسم صديق عادل .. عن طريق مكتب البريد .. فمكتب البريد في القصير خاضع للشركة أيضا .

وفي السويس ، وضع هذا الصديق تحت رقابة أعوان عبد العظيم .. تتبعه الاعوان عندما اشترى صندوق الشاى وصندوق السكر .. وتتبعوه عندما قام بشحنهما على المركب المبحرة الى القصير ..

والعمال في القصير ، يخرجون من المناجم ، ويجتمعون ليتحدثوا عن صندوق الشاى والسكر .. كأنهم يتحدثون عن أمل كبير .. عن كل آمالهم .. كأن كلا منهم في انتظار حبيبه ..

لم يكن هذا الصندوق ، مجرد صندوق شاى وسكر .. كان أكثر من ذلك لقد جعل منه عادل شعارا للتحرر شعارا للعمل الجماعى .. شعارا للزهو والاعتزاز بالنفس !

ووصلت المركب التى عليها عادل .. وذهب العمال في موكب كبير يتقدمه الريس عبد الفتاح لاستقبال الصندوق .. كان بعضهم يرتدى أزهى حلله ، كأنه ذاهب في استقبال عروسه ..

وكن بعضهم بحمل على وجهه أمارات الجد والاهتمام ، كأنه كبر فجأة وأصبح انسانا مهما ..

وسألوا عن الصندوق ..

ولكن الصندوق لم يصل ..

مستحيل .. لا يمكن .. لابد أن هناك خطأ .. أن العمال لا يصدقون واخذوا يديرون أعينهم فى الصناديق التى تنزل من المراكب الى الرصيف ، لعلهم يعثرون على صندوق يحمل اسم الريس عبد الفتاح .. ولكنهم لم يجدوا .. كل الصناديق تحمل اسم الشركة .. شركتنا ..

وصعد عادل ومعه الريس عبد الفتاح واخذوا يدورون فى المركب كأنهم يستبقون بالصندوق الضائع .. ثم تحدثوا الى القبطان .. واطلعوه على بوليصة الشحن .. ولكن القبطان هز كتفيه بلا مبالاة .. انه لا يعرف قيمة هذا الصندوق .. ولا يعرف الآمال المتعلقة به .. وقال لهما فى برود : انه اذا كان لديهم شكوى فليقدموها فى مقر شركة البواخر ..

ونزل عادل والريس عبد الفتاح ..

وتطلع اليهما العمال فى لهفة .. وما كادت عيونهم تسقط على وجههما حتى ارتدت النظرات ، و ... الصمت ..

ان الصندوق لم يصل ..

لقد سرق خلال الطريق ..

سرقه عبد العظيم ..

سرقته أنا ..

وعاد الموكب ذليلا ورءوس العمال منكسة ، كأنهم يسيرون فى جنازة .. جنازة الأمل الكبير ..

ثم بدأت عيونهم تسقط فوق عادل .. عيون منها يأس ، وفيها أمل خائب ، ولا تخلو من اتهام ..

وهمس عامل فى أذن زميله :

ــ آدى آخرة اللى يمشى ورا العيال .

وقال آخر فى صوت خفيض :

ــ تلاقى الجدع اللى فى السويس لهف القرشين ..

وقال ثالث :

ــ دى شغلانه كبيره .. ما احناش قدها .. ده احنا عمال غلابه ، ايه اللى مهمنا فى التجارة ..

وقال رابع :

ــ يكونش سى عادل بيضحك علينا .. ما هم الجماعة الافندية دول مالهومش امان ..

ووصل الموكب الى مدينه العمال .. وجلس الريس عبد الفتاح على الأرض فى الفناء الواسع . وجلس بجانبه عادل والتف حولهما بقية العمال ..

ومرت فترة صمت طويلة .. والعيون كلها تحط فوق وجه عادل كأنها جيش من الذباب ..

ومل العمال الصمت .. وبداوا يتنحنحون .. واصـــوات سعال مفتعل ترتفع هنا وهناك .. والهمسات بدات تتجمع فى صوت كطنين الزنابير .. ثم ارتفع صوت عامل قائلا :

ــ يعنى الشاى ما وصلش يا جدعان .

ورفع الريس عبد الفتاح عينيه ونظر بهما الى الجمع الملتف حوله كأنه يأمرهم بالسكوت ، ثم مال بعنقه ناحية عادل وقال فى صوت وقور كأنه يفتتح جلسة التحقيق :

ــ تفتكر ايه اللى حصل يا سى عادل ؟

ورفع عادل راسه وقال فى قوة :

ــ حصل تخريب .. الشركة هربت الصندوق .. اسم ما تعرفوش الشركة تقدر تعمل ايه .. تقدر تعمل حاجات كتير .. والمشروع ده كان ضد صالح الشركة ، وكنت منتظر انها تحاربه .. انما مش بالطريقة الوسخه دى ..

وقال عمران وهو يدير وجهه عن عادل كأنه لا يريد أن يرى خيبة أمله فيه :

والشركة مالها في الحكاية دي كمان .. هو كل حاجة حنشر منها الشركه !

وقال آخر :

ــ احنا عايزين الكلام المفيد .. الصندوق ما وصلش ليه لا ؟

وهب عادل واقفا على قدميه ، وقال في حده وقد شعر بالاتهام الموجه اليه :

ــ العشرة جنيه اللي استلمتهم من الجمعيه ، حادفعهم من جيبي النهارده .. وحاسافر بنفسي اشوف ايه اللي حصل هناك .. واما الجمعيه لازم تحصل .. ولازم تحاول مرة تانيه .. لازم نكسب المعركة ..

ولم يجد عادل لكلامه صدى بين العمال ..

ظلوا ساكتين .. كأنهم يصفعونه بسكوتهم

وشق عادل طريقه بينهم ، وسار في خطوات عصبية غاضبه الى بيته ..

وفي نفس المساء دفع لرئيس عبد الفتاح عشرة جنيهات ، ثم استأذن من الشركه في اجازه عاجلة ، وسافر في اليوم التالي الى السويس ..

ولم يجد هناك أثرا لبصمات الشركه تدل على سرقة الصندوق ، وكل ما استطاعه أن رفع قضية على شركة البواخر .. باسم صديقه الذي يولي عمليه الشحن ، مطالبا بالتعويض ..

وعاد عادل الى القصير يحمل صندوقا آخر .. صندوق شاى وسكر ..

ولكنه عاد متأخرا ..

لقد حل الريس عبد الفتاح الجمعية ، واعاد النقود الى

المساهمين .. وعاد العمال يخضعون لسيطرة « الكانسين » ..
وانتصر عبد العظيم مرة اخرى .. واستراح من شماتتي فيه ..

***

ومرت شهور ..

وجاءني عبد العظيم يحمل في يده خطابا ، وناوله لي وهو يقول في سخرية .. كأنه يسخر مني :

ــ الاستاذ عادل ابدا يبعث جوابات من حديد !!

واخذت الخطاب في لهفة ..

انه خطاب من عادل البك .. استولى عليه عم جابر البواب وسلمه لعبد العظيم .

وفتحته باصابع مرتعشة . واخذت اقرأ سطوره بعينين ترتعشان .. بدقات قلبي .. انه لا يزال يحبك .. ولا يزال يأمل في زواجك .. انه لا يستطيع ان يقنع نفسه بانك تخليت عنه .. لابد ان هناك يدا امتدت بيننا .. ويهدد ويثور ، ويعد بقطع هذه اليد .. ثم يقول لك في اسلوبه العف الذي يلف به حبه :

« لقد هربت الى القصير لعلي انساك .. ولكني وجدتك هنا .. وجدتك في قلبي ، وفي الخلاء الواسع الذي اطلق فيه عيني ، وفوق قمة الجبل ، وبين امواج البحر ، وعند الافق ساعة الشروق وساعة الغروب .. لا .. اني لن استطيع ان انساك .. بل اني هنا اعمل من اجلك ، واحارب من اجلك .. ان الذي خدعك وخدع والدك ليس في القاهرة وحدها ، انه هنا في القصير ايضا .. انه في كل مكان من مصر .. وهو يخدع مصر كلها .. يخدعها في ارزاقها وفي مستقبلها .. ان الذي فرق بيني وبينك ليس شابا واحدا .. انهم كل الناشئات .. واني احاربهم هنا في القصير ، وسآتي الى القاهرة لاحاربهم في القاهرة ..

وسأصل اليك بعد ان اهزمهم جميعا ، واعود بك الى حيث .. الى شبرا .. و .. » ..

وعصرت الخطاب بين اصابعي ، كأني احاول ان اخنق كلماته .. ثم حاولت ان ابتسم ؛ ولكني لم استطع ، وقلت لعبد العظيم في صوت يحشرجه الغيظ :

— وايه اخبار سي عادل ؟ !

قال في هدوء بعد ان لمح تأثير الخطاب علي :

— عامل اضراب ..

وصرخت :

— اضراب .. اضراب ازاى ؟ !

قال وهو لا يزال محتفظا بهدوئه :

— حرض العمال على تقديم ثلاثة مطالب .. بيوت للعمال المتزوجين ، والسماح لهم باحضار عائلاتهم الى القصير .. ومنح كل عامل اجازة لمدة شهر ونصف في العام بحجة ان الاجازة الاعتيادية ستضيع في الانتقال من القصير الى بلدة العامل .. ثم الحضار الطارح .. وقرر العمال منح الشركة مهلة ثلاثة اسابيع لاجابة هذه المطالب ، والا .. الاضراب .

قلت وأنا لازلت ثائرا :

— وناوى حضرتك تعمل ايه ؟

قال كأنه يغيظني :

— امر سعادتك ..

— يا اخي شوف لك طريقة تخلص من عادل ده .. اى طريقة !

ونظرت الى عبد العظيم بكل عيني .. نظرة هائلة !

ونظر الى عبد العظيم كأنه يحاول ان يكتشف ما وراء عيني .. وفهم عبد العظيم ما اعنيه ..

وسكتنا نحن الاثنين . كأننا قد اتخذنا قرارا مخيفا . الحم السما ..

هل فهمت ما فهمه عبد العظيم ؟

لقد فهم عبد العظيم اني آمره بقتل عادل ..

نعم .. القتل !!

لا تفجعي .. ولا تصرخي هلعا .. ان الكثيرين من مثيري الاضرابات يقتلون في حوادث قدرية .. كأن تصدمهم سيارة .. او يسقطون من اعلى بناء .. او تفرم اجسادهم داخل آلة .. حوادث تبدو كمجرد قدر ظالم . ولا يبدو من ورائها اثر للشركة .. بل ان الشركة عادة تقوم بدفع تعويض سخي لعائلة القتيل .. قتيل الشركة !

وللشركات منطـــق انســـاني يضطرها الى هذا الاجـــراء العنيف .. ان قتل واحد يوفر قتل عشرات العمال .. فلو تم الاضراب فسيتدخل البوليس ؟ وتدور بينه وبين العمال معركة تنتهي بقتل اكثر من عامل .. ولكي ننقذ هؤلاء العمال من القتل . يجب ان ننقذهم من الاضراب . يجب ان نقتل صاحب فكرة الاضراب والمحرض عليها ..

انه منطق .. منطق انساني .

وقد كانت الاضرابات في القصير اخطر منها في اي مكان آخر .. فالحكومة لا تحس بما يجري في القصير ولو احست به لما اهتمت .. ان عقل الحكومات لا يستطيع ان يتسع ليشمل هذه المناطق النائية من ارض مصر .. ولو اعلنت القصير او واحة سيوه استقلالها لما عرفت الحكومة المصرية بالخبر الا بعد قراءة صحف الصباح .. ولذلك لم تكن الحكومة تستطيع ان تخيف العمال هناك .. انها لا تملك القوة الكافية لاخافتهم .. وما دام الاضراب ليس في القاهرة ولا تشترك فيه عمال الشركات ، فالحكومة سعيدة .. غاية السعادة .. والعبء كله يقع على الشركة في

مقاومة العمال . الى ان نصل قوات الحدود بعد اربعة او خمسة أيام ..

ورغم ذلك فلم تكن خطورة الاضرابات فى التصدير هى التى جعلتنى اصدر أمرى بالتخلص من عادل .. انما كان تحديه لى فى خطابه اليك .. احسست ساعتها ان المعركة اصبحت بينه وبينى شخصيا .. احسست فى كلماته ثورة كل الفقراء على .. احسست كأن كل الناس اصبحوا كعادل ، وكلهم يحتقروننى .. وكلهم لا يعترفون بقوتى ونفوذى .. فانطلقت فى صدرى طاقة الشر والبطش .. وقررت ان اقتله .. كأنى اقتل كل هؤلاء الناس الذين لا يحترموننى .. كأنى اقتل شيئا فى صدرى لا يحترمنى ايضا ..

أمرت بقتله ..

وغادرت مكتبى قبل ان يغادره عبد العظيم ، وذهبت اليك .. كأنى خفت ان يأخذك منى عادل ، قبل ان يقتل ..

- ١٧ -

ودهشت عندما رايت امك .

ليست هذه هي تفيدة ..

ان المأساة حطمتها .. حطمت كل شيء فيها .. حطمت عظامها ، وحطمت كل خطوط وجهها وجسدها ، واصبحت كتله ضخمة من العجين .. ليس فيها قطعة متماسكة ، وليس فيها قطعة صلبة .

وكانت جالسة على الاريكة تهتز وترتعش كالعجين الرخو .. وقد رفعت احدى ساقيها ووضعتها تحتها ، وانكشف عنها الثوب فبدا لحم الساق مهدلا كالعجين المسكوب .. عجين في لون التراب .. وامامها على مائدة صغيرة ادوات الشاي .. ابريق صغير وفنجال ..

ورفعت رأسها عندما احست بمقدمي .. ولمعت عيناها ببريق خاطف ، وهمت بالقيام من جلستها .. ولكنها لم تستطع ان تقوم ولم تستطع ان تحتفظ ببريق عينيها .. وعاد كل شيء فيها رخوا كما كان .. كل ما استطاعته ان جذبت طرف ثوبها فوق ساقها العارية ، وقالت في كلمات مترنحة :

ــ انت جيت يا حسين .. وحشتني !

واقتربت منها .. وجلست بجانبها على الاريكة .. وهبت على انفاسها مشبعة برائحة الخمر .. رائحه كثيفة كانها شربت

برميلا كاملا .. ودققت النظر فيها ، كأني افحص مريضا .. ان وجنتيها ازدادتا عطنا ، اصبحتا كالبرقوق المعطن .. لا كالتفاح المعطن .. وارتسمت فوقهما بقع غامضة سمراء .. ولاحت من تحت الجلد شرايين رفيعة محتقنة كأنها شقوق في حائط على وشك الانهيار .. ليس وجنتاها فحسب .. بل ان انفها ايضا قد احتقن من تأثير الخمر ، فبدا معطنا يكاد يسقط من فوق وجهها .. وجفونها محتقنة معطنة .. وشفتاها معطنتان .. وذقنها معطن .. وأذناها معطنتان ..

واخذت اجيل عيني فوق الوجه المعطن ، وقلبي ينقبض .. وشيء في صدري يتمزق .. لقد اشفقت عليها حقيقة .. شفقة يشوبها كثير من التقزز والاشمئزاز .. كنت اتقزز منها ومن نفسي .. ولكني لم استطع رغم شفقتي أن افهم مأساتها .. لم استطع أن اقدر ان هناك مأساة يمكن ان تحطم انسانا الى هذا الحد .. هل الشرف له كل هذه القيمة عند هؤلاء النساء .. نساء الطبقة الوسطى الصغيرة ؟

ربما ..

انهن لا يعتبرن انفسهن اكثر من متعة للرجل .. ليس لديهن شيء يقدمنه سوى هذه المتعة .. فاذا قدمنها بلا زواج ، اعتبرن انفسهن قد خسرن كل شيء .. خسرن الحياة كلها ..

ان حياتهن كلها معلقة بهذا المعنى الضيق للشرف .. ليس للحياة معنى آخر .. ليس فيها شيء آخر .. ليس فيها سوى امرأة تعطى نفسها لرجل على يد مأذون ..

ربما كان هذا هو سر مأساة امك بعد ان عاشت طول حياتها في هذا المعنى الضيق للشرف .. فلم تعرف ان الحياة اوسع من ذلك بكثير ، واجمل من ذلك بكثير .. وارحم من ذلك بكثير .. لم تعرف أن الحياة تتسع لكثير من الخطايا .. بل ان امك لا تعرف ان الخطيئة نفسها ليست معنى صارما محددا ...

انها معنى يضيق ويتسع حسب مقتضيات الحياة ، وحسب البيئة والمجتمع .. ان زواج الرجل من اربع نساء يعتبر خطيئة في بعض البلاد .. وفي بعض البلاد تستطيع المراة ان تحتفظ بخمسة ازواج دون ان يعتبر ذلك خطيئة .. ان الخطيئة في مصر ليست خطيئة في باريس .. والخطيئة في حي شبرا ليست خطيئة في حي الزمالك .. والخطيئة كما تفهمها امك ، ليست هي الخطيئة كما تفهمها خيرية ..

لماذا لا يتسع عقل امك ليفهم هذا المعنى الواسع للحياة ؟

انها غبية ..

ان ماساتها — كما افهمها — ليست سوى ماساة غباء !

انها غبية كابيك ، الذي فضل ان يعيش فقيرا بحجة انه رجل شريف !

وقد دفعها غباؤها الى ان تهرب من نفسها الى الخمر .. ان كل الناس يهربون من انفسهم .. ولكن الاذكياء لا يهربون الى الخمر .. يهربون الى نواحي اخرى .. يهربون الى زعامة سياسية .. أو يهربون الى الثراء والنفوذ ، او يهربون الى الفن .. انا اهرب من نفسي الى اطماعي ، ولو كنت فشلت في تحقيق اطماعي لخنقتني نفسي .. وعبد العظيم يهرب من سفالته الى اكتناز المال ، ولو لم يجد المال لما استطاع ان يستمر في سفالته .. وزوج المراة التي اتخذها عشيقة يهرب من نفسه الى محاولة الاستفادة مني ، واذا لم يستفد مني ثار لشرفه .. كل الناس يهربون .. وامك الغبية اختارت ان تهرب الى الخمر ..

وقلت لها في صوت مشفق يشوبه التقزز والاشمئزاز :

— مالك يا تفيده .. مالك عاملة في نفسك كده ؟

وترنحت ابتسامة فوق شفتيها ، وقالت في صوت اجش حشرجته ابخرة الخمر ، وهي تمسح بكفها فوق وجهها :

ـــ والنبي يا احويا ماكنتش عارفه انك حاى .. لا ازورتنـ
ولا حطيت تواليت .. مش كنت تدبنا حمر قبل ما سحى ؟ ..
ما امت اصلك بتاتك زمان ما جتش ولا سالت ..
قلت وانا ادير وجهي عنها حتى اتقى رائحة الخمر :
ــ كنت مشغول يا سيده .. كنت مشغول قوى ..
قالت وهي تبتسم ابتسامة ساحرة كأنها تكذبني :
ــ عارفه يا احويا .. كان الله في العون !!
ثم مالت برأسها نحوى وهمست :
ــ تحب اعمل لك كاس ؟
قلت متقززا :
ــ ده احنا لسه الظهر يا تفيده .. كاس ايه .. وده وقته ؟ !
قالت تكرر الكلمة التي سمعتها مني يوم كنت أعدها لفراشي :
ــ يعنى هوه حرام بالنهار ، وحلال بالليل ؟ .. اشرب يا شيخ !!
قالتها وفي صوتها رنة خاصة كأنها تذكرني بكل حوادث ذلك اليوم المشئوم .. واجبتها في حدة :
ــ لا .. مش عايز اشرب !
وضحكت ضحكة بلا صوت . اهتزت لها كتلة العجين . ثم رفعت ابريق الشاي وصبت منه في الفنجال ..
انه ليس شايا ..
انه ويسكي ..
ونظرت اليها بعينين مستعجبين . وقلت في دهشة :
ــ ايه ده .. ايه ده يا تفيده ؟
وعادت تضحك بلا صوت ، ومالت بجسدها على حتى خيل الى أن العجين كله قد انسكب على صدرى ، وقالت هامسة :
ــ انا اصلي باحط الويسكي في ابريق الشاي ، علشان اخبيه

من هدى .. ما هو منتي كمان بقت ضدى .. كل ما تلاقى قزازة تاخدها تدلقها فى الحوض .. وتكسرها وترميها فى صفيحة الزبالة .. انما ولا يهمك .. بقيت دلوقت باخبى القزازة فى حته مش ممكن هدى تعرفها ..

قلت وانا ازداد اشفاقا عليها ، وازداد اشمئزازا :

— اعقلى يا نبيده .. انت بالشكل ده حاتموتى نفسك !

قالت فى اسى :

— يا ريت يا اخويا كان الوسكى بيموت .. انا نفسى أموت .. عايزه أموت ..

قلت اقاطعها :

— بلاش الكلام ده يا نبيدة .. بس بطلى شرب ، وانتى ترجعى كويسة زى ما كنتى .. ما حدش فى الدنيا بشرب كده ابدا .. ما هى خيرية بتشرب ، انما ما بتشربش كده ..

قالت فى حدة وقد برقت عيناها بريقا مخيفا ،

— ما تجيبش سيرة خيرية .. خلاص انا ما اعرفهاش .. مش عايزه اعرفها ،

قلت وقد بدأت اضيق بها :

— علشان بتنصحك تبطلى شرب .. ما انا كمان باقولك ما تشربيش ..

قالت وهى لا تزال محتدة :

— انت كمان بتكرهنى .. انت بتضحك على .. انت خدعتنى ..

واجهشت بالبكاء .. وحبست دموعها صوتها ..

وتركتها تبكى ..

وعادت تقول بعد ان هدأت دموعها ، وبدأت تجففها بكم ثوبها كأنها طفلة صغيرة :

ــ قولي يا حسين .. طمني .. انت حا تتجوزني ولا لا ؟ .. ما تضحكش على اعمل معروف ؟ !

قلت وأنا أضبط أعصابي بقسوة حتى لا انفجر :

الجوار مش ســـهل زي ما انتي فاكره يا سعيـــده .. ما تنسيش اني متجوز .. وفلوسي كلها باسم مراتي .. لازم اشوف الأول حاخلص ازاي .. ولازم تسمعني وتصبري .. ولازم تفوقي من اللي انت فيه .. علشان ما اتجوزش واحدة سكرانة ليل ونهار ..

قالت وهي تنظر الى عينيهـــا كأنها تحـــاول ان تكتشف حقيقتي :

ــ قلبي مش مصدقك يا حسين .. يعني حا تتجوزني على ايه .. لا جمال ولا مال .. غيرش انا اللي كنت مغفلة .

قمت وانا انتفض واقفا :

ــ سيبك من الموضوع ده دلوقت .. هيه فين هدى ؟

قالت وهي تهز كتفيها وتبتسم كأنها تسخر من مصيبتها :

ــ في أودتها ..

وناديتك بصوت عال :

ــ هدى .. هدى ..

ثم خرجت معها الى غرفتك ، وأمك ترفع الى شفتيها فنجان الشـاي ، وترشف منه الويسكي ..

اتجهت الى غرفتك محتدا . كنت أريد ان أصرخ في وجهك كأني الومك على الحال التي وصلت اليها أمك .. كنت أريدك أن تنقذيها مني او تنقذيني منها .. وهذه هي عادتي كلما واجهت جريمة من جرائمي .. ان انسبها الى اقرب انسان الي ، والومه عليها ، واحمله مسئوليتها !

والتقيت بك خارجة من غرفتك بعد ان سمعت صيحتي وتغلقين بابها وراءك كأنك تحمينها من ان أدنسها بقدمي ..

ونظرت اليك ..

وواجهتني عيناك الهادئتان العميقتان ، تنفذان صدرى ..

وأحسست بشيء يكاد يكتم انفاسى ، ويمزق رئتى ..

احسست بنفسى أعود سريعا .. طالبا بمدرسة السوق والصنايع .. وأبوك أمامى ، لا أستطيع أن أثور عليه ، ولا أستطيع أن أسيطر عليه ..

وانسلت منى حدتى .. وقلت فى هدوء وأنا أدير عينى حتى لا تلتقيان بعينيك :

— انتى سايبه ماما بالشكل ده ليه ؟

وأحست وعيناك لا تزالان تنظران الى :

— ماما عمرها ما كانت بالشكل ده !

قلت وكانى أؤنب نفسى :

— انما اهى بقت بالشكل ده .. ولازم نشوف لها حل .. لازم ننقذها !

واحست وكان صوتك ينبعث من داخلى :

— لما كنا فى شبرا .. ما كانش بيحصل ده كله !

وتململت .. احسست كانك تغرزين فى صدرى سكينا ، وصرخت :

— يعنى حيطان البيت ده ، مش زى الحيطان اللى فى شبرا .. احنا حانفضل طول عمرنا نقول شبرا .. اللى عنده استعداد للفساد هنا ، يقدر يفسد فى شبرا كمان ..

قلت فى هدوء كأن كلامى لا يصل اليك :

— البنات فى شبرا ما بيشربوش ويسكى !

ورفعت عينى اليك ، وقلت كأنى اتوسل :

— هدى .. احنا لازم نتعاون علشان ننقذ مامتك .. مش ممكن نسيبها بالشكل ده !

واطلت من بين شفتيك ابتسامة حزينة ضيقة ، كأنك تشكين في كلامي ، وقلت بلا مبالاة :

ــ انا عملت كل اللي اقدر عليه .. الباقي على ربنا !

قلت وانا حائر ماذا اقول :

ــ امنعيها من الشرب .. كسري كل القزايز .. ماتدخليش قزازه البيت .. انتي عارفه انها بتحط الويسكي في ابريق الشاي ؟ !

واجبت في هدوء :

ــ عارفة .. وعارفة انها مخبية قزازة في مرتبة السرير .. قطعت المرتبة وعملتها مخزن للقزايز ..

قلت في دهشة :

ــ وساكته على ده كله ليه ؟ .. ازاى تسيبيها تعمل في نفسها كده !

واجبت وانت لا زلت هادئة :

ــ ما اقدرش اعمل غير كده .. ليلة نومه كل القزايز اللى في البيت ، راحت خارجة بالليل بقميص النوم علشان تشترى قزازه .. ولولا لحقتها ، كانت وصلت الشارع .. وفضلت تعيط وتصرخ لغاية ما اضطريت انزل بنفسي اشترى لها قزازة ..

وسكت .. ولم اتكلم ..

لم اكن اعتقد ان امك قد وصلت الى هذا الحد ..

ولم اكن اعتقد انك انت ايضا تصلين الى حد أن تخرجي لشراء زجاجة ويسكي تشربها امك .. ترى لو كان ابوك مكانك ، هل كان يعمل مثلك .. وهل لو كنت بكيت له ونحن طلبة ، كان اشفق على ، وتركنى أسرق وانهب في أموال الناس ؟ ..

لعلك أردت ان تنقذى امك من خطيئة كبرى ، بخطيئة أخف .. ولعلك عرفت ان امك ليست خاطئة ، ولكنها ضحية ..

وعدت انظر اليك ..

انك لا تبكين .. ان وجهك صامت خال من التعابير ..
كأن المصيبة اخرست كل ملامحك ، ووقفت تحملينها في استسلام
.. استسلام الشرفاء .. وما أعجز الشرفاء عندما يستسلمون ..
وقد بحلت .. لم يعد منك شيء يحل . ورغم ذلك ترداديين
نحولا .. عجيبة .. اني كلما تماديت في جرائمي ، ازددت انت
نحولا .. كأن جرائمي تأكل منك .. كأن كل ضحاياي هو انت
.. انت .. الشيء الذي يعيش في صدري .. انت مضمرين ؛
والشيء في صدري يضمر معك .. انت تتسممين ، والشيء في
صدري يتسمم .. ولكنك لا تسممين ابدا ، ولا هذا الشيء ..
ابعد .. هذا الشيء .. ان هذا الشيء هو ضحيتي الأولى ..

وقلت لك في خبث وفي صوت ضعيف كأني تلميذ ارتكب جريمة ويريد أن يطمئن الى أن استاذه لم يعرف بها :

— يا ترى ايه اللي خلى ماما بقت كده .. ما تعرفيش ؟ !!

واجبت في اختصار :

— ما اعرفش ..

وفرحت .. فرحة التلميذ الصغير عندما يعتقد انه خدع استاذه .. انك لا تعرفين ماذا حدث بيني وبين امك .. انها لم تطلعك على شيء .. ان الخمر لم تفش سرها وسري .. بل ربما كانت تستعين بالخمر على الكتمان ..

انك لا تعرفين ..

اني لا زلت بريئا ..

ولكن لا .. اني احس في اعماقي بأنك تعرفين .. ربما لا تعرفين التفاصيل . ولكنك على الأقل تعرفين اني انا السبب ..

ولم أتوقف عند هذا الاحساس طويلا .. ان مصر كلها تعرف اني السبب في كثير من مصائبها .. ولكنها لا تعرف التفاصيل .. وما دامت لا تعرف التفاصيل ، فهي لا تستطيع ان تثبت على شيئا ..

وعدت أنظر اليك ..

وبدأت اسئل : مادا يعجب عادل منك . الى حد أن يثير معركه بينه وبيني من أجلك .. بل معركه بينه وبين كل باشوات مصر . كما قال في خطابه الأخير اليك ؟ !

وطمحت بعيني فوق وجهك النحيل .. وفوق صدرك البكر المنكر .. وفوق جسدك الصبي النحيل .. وساقيك المتسقين .. و ..

مادا يعجب عادل منك ؟ هل هو في حاجه الى صباك كما انا في حاجة اليه ؟ لا أظن .. ان شبابه يغنيه عن صباك .

ربما يعجبه بيك الشرف ؟ !

لمادا لا يكون الشرف من نصيبي أنا .. لمادا اتركه لعادل .. انه يحاول أن يصل الى هدا الشرف عن طريق كفاح يعتقد انه كفاح وطني .. وانا ساحاول ان اصل اليه ايضا .. ولكن كيف ؟

لقد خيل الى ساعتها أن انسى حكايه أمك ، ثم ابدأ في مطارحتك الغرام .. أن اقول لك اني احبك .. واني اريدك .. وان كل ما بقي لي من حياه قد تجمع فيك .. لم أعد أريد الا ان آخذك .. الا أن تكوني لي .. ثم اروي لك القصة كلها .. واقول لك اني انسان ضعيف .. رغم كل ثرائي ونفودي فانا انسان ضعيف .. شيء في صدري يضعفني . ويجعل من ابيك رجلا اقوى مني .. وانت ايضا اقوى مني .. ربما لأن الشيء الدي في صدرك لا يضعفك .. ربما لأنك راضيه عن نفسك .. لأنك تقوع . لأنك في غنى عني .. وانا أريد قوتك .. اريد ان أسيطر عليك .. اريد ان أحطمك .. احطم هدا الشيء الدى يشعرني بضعفي ..

ولكن كيف أقول لك هدا الكلام ؟

اني لا استطيع ..

انه كلام كتب عليه أن يظل حبيسا في صدري . يغلي في

اعماقى ، لانى احاول ان اكون شيئا لا استطيعه .. احاول أن أكون منك بمثابة أب ، وأن ابدو أمامك انسانا شريفا .. انسانا محترما !!

وقلت لك وعيناى لا تزالان معلقتين فوق نهديك :

ـــ اطمنى .. انا حاعمل كل حاجة علشان مامتك تفوق من اللى هيه فيه ، وترجع زى ما كانت ..

ونظرت الى كأنك يائسة منى ، وقلت فى برود :

ـــ ربنا يشفيها ..

وتركتك ، ومررت بالصالون وأمك لا تزال جالسة فى مكانها تشرب الويسكى و سجائر الشاى ، وقالت عندما رأتنى :

ـــ انت خارج يا حسين ؟ !

قلت فى حدة :

ـــ ايوه ..

واشارت الى لاقترب منها كأنها تريد ان تطلعنى على سر خطير .. ثم قالت هامسة :

ـــ قول لى « طمنى » مش حاتتجوزنى يا حسين ؟ '

وقلت وقد ارتفع صوتى فى غضب :

ـــ ما قلت لك سيبك من الموضوع ده دلوقت ..

وخرجت من البيت وأنا اصفق الباب وراءى كأنى اخمد به صوت أمك .. خرجت حانقا .. ثائرا .. ماذا تريدون منى .. ماذا يريد الناس منى .. انى اجمع العمال من الأرقة وأمنحهم عملا يكسبون منه ، فيثورون على ويعتبروننى عدوا لهم .. واجمع جرحى الخاسرات من فوق ارصفة المقاهى واعطيهم عملا ، فيثورون على ويطالبون بالمزيد .. وأمتع امك برجولتى وفحولتى فتثور على وتطالبنى بالزواج .. وانقذك انت من حى شبرا واسكنك فى عمارة انيقة على النيل ، متثورين على وتكرهيننى .. ماذا تريدون لترضوا عنى .. لتعترفوا بنعمتى عليكم ؟ .. انى فى غنى عن

رجالكم .. لا أريد منكم احتراما معصلى .. ولكنى سأذلكم جميعا .. جميع الناس .. سأملككم بالذل !

ورغم هذا عدت اليكم ..

كان مجرد تصورى أن هناك شخصا آخر يطمع فيك ، ويريد أن يأخذك منى .. يدفعنى اليك ..

كنت أعود كل يوم لأرى أمك فى جلستها تشرب الويسكى فى فنجال الشاى .. لم تعد تخرج من البيت .. ولم تعد تحاول أن تندمج فى المجتمع الجديد الذى نقلته اليها .. ولم يعد لها احد من الصديقات اللاتى عرفتهن فى هذا المجتمع .. ان خبرية لم تعد تطيقها ، ولم تعد اطماعها التى تحققها عن طريقى تكفى لتحميها .. وبقية الصديقات طردتها من بيوتهن .. لقد حاولت عقب مأساتها أن تتردد عليهن لتأنس بهن ، لترى فى خطاياهن ما يخفف عنها خطيئتها . ولكن افراطها فى الشراب ، كان يفقدها توازنها فى بيوت الصديقات ، وكان يكشف عن حقيقة الطبقة التى تنتمى اليها .. فنفرن منها .. وطردنها من بيوتهن .. طردنها بكل وقاحة .. فجلست فى البيت وامامها الويسكى فى فنجال الشاى .. لم يعد لها الا الخمر .. الخمر فى الصباح والمساء .. فاذا ابتعدت عنها الخمر جنت .. أصبحت مجنونة فعلا .. عينان مذهولتان مجنونتان .. وشفتان منفرجتان مرتعشتان .. وجسد يرتعش وينتفض .. وصراخ وعويل .. كان قد حل بها شيطان لا يهدأ الا اذا جرع الخمر .. كثيرا من الخمر !

وانت بجانبها .. كل ما تحرصين عليه ألا تخرج بفضيحتها الى الشارع .. فتتركينها للخمر تغرق فيها فضيحتها .. وتختبئين فى غرفتك . حتى توفرى عليها عذاب رؤيتك وهى فى هذه الحالة ..

واهمل البيت الذى نعيش فيه .. لم يعد أحد يهتم به .. ان الأثاث « الاوبيسون » قد كسته بقع كبيرة من آثار الخمر

وبقايا الطعام .. . واوانى الزهر . والتحف والمقاعد . كسرت معظمها أمك فى نوبتها .. ومائدة صغيرة مرتكزة على ثلاث سيقان وضاعت الرابعة .. ورائحة الشراب تفوح فى كل مكان . والخدم لا يدخلون البيت لأنهم يهربون من المرأة السكيرة ..

ان المأساة تطبع البيت كله بسماتها .. وانا أحاول انقاذ أمك ..

أحاول انقاذها لأنقذ نفسى من الجثة التى تلوح امامى .. جثة حرسمى .. ولأرتاح من صوتها وهى تهتف : « مش حسحورنى يا حسنين » .. ولأتقرب اليك بانقاذها .. من يدرى ؟ ربما بعد أن انقذها أنال رضاءك واحترامك ..

واتيت لها بطبيب ..

وقال الطبيب انها وصلت الى قمة الادمان . وان علاجها يحتاج الى وقت طويل ، وعذاب طويل ..

ولم يطل العلاج .. لأنك كنت أضعف من أن ترى بعينك عذاب أمك . كنت كالطبيب الذى يقتل مريضه ليريحه من آلام مرض ميئوس من شفائه .

وكانت أوامر الطبيب تقضى بألا تشرب أمك الا كأسا واحدة فى اليوم ، ثم كثيرا من الادوية والمسكنات .. ثم مراقبة دقيقة حتى لا تلجأ أمك الى خدع تشرب بها مزيدا من الخمر .. فالمدمن عندما يصل الى هذه الحالة يركز ذكاؤه كله فى الحصول على مزيد من الخمر .. وقد يصل الى حد الاجرام .. قد يسرق .. قد يقتل .. فى سبيل كأس .. لم تحتمل أمك العلاج . ولا انت .. لقد جنت فى أول يوم .. وانتابتها ازمة عنيفة .. أخذت تصرخ وتصيح .. ثم تقع على الأرض تحت قدميك . وتبكى وتتوسل اليك ان تحضرى لها ابريق الشاى .. ثم تلتوى كأن لسعات من النار تكوى جسدها .. وتمسك انفاسها .. وتحبل

انك انهم سمموت .. مسرعين ومحضرين لها ابريق الشاى ، مثلنا بالوسكى ..

وفى اليوم الثانى حاولت ان تخدعك ، حتى تخرجى من البيت وتركبها تبحث عن الخمر .. ولكنك لم تخدعى ، وظللت بجانبها فى غرفتها والباب مغلق عليكما .. فانتابها الأزمة العنيفة .. وجننت عليها مرة ثانية .. لم تحتملى عدائها .. واحضرت لها ابريق الشاى !

وفى اليوم الثالث .. حطمت كل ما فى الغرفة .. ثم نظرت اليك بعينين مجنونتين .. انها تكرهك .. انك عدوتها الوحيدة .. ومجأة القت جسدها كله عليك وحاولت خنقك .. وانت مرتاعة .. خائفة منها .. خائفة عليها .. واستطعت ان تتخلصى منها قبل ان تصل يداها الى عنقك .. واحضرت لها ابريق الشاى .. وهدأت ..

ويئست انت ..

ولكنى انا لم ايأس .. انى اكره اليأس .. وقد أصبحت أمك بالنسبة لى مشروعا يجب ان يتم .. صفقة اغامر فيها لعلى انجح .. كنت كأنى اشترى شركة على وشك الافلاس واحاول ان انقذها .. لا لحاجتى للمال ، وانما فقط لاجرب ذكائى .. لاتحدى الفاشلين .. لاشعر بقوتى ..

ولكن كيف ؟

ومضت ايام كثيرة ، وانقاذ أمك هو المشروع الوحيد الذى افكر فيه ..

وبدأ تفكيرى يتجه اتجاها جديدا ..

ان أمك وصلت الى حالتها هذه نتيجة ازمة نفسية . عقب ان صحت بشرفها ، دون ان تنتهى تضحيتها الى زواج .. فهل لو تزوجت أمك ، ترتاح من ازمتها النفسية ، وتقلع عن الخمر ؟

وهل تحب ان تزوجنى انا ؟ »

لماذا لا تتزوج غيرى ؟ !

ان اى زواج ستعتبره امك ردا لشرفها !

ولكن من ؟

من تتزوج !!

لماذا لا يكون عبد العظيم ؟

هل يرضى عبد العظيم ؟

***

ودخل على عبد العظيم يقدم الى تقرير الصباح .. تقرير الأعمال القذرة ..

وقلت له بعد ان انتهيت من مناقشة التقرير :

— وايه اخبار شركة القصير .. واخبار عادل ؟

قال فى هدوء :

— لسه ما وصلتنيش اخبار .. انما انا مطمئن .. كل حاجة حمشى زى ما احنا عايزين !

قلت وانا اتنهد ؛ كأنى اشكو له :

— مين كان عارف ان عيلة محمد افندى اسعد ، حتسبب لنا المتاعب دى كلها !

قال وهو ينظر الى من تحت عينيه كأنه يشعر بأنى اجره الى شىء اريده :

— سعادتك اشفقت عليهم .. والشفقة دايما تجر وراها المصايب !

قلت فى تأثر :

— دى الست بتاعته حالتها بقت وحشة قوى .. سكرانه ليل مع نهار .. مش عارف اعمل لها ايه ..

قال كأنه يتخلى عنى :

— ما تعملش لها حاجة .. ما فيش فايدة .. دول ناس مايستهلوش .. اخوها حرامى .. وهى سكيرة .. وبنى عادل

ساع اضرابات .. احسن حاجة اننا نرجعهم شبرا زى ما كانوا ..
قلت وانا انظر اليه نظرة قوية كانى آمره بان يخضع لى :
ـ مش ممكن بعد اللى عملناه ده كله نتخلى عنهم .. انا كان نفسى اشوفهم ناس كويسين وعايشين كويس ..
وكور شفتيه كانه يهم أن يبصق على الأرض ، ثم هز كتفيه وقال فى اسلوبه المنافق :
ـ والله كلك خير يا باشا .. انما مين يقدر !
قلت بعد برهة :
ـ تعرف ايه اللى حلى نميده بقت كده ؟
قال وهو يبدى اهتماما مفتعلا ليرضينى
ـ ايه ..
قلت وانا ابتسم ابتسامة هادئة :
ـ عايزه تتجوز .. وكانت فاكره انى أنا اللى حاتجوزها .. ما تدرش تقدر ولا تفهم انى اشفقت عليهم وانى باحاول ارد جميل زميلى محمد افندى السعد .. انما افتكرت زى ناس كتير ما افتكروا . انى معجب بيها وعايز اتجوزها ..
قال وهو يدير راسه عنى :
ـ مغفلة !
واستطردت متجاهلا تعليقه :
ـ انما انا متاكد انها لو اتجوزت حاتبطل سكر وترجع زى ما كانت !
قال فى برود :
ـ ودى مين يتجوزها ؟ .. ده شكلها يسد النفس !
قلت وانا اتجاهل تعليقه ايضا :
ـ والله انا نفسى نجوز واحد منا .. واحد مش غريب علينا .. علشان ما ندخلش بينا غريب !

وعاد ينظر الى .. وقد بدأت عيناه تضيقان كأنه ينظر بهما من خلال ضباب :

مش فاهم .. حتكر سعادتك مين يرضى يتجوزها .. ده الساعى اللى على باب مكتبى ما يرضاش ..

قلت وقد بدأت اضع في صوتى رنة الجد كأنى ابحث عملا خطيرا :

ــ لا .. يرضى .. امال يوم ما يتجوزها حيدلك .. واذا كنا حنصرف على بعيده مبين جنيه دلوقت .. الساعى ياخ حضرتك حتدفعهم حمسمائه .. وحايسر اموالنا .. وحايعمل لنا في كل يوم فضيحه ..

وسكت عبد العظيم .. واتسعت عيناه كأنه بدأ يلمح من خلال الضباب شيئا .. واستطردت قائلا في كلمات بطيئة كأنى اعنى كل حرف اقول

ــ اذا كانت بعيده حتحوز سعى يا تتجوزنى أنا ، يا تتجوزك انت !

وسكت عبد العظيم ..

لم يثر ..

اشعل سيجاره واخذ ينفث دخانها في الهواء ، وعقد ما بين حاجبيه كأنه يحاول أن يجد معى حلا .. يحاول أن يكون اقدر منى .. ثم التفت الى وقال في حدة :

ــ اعفينى أنا يا باشا من الموضوع ده !

ونظرت اليه وبين شفتى ابتسامة سخف به ..

ان عبد العظيم رغم كل عدارته ، وكل سفالته ، وكل حرونه .. يحتفظ في حياته بقطعة نظيفة ، لم يحاول ان يدنسها ، ولم يعرضها ابدا للدنس .. زوجته وعائلته .. لقد تزوج منذ أكثر من ثلاثين عاما .. بعد أن نقلنا مركز أعمالنا من بورسعيد الى القاهره .. وكان زواجه هو مشروعه الوحيد الذى لم يشركنى فيه .. بل

لم اعرف انه تزوج الا بعدها بشهور ، ومن خلال حديث عابر .. وحتى هذا اليوم لم ار زوجته .. ولم ار ابنه الكبير الا فى مناسبة أو مناسبتين . ولم ار بناته ابدا .. ولم يدعنى ابدا الى بيته .. انه لا يدعو أحدا الى بيته ، وعندما تضطره أعماله الى اقامة مأدبة فهو يقيمها دائما فى النادى ..

هذا الجانب من حياة عبد العظيم ، ظل الى الآن سرا مغلقا على .. سرا لم احاول اكتشافه ، انما كنت اتركه له ، دون أن احاول ان اتدخل فيه .. كرما منى .. فلم اكن ابخل عليه بان اترك فى حياته قطعة نظيفة .. وربما اثارنى يوما هذا السر .. كنت اعجب من هذا الانسان الذى يفرط كل هذا التفريط فى اعراض الناس .. ويبخل كل هذا البخل بعرضه .. ربما كان هذا نوعا من مركبات النقص .. انه وهو يقود زوجات الآخرين الى فراشى ، يحاول ان يضع نفسه فوق الجميع ، فيضن بزوجته ، لا على فراشى الآخرين فحسب ، بل على عيونهم ايضا ..

وقلت له وقد عرفت أن مشروعى يمس عقدة النقص فيه .. يمس القطعة الوحيدة التى يحتفظ بها نظيفة !

ــ اعميك ازاى يا عبد العظيم .. يعنى اروح اتجوزها انا .. وتبقى فضيحة واسمنا ينزل فى السوق ؟ .. ثم مين حايعرف .. ده حتى المأذون مش ضرورى يعرف !

وابتسمت له ابتسامة فهم منها ما اعنيه ، وقال وهو يقوم واقفا :

ــ حاضر .. امرك !

واستوقفته قبل أن يصل الى الباب قائلا :

ــ يعنى ما قلتش حاجة النهارده من شركة البنجر ..

قال :

ــ ما حصلش حاجة جديدة ، والحكومة لسه مصممة على موقفها من موضوع الضرائب ..

قلت :

— انا مش عاجبنى الحال فى الشركة دى .. لازم يمسكها واحد قوى .. واحد يعرف يمشيها ..

وابتسم عبد العظيم ابتسامة كبيرة وقال :

— والله ده رأيى من زمان !

وشركة النيجر كانت دائما المطمع الكبير لعبد العظيم .. كان يريد ان يعين نفسه عضو مجلس الادارة المنتدب لها .. وكنت اضن عليه بهذا التعيين ، لاحتفظ به كسلاح اثير به اطماعه ..

وقلت وانا ابتسم له ، ابتسامة امنيه فيها بالمنصب الكبير :

— نبقى نتكلم فى الموضوع ده بكره !

***

وخرج عبد العظيم ..

واتصلت بعدها مباشرة بخيرية .. وذهبت اليها فى بيتها .. واطلعتها على مشروعى الجديد .. مشروع زواج نفيده بعبد العظيم .. وقالت خيرية كأنها تشهق :

— يا خبر ! .. وعبد العظيم رضى ؟

قلت مبتسما :

— ما هو مش حيتجوزها قوى ..

قالت وقد فهمت :

— قول لى كده .. اما انت مفترى صحيح .. انما والنبى نفيده ما تستاهل التعب ده كله .. دى وليه خرفانه !

قلت :

— اصلى خايف تعمل لنا فضيحة وهى سكرانه .. اهى حاجه نمسكها بيها والسلام .. وعليكى انتى تقنعيها بالجوازه دى !

ولم تكن مهمة خيرية سهلة ..

لقد انقضت ايام وليال طويلة ، وهى تحاول ان تصل الى عقل امك من خلال ابخرة الخمر لتقنعها بالزواج من عبد العظيم

.. وكانت امك تنشه كلما رنت فى اذنيها كلمة الزواج .. كأنها ترى من خلال هذه الكلمة نور الأمل الكبير ..

وقالت لخيريه فى احدى فترات انتباهها :

ـ ده انا كنت فاكره حسين هو اللى عايز يتجوزنى !

وقالت خيرية وهى تحاول ان تنقذ بقية من عقل امك :

ـ ولسه يا اختى عايز يتجوزك .. انما مش قادر .. دى مراته انجليزية ، وماسكاه من زوره .. لو اتجوز عليها يفلس تانى يوم !

وقالت امك وهى ترفع الى شفتيها فنجان الشاى :

ـ ما اتجوزش الا حسين .. ماليش دعوه .. انتى اصلك مش عارفه .. ده وعدنى بالجواز ..

وقالت خيرية وهى تزيح فنجان الشاى عن شفتيها :

ـ والنبى بطلى شرب يا نفيسه يا اختى .. ده انتى عدمتى .. وماليش حاجة حاتبطلك الشرب الا الجواز .. فيه الست لها ايه الا الجواز .. يعنى فاكره انى باحب جوزى .. ابدا والنبى .. انما هو اللى سترنى .. ومخلينى ست ..

وبدت امك كأنها تفكر ..

ان الجواز بالنسبة لها هو الكرامه ، وهو الستر ، وهو الست السعيد الذى قضت فيه شبابها ، ومعظم حياتها .. وعادت تقول :

ـ انما ده عبد العظيم بيه كان عارف أن حسين بيحبنى ..

قالت خيرية :

ـ ابدا .. ولا عارف حاجه .. وهو لو كان عارف كان بعتنى لك ..

قالت امك :

ـ مش عارف حاجه ابدا ؟

قالت خيرية :

— ابدا .. ولا حاجه !

ومدت امك يدها الى منحان الشاى ، ثم عادت وسحبتها ، وقالت :

— سى سى عبد العظيم سيه عايز يتجوزنى ليه .. لا مال ولا جمال ؟

وقالت حيرية وهى تستعين بالصبر :

— يا ستي .. كل فولة ولها كيال .

وقالت امك :

— انا مش مصدقة .. مش مصدقة ابدا !

وقالت خيرية :

— صدقى يا احتى .. سى وامقى انتى ، وكل حاجة تتم .. وامقى علشان حاطر هدى .. دى هدى اسرمطت معاكى .. ولا يستركم الا راجل يملا عليكم البيت ..

وتأثرت امك عندما سمعت اسمك .. وصمتت طويلا .. ثم جرت دموع صامته فوق وجنتيها .. وخيرية تنظر اليها بلا تأثر .. انها تقوم بعمل تقتضى عليه اجرا .. عمل لا دخل للعواطف فيه ..

وقالت امك وهى تمسح دموعها بكم ثوبها :

— بعتكرى يوم ما اتجوز ، ربنا حايبوت على من الهباب ده ؟؟؟

وقالت خيرية :

— طبعا .. هوه انتى بتشربى الا من ضيقتك ..

وقالت امك فى لهفة :

— صحيح والنبى يا خيرية .. صحيح مش حارجع اشرب .. صحيح ؟

وقالت خيرية :

ـــ انا اعرف اكثر منك يا نعيمه .. ده نوبه حورى ساب البيت ، ومن يوم ما سابه فضلت اشرب لغاية ما رجع تانى ..

ورمعت أمك عينيها ، وصاحت فى حرقة :

ـــ يا رب . يا رب توب على !

***

واقتنعت أمك بالزواج من عبد العظيم .

هل اقتنعت انت ايضا ؟ ..

لا اظن .. ولكنك كنت يائسة .. كان اى شيء يحدث لأمك اهون عليك من الحالة التى نعيش فيها .. كنت كأبيك تنظرين الى الأشياء نظره سلبيه .. تفهمينها .. وتحسين بكل ما فيها من دنس .. ولكنك لا تقاومينها الا بالنأى عنها ..

وحدد يوم عقد القران ..

واستطاعت امك ان تقوم بنفسها ، فحممت من اقبالها على الخمر قبل الموعد بأيام .. وبدات كتله العجين تتماسك شيئا ما .. بدات عيناها تستقران ، وشفتاها المرجبان فى بلاهة تنطبقان ، وجسدها المترنح يستند على عظامه ..

لقد بدات التجربة تنجح ..

واردت ان احضر بنفسى نجاح التجربة .. ورربكم قبلها بنام .. واستطعت ان اقنع امك بسهولة بطروق الكاذبه التى سمعتى من ازواج بها .. وان اقنعها بأن ما حدث بننا كان خطيئة سيغفرها الله .. وانى مضطر ان احضر عقد القران لأنى صديق عبد العظيم واقرب الناس اليه . فاذا لم احضر ربما ساورته شكوك ..

وحل اليوم ..

واحضرنا ..

امك وقد ارتدت ثوبا محتشما ساعدتها فى اختياره خيرية .. ولم تضع من المساحيق الا القليل . ان قدسية الزواج جعلتها

محتشم .. جعلتها اقوى من المجتمع الجديد الذى دخلت فيه ..
ان الزواج فى نفسه شىء كبير .. شىء بأمر الله .. وهى تحاول أن تبدو نظيفه محترمة وهى تتلقى امر الله .. وجلست فى صدر الصالون .. ووجنتاها المعطشان ترتعشان فى حياء يثير الشفقة . وقد أرخت جفنيها فوق عينيها فبدت كمريض يجتاز دور النقاهة ، ويحمد الله على شفائه .. وأنت بجانبها ترتدين ثوبا رمادى اللون .. صنعته يداك .. اسدل على جسدك النحيل فسنحه احفت كل خطوطه .. وكنت تبدين شاحبة .. اكثر مما تعودت أن أراه فيك من شحوب .. ضعيفة ، أضعف مما انت .. وجاء خالك من الاسكندرية .. ذليلا .. لا يستطيع أن يرفع رأسه .. بل لا يحاول أن يفهم ما يدور حوله .. أن اخته ستزوج من عبد العظيم .. لا يدرى لماذا .. ورغم ذلك لا يتساءل .. وخيريه .. وأنا .. و .. وجاء عبد العظيم .. العريس .. جاء وهو على عجل .. جاء متأنق ، كأنه يريد أن ينتهى من اقذر عمليه فى حياته .. وجاء معه المأذون !

المأذون !!

هل تذكرين هذا المأذون ؟

انه احد اعوان عبد العظيم .. ارتدى جبة وقفطان وحمل تحت ابطه سجلا .. فأصبح مأذونا ، بأمر عبد العظيم .

انه مأذون وهمى ..

انه خدعة ..

وبدأ المأذون الكاذب يتلو صيغة العقد .. وسعلت انت .. ثم انتابتك نوبة سعال حادة .. وشعرت أن شيئا فى صدرى يسعل معك .. شيئا يكاد يختنق !

وانتهى المأذون من تلاوة صيغة العقد .. وكتب وثيقتى الزواج .. ووقعتهما انا وخالك كشاهدين ..

ثم اعطى المأذون الورقتين لعبد العظيم ..

وطاست عليك أكواب الشربات ..

وقامت خيرية وقبلت امك .. وهمت بأن تقبلك ، فانتابتك نوبة السعال من جديد .. لماذا تسعلين .. ان سعالك مخيف .. انه يمزق صدري !

واقترب خالك من عبد العظيم وقال في ذل :

— اقدر اشيل الورقة بتاعة اختي معايا ؟

وقال عبد العظيم وهو ينظر اليه في صرامة :

— لا .. الورق كله انا اللي حاحتفظ بيه .. والا ايه .. يا اسماعيل افندي ؟

وتراجع خالك سريعا .. انه يعلم ان عبد العظيم يحتفظ بورقة اخرى .. يحتفظ بوصل امانة قيمته اربعة آلاف جنيه موقعا عليه من خالك .. ولهذا تراجع .. وسكت ..

ونظر الينا عبد العظيم ، وركز عينيه على وجهي برهة في نظرة لم يجرؤ عليها من قبل ، كأنها نظرة احتقار ، ثم قال :

— عن اذنكم يا جماعة .. انا مضطر انزل .. عندي ميعاد !

ونزل ..

هكذا سريعا ، دون ان ينظر الى عروسه ، أو حتى يقول لها « مبروك » ..

واشتدت بك نوبة السعال .. وقمت تلهثين الى غرفتك .. وقامت وراءك أمك .. وشعرت بالضيق ..

شيء يكتم انفاسي ، ويمزق رئتي ..

لماذا اتضايق ؟

لقد سرت رواجا وهميا .. ومبدأ في هذا .. انى انشيء شركات وهمية .. وارفع الأسعار في البورصة رفعا وهميا .. واخفضها خفضا وهميا .. واعين الوزراء والكبراء في مجالس ادارة شركاتي ، واجعلهم اوهاما .. واسرع للجمعيات الخيرية

تبرعات وهمية .. واعد وعودا وهمية .. و .. و ..! فلماذا اتضايق كل هذا الضيق من زواج وهمى ؟

لقد اتخذت امك انتاذا وهميا .. لتشفى الى حين .. لتسكته الى حين .. ومصر كلها ينقذونها بالأوهام .. وتعيش بالأوهام .. ويسكت شعبها بالأوهام .

فماذا حدث أكثر مما يحدث كل يوم وكل ساعة ؟!

ولكن الضيق يشتد بى ..

وروحى تكاد تزهق ..

وصوت سعالك يصلنى من غرفتك كأنه طعنات مصوبة الى جنبى ..

انى اريد ان اهرب من نفسى ..

اريد شيئا يلهينى من هذا الضيق ..

شيئا عنيفا .. كبيرا .. مثيرا ..

اريد جريمة ..

– ١٨ –

وبدا احساسى بالضيق يفقدنى توازنى .. توازن عقلى !

وقد كان عقلى يعمل دائما كالآلة المنظمة الدقيقة . وسبح صنفا واحدا من البضاعة .. المال .. ومزيدا من المال .. ولم تكن عواطفى تستطيع أن تصل الى عقلى ابدا . او تحيد به عن طريقه .. لم يكن للكراهية . أو الحب دخـــل فى حكمى على الاشخاص . أو فى تعاملى معهم .. وقد اتعاون مع رجل أكرهه ؛ واضرب بالشلوت رجلا احبه .. ان العواطف اشبه بقطع الحجارة التى تقع بين تروس العقل فتحطمها . وتفسد الآلة المنظمة الدقيقة .. ومعظم مصائب الناس تقع من تأثير العاطفة على العقل .. ان العقل وحده لا يخطىء الا نادرا .. والناس الأغبياء فى نظرى هم العاطفيون !!

وليس من السهل على كل انســـان ان يحمى عقـــله من عاطفته .. انها عملية شاقة تحتاج الى ارادة قوية . والى أعصاب لا تلين . والى قسوة . والى شخصية عارمة .. وقد كنت دائما افخر بارادتى ، واعصابى ، وقسوتى . وشخصيتى .. ولكنى بدأت افقد كل ذلك .. بدأت عواطفى الخاصة تتغلب على ارادتى واعصـــابى . وبالتالى تؤثر فى عقـــلى . ثم تؤثر فى تصرفاتى ..

واذكر انى التقيت فى هذه الأيام بحسنين باشا شهاب !

انه عضو مجلس ادارة فى كثير من شركاتى ، ومحترف رياسة وزارة ، وانا اكرهه .. اكرهه كالعمى .. انه شىء قصير عريض اشبه بالقنطاس الفارغ .. ويضع على وجهه دائما قناعا من الجد والحزم ؛ فيبدو كأنه رجل خطير ، ويبدو كل شىء يعمله كأنه عمل خطير .. اذا جلس على مائدة الطعام يبدو كأنه يضع تصميم مصنع ، واذا جلس فى السينما يبدو كأنه يقرأ تقريرا سياسيا ، واذا سار على قدميه ليشم الهواء يبدو كأنه يقوم بعملية جراحية .. ورغم ذلك فوراء هذا القناع شخصية ضعيفة دنيئة تباع فى أسواق السياسة والاقتصاد بأرخص الأسعار ..

وقد كنت دائما فى حاجة الى هذا القنطاس الفارغ .. فان شخصيته الضعيفة الدنيئة كانت ترشحه دائما لرياسة الوزارة فى كل أزمة .. اذا أراد الانجليز تنفيذ سياسة لهم ، جاءوا به رئيسا للوزارة .. واذا أراد الملك تحقيق بعض أطماعه جاء به الى الوزارة .. وكنت أضمه فى شركاتى انتظارا لهذه الفترات التى يتولى فيها الوزارة ، حتى اذا تولاها حقق فى سرعة عجيبة تسيء الى الوقاحة كل ما أريده وتريده شركاتى .. ومن أجل ذلك كنت أخفى عنه كراهيتى ولا أدعها تتسرب الى عقلى فتفسد تعاونى معه ..

ولم يكن حسنين باشا شهاب يحتفى بالمكافآت التى يتناولها نظير عضويته فى مجالس الادارة ، بل كان يطلب منى دائما « نصيحة » .. ونصيحتى تساوى فى الأسواق المالية الوفا من الجنيهات .. يكفى ان انصح اى مضارب فى البورصة بان يشترى او يبيع ، فيصبح من الأغنياء ..

وجاءنى حسنين باشا شهاب فى ذلك اليوم يطلب منى نصيحة .. وكنت جالسا على البار فى نادى السيارات ، وامامى كأس ابلل بها شفتى .. ورفعت اليه عينى ، فأحسست بموجة طاغية من الكراهية لم استطع ان أحول بينها وبين التأثير على

عقلى .. كانت ارادتى ساعتها أضعف من أن تقف حاجزا بين عقلى وعاطفتى ، فأخفيت عنه عينى ، وقلت فى لهجة جادة :

ــ اشتريت اسهم شركة الطوب الحرارى ؟

قال وهو يحاول ان ينظر فى وجهى :

ــ لا ..

قلت فى همس وحزم :

ــ اشتر !!

وانفرجت أسارير حسنين باشا شهاب . وانصرف عنى وهو يسير على أطراف أصابعه كأنه لص .. كأنه استولى على حافظة نقودى ..

وكانت شركة الطوب شركة وهمية ، أسسها جماعة من الأجانب واليهود ، وطرحوا أسهمها فى السوق بسعر رخيص ، ثم قاموا لها بدعاية واسعة ، واستطاعوا أن يجذبوا لها مساهمين معظمهم من أصحاب الأراضى الذين يقيمون فى القاهرة . والذين لا يفهمون شيئا من شئون الشركات انما يدعون الفهم ليحدثوا من ادعائهم دليلا على مدنيتهم وثقافتهم .. بل استطاعت الشركة أن تبيع أسهمها الى بعض أقطاب الأحزاب . الذين شجع أطماعهم على رءوسهم ، مبتعون فى عمليات النصب ..

كنت أعرف كل هذا عن شركة الطوب ، وقد اشتريت أسهمها عندما كانت رخيصة ، وأذاعت الشركة ذلك ودونت اسمى كنوع من الدعاية تجتذب به الأغنياء .. فان اسمى يكفى دائما لنجاح أى شركة .. ثم انتظرت الى أن ارتفعت الأسعار وبعت ما اشتريته .. بعته للأغبياء .. وربحت .. ربحت نقود الأغبياء .. وكنت أنتظر بعد ذلك أن يفر الأجانب واليهود بالأموال التى جمعوها ، وتسقط الشركة وتعلن افلاسها .

واشترى حسنين باشا أسهما بما لا يقل عن خمسين ألف جنيه . وبعد أسبوع واحد حدثت الكارثة ، وفر المؤسسون ،

ومعهم أموال المساهمين .. وقامت ضجة فى مصر كلها .. ولكن ضجة حسنين باشا كانت اكبر من الضجة التى قامت فى مصر .. وقد صب ضجته كلها على .. وكنت استطيع ان اواجه ضجته وان اقضى عليه ، ولكن عقلى تنبه ، وابتعد عن عاطفتى .. ان حسنين هذا اداة ناجحة لشركاتى ، ومن الخطأ ان احطمه او احسره ، فاستجمعت كل ارادتى لأبتلع ثقل ظله وسخافة مظهره الخطير .. وارسلت له عبد العظيم ليسترضيه ويعوض له خسارته .. لم ادفع له خسارته من جيبى ؛ بل عوضته عنها « بمصلحة » أخرى استرد بها كل ما فقده ..

استرده من أموال الأغبياء !

وترك هذا الحادث اثرا كبيرا فى نفسى .. لقد زعزع ايمانى بارادتى وعقلى .. اصبحت أخاف من نفسى على اعمالى ..

واخذت اتساءل مرة اخرى عن سر هذه الأزمة النفسية التى تضغطنى ؟

ماذا اريد حتى ارضى نفسى ؟

لا شىء .. لا شىء اطلاقا استطيع أن أعطيه لنفسى اكثر مما أعطيها .. انى انسان شبع .. وربما كان الشبع بسبب نفس الأزمة النفسية التى يسببها الحرمان .. وربما كان شبعى هو الذى يثير فى هذه الدناءة الى حد أن تصبحى انت شيئا أريده .. فتاة لست أجمل من عرفت ، وليس فيها شىء اكثر اغراء مما لدى ، ولكنى رغم ذلك أريدها .. أريدها الى حد ان اصبحت شيئا هاما كبيرا مصوره لى أطماعى .. انها مجرد دناءة .. الدناءة التى تعقب الشبع ..

وقد اصبحت ازوركم دون ان تزعجنى كثيرا رؤية أمك .. كانت قد انصرفت بمعظم تفكيرها الى اعداد نفسها للزفاف الى عبد العظيم .. وكانت قد اعتدلت فى حياتها .. كانت تقاوم ادمانها للخمر مقاومة شديدة لتصنع من نفسها زوجة كاملة كما

كانت فى حياتها الاولى .. ولكى تشغل نفسها عن الخمر عادت تهتم ببيتها ، وعادت تتودد الى خيرية ، واخذت تعد ثيابا جديدة كثيرة .. ثياب الزوجية .. وكانت تضعف أحيانا فتمتد يدها الى كاس .. ثم الى كاس اخرى .. ثم تفر من الكاس ، وتدخل غرفتها وتغلق على نفسها الباب ، وتنتابها نوبة هستيرية قاسية ، تتحمل عذابها فى صمت ، حتى تزول عنها .. واحيانا كانت تهرع اليك ، وتنام بجانبك حتى تحميها من عطشها الى الخمر .. وكنت تفهمين حالتها ، دون أن تصارحيها بها ، فتاخذينها بين ذراعيك ، وتضمينها الى صدرك .. كانك تحمينها من شيطان كبير فى صورة كاس تنسكب فوق جسدها .

ولم اتأكد من ان امك بدات تعود الى حالتها الطبيعية الا عندما سالتنى مرة عن حالة عبد العظيم المالية ..

لقد عادت الى ذكائها الساذج ..

عادت الى اطماعها الغبية .. اطماع الطبقة الوسطى الصغيرة .. نفس الأطماع التى قادتها الى ..

وقلت لها وانا ابتسم واحاول ان اخفى عنها ابتسامتى :

— اطمنى .. اللى اعرفه ان عبد العظيم غنى جدا .. واللى مش متاكد منه ، انه يمكن يكون أغنى منى !!

قالت وهى تبتسم فى حياء كانها تخجل من اطماعها :

— يا خبر .. هو فيه حد أغنى منك ابدا ؟ !

قلت :

— مين عارف .. أصل عبد العظيم ما يحبش يتكلم عن نفسه كتير !

قالت وهى تتنهد :

— انما ده يظهر مشغول قوى .. ده انا ما بشوفش الا معاك ..

ونظرت اليها فى عجب .. هل احبت عبد العظيم ايضا .. كما

احبتنى ؟ .. وهل هو الحب ، ام الطمع فى حياة افضل ؟ .. ربما كان كل نساء هذه الطبقة لا يحببن .. انهن يقسن الرجال بما يستطيعون ان يوفروه لهن من اسباب الحياة .. كم مرتبه .. وماذا يملك .. ولا شىء آخر .. ان محاولة التخلص من الفقر ومن الضيق الذى يحيط بنساء هذه الطبقة يجعلهن يخلطن بين الحب وبين الرغبة فى حياة اكثر راحة وهناء .

ولكن ليس كل النساء ..

انت مثلا .. انك تحبين عادل .. ان اى حياة مرفهة لا يمكن ان تبعدك عن عادل .. ربما لانك — كابيك — ليس لك هذا الذكاء الساذج الذى تتميز به امك ..

وقلت لأمك وانا احاول ان اصبرها :

— اصل عبد العظيم راجل محافظ .. بلاقيه مستنى الدخلة !!

وهزت راسها فى صمت ، كانها لا تصدقنى .. ثم قالت بعد برهة :

— اذا كان راجل محافظ ، يبقى لازم زعلان وهو شايفك داخل خارج عندنا كل يوم ..

قلت بسرعة وقد فوجئت :

— يا شيخة حرام عليكى .. دا راجل متاكد انك زى اختى وهدى زى بنتى .. ما هو حضر الموضوع من اوله ..

وعادت سكتت ، وتنقل عينها حولها كانها تبحث عن كاس ..

ولم يحدث ابدا بعد ان تم هذا القران الوهمى بين امك وعبد العظيم ان حاولت ان تذكرنى بما كان بيننا .. بل لم ار فى عينيها نظرة تنم عن انها تذكر شيئا مما كان .. كانت تحرص فعلا على ان تغسل خطيئتها بالنسيان .. وكانت تريد بكل ارادتها ان تعود امراة شريفة ..

ولم يحاول عبد العظيم ان يبذل جهدا لارضاء امك ، او حتى لتغطية الخدعة التى اقنعها بها انه تزوجها .. وكان يخاف ان

تتسرب اخبار هذا الزواج الوهمى الى المجتمع ، كان يخاف جدا ، وابعده خوفه عنها وعن زيارتها ، ثم يذهب اليها الا معى ، وبعد الحاح منى .. وكان يجلس بيننا كانه يؤدى واجبا ثقيلا قذرا .. ولا ينظر اليها الا مبصبصا .. ولا يحادثها الا بوقاحة .. حتى اضطر ان الكزه فى جنبه ، لينتبه الى نادية دوره .. فيبتسم لها ابتسامة كريهة كانه يعضها باسنانه ..

وهى تحتمل كل هذا فى صبر صامت .. كانها تستطيع ان تحتمل اى شىء ما دامت قد اصبحت زوجة ..

وانت ساكتة دائما .. لا تفعلين شيئا الا ان تنظرى بعينيك وتزدادين هزالا .

ربما اسعدك شفاء امك من ادمانها ، ولكن سعادتك لم تغير منك شيئا ..

وربما كنت تشعرين بكل ما يدور حولك .. فلم تطمئنى الى زواج امك من عبد العظيم .. بل ربما احسست بان هذا الزواج خدعة .. مجرد زواج وهمى .. ورغم ذلك فانك لا تفعلين شيئا .. انك كضميرى .. كلاكما يقف منى موقفا سلبيا .. لا يستطيع ان يحطمنى ، ولا يستطيع ان يقومنى .. ولكن فقط يعذبنى !

وقلت وانا انظر اليك بعينين ضيقتين كانى احاول ان اصل الى اعماقك ، كما تحاولين ان تصلى الى اعماقى :

— انت صحتك مش عاجبانى ابدا يا هدى !

قلت فى هدوء اشبه بهدوء ثلوج القطب الشمالى :

— ابدا .. صحتى كويسه !

وقال عبد العظيم وهو يحاول ان يبدو كزوج امك :

— دى محتاجة لتغيير .. لازم تخرج من البيت وتشم هوا .. طول ما هى قاعدة القعدة دى صحتها مش ممكن تتحسن !

وقلت كان خاطرا طرا على راسى فجاة :

— لك حق يا عبد العظيم .. قومى يا هدى البسى ، وتعالى معايا افسحك فى العربية شويه ..

قلت وانت تنظرين الى :

— لا .. متشكره !

وقال عبد العظيم كأنه يستعمل سلطانه عليك :

— قومى يا هدى مع عمك الباشا ..

ونظرت اليه كأنك تتوسلين اليه ان يرحمك ..

وقالت امك ، وقد خطر لها اننا سنتركها وحدها مع عبد العظيم :

— ما تقومى يا بنتى .. ده حرام كمان تحبسى نفسك الحبسة السوده دى !

وقلت كأنك تهمين بالبكاء :

— مش عايزه اخرج يا ماما ..

وقالت امك وهى تحاول أن تسترد سلطانها القديم عليك :

— لا .. قومى .. علشان خاطرى !

وقمت الى غرفتك وانت تزفرين ، وتتبعت جسدك بعينين مهمتين تحلمان عنك الثوب وتفتشان فيما تحته ..

وعدت ترتدين ثوبا بسيطا فى لون سماء الصيف .. واحد من تلك الاثواب التى تصنعينها بيديك وتخفين بها خطوط جسدك ، فلا يضيق مع خصرك النحيل ، ولا ترتفع مع نهديك ، ولا تستدير مع ساقيك ، انما تسدل فى خطوط مستقيمة كأنها خطوط ستار يسدل فوق كنز حى تصنين به على اعين الناس ..

وابتسمت لك فى حنان كأنى احاول أن اطمئنك على نفسك منى ..

ونظرت الى بعينيك العميقتين .. النظرة التى تثقب صدرى ..

وهممنا بالخروج من البيت ، وقال عبد العظيم وهو يهم معنا :

ـــ خدونى معاكم يا جماعة ..

وتفزت راس أمك كانها تكاد تنفصل من جسدها ، ونظرت اليه فى دهشة ، ثم تهدلت نظرتها وكست وجهها سحب من خيبة الأمل .. واحنت راسها ، وسكتت ..

وقلت له كانى الومه :

ـــ ما تخليك انت يا عبد العظيم .. مش تقعد مع العروسة شوية !

وقال عبد العظيم وهو يبتسم ابتسامة باهتة :

ـــ ما اقدرش والله يا باشا .. ورايا ميعاد ..

ثم نظر الى أمك فى تأفف وقال وهو ينظر اليها من عل :

ـــ العروسة عارفه ظروف ، والأيام قدامنا كتير !

وخرجنا .. وتركنا امك وحدها .. وركب عبد العظيم سيارته ، وركبت انت بجانبى ، وقلت للسائق :

ـــ اطلع على الجزيرة يا اسطى ..

وسادت بيننا فترة صمت طويلة كنت خلالها انظر فى قفا السائق ، كانى استوحيه كلاما اقوله ..

واشتدت حيرتى ..

ماذا اقول لك ؟ فيم نتكلم ؟ اى موضوع يمكن ان يجمعنا ؟

لو كانت بجانبى « شوشت » ابنة خيرية لوجدت الف موضوع اتحدث فيه معها .. كنت أستطيع ان أحدثها عن أفلام السينما ، وعن امهات صديقاتها ، وعن الحب والزواج ، وعن فضائح المجتمع و .. و .. ان شوشت فتاة تعيش .. وعقلها وقلبها يسعان الدنيا كلها .. أما أنت فلا تعيشين .. لا تعيشين الا فى صدرى !

بل لو كانت شوشت بجانبى ، لاستطعت ان امد يدى واتحسس نهديها وأنا اقول لها :

ـ والله كبرت يا شوشو .. انا حادور لك على عريس بكره الصبح !!

ثم أعود واضغط على نهدها ، وارتمي بكفي الى عنقها . والتقط باصابعي من فوق جسدها نشوة تهزني وتلهيني عن أعمالي التي تضج في رأسي .. دون أن أحس في كل ذلك بالحرج ، ودون أن تحس هي الأخرى بالحرج .. دون أن تحس بأني آخذ منها شيئا ، أو أن شيئا نقص منها .. فتقابل أصابعي التي تتحسسها بابتسامة كبيرة ، وتميل على وتقبلني قبلة سريعة فوق وجنتي وهي تقول :

ـ أنا زعلانه منك يا أونكل .. فين المايوه اللي قلت لي انك حا تبعت تجيبه لي من أمريكا ؟!

كان هذا يحدث لو كانت بجانبي شوشت .. اننا في مجتمعنا لا نعقد الحياة ، ولا نضع حول أنفسنا قضبانا من التقاليد والمعاني الضيقة تحول بيننا وبين متعة الحياة .. ان حياتنا فسيحة منطلقة ، نشرب منها بقدر ما تسع أفواهنا ، ونسير فيها بقدر ما تطيق أنفاسنا .. أما حياتك أنت .. يا حفيظ .. انكم تعيشون في قمقم تسمونه الشرف .. كل حركة ، وكل كلمة ، وكل لفتة ، لها قيود من حديد بصلها بوتد ضخم اسمه الشرف .. وتنتهي حياتكم ، تماما كما تنتهي حياتنا .. انكم لا تعشون أكثر منا .. ولا يحتمل الشرف تشييع جنازاتكم ، ويرفض أن يشيع جنازاتنا .. الفرق الوحيد .. انكم تموتون محرومين من الحياة ومتعتها ، ونحن نموت متخمين بالمتعة ..

واطلت النظر في قفا السائق وأنا لا زلت أبحث عن موضوع أحدثك فيه .. وأنت تنظرين الى الطريق من خلال نافذة السيارة ، ولا أدري هل كنت تستنشقين الهواء ، أم تزفرين ما بقي من أنفاسك ..

واخترت الموضوع الذي احدثك فيه ..

موضوع والدك ..

انه الموضوع الوحيد الذى يثير اهتمامك ، ويفتح قلبك ، ويطلق لسانك ..

وقد حدثتك عنه كثيرا .. عن طفولتنا ، وعن زمالتنا فى المدرسة ، وعن نكاته ، وسمو خلقه .. و .. و .. حديث معظمه كاذب ، ومعظمه لا يعبر عن حقيقة رايى فى والدك ، ولا حقيقة رايه فى ..

وانطلقت انت ايضا تحدثيننى عنه .. عن حنانه ، وحبه لك ، ومثاليته ، ونوادره فى البيت .. ثم قلت لى ونحن نمر فوق كوبرى قصر النيل ، وبين شفتيك ابتسامة كبيرة حالمة :

ــ كان بابا بياخدنى فى الصيف كل يوم خميس نتمشى على الكوبرى ده ..

وقلت بلا تفكير :

ــ تحبى ننزل نتمشى شوية ؟ !

ونظرت اليك ارجوك أن ترفضى اقتراحى ، ولكنك قلت بسرعة وبفرحة :

ــ ايوه ..

كانت المرة الاولى التى أرى فيهـــا مثل هذه الفــرحة على وجهك ، والمرة الاولى التى تستجيبين فيها لى بمثل هذه السرعة ..

ولم اكن استطيع أن اتراجع ، فأمرت السائق بالوقوف ، ونزلت معك نسير على كوبرى قصر النيل .

انى لم امش على قدمى فوق كوبرى قصر النيل منذ سنين طويلة .. لا اذكر متى مشيت فوقه .. ربما قبل أن اولد .. قبل أن اصبح غنيا .. بل إنى لا اسير على قدمى فى اى مكان الا عندما تأمرنى الأطباء ..

وحاولت أن امتع نفسى بالسير بجانبك فوق الكوبرى .. حاولت أن اتخفف من ثقل مركزى الاجتماعى ، ومن فخامة مظهرى ،

.. ولكني لم أستطع .. خيل الى وانا اسير بين بقية الناس انى غريب بينهم .. وخيل الى ان كل من يمر بى ينظر الى كأنه ينظر الى مخلوق عجيب هبط من عالم آخر .. وخيل الى انى اسير فوق أرض لا اعرفها ، وبدأت خطواتي ترتبك فعلا ، وشعرت أن كل الناس لاحظوا ارتباك خطواتي .. ان الارتباك الذى يحس به الفقير وهو يدخل قصرا من قصور الأغنياء ، هو نفس الارتباك الذى يحس به الغنى وهو يدخل شارع الفقراء ..

وبدأت احس بالضيق ، والخجل من نفسى .. احسست بياقة قميصى تكاد تخنقنى ، وبكرشي التى احملها منذ سنوات كأنى لم اعد أستطيع حملها .. واحسست بالخجل من الدبوس الماسى الذى ارشقه فى رباط عنقى ، ومن الخاتم الكبير الذى اضعه فى اصبعى .. وتمنيت لو نزعت الدبوس والخاتم والقيتهما فى جيبى كأنى أخفى عن الناس فضيحة ، واخذت — بلا ارادة منى — رفع يدى واضعها فوق صدرى لأخفى بها هذا الدبوس ، ثم أنزلها واضعها فوق الخاتم لأخفيه ، واخفى بريقه عن اعين الناس ..

وكرهتك فى هذه اللحظة ..

كرهتك لأنك تحاولين ان تنزلى بى الى طبقتك .. الى دنياك .. كرهتك كما تكرهيننى وانا احاول ان ارتفع بك الى طبقتى .. الى دنياى ..

وكلانا فشل مع الآخر ..

انا فشلت فى ان اجعلك سعيدة فى دنياى ، وانت فشلت فى أن تسعديني فى دنياك ..

ولكنك كنت لاهية عنى ، ونحن نسير فوق الكوبرى .. كنت كالعصفور الذى خرج من القفص وعاد الى سمائه .. كنت تبتسمين وتكادين تضحكين ، وكنت تعرضين وجهك للهواء كأنك تستقبلين قبلات حبيب اشتقت اليه ، وكنت تميلين فوق حاجز

الكوبرى وترقبين المراكب وهى تسرى فوق صفحة النيل ، كأنك طفلة ترقب مركبا صغيرا صنعته من الورق والقت به فى الماء ..

وانا بجانبك ، مرتبك ، انظر من تحت جفنى الى الناس فى نظرات مسكينة كأنى اعتذر لهم عن دخول دنياهم ..

وانتهينا الى آخر الكوبرى ، ووقفت فجأة امام عربة يد محملة بالترمس ..! وامتدت يدى بسرعة وقبضت على ذراعك ، وشددتك الى كأنى احميك من الموت ..

ونظرت الى فى دهشة ، وقلت فى صوت له رنين وابتسامتك لا تزال بين شفتيك :

ــ بابا كان دايما يشترى لى ترمس لما نيجى هنا ..

ونظرت الى كوم الترمس .. انه فى لون الذهب .. ولكنه اشد اغراء لك من الذهب .. الذهب الذى اعرضه عليك ..

وقلت لك ، وكأنى خائف من هذا الترمس :

ــ مش احنا كبرنا على الترمس يا هدى !

قلت فى بساطة :

ــ ابدا .. كل الناس بتاكل ترمس .. شوف .. اهو فيه راجل عجوز بيشترى !

قلت :

ــ مش خايف ما يكونش معايا فكه ..

وارتخت عيناك كأنك صدمت ، واختفت ابتسامتك ، وقلت فى صوت فاتر :

ــ بلاش !

وترددت .. وظللت واقفا وعربة اليد قريبة منى وفوقها كوم الذهب وقلت لنفسى : « لماذا لا تشترى لها ترمس ؟ .. انها ترفض كل ما قدمته لها من ذهب حقيقى ، لعلك ترضيها بالذهب الزائف .. ان هؤلاء الناس لا يتعلقوا الا بالزيف » ..

واقتربت خطوة من عربة الترمس ، ثم ارتفع فى صدرى صوت يسخر منى : « تصور لو لمحك الآن احد اعضاء النادى ..»

انه سيضحك منك .. وسيفضحك .. وسيذيع عنك فى كل مكان انه شاهدك على كوبرى قصر النيل تشترى قرطاسا من الترمس .. انها اهانة لك .. اهانة لمركزك .. بل انها خيانة للطبقة التى تنتمى اليها .. الطبقة التى لا تأكل الترمس فى الشارع » !

ورغم ذلك فقد اقتربت خطوة أخرى من الذهب الزائف ، وانا اقول لنفسى : « ماله الترمس .. لقد كنت تحبه فى صباك .. كنت تسرق من نقود أمك لتشترى الترمس .. هل نسيت ؟ .. أن الترمس لا يزال يقدم لك الى اليوم فى نادى السيارات ، بجانبه كأس الويسكى .. ان العيب ليس فى الترمس ، ولكن فى طريقة تقديمه .. أن الترمس طبقات أيضا .. ترمس فقير يقدم على عربة يد تجرها أيد قذرة فى الشـــارع .. وترمس ارستقراطى يقدم فى نادى السيارات فى أطباق من الفضة وبأيد داخل قفازات بيضاء .. الترمس كالبشر .. كلنا بشر .. ولكن هنـــاك بشر يرتدون جلابيب قذرة ، وبشر يرتدون حللا أنيقـــة ويرشقون فوق صدورهم دبوسا من الماس » ..

واستمرت المعركة فى صدرى ، واحتجت لجهد كبير حتى اخطو خطوة اخرى نحو عربة الترمس .. ولو كنت طلبت منى سيارة كاديلاك لما تعرضت الى هذه المعركة ، ولما احتجت الى كل هذا الجهد ، لانتصر على نفسى ..

ومددت يدى الى عربة الترمس ، وانا انظر حولى كأنى لص ، ثم اختطفت قرطاسا وقلت للرجل بسرعة وكأنى انهره :

— بكام ؟ !

وقال الرجل وهو ينظر الى فى دهشة ، وكلماته تخرج بطيئة كقطرات من صنبور مخروب !

— قرش يعريفه يا سيدنا لفندى ..

وأسقط فى يدى ..

انى لا احمل قروشا .. منذ اكثر من ثلاثين عاما لم تلمس

أساسى على قرش .. ان القروش مجرد ارقام فى دفاترى تنتهى الى جنيهات .. ملايين الجنيهات .. وحتى الجنيهات لا امسكها ، ولا احملها فى جيبى .. انى لا احمل ابدا الا اسمى ، واوقع به على ورقة فتصبح نقودا تخرج من البنك .. انى ادفع كل شيء بتوقيعى .. بل انى اضن بتوقيعى على المبالغ الصغيرة ، واترك الموظفين يوقعون عليها بدلا منى ..

ماذا افعل الآن ؟ ..

هل اعطى لبائع الترمس شيكا بصفة قرش ؟

وارتبكت .. وازداد ارتباكى .. واخذت اتحسس جيوبى .. والبائع رفع ساقه وارتكز بقدمه على ذراع العربة ، واخذ ينظر الى بوقاحة ، وبين شفتيه ابتسامة ساخرة ، ثم قال :

— جرى ايه يا افندى .. المحفظــة لامؤاخذة اتنشــلت ولا ايه ؟ !

قلت فى خوف :

— لا .. ابدا .. بس يظهر ما عنديش فكة !

وقال وهو يكاد يقهقه :

— ربنا يفكها عليــك .. رجع القرطاس محله وحيــاة ابوك !

وقلت أنت :

— أنا معايا فكة !

ثم فتحت حقيبتك ودفعت للرجل ثمن القرطاس .. فأخذه وهو ينظر الى ساخرا ، ثم صاح ينادى على الترمس وكأنه يصفعنى بندائه : اللذيذ قوى !!

وأعطيتك قرطاس الترمس ، ثم قلت لك بحدة :

— اظن نرجع بأه ..

وسرت فى خطوات سريعة ، وعرق بارد ينصح فوق جبينى .. لم اخجل ولم ارتبك فى حياتى ، قدر ما ارتبكت وخجلت يومها ..

وانحسر خجلي وارتباكي عن حقد وغل .. حقدت عليك ، وعلى بائع الترمس ، وعلى الناس الذين يتنزهون فوق الكوبري .. ان لكم دنيا كاملة .. دنيا كنت قد نسيتها .. دنيا تمتعون فيها أنفسكم بشم الهواء وقزقزة الترمس .. انكم سعداء .. سعداء .. ربما كنتم سعداء أكثر مني .. سعداء دون أن تكونوا أغنياء مثلي .. ولستم في حاجة الى الاسعدكم .. انى اريد أن احطم هذه السعادة أريد أن اعصرها بين يدى .. اريد ان اقبض على أعناقكم جميعا حتى لا تستنشقون الهواء الا من فضلي ، ولا تأكلون الترمس الا اذا أردت لكم أن تأكلوه ..

واسرعت في خطواتي أكثر ، وانت بجانبي تكادين تجرين لتلحقي بي .. ووصلنا الى السيارة .. ودخلتها بسرعة كأني كنت أريد أن احتمي فيها من هؤلاء الناس الذين يتنزهون على الكوبري ويقزقزون الترمس .. احتمى في قلعتي .. احتمى وراء نفوذي وثرائي ..

وقلت للسائق في حدة :

— سوق .. سوق يا اسطى .. سوق قوام !

وسارت بنا السيارة .. وبدأت اهدأ شيئا فشيئا .. وعدت انظر اليك .. وخيل الى انك استرددت كل صحتك .. ان حمرة خفيفة بدأت تتسلل الى وجنتيك .. والسعال قد كف عنك .. وخيل الى انك لم تعودي هزيلة ، ونظرت انت الى نظرة لم أرها من قبل في عينيك .. نظرة رضاء .. انك راضية عنى .. أخيرا رضيت عنى .. كأني اصبحت رجلا شريفا ، لمجرد انى اشتريت لك قرطاس ترمس ، وتركتك تدفعين ثمنه ..

وسمعتك تقولين في صوت رائق كرنين البلور :

— أنا متشكرة قوى على الفسحة الجميلة دى !

وقلت وانا ابتسم لك :

— انبسطت يا هدى ؟

قلت :

ـ قوى .. قوى .. زى ما كنت باتبسط مع بابا !!

واختلطت ذكرى والدك بصعوبة ، ثم قلت :

ـ اهو كل يوم نبقى نخرج مع بعض !

قلت :

ـ باذن الله ..

ومددت يدى ، وربت بها على يدك .. ثم حاولت ان اتركها فوقها .. وقد تركتها برهة .. ولكنى لم اشعر بنفس ما اشعر به وانا اضع يدى فوق يد شوشت .. لم اشعر بتيار المتعة يسرى منك الى .. لم ينبعث من يدك شىء يسرى فى يدى ويهزنى .. انما انبعث منها تيار هادىء ضعيف تلاشى قبل أن يتعدى يدى الى بقية حبال اعصابى .. كان يدك تتنفس فى رقة وضعف .. أنفاسا طاهرة لا تثير فيمن يلمسها الا حنانا ..

واوصلتك الى بيتك ..

وعدت الى مكتبى وانا اسخر من نفسى ومن احساسى .. واتخيل نفسى واقفا أشترى ترطاسا من الترمس .. فتشتد سخريتى .. كانى أنظر فى خيالى الى رجل آخر .. رجل ليس محترما ، ولا مهابا ، ولا جبارا .. رجل ليس حسين باشا شاكر ..

— ١٩ —

ودخل على عبد العظيم مساء اليوم التالى ، وهو مكفهر الوجه . وجلس على المقعد المواجه الى مكتبى دون ان يتكلم .

ونظرت اليه نظرة متشائمة ، وقلت كانى اتوقع شرا كبيرا :

— مالك .. مالك معقد كده .. حد مات لك ؟ !

قال وهو ينظر الى من تحت جفنيه نظرة متوسلة كانه يطلب منى المغفرة :

— لا .. ما ماتش ..

قلت وانا احاول ان افهم :

— مين هوه اللى ما ماتش ؟ :

قال على عادته فى حمل الأنباء السيئة الى :

— عادل .. حصلت له حادثة خطيرة فى القصير . انما الحمد لله نجى !!

وسكتنا نحن الاثنين ..

كانت نجاة عادل مصيبة لنا .. فشل لخطة وضعناها .. وقد كانت خطة محكمة .. خطة جربت من قبل ، وأفلحت فى خلق حوادث مؤسفة لبعض الموظفين من العمال .. وبالصدفة كان كل هؤلاء الموظفين والعمال ممن تريد الشركة ان تتخلص منهم !!

كانت خطة بسيطة ..

ففى القصير نوع من العربات المعلقة تسير على اســلاك

ممتدة فى الهواء وتنقل الفوسفات بين المناجم والمصنع الذى تطحن فيه احجار الفوسفات وتغسل وتعد للشحن ..

هذه العربات اشبه بالمقاعد المعلقة التى تنقل الناس الى قمم الجبال فى اوروبا .. وهى تندفع عندما تصل الى المنجم ، داخل نفق صغير خافت الضوء ، اندفاعا قويا خطيرا ، واحيانا لا يحترس العمال من هذا الاندفاع ، ويقفون فى طريقها فتصدمهم وتقتلهم .

وقد اضطرت الشركة الى ان تضع حاجزا حديديا يحمى العمال ، وان تعلق يافطة كبيرة مكتوب عليها : « احترس — خطر » ، ورغم ذلك فلا تزال بعض الحوادث المؤسفة تقع ..

وصدر الامر لعادل بأن ينتقل للعمل داخل هذا النفق ، ليراجع حساب العربات التى تنقل الفوسفات كل يوم ..

وكان عادل يذهب الى هناك كل صباح ، ويبقى حتى انتهاء العمل .. وكان يقف مرتكزا على الحاجز الحديدى .. والعربات تندفع داخل النفق فى سرعة مخيفة وبصوت مزعج ، وهو مطمئن ما دام بينه وبينها هذا الحاجز الحديدى ..

ولو استطاع اى عامل ان يدفع عادل دفعة خفيفة لخرج من وراء الحاجز ، وصدمته العربة .. ومات .

والعمال الذين يعملون فى هذا النفق ، لا يزيد عددهم على اثنين .. يبدلان كل ثمانى ساعات بعاملين آخرين ..

وكان هناك عامل معين سيأتى عليه الدور ليعمل فى النفق الصغير المظلم ..

عامل يفهم المطلوب منه جيدا ..

وجاء هذا العامل ..

وكانت مهمته ان يفتح طاقة فى اعلى سقف النفق ينحدر منها الفوسفات ويملأ العربة ، لتعود الى المصنع .. وتأتى عربة اخرى ليحملها بالفوسفات .. وهكذا ..

ومجأة صرخ العامل ووضع كفيه على وجهه ، مدعيا أن حجرا من أحجار الفوسفات سقط عليه وأصاب عينيه .. وخرج عادل من وراء الحاجز ، وهرع اليه .. فمال عليه العامل بجسده كله كأنه يستند عليه ، ودفعه وراء الحاجز الحديدي بينما كانت العربة مندفعة داخل النفق بسرعتها المخيفة وصوتها المزعج ..

وقفز عادل وتعلق بذراعيه في الحاجز الحديدي ، وأخرج رأسه منه .. وصدمت العربة ساقيه ..

وهكذا نجا ..

لم يتحطم رأسه ..

لم يمت ..

لم يقتل ..

انما فقط كسرت ساقه ..

وتوقف العمل لحظات اكراما لعادل .. وأرسلت الشركة طبيبها لاسعافه .. وحمله العمال الى خارج منطقة المناجم وهو شبه مغمى عليه ..

ولكى تثبت الشركة براءتها امام العمال ، وتبدو كأنها شركة من الملائكة - قررت نقل عادل في طائرة خاصة ليعالج في القاهرة على حسابها ..

وقلت لعبد العظيم وانا ابتلع خيبتي :

— الحكاية دي حصلت امتى ؟

قال وهو يتنهد في مرارة :

— النهارده الصبح ..

قلت في حدة :

— وايه اللي خلاكم تنقلوا عادل لمصر .. ما يتعالجش هناك ليه ؟ .. الشركه ما فيهاش استعدادات كفاية ولا ايه ؟ .. انا عايز كل شركاتي تكون دايما مستعدة .. احنا مسئولين عن أرواح العمال والموظفين دول ..

ونظر الى عبد العظيم يهنئنى على وقاحتى ، وقال وهو يبادلنى نفس الاسلوب الملتوى :

ــ الشركه فيها كل الاستعدادت .. والعمال والموظفين بيدعوا لسعادتك .. لو كانت الحادثة دى حصلت فى شركة تانية ، كان العمال اتهموا بيها الشركة .. انما العمال فى الشركة عرفوا ان قلبنا عليهم .. خصوصا بعدما نقلنا عادل فى طيارة مخصوصة علشان يتعالج فى مصر ..

وفهمت ما يريد ان يقوله عبد العظيم .. انه يريد ان يقول انه نقل عادل الى مصر حتى يبعد جسم الجريمة عن محيط العمال ، فلا تثور بينهم الشكوك التى قد تنتهى الى اتهام ..

وقلت فى غيظ :

ــ والاضراب .. عملتم فيه ايه ؟ !

قال :

ــ المدير لسه بيتفاوض مع العمال .. واظن دلوقت بقت المسالة اسهل بعد ما جه عادل مصر ..

ولم ارد عليه ، وتركته ينصرف عنى وهو لا يزال ينظر الى كانه يستغفرنى .. او كانه مشفق على من فشله ..

واشعلت سيجارا كبيرا ، وحاولت ان اهدأ ، ولكنى لم استطع .. ان الجريمة الفاشلة تترك فى نفس المجرم اثرا احد واقسى مما تتركه الجريمة الناجحة ..

وذهبت اليك ..

ذهبت اليك وكلى حقد وغيظ ، احس شيئا يضغط على ، واحس بانفاسى تتحشرج فى زورى .. كنت اريد ان انفس عن فشلى .. اريد ان احاول مرة ثانيه ان اقتل عادل .. اقتله فيك !

ووجدت البيت هادئا ، والاضواء خافته ، وسالت الخادم الذى فتح لى الباب :

ــ فين الست الكبيرة ؟

قال :

ــ فى اودة الست هدى .. يظهر الست الصغيرة عيانه قوى !!

.. ودخلت أحبو فى الضوء الخافت ، متسللا على أطراف أصابعى ، وقد انطفأت صواريخ الحقد التى كانت تفرقع فى صدرى .. أطفأتها ريح باردة من الرهبة والجزع ..

انك مريضة ..

مريضة جدا ، كما يقول الخادم ..

وانا احبك .. هذا النوع من الحب الذى وصفته لك ..

ولكن كل ذلك لا يستدعى هذه الرهبة ، وهذا الجــزع الذى أحس بهما .. انى لا استطيع ان افسرهما ، ولا استطيع أن اجد لهما سببا .. وربما كان السبب الوحيد هو أنى أخاف عليك ان تضعفى أكثر من ضعفك .. ان ضعفك يجعلنى اقوى منك .. وانا اخاف من نفسى اذا قويت عليك ..

ان كل ما يحميك منى هو القوة التى أتوهمها فيك .. قوة شخصيتك ، وقوة نظراتك التى تثقب صدرى ، وقوة تعففك عنى وتمردك على سلطانى .. فاذا ضعفت هذه القوة فلا شىء يحميك منى .. ولا شىء يقفد شرى أو يردعه . .

وكان باب غرفتك مقفلا ، ففتحته فى هدوء واحتراس .. ودخلت اليك كاللص .. كالشبح .. والتفتت والدتك وهى جالسة فوق فراشك عند قدميك ، وشهقت شهقة حادة ، ثم قالت فى صوت هامس ، وهى تضع يدها على قلبها ، وتتنفس فى عنها :

ــ خضتنى يا حسين ..

قلت هامسا وانا أقترب من فراشك :

ــ مالها هدى .. عندها ايه ؟

قالت وفى عينيها بقية من دموع :

ــ والنبى ما انا عارفه يا حبيبى .. مسكتها السخونية من

النهارده الصبح .. ومن ساعتها وهي بتعرفر دي الفرحة المدوحة .. انا عارفه ايه اللي حصل لها ..

قلت كأني اطمئن نفسي :

ــ يمكن خدت برد امبارح واحنا بنتمشى على الكوبرى ..

قالت وهي تلتقط باصبعها دمعة سالت فوق خدها

ــ دي رجعت زي الوردة .. عمري ما شفتها فرحانة وبتضحك زي ما رجعت امبارح .. وقعدت طول الليل ادعي لك علشان خاطرها ..

وادرت عيني اليك ..

ان وجهك باهت .. وانفاسك هافتة .. وجسدك ممدد كالخيط الرفيع تحت ملاءة بيضاء .. جلدك ميتة ..

واطلت النظر اليك ..

اني استطيع ان انظر اليك الآن طويلا دون ان أحاف عينيك فقد خبا نورهما القوى تحت جفنيك المسدلين ..

وعدت اهمس لأمك :

ــ هي نايمه ؟

قالت في اسى :

ــ من صباحة ربنا وهي تفتح عينها شوية ، وترجع تنام .. يا رب استر يا رب ..

قلت وانا لا زلت انظر اليك :

ــ جبتي الدكتور ؟ ..

قالت وهي تهز رأسها يمنة ويسرة كأنها تعدد مآثر ميت :

ــ جت يا حوبا .. قال ان صدرها تعبان .. واداها حقن وادوية .. ورجع بعد الضهر اداها حقنه تانية ..

وجلست على مقعد مواجه لفراشك وانا منقبض .. كل شيء في ينقبض .. صدري ، وقلبي ، واعصابي ، وعضلات وجهي .. لماذا مرضت ؟ ..

هل بلغك خبر محاولة قتل عادل ، فمرضت من اجله .. هل تعاقبيني بمرضك !!

واحسست بالثورة عليك ..

نعم ، ثرت عليك ..

انى لا اشفق على المرضى .. انى أمقتهم ، وأكره ان اراهم .. اكره الضعف ، واكره الشكوى والانين .. ان المرضى قطع متآكلة فى عجلة الحياة ، افضل ان اتخلص منها واستبدل بها قطعا حديده قويه تحتمل الحياة .. ولا شيء يغيظنى اكثر من موظف او عامل يمرض واضطر ان ادفع له اجره خلال مدة مرضه ، كأنى أكافىء الضعفاء .. كأنى اشترى ضعفا .. ولا شيء أمقته اكثر من « الاجازات المرضية » .. انى احس ان هذه الاجازات تقتطع من لحمى .. كأن المرض انتقل الى انا ..

ولكن احساسي بمرضك كان اكثر من ذلك ..

احسست كأنك تتخلين عنى .. كأنك تتركينني وحــدى لعبد العظيم ، يسيطر على عقليته ، ويقودنى فى طريق الأطماع بلا شيء يقيد من خطواتى ويجعلنى اسير مترنا .. احسست ان الشيء الذى يعيش فى صدرى قد مرض هو الآخر .. اصبح باهتا كلون وجهك .. مطفأ كنور عينيك .. ضعيفا .. ضعيفا جدا .. اضعف من ان يحمى الناس منى ..

ولم اكن وانا جالس فى مواجهة فراشك افكر فيك .. كنت افكر فى نفسى : « لعلها تموت فأتخلص منها ، واتحرر من هذا الشيء الذى يكتم أنفاسى ، ويتحرك كالسكين بين رئتى .. لعلها تموت ، فتموت معها نزوتى التى تدفعنى الى محاولة ان اكون رجلا شريفا ، والتى تصور لى انى لن اكون شريفا الا اذا رضيت عنى ونلت احترامها .. لعلها تموت فيموت معها كل الشرفاء .. يموت الشرف نفســه .. وانطلق مغــردا فى اطماعى وشرى » ..

كنت اقول لنفسي هذا الكلام ثم لا يلبث صوت آخر أن يرتفع من صدري .. صوت ضعيف مريض كأنه صوت بكاء وتوسل .. صوت يقول لي « ثمن لها الحياة .. انها تستحقها .. وهي تستطيع أن تجعل منك رجلا شريفا .. تستطيع أن تريح صدرك من القلق والحيرة .. لقد استطاعت امس ان تقنعك بأن تسير معها على كوبري قصر النيل .. وأن تدع انفك يشم هواء نقيا نظيفا ليس كهواء النادي المشبع برائحة الدخان والخمر والأطماع .. وقد ابتسمت لك ، ورضيت عنك .. واحسست بالراحة لابتسامتها ورضائها .. احسست انك أصبحت فعلا رجلا شريفا لفترة قصيرة .. ومن يدري ، ربما لو عاشت لاستطاعت ان تجعل منك دائما رجلا شريف .. وجعلتك تحس باحترامك لنفسك .. ولأكملت النقص الذي تحس به ، نقص احساسك بانك رجل شريف » !

وتمنيت لها الحياة .. ثم ما لبث الصوت الاول أن بدأ يرتفع في صدري من جديد .. وبدأت اتمنى لك الموت ..

وقمت واقفا ، واقتربت منك ، وعدت أطيل النظر اليك .. ثم خرجت دون أن احيي أمك ..

خرجت ثائرا ..

وعدت الى بيتي وانا لا زلت ثائرا ..

لم احاول أن اذهب الى النادي ، أو الى شقتي الخاصة لأرفه عن نفسي ، كأني كنت أريد أن اعيش مع ثورتي ..

لم أكن حزينا . ولم أكن مشفقا .. ولكني كنت ثائرا .. ثائرا عليك .. وثائرا على نفسي .. وثائرا على الحياة كلها .. ثائرا على الخير والشر معا .. نفس الثورة التي تجتاحني عندما أخدع في صفقة من صفقاتي ..

وقضيت الليل ثائرا .. ليل طويل ثقيل ..

ثم ذهبت اليك في الصباح قبل أن اذهب الى مكتبي ، كأني

أريد أن أطمئن الى انى لم أخسر الصفقة بعد .. وكان المرض قد اشتد بك .. والحمى تأكلك .. وبدأت تحطرفين .. تقولين كلاما محيا لا أفهمه .. ثم تسكتين طويلا ، وتعودين تحطرفين ..

ونظرت اليك كأنى أدرس مشكلة اقتصادية ابحث عن حل لهـــا ..

ثم خرجت ..

وذهبت الى مكتبى ، وثورتى تعتمل فى صدرى كالزوبعة .. ولم أحيى احدا فى طريقى ، كنت انظر الى كل من يصادفنى كأنى أخنقه بعينى .. كنت اريد أن احطم شيئا .. اى شىء !

ودخل على عبد العظيم ، وما كدت أرى وجهه حتى صرخت فيه :

— انت راجل قليل الادب .. بقالى تلاتين سنة اربى فيك ما فيش فايده .. ازاى تدخل على بالشكل ده ؟ .. انت نسيت مركزك ؟ .. نسيت أصلك ؟ ..

وبوغت عبد العظيم ، وفتح شفتيه ليتـــكلم ، فقاطعتـــه مستطردا :

— اتفضل ارجع مكتبك .. مش عايز اشوف خلقتك .. ما تورنيش وشك الا لما انده لك ..

ونظر الى فى دهشة ، ثم تراجع دون ان يتكلم ..

وجلست وحدى ، كأنى سجين ثورتى وأحاول ان افر منها .. وأمسكت بالقلم الموضوع على المكتب وحطمته بين أصابعى كأنى احطم قضبان سجنى .. وامسكت بالسكين الذى افتح به الورق ، وهو من الصلب ، وضغطت عليه بكل قوتى حتى ثنيته ، كأنى انثى ضلوعى لأطلق من بينها ثورتى .. ثم وقعت عيناى على قائمة أسعار بورصة الأوراق المالية ، ولمحت فى نظرة خاطفة ان أسهم شركة الصناعات فى هبوط ، فرفعت سماعة التليفون واتصلت بعبد العظيم ، وصرخت :

ـــ مدير شركة الصناعات يترفد حالا .. النهارده !

وحاول عبد العظيم أن يرد ، فصرخت :

ـــ ارفده .. بقول لك ارفده .. مش عايز حد يناقشنى !

ثم لم أعد أطيق أن أظل سجين ثورتى ، فتركت مكتبى .. وعدت اليك .. ولكنى لم أدخل الى حجرتك .. كأنى كنت أخاف أن أطلق ثورتى فى وجهك .. وبقيت جالسا فى الصالة الخارجية ورائحة الحمى تملأ البيت كله .. كأنها ريح الموت ..

وخرجت ، وأنا لا زلت أحمل ثورتى بين جنبى ..

وعدت اليك فى المساء ..

الضوء خافت .. والهواء ثقيل يكاد يكتم الأنفاس .. وأمك جالسة فوق الفراش عند قدميك ، وقد سقط جفناها فوق عينيها فبدت كالنائمة .. وتعلقت بقايا دموع فوق رموشها كأنها قطرات الندى حطت فوق وردة ذابلة .. وأنت ممددة كالخيط الرفيع تحت الملاءة البيضاء .. ووجهك باهت .. وأنفاسك تفح بالحمى ..

ورفعت أمك جفنيها ورأتنى داخلا ، ثم أرختهما .. وسكتت ..

وقربت مقعدا من فراشك ، وجلست بجانبك ، وملت اليك بوجهى كأنى أشرب من الحمى التى تنطلق مع أنفاسك .. ثم مددت يدى والتقطت يدك .. أن يدك مشتعلة .. قطعة من نار .. ورغم ذلك ظللت محتفظا بها .. وشعرت فى تلك اللحظة أنى أستطيع أن أهبك الحياة ، والشفاء .. أنى لو جمعت ارادتى .. كل ارادتى .. فانى أستطيع أن أسيطر بها عليك ، وآمرك بالشفاء ، فتشفين .. كما يفعل المنوم المغناطيسى .. أنى رجل قوى .. أقوى منك .. أقوى من الناس جميعا .. وأستطيع أن أهبك شيئا من قوتى لتشفى ..

وضغطت على يدك .. ضغطت عليها بقوة .. كأنى أنقل ارادتى من خلالها اليك ...

وفى هذه اللحظة فتحت عينيك ونظرت بهما الى .. فتركت يدك بسرعة .. ألقيتها بعيدا عنى .. كأنى لم أشعر باشتعالهما الا عندما نظرت الى ...

كانت نظرة غريبة ...

نظرة لم أرها فى عينيك من قبل ..

انها نظرة لا تكتفى بأن تثقب صدرى ، ولكنها تحمل معنى الاحتقار والاستهانة .. احتقارى أنا ، والاستهانة بى أنا .. لا .. لست أقوى منك .. انك لا زلت أقوى منى .. حتى وأنت بهذا الضعف أقوى منى ، ولا زلت تستطيعين احتقارى والاستهانة بى ..

وعدت تغمضين عينيك ، كأنك قتلتنى وأمنت شرى ، وانتهيت ..

وعادت الى ثورتى ..

كل ثورتى ..

وقمت واقفا وأنا أكبت هذه الثورة حتى لا تنفجر ، والتفت الى أمك قائلا :

ـ قومى نامى أنتى يا نفيدة ..

وقالت أمك وهى ترفع جفنيها كأنها ترفع ثقلا من حديد :

ـ أديني قاعدة ..

قلت ملحا :

ـ قومى يا شيخة ، ده انت بقالك يومين صاحيه ..

قالت وهى تتنهد :

ـ معلهش يا خويا .. ربنا يقدرنى !

قلت :

ــ انا مصمم انك تقومى تستريحى شويه .. هدى نايمة ، وحرارتها بدات تنزل ، وبكرة تكون كويسة باذن الله ..

قالت والتعب يكاد يقتلها ، وهى تنظر الى كانها ترجونى أن استمر فى الحاحى عليها :

ــ وانا حا يجيلى نوم ، طول ما هدى بالشكل ده .. دى ما بقاش فيها يا حبة عينى !

قلت :

ــ طاوعينى بس .. وانا بعد ساعتين اضربلك تليفون واصحيكى من النوم ..

ثم جذبتها من ذراعها ، فقامت معى وهى تتاوم فى استرخاء .. وخرجنا من غرفتك ، وصحبت امك الى غرفتها ، وقلت وأنا واقفة عند الباب :

ــ تصبحى على خير .. انا نازل دلوقت وبعد ساعتين حاضربلك تليفون ..

قالت وهى تكاد تقع من فرط التعب :

ــ متشكرة يا باشا .. تصبح على خير !

لقد عادت تناديني بلقب « باشا » ..

كانى ابتعدت عنها جدا .. كانى خرجت من حياتها ، وكأنها عادت الى شمرا ..

واغلقت عليها بابها ..

واتجهت الى باب الشقة متسللا على اطراف اصابعى .. وفتحت الباب .. وقبل أن اخرج ترددت .. ترددت طويلا .. لا ادرى لماذا ..

كل ما اذكره أن نظرتك التى تحمل احتقارى كانت تلوح امامى ..

ثم اغلقت الباب بصوت مسموع .. اغلقته دون أن اخرج .. ووقفت فترة فى البهو الخارجى ، وقد بدا شيء فى يلهث ، كأنه

كلب عطشان .. واخذت أحاول أن أكتم أنفاسى ، وقد خيل إلى أن لها صوتا مسموعا ..

وانتظرت الى أن قدرت انه مرت فترة كافية لتنخرط أمك فى النوم .. ثم أخذت أتسلل الى غرفتك ، وأنا أحاول أن أرفع نفسى عن الأرض حتى لا يصدر صوت عن وقع قدمى ..

ووصلت الى غرفتك ..

وأدرت مقبض الأكرة فى احتراس كأنى لص .. وألقيت نظرة على غرفة أمك كأنى كنت أخشى أن تنطلق منها وتنقذك .. ثم فتحت بابك .. ودخلت .. وأغلقت الباب ورائى ..

ووقفت فوق رأسك كأنى أسألك عن سر نظرتك التى لطمتنى بها .. ثم شددت مقعدا ، وجلست ملتصقا بفراشك .. وأخذت أطيل النظر اليك .. كأنى أتشفى فيك .. أتشفى بضعفك ومرضك .. وأحسست بلذة التشفى .. انها لذة أقرب الى لذة الراحة .. ليس هناك علاج للحقد الا التشفى .. وقد عالجت حقدى ، وبدأت ثورتى تهدأ ..

وجلست بجانبك طويلا .. لا أدرى كم من الوقت مر وأنا جالس بجانبك .. ربما ساعة أو ساعتان .. وأمواج الحمى تغرق وجهك فيحتقن ويشتعل بلون النار ، ثم تنحسر عنه فيعود باهتا لا لون له ، كأنما انحسرت عنه الحياة ..

وتعلقت عيناى بك ..

لم أعد أستطيع أن أحولهما عنك ..

وشعرت من كثرة تحديقى ، انى على وشك البكاء ..

أنا أحس برغبة فى البكاء !!

أنا الجبار الذى لا يرحم أحسست برغبة فى البكاء .. كأنى أريد أن أبكى نفسى ، أبكى ضعفى أمام الشر ، أبكى تقززى من حياتى كلها ..

وفى لحظة الضعف هذه أحسست انى أريد أن أحمى لك ..

اريد ان اضع رأسى بجانب رأسك لتغسليه من قذارته ، واضع صدرى بجانب صدرك لتحيى فيه شيئا على وشك أن يموت ..

وملت برأسى نحو وجهك ..

انك الآن لا ترينني .. أن عينيك مغمضتان .. ولن يخجلني أن ابدو امامك ضعيفا ، لن يخجلني أن اعترف أمامك بحقيقتي ، واسألك الصفح .. واتوسل اليك ان تنقذى نفسى ، واتوسل بك لانقاذ هذه النفس ..

واقتربت بشفتي من خدك ..

وقبلتك ..

كانت قبلة هادئة بريئة ، لم تنبض بها شفتاى من قبل .. ربما لم يكن فى قبلتي احساس الابوة .. لم اقبلك كاب .. ولكنى قبلتك كرجل معذب .. رجل حائر معك ، وحائر من نفسه ..

واحسست أنت لقبلتي انتفاضة خفيفة ، وسمعتك تهتفين وانت غائبة فى متاهة الحمى :

ـ عادل ..

لا .. لست عادل .. أنا حسين .. ارجـوك .. اهتفى باسمى .. اسمعيني اسمى ينطلق من بين شفتيك لأول مرة .. انى احس بأن اسمى لم ترتعش به شفتان طاهرتان أبدا ..

وعدت أضع شفتي فوق خدك .. واضغط بهما .. وانفرجت الشفتان انفراجة خفيفة كأنهما تهمان بأن تشرباك ..

وارتفع صوتك اكثر من الأول ، وعـدت تقـولين كأنك تستغيثين :

ـ عادل .. عادل ..

استحلفك الا تنطقى هذا الاسم .. انى اكرهه .. اكرهه .. انطقى باسمى أنا الذى بجانبك ..

اسمى فقط .. انا الذى احبك ..

وعدت أقبلك اكثر .. واتسعت انفراجة شفتي كأنى بدأت

اشربك .. انى عطشان .. عطشان جدا .. لن اكفة عن شربك .. ساشربك كلك ...

واهتزت راسك وانت لا زلت مغمضة الجفنين ، تائهة فى بيداء الحمى .. وارتفع صوتك عن ذى قبل ، وبدات تصرخين :
ـــ عادل .. عادل .. عادل ...

اخرسى .. قلت لك : لا تنطقى هذا الاسم .. انى ساجن .. انطقى باسمى انا .. انا حسين .. حسين باشا .. انا الذى انفق عليك .. انا الذى اسكنتك هذه العمارة الفخمة .. انا الذى رفعتك من الفقر .. ماذا تساوين من غيرى ؟ .. لا شيء .. ماذا يساوى الناس كلهم من غيرى ؟ .. لا شيء .. انا الذى اوجد لهم عملا .. انا الذى ارزقهم .. انا ربهم الاعلى .. وبعد هذا تستغيثين بهذا الصعلوك الفقير الذى تسميه عادل ؟ .. اخرسى .. لا تنطقى بهذا الاسم .. نادينى انا .. حسين .. حسين .. حسين ...

وراسك لا يزال فوق الوسادة كانك تحاولين خلعه من فوق رقبتك .. ولا زلت تصرخين فى صوت ضعيف .. عادل .. عادل ..

واهتز راسك مرة ، فلامست شفتاك شفتى .. فالتقطتهما .. التقطتهما بشفتى ...

هكذا استطيع اسكاتك ...

انك الآن لا تنطقين ...

انك لا تستطيعين الآن الاستغاثة بعادل .. لا احد يستطيع انقاذك منى .. انك لى .. كلك لى .. انا القوى .. انا المسيطر .. انا السيد ..

وشفتاى فوق شفتيك ...

لم اعد اسمع منك سوى صوت ضعيف كانين عصفور جريح ، ينطلق بين شفتى ، وينزلق الى صدرى فيدوى فيه دويا رهيبا ،

.. وعيناى جاحظتان .. انى احس بهما جاحظتين .. وصوت كدوى طبول الحرب تطلقها قبيلة من الزنوج تقف بعيدا عند الأفق الأحمر ..

انى احس بالجنون يزحف على راسى ويعمى عيني ..

ورجل آخر فى نفسى يحذرنى من هذا الجنون ، ويحاول أن يشدنى بعيدا عنه .. ولكنه لا يستطيع .. ان الجنون أقوى منه .. ان قبائل الزنوج تقترب .

وتحاولين أن تتملصى من بين شفتى .. تهزين رأسك فى يأس .. فأضغط على شفتيك بشفتى ، وأرمى ثقل رأسى فوق وجهك ، فلا تستطيعين حراكا .. والجنون يشتد بى .. ان هناك جزءا من عقلى انفصل عنى ووقف يرقبنى ويتهمنى بالجنون .. انى أعرف ما أفعله .. أعرف انى جننت .. ولكنى لا أستطيع ان أصد عنى الجنون ..

ومددت يدى ونزعت عنك الملاءة البيضاء ..

كشفت عن جسدك المحموم ..

وتحسست نهدك .. النهد الصبى المنعجرف الذى طالما أثارنى بحرمته ، ثم طافت يداى ترتعشان ، وقد انتفضت فوقهما عروقهما ، تبحثان عن كنوز مخبأة ..

وشفتاى لا تزالان فوق شفتيك .. ورائحة الحمى تنفح فى وجهى ، كأنها تنفخ فى نار الجنون .. وأنت تئنين كالعصفور الجريح .. وقد ضعفت مقاومتك .. أصبحت لا تستطيعين شيئا وعيناى جاحظتان ، انى أحس بهما جاحظتين ، وصوت يقهقه فى أذنى ، ويصرخ فى شماتة ، وحقد ، وغل .. انها لك .. انها لك .. أخيرا .. انها لك .. اقتلها .. اقتل الشيء الذى يعذبك ويقلق جنبك .. اقتل ضميرك .. انك ستعيش سعيدا بلا ضمير ..

وامتدت يدى المجرمة ورمت عنك الثوب ..

وارتمع حسك مجأة وبدت فى عينيك نظرة رعب ..
رعب مخيف ..
لقد خفت من رعبك ..

وقهقه المجنون فى صدرى لبعينى على رعبك .. وانطلق صوته يملأ أذنى : خير لك أن تثير فيها الرعب ، من أن تثير فيها احتقارك .. ان الذين يثيرون الرعب هم الأقوياء .. هم الأسياد .. هم المسيطرون ..

وسقط جفناك موق عينيك ..
واختفى رعبك ..

وقهقه المجنون .. انظر .. لقد أجمدت رعبها .. انها لا تستطيع حتى ان ترتعب ..

لماذا لم تبق نظرتك بعض الوقت .. لعلنى كنت ارتدع .. لعلنى كنت افيق من جنونى !!

ولكنك كنت اضعف من ان تطيلى نظرتك ، ماختفت .. وتركت المجنون وحده .. ويدى المحرمة لا تزال ترفع عنك الثوب ..

واعصابى كلها منتفضة ..
انى حيوان ..
حيوان مجنون ..
ويدى المحرمة ترفع بقية الثوب ..

انى لا أستطيع أن اسيطر على جنونى .. لا أستطيع أن اقيد نفسى .. لقد انطلقت من عقالها .. لا شىء يستطيع أن يصدها .. لا شىء يستطيع أن ينقذك وينقذنى منها .. لماذا لا يدخل الناس الآن لينقذونا نحن الاثنين .. كل الناس .. الناس الذين يسيرون فى الشارع .. الناس الذين رأيناهم سويا على كوبرى قصر النيل .. الناس الذين يعملون فى مصانعى ..

والجنون يقهقه فى صدرى ..
انه اقوى من كل الناس ..
وملت بجسدى نحوك ..
اصبحت بجانبك فوق الفراش ..
و ...

وانت راقدة كالجثة الهامدة .. لعلك مت .. لعلك قد اغمى عليك .. لا ادرى ، كل ما ادريه انك بين يدى .. بين يدى المجنون .. والنار سطلق من جسدك وتثيرنى .. نار الحمى ..
و ...

واحسست كانى اقتل .. لا اقتلك انت .. بل اقتل شيئا فى صدرى .. شيئا عذبنى طويلا .. عدسى منذ كنت فى مدرسة الصنايع زميلا لمحمد افندى السيد .. وانا اتلذذ من قتل هذا الشىء .. أشفى فيه .. اطلق عليه كل طاقتى المدمرة .. انى احس كانى انتصر .. انتصر على نفسى .. وقهقهة رهيبة تنطلق فى صدرى ، وستطلق من عينى الجاحظتين ، وتنطلق مع سيل لعابى من بين شفتى ، ومع قطرات العرق المتقصدة من جبينى ..
و ...
وقمت عنك ..
وانت لا حراك بك ..
واخذت اتلفت حولى فى انحاء الغرفة وفى عينى نظرة خبيثة جبانة .. خبث المجنون وجبنه .. وبين شفتى ابتسامة بلهاء .. وقلبى يدق بعنف .. انى احس بهذه النظرة وهذه الابتسامة ، واحس بدقات قلبى .. كان هذه النظرة وهذه الابتسامة على وجه غير وجهى .. وكأن هذا القلب ليس قلبى ..
ثم التفت اليك ، وبدأت اعيد عليك وضع ثيابك ..
وفجأة توقفت ..

وارداد جحوظ عينى ..
انها نقطه صغيرة حمراء ، فوق الملاءة البيضاء ..
انها دم ..
دم الفتيات ..

وارتبكت . وعدت التلفت حولي كأنى خفت ان يكون احد معنا يرى ما اراه ..

وخيل الى انى ارى نقطة الدم تكسو الجدران .. ملايين من نقط الدم في كل مكان .. على الأرض .. وعلى السقف .. ومعلقة في الهواء .. تكسو ثيابى .. وتنطبع على وجهى ..

وانقلب الحيوان المجنون ، الى مجنون جبان .. انا خائف .. خائف جدا .. اتوهم ان عشرات الايدي تمتد في الهواء وتقودني في طريق طويل مفروش بنقط الدم ، في آخره مقصلة معدة لى ..

واكملت وضع ثيابك عليك ، بيدين مرتبكتين ترتعشان .. ثم غطيتك بالملاءة كما كنت .. وعدلت وضع راسك فوق الوسادة .. وساويت شعرك المهدل فوق جبينك ..

ونظرت اليك في بلاهة .. وخوف ..
انك لا زلت تتنفسين ..
الحمد لله ..
الحمد للشيطان ..

وتسللت على اطراف اصابعي ، وفتحت الباب في حرص .. ثم مددت رقبتى لاطمئن الى ان ليس هناك احد في طريقى .. ثم خرجت ، واغلقت بابك ورائى دون ان يصدر عنه صوت .. وسرت وانا اكاد ارفع نفسى عن الأرض .. ومررت على حجرة امك ، وسمعت شخيرها ينبعث من خلف بابها ..

وفتحت باب الشقة .. في حرص أيضا ..
وخرجت ..

واغلقت الباب ورائى .. بلا صوت ..
ووقفت برهة امام الباب ..
ان احدا لم يرنى ..
ان احدا لم يعرف بجريمتى ..
ولا انت ..
وتحركت فجأة . يدفعنى قلبى الواجف .. ولم انتظر المصعد ، بل هرولت على السلالم .. هرولت كما لم اهرول من قبل .. كأن جيشا من الشياطين يلاحقنى ..
شياطين جنونى ...

- ٢٠ -

حبيبتى هدى

ماذا جرى لك وأنت تقرئين خطابى .. ماذا جرى لك عندما كشفت لك عن سرك .. عندما رأيت بصماتى فوق جسد الجريمة .. جسدك ؟ !

هل صرخت .. هل جننت .. هل أغمى عليك .. هل فكرت فى الانتحار تخلصا من جسدك الذى تعيشين فيه وتتقززين منه ؟

لا تعدى نفسك طويلا يا أحب الناس ..

لقد انتقم لك الله ..

أنا انتقمت لك من نفسى ، فحطمتها أو أن نفسى انتقمت لك منى ، فحطمتنى .

لقد أصبحت بعد أن تركتك ممددة فوق السرير ، ونقطة الدم فوق الملاءة البيضاء ، أصبحت انسانا مجنونا ..

لم يكن يبدو على الجنون .. انى لا زلت محتفظا بمظهرى المهاب الذى يحترمه الناس ، ولا زلت محتفظا بنظرتى القوية التى تخيف الناس ، ولا زالت خطواتى سريعة ممتدة ، وكلامى قليلا حازما كأنه أوامر مرتبة .. ولكن الجنون فى رأسى .. والجنون فى صدرى .. وهو جنون شرير ، ينطلق كالأعاصير .. لا شىء يحده ، ولا شىء يقف فى طريقه .. جنون لا يفرق بين الناس ، انما يصيب كل من يقترب منى .. كل الناس أصبحوا حطبا حتى

خبرته . وحتى عبد العظيم . انى لم اعد اركب الشر سعيا وراء كسب لى .. بل اصبحت اركب الشر حبا فى الشر . وتلذذا به ..

وقد تركتك تلبنها والمجنون لا يزال يقهقه فى صدرى .. قهقهة حامية كالفحيح . وفى عينى هذه النظرة الخبيثة الصائلة .. نظرة المجنون عندما تخيل اليه انه انتصر على شخص آخر يعيش فى نفسه .. وذهبت الى النادى . وجلست على « البار » وطلبت كأسا من الويسكى شربتها فى جرعتين . ثم كأسا أخرى .. ثم كأسا ثالثة .. والمجنون لا يرتوى .. وتلفت حولى فرأيت خيرية جالسة مع عرفان باشا وزير المالية . تمثل عليه . وصدرها راقد فوق ذراعه .. واحسست برغبة جامحة فى ان انقض عليها واعريها من ثيابها .. لا ادرى لماذا .. انها لم تعد تثير فى رغبة منذ زمن طويل .. ولكنى فى هذه الليلة لم اكن ارغبها . ولكنى فقط كنت اريد ان اعذبها .. نعم . اعذبها .. وان اضحك من عذابها .. كنت أريد ان انزع عنها هذا القناع الجميل الذى تضعه على وجهها . وان يراها كل الناس على حقيقتها .. امرأة عارية .. تنزع ثيابها باشارة من اصبعى ..

ونحن فى مجتمعنا نحرص كثيرا على الأقنعة .. اننا نعرف بعضنا البعض جيدا . وكل منا يعرف بالضبط كمية القذارة التى يحملها الآخر .. ولكننا نحرص جدا على الاقنعة التى يضعها كل منا على وجهه .. الاقنعة التى تغطى قذارتنا . اننا نقبل يد السيدات اللاتى يبعن لنا اجسادهن .. ونبتسم فى وجوه الرجال الذين نقتلهم .. ونبدو دائما خلف اقنعتنا فى منتهى الرشاقة . وفى منتهى الأناقة . وفى منتهى الأدب .. وكل من ينزع قناعه عن وجهه . او يحاول أن ينزع قناع غيره . يطرد من مجتمعنا . ويصبح « بلدى .. فلاح » ..

وهذا ما حاولت أن أفعله ليلتها مع خيرية .. ان انزع عنها

قناعها .. أن اراها بين الناس مجرد امراة تبيع كل شيء بالثمن ..

واشرت اليها من بعيد لتأتي الى جانبي ..

وهزت رأسها تستمهلني ، فانتظرت قليلا ، ثم ثرت .. كيف تستمهلني ! . كيف تتأخر في تلبية اشارة مني .. وفجأة صحت اناديها :

— خيرية .. تعالى هنا !

وبوغت كل من في النادى لصرختي .. ومرت بهم برهة صمت كأنهم صعقوا ، ثم تبادلوا الغمزات والابتسامات وعادوا الى ما كانوا فيه ، وقامت خيرية وجاءت الى وهي تسير مرتبكة وتتلفت حواليها كأنها تعتذر لكل من تمر به عن سوء سلوكي .. ثم قالت لي هامسة :

— جرى ايه يا حسين ، ايه الفضايح دي ؟ !

قلت وانا ادعي الغضب :

— انتي اللي ترفزتني .. تسيبني علشان خاطر النطع ده اللي قاعده معاه ؟ !

قالت وهي تنظر الى في عيني :

— انت الليلة دي مش طبيعي .. ايه اللي حصل ؟

قلت وانا ادعي الأسى .

— عايزك ضروري يا خيرية .. انا تعبان جدا !

قالت :

— خير .. تعبان من ايه ؟ !

قلت :

— ما اقدرش اكلمك هنا .. حصليني على الشقة !

قالت :

— ما اقدرش يا حسين . ده جوزي هنا ومتفقة معاه نروح سوا !

قلت :

— خليه يروح لوحده .. الساعة بقت حداشر وربانه بتنام ..
قالت وكأنها تدافع عن زوجها :
— اخص عليك يا حسين .. ما تقولش عليه كده .. اكمنه يعنى راجل طيب ؟
قلت في حدة :
— حاتيجى ولا لا ؟
قالت :
— حاضر .. بس ما تزعلش قوى كده .
قلت :
— بعد ربع ساعة ..
قالت :
— طب استنى ..
وتركتنى وأنا أبتسم في صدرى هذه الابتسامة الخبيثة الجبانة .. ابتسامة المجنون ..
ثم قمت وأشرت لعبد العظيم . ثم أخذته بعيدا . وهمست في أذنه :
— هات الشلة كلها وتعال على الشقة .. أنا نفسى أفرمش الليلة .. وماتنساش تعزم عرفان باشا ، بس ما تخليش خيرية تعرف ، أصلى موضب لها مفاجأة ..
وارتفع حاجبا عبد العظيم . ومفر عشبه ؛ ولكنى لم أنتظر حتى أجيب على دهشته ، وخرجت من النادى وذهبت الى الشقة ..
وجلست أشرب كأسا أخرى .. انى أشرب كثيرا ولا أرتوى . ولا أحس بالخمر .. ان جنونى أقوى من الخمر ..
وجاءت خيرية .. دقت جرس الباب . وفتحت لها بنفسى . ثم تركت الباب وراءها مفتوحا بصفقة فتحة ..
وقالت وهى تنزع قفازها الأبيض من فوق أصابعها :

ــ ايه الحكاية يا حسين .. خضتنى عليك ؟

قلت وانا ابسم ، وفى صدرى قهقهة :

ــ استنى بس اما تشربى كاس معايا ..

واعددت لها كاسا .. وهى لا تكف عن الكلام .. ثم اقتربت منها حتى التصقت بها ، وقلت وانا اقدم لها الكاس :

ــ تعرفى انك وحشانى قوى !

قالت وهى تأخذ الكاس من يدى وتنظر الى كانها تتعرف على من جديد :

ــ بأه جايبنى هنا علشان تقول لى انى وحشاك ؟

قلت وكانى اتنهد :

ــ وحشانى موت .. تعرفى انى اكتشفت النهاردة انك اهم ست فى حياتى .. ما فيش واحده تانيه تقدرت تخليني اسيبك ابدا ..

قالت وهى تنزل كاسها من فوق شفتيها :

ــ الله .. الله .. ده ايه الغزل ده كله .. تكونشى انجننت ؟

واسعدتنى كلمة « انجننت » .. انى فعلا جننت .. ان رجلا آخر فى نفسى يصفنى بالجنون .. وهذه خيرية تصفنى ايضا بالجنون .. انى قطعا مجنون .. ولكنى لا استطيع ان اقاوم جنونى ..

واقتربت منها والابتسامة الخبيثة تلمع فى صدرى ، واحطتها بذراعى وضممتها بقوة .. وقلت :

ــ صدقينى يا خيرية .. انا عايزك الليلة تصدقينى .. صدقى كل حاجه !

قالت وهى تميل بصدرها الى الوراء فى دلال :

ــ مصدقاك يا حسين .. هوه انا اقدر اكدبك ابدا ؟ .. بس لو كنت تقول لى ايه اللى حصل لك ..

قلت وانا امد شفتى اليها :

ــ ماحصلش حاجه .. هو لازم يحصـــل حاجة علشـــان توحشيني ؟

قالت وهي تنظر الي في امعان :

ــ عجايب ..

ومددت شفتي اكثر ، واطبقت على شفتيها .. ولم تقاومني .. تركت لي شفتيها وهي لا تزال تنظر الي بعينين مفتوحتين .. ولم تقرني قبلتها ..

اني اعلم انها لا تثيرني .. واني لا ارغبها .. فقط اريد ان اعذبها .. اريد ان انزع عن وجهها القناع ..

ومددت يدي وبدات افك ازرار ثوبها .. فازاحت يدي في قوة ، ونزعت شفتيها من بين شفتي ، وقالت وهي لا تزال محتفظه ببعض ابتساماتها :

ــ ايه اللي بتعمله ده يا حسين ؟ ..

قلت وانا امد يدي الي ثوبها مرة ثانية :

ــ اخص عليكي يا خيرية .. علشـــان خاطري .. انتي عمرك ماكسفتيني !

قالت وقد بدا السخط المكتوم يبدو على وجهها :

ــ بس مش بالشكل ده يا حسين ..

قلت وانا ابحث باصابعي عن ازرار الثوب :

ــ مفهش .. طاوعيني .. ما ترعليش !

وجذبت الثوب بيدي جذبة قوية .. تمزق عن جسدها .. ثم اطبقت عليها واخذت انزع باقي الثوب وهي لا تزال واقفة تصرخ :

ــ يا مجنون .. يا مجنون ايه ده .. جرى ايه في عقلك ؟ !

واصبح نصفها الاعلى عاريا ..

وامسكت كاس الويسكي من يدها على بقيه الثوب ، وسقط الكوب على الارض كانما سقط القناع عن وجهها .. واخذته

تنظر الى حالها . ثم رفعت راسها ونظرت الى طويلا . ثم قالت كأنها قررت أن ستهي مني بأسرع وقت :

ـــ تعال .. تعال انا اشوف وحشاك اد ايه ؟ !

وجذبتني من يدي تحاول ان تأخذني الى غرفة النـــوم ، فقاومتها ، وشددتها الى قائلا :

ـــ لا .. خلينا هنا شويه !

ثم احتضنها بعنف بين دراعي ، وعدت اقبلها .. بلا احساس .. واطياف من الخطة الخبيثة تملأ راسي ..

وفي هذه اللحظة فتح الباب ..

ودخلوا ..

دخل نصف اعضاء النادي يتقدمهم عبد العظيم ، ومنهم عرفان باشا ..

وضحكت ضحكة كبيرة .. ضحكة مجنون .. وأنا أدعي انى لم الحظ بعد دخول هؤلاء الناس ..

ثم رفعت كأس الويسكي واخذت اسكبه بين نهدى خيرية .. ولم تحس بالخمر وهو يجرى في نهر صغير بين نهديها ، واطلت من عينيها نظرة رعب ، وهي ترى الناس داخلين ، الى جسدها العاري .. ثم صرخت صرخة حادة عندما رأت بينهم عرفان باشا .. وأخذت تحاول أن تخفي نهديها بكفيها .. ثم تحاول ان ترفع ثوبها لتستر جسدها .. ثم جرت نحو غرفة النوم ، ولكنها قبل أن تصل اليها اســـتدارت وعادت تجرى نحو البـــاب .. وهي تصيح :

ـــ ده مجنون .. ده اتجنن خلاص ..

ولحق بها عبد العظيم ، وهو يخلع سترته ، ويضعها فوق كتفها ليغطيها بها .

ووقفت انا ادعى الارتباك .. ارتباك الرجل الذى ضبط

فى حالة تلبس بجريمة لا تشينه ولا تنتقص من رجولته .. ثم قلت فى صوت متزن عميق :

ــ انا آسف يا جماعه .. ما كنتش فاكر انكم حاتيجوا بدرى كده .. اتفضلوا .. اتفضلوا !

وبدأ الجماعة يتحركون ، وارتفعت من بينهم الضحكات . وقال احدهم :

ــ احنا اللى آسفين يا باشا .. حلال عليك !

وقال آخر :

ــ شبابك يا باشا غطى على الكل !

وقال ثالث :

ــ أهو احنا كده ، يا فيها يا نخفيها !

وتعالت الضحكات . وانا اصنع على وجهى قناع التواضع :

ــ مش كنتم تضربوا الجرس قبل ما تدخلوا ؟ ..

وقال عبد العظيم وهو ينظر الى كانه يشمئز منى :

ــ احنا لقينا الباب مفتوح ، رحنا داخلين ..

وارتفع صوت احدهم :

ــ دى جنة من غير بواب !

وبقى عرفان باشا صامتا .. ووجهه محتقنا كالجزره ..

وربما لو كان كل اعضاء النادى قد رأوا خبرة عارية . لما همها .. اما ان يراها عرفان باشا بالذات ، فقد كانت هذه مصيبتها .. فعرفان باشا وزير جديد شاب . دخل الوزارة بعد ان افترقت الأحزاب من رجال الصف الأول نتيجة انقسام بعضها على بعض فلم يعد لكل حزب ما يكفى من رجاله القدماء لتولى مناصب الوزارة . فبدأت ــ اى الأحزاب ــ تدفع الى مناصب الوزارة برجال الصف الثانى ..

وقد كان عرفان بالذات من زعماء ثورة ١٩٣٥ . وكان يتمتع بسمعة شعبية نظيفة .. وكان يبدو فى مشيته ونظرات عينيه

كأنه يحمل الشعب كله على كتفيه .. وكان يتكلم دائما في صوت غليظ جاد كأنه يلقى دروسا على الشعب . أو يهتف بشعارات الشعب .. كان كلامه براقا . ولكنك لو بحثت تحته لما وجدت شيئا .. مجرد كلام فارغ ..

واستطاع عرفان أن يتاجر بثورته في سوق الأحزاب . وخرج من حزب . والتحق بحزب آخر ؛ قطفا على السطح واصبح من رجال الصفوف الأولى . ثم صغر قليلا حتى أصبح وزيرا ؛ وأصبح باشا .. أصغر الباشوات سنا ..

ووجد نفسه فجأة عضوا في نادي محمد علي ؛ وعضوا في نادي السيارات وعضوا في نادي الجزيرة ..

وجد نفسه فجأة في عالم براق .. بريقه أمضى من كل بريق الشعارات الشعبية .. ووجد نفسه فجأة بين سيدات جميلات .. السيدات اللاتي لم يكن يراهن إلا من بعيد . ويتتبع أسماءهن في الصحف . كأنه يتتبع أنباء النجمة .. أن كلهن يتهافتن عليه .. يتهافتن على شبابه . وعلى مركزه . وعلى مستقبله العريض ، ويتهافتن على عقله المطلق عن مصالحهن . وعينيه المغمضتين عن حقيقتهن . وعلى رائحة الزبون الجديد الوافد على سوق اللحوم .. زبون ساذج لم يتدرب بعد على عمليات البيع والشراء .. زبون لقطة !

وكانت خيرية في الأيام الأخيرة قد ألقت كل شباكها لتستولى عليه وحدها .. راهنت عليه بكل حبلها وكل ذكائها .. انها لو كسبته لاستطاعت من خلاله ؛ ومن خلال منصبه كوزير ؛ أن تحقق أطماعا لا تنتهي ؛ ولاستطاعت بجانب ذلك أن تشبع جسدها بشبابه .. الجسد الذي أنهكه الشيوخ أمثالي .

وكان عرفان يعاملها باحترام كبير تشوبه الرهبة والوجل .. انه لا يعلم عنها إلا انها ابنة فلان باشا ، وزوجة فلان بك ، وانها صديقة للأميرات . وأن صورتها تنشر في الصحف ، وأنها

جميلة ، ثرية ، فاتنة . وهو لا يستطيع أن يصدق نفسه وهى تغازله . لا يستطيع أن يصدق أنه يستطيع أن ينالها .. ينال كل هذا الشرف ، والمجد ، والجمال ..

وكانت هذه الرهبة والنهرة التى يحس بها عرفان هى سلاح خيرية فى الاستيلاء عليه . تركته يقتنع بأن الوصول اليها شرف كبير له ثمن كبير ، حتى لو دفع الثمن نزاهته ..

وقد خسرت خيرية « عرفان » ..

أنا الذى أمسدت عليها الصفقة عندما تركته يراها فى شقتى الخاصة ، عارية ونهر صغير من الخمر يجرى بين نهديها ..

ولم يمكث عرفان طويلا بعد أن خرجت خيرية .. خرج وراءها ووجهه لا يزال محتقنا كالجزرة ..

وانتهت السهرة ..

امتلأت البطون بالخمر . وتراكمت القبلات العربيدة فوق الشفاه حتى لم تعد تحتمل مزيدا من القبلات .. وخرج الناس والسنتهم تتربع بسيرة خيرية .. وخرج عبد العظيم وبين شفتيه بصقة من الاشمئزاز يكاد يبصقها فى وجهى ..

وعدت الى قصرى ، ونمت ..

نمت نوما ثقيلا لم أنمه أبدا فى حياتى .. كأن المجنون قد تعب منى ، فتركنى أستريح ريثما أسترد قواى فيعود الى ..

وقمت فى الصباح . واستعدت ما فعلته بك . وما فعلته بخيرية .. ولم أشعر بالندم .. صدقنى .. لم أندم .. ليس فى صدرى شىء يقلقنى ويكتم أنفاسى ويمزق رئتى .. ان فى صدرى فراغا تدوى فيه قهقهة مجنون .. قهقهة تطغى على كل ما كنت أحس به من عذاب ..

وذهبت الى مكتبى وفى عينى هذه النظرة الخبيثة الخائنة .. ربما لم تكن هذه النظرة تبدو فى عينى .. ربما كانت أى عينان أخريان خلف جبهتى تنظران هذه النظرة التى أحس بها ..

وجلست انتظر انباء خيرية .. كنت انتظر ان تبدأ معي معركة ، ولم تكن هذه المعركة على خير وجوهها في صالحي . يكفي ان اخسر خيرية .. لاخسر معها اداة نافعة لاعمالي .. ورغم ذلك كنت ارحب بالمعركة . وكنت احس برغبة عميقة في تحطيم خيرية .. تحطيم اداة نافعة طالما استعملتها ضد خصومي . وطالما رفعت بها رصيدي من المجد والثراء ..

ولم افكر فيك .. كنت في هذا الصباح سعيدة عني ، كأني قتلتك وانتهيت . دون ان يترك قتلك سوى نقطة من الدم عالقة بحذائي .. انما كنت افكر في خيرية . وكنت اجد لذة مثيرة في ترقب المعركة ..

ولم تبدأ خيرية معركتها مباشرة .. وربما قدرت انها قد تخسر عرمان باشا الى الابد . فارادت ان تحتفظ بي . على الاقل لتقاضيني ثمن فضيحتها .. فاتصلت بي بالتليفون وسمعت صوتها كأنه يخرج من بين اسنانها ، وقالت وهي تحاول ان تبدو هادئة :

— كويس اللي عملته امبارح ده يا حسين ؟ .. يعني اعمل منك ايه .. اودي وشي من الناس فين ؟ .. زمان البلد كلها مالهاش سيرة الا سيرتي ..

قلت وابتسامتي الخبيثة تنطلق في صدري :

— انا آسف يا خيرية .. مش عارف كان مالي ليلة امبارح ..

قالت وهي تتنهد :

— وانا حاعمل بأسفك ايه .. شوف لي طريقة تسكت بها على كلام الناس .. مش بس الناس . ده زمان الراجل الكبير خد خبر هو كمان ..

قلت وقد بدأت اثيرها :

— يعني الناس تسكت بكام ؟

قالت :

— قصدك ايه ؟

قلت وانا امتعل الضيق :

ــ وحيــاة ابوكي انا زهقــان .. قــولي لي عايزه كام وخلصــي ..

ولم يكن هذا هو اسلوب التعامل بيني وبين خيرية .. انى ادفع لها فعلا ولكنى كنت ادفع لها فى اسلوب مهذب وفى عبارات ملفوفة لا تجرح ..

وصاحت خيرية وقد فقدت اعصابها :

ــ انت فاكر انك حاتشترينى بفلوسك ؟ .. فلوسك كلها على جزمتى يا باشا .. لازم تفهم ان الفلوس ما تهمنيش ، انا يهمنى سمعتى .. يمكن انت مالكش عيلة تخاف عليها ، انما انا بنت سليمان باشا .. ويهمنى اسم عيلتى قبل اى حاجة .. فاهم ؟ ..

وقلت وانا اسخر منها :

ــ ماتزوديهاش قوى يا خيرية .. احنــا عارفين بعض كويس .. سمعتك لا حاتزيد ولا حاتنقص .. واللى حاتقال عنك النهارده مش اقل من اللى اتقال امبارح .. وابوكى الناس عارفاه كويس .. تبقى تسكتى وتقولى انتى عايزه كام ؟ .. والا اقول لك : ما فيش ولا مليم !

وصرخت خيرية كأنها جنت :

ــ ياابن الكلب .. يا وسخ .. يا واطى .. انا حاخرب بيتك .. انا حاوديك فى داهية .. انا حاوريك خيرية تبقى مين .. كوشون .. ميرد .

وتوالت شتائمها باللغتين العـربية والفرنسية ، ثم القت بسماعة التليفون فى وجهى ..

وامتلأ فراغ صدرى بقهقهة المجنون ، وفركت كفى كأنى مقبل على لعبة مثيرة ..

ودخل على عبد العظيم ، ونظرت اليه .. وفى عينى هذه

النظرة الخبيثة المحبوسة .. ولكنى احسست باكثر من هذه النظرة .. انى اكرهه .. اكرهه جدا .. لم اكرهه قط الى هذا الحد .. انى اريد ان احطمه هو الآخر .. احطم الشيطان نفسه .. انى شيطان اكبر . وسأقضى على كل الشياطين الصغار ..

وبدأ عبد العظيم يعرض على أعماله القذرة . وانا القى عليه بأوامرى دون أن انظر اليه .. خفت ان انظر اليه فتنطلق عيناى وتخرمش وجهه ..

ثم قال عبد العظيم فى صوت يحاول ان يتسلل به الى . وبين شفتيه ابتسامة يحاول أن يطرق بها باب عطفى :

— زمان خيرية زعلانه قوى من الفصل بتاع امبارح ..

وصرخت فى وجهه مرة واحدة :

— انت فاكر اننا قاعدين فى النادى ولا فى كباريه علشان تكلمنى عن خيرية ؟ ! الحاجات اللى تتعمل بالليل ماتجيش سيرتها هنا فى المكتب .. فاهم ؟ .. اتفضل قوم شوف شغلك ..

وتركنى عبد العظيم وبين شفتيه بصقة لا يعدمها ..

وصفق الباب وراءه فى عنف كأنه يصفعنى به . فصرخت :

— عبد العظيم ..

وعاد من وراء الباب ونظر الى صامتا . فقلت فى حدة :

— اقفل الباب كويس .. اتعلم الأدب ..

وسحب نفســه من فتحة الباب وصفقه مرة ثانية وراءه .. لقد بدأ يتحدانى هو الآخر ..

***

ومرت أيام قبل أن تهب على ريح المعركة التى اثارتها خيرية .. وفى خلال هذه الايام زرتك ..

لم أزرك نادما .. ولم ازرك لانى اتعذب بجريمتى .. زرتك جبنا .. دفعنى الجبن اليك . كان المجنون يخاف أن تكون جريمته قد اكتشفت . وكان يريد أن يتأكد من انتصــاره على

الشخص الآخر الذي يعيش في نفسه .. كان يريد أن يتلذذ بخبثه يهنىء نفسه عليه ..

واستقبلتني امك . وبين عينيها سحب قاتمة من الحزن .. ونظراتها مضطرب وسط هذه السحب . حائرة ، مبللة ببقايا دموع . كحمامات تائهه في ليلة سوداء ممطرة ..

وقلت لها وانا اجلس في الصالون ؛ كأني قررت ألا ادخل الى غرفتك :

ــ ازاى هدى دلوقت ؟

قالت كأنها تنعيك الى :

ــ كويسه ..

ثم تنهدت وقالت :

ــ الحمد لله .. حكمتك يا رب ..

قلت وقلبي واجف :

ــ مالها ؟ ..

قالت وهي ترتكز براسها على اصبعها :

ــ ولا حاجه ياحوبا .. كويسه والحمد لله ..

قلت :

ــ الحرارة نزلت ؟

قالت وهي تتنهد ..

ــ نزلت ..

قلت :

ــ والدكتور قال ايه ؟

قالت وهي تشد نفسا عميقا من صدرها :

ــ قال انها حمت .. وبكره حاتنزل من السرير ..

قلت :

ــ امال مالك زعلانه كده ؟ ..

قالت :

ـ ابدا .. مش زعلانه .. دي بس ضيقه وتروح !

لابد انها عرفت .. عرفت ان ابنتها لم تعد مبدة .. ان ابنتها اضاعت كل ما تملكه مبيات الطبقة التى تنتمى اليها .. الطبقة المتوسطة الصغيرة .. اضاعته .. حيث لا ندرى .. سقط منها دون ان تشعر ..

ودققت النظر فى عينى امك حتى اتأكد من انها لا تعرفنى .. لا تعرف انى انا المجرم .. انا الذي احدث شرف ابنتها .

وتأكدت ..

تأكدت انها لا تعرفنى ..

وقلت لازيدها يقينا بأنى لا اعرف اسباب هذا الحزن القاتم الذي يحيط بها :

ــ هو عبد العظيم ما جاش

قالت فى قرف :

ــ لا .. ما شفتوش .

قلت وأنا أحاول ان اضحك :

ــ اباركى زعلانه .. اصل الراجل معذور .. ده وراه ملاوى كتـــير .. انا نفسى كنت عاير اجازة من اربعـــة ايام وماقدرتش ..

قالت فى يأس كأنها قد احرجت انا وعبد العظيم من حياتها : ربنا يعينكم !

وقمت لانصرف .. مرتب ان انصرف دون ان اراك .. ولكن المجنون كان يريد ان يتلذذ برؤية جريمته .. وكان يريد ان يطمئن الى انتصاره .. فالتفت الى امك وقلت :

ــ اقدر اشوف هدى ؟

قالت بلا مبالاة :

ــ اتفضل .. اهى راقده فى سريرها !

ودخلت اليك ..

ورأيتك في نظرات مترددة جبانة ..

كان وجهك قد استرد بعض لونه .. لم يعد باهتا كما كان .. كأنه التقط بقطة الدم التى عصرتها منك وتركتها تقع فوق الملاءة البيضاء ، وخبأها تحت وجنتيك .. ولكنه كان وجها مكفهرا متقلصا ، كأنك تعانين ألما حادا يمزق أحشاءك .

وقلت وصوتي يحشرجه انفعالي :

ــ ازيك يا هدى ؟ .. شدى حيلك امال !

والتفتت الى .. ورفعت الى عينيك .. نفس العينين الهادئتين العميقتين اللتين تعودتا أن تفتحا صدرى وتحركان فيه شيئا يكتم أنفاسي .. ولكنهما في هذه المرة لم تفتحا صدرى .. ان صدرى فراغ ليس فيه شيء يفتح .. فراغ تدوى فيه قهقهة مجنون ..

ولم تحركى شيء .. اكتفيت بالنظر الى ثم أدرت وجهك عنى ..

لماذا لا تصرخين في وجهى كما صرخت حرية ؟ .. لماذا لا تحديني وتثيرين في وجهى معركة كما تفعل حرية ؟

لأنك لا تدرين ..

الشعب كله لا يدرى .. ولا يحاول أن يدرى .. انما يكتفي بالسكوت ، وبهذه النظرات العميقة الهادئة ..

ووقفت فوق رأسك ككثير الشياطين فوق رأس الضحية التى تقدمت على مذبحه ، وقلت وأنا أحاول أن أخفي عنك نظرتى الخبيثة المجنونة :

ــ مش عايزه حاجه منى ؟

وهززت رأسك .. لا ..

قلت وأنا أضع على شفتى ابتسامة :

ــ بكره أول ما تنزلى من السرير . حابعت لك العربيه ، تخرجى تتفسحى شويه .

وهززت رأسك .. لا ..

ونظرت اليك نظرة اخيرة ..

انك بقايا ..

بقايا شيء مضغته ..

وتركتك . والمحتوى فى صدرى يمىء نفسه . ويخرج لسانه . ويقفز قفزات بهلوانية . كأنه يقيم لى حفلة تكريم ..

وخرجت امك توصلنى حتى الباب ..

ونظرت اليها هى الاخرى نظرة اخيرة ..

انها ايضا بقايا ..

بقايا شيء مضغته ..

وانطلقت ابتسامة جميلة واسعة فى صدرى .. انى امضغ الناس والقيهم بقايا .. كل الناس ..

وخرجت .. ولكن كان هناك شيء آخر اريد ان اتأكد منه ..

كنت اريد ان اتأكد من انكم عرفتم بالجريمة . وان لم تعرفوا المجرم .. فصعدت الى شقتى الخاصة ورفعت سماعة التليفون واتصلت واتصلت بالطبيب الذى يعالجك . وقلت له وانا ادعى واتصلت بالطبيب الذى يعالجك . وقلت له وانا ادعى اللهفة :

— امت آخر مرة شفت هدى امتى يا دكتور ؟

قال وفى صوته رنة اسى :

— امبارح ..

قلت :

— وحالتها ازيها ؟ ..

قال :

— كويسة .. الحمى راحت . واعتقد ان الخطر زال وتقدر تخرج بعد يومين ..

قلت :

— لكن انا شايف حالتها النفسية غريبة . هى وامها .. زى ما يكون المرض اشتد عليها ..

قال :

ـــ اصل حصلت حاجه غريبة .. غريبة جدا !

قلت فى لهفة :

ـــ ايه .. حصل ايه ؟

وسحبح الطبيب .. ثم همس فى سماعه التليفون بانك مقدت الشىء .. الشىء الذى يستحقين عليه لقب فتاة !

وصرخت صرخة مفتعلة :

ـــ ازاى ده ! .. حصل ازاى !

قال :

والله دى حالة غريبة .. يمكن يكون من تاثير شدة الحمى .. انما دى تبقى حالة شاذة عمرى ما صادفتها فى حياتى .. وانا دلوقت باكتب بحث عن الحاله دى وحابعته لجمعية الأطباء فى لندن ..

قلت فى حماس :

ـــ انا مستعد اموّل اى بحث عن الحالة دى .. بس من غير ذكر أسماء ..

قال وأنا اكاد ارى ابتسامته :

ـــ متشكر يا باشا .. طول عمرك نصير العلم

قلت :

ـــ واعمل معروف بلاش تقول لهدى ولا لمها انك قلت لى حاجة ..

قال :

ـــ طبعا .. طبعا يا باشا ..

ووضعت سماعة التليفون . القهقهة العالية تملأ صدرى .. لقد قال الطبيب ان ما حدث لك كان من تاثير الحمى .. ان كل جريمة يمكن ان يكون لها غطاء يخفيها .. حتى هذه الجريمة .. لقد ارتكبت عشرات الجرائم . وخرجت منها والناس يصفق

لى . ويسبغ على القاب المجد والشرف .. وهذه الجريمة ايضا خرجت منها بلقب « نصير العلم » .

وعاد المجنون في صدري يهبىء نفسه ويخرج لسانه ، ويقفز قفزات بهلوانية .

وبرحت من العمارة . وهممت بأن اركب سيارتي . وفجأة لمحت عيناى عربة خشب تقف بجوار الرصيف المقابل . وقد جلس فيها ثلاثة شبان .. احدهم يمد امامه ساقا محشبة ..

انى اعرف هذا الشاب ذا الساق المخشبة ..

رأيته مرة واحدة ، ولكن يخيل الى انى اعرفه جيدا ..

نعم ، انى اعرفه ..

انه عادل ..

ورفعت اليه عينين خائفتين .. هذا الشاب لم امضغه .. انه ليس بقايا .. انى لم امضغ كل الناس بعد .. لا يزال هناك ناس اقوى من اسناني ..

ولم استطع ان انظر اليه طويلا .. خيل الى ان ساقه المخشبة كسيف من نور مشرع في الهواء يفضح به نظرتي اليه ..

واختبىء في سيارتي كأني احتمي بها ..

والمجنون خائفة ..

٢١

لم تبدأ خيرية معركتها فى هدوء ، بل اثارتها فى عنف وفى غل .. وانطلق لسانها يطلبها فى كل مكان ..

وكان اول ما فعلته أن انضمت الى معسكر عبد العزيز باشا مبارك . عدوى ومنافسى القديم .. الديك الرومى النافش .. وبدأت تبيع له اسرارى .. ولم تكن تعلم كل اسرارى . فانى تعودت ان اضع كل البيض فى سلة واحدة كما يقول المثل الانجليزى .. ولكن ما كانت تعلمه من اسرار كان يكفى ليضع فى يد عبد العزيز سلاحا حادا يطعننى به ..

اطلعته على أسماء الشخصيات التى تعمل لحسابى فى الخفاء .. كلها اسماء كبيرة .. اسماء رجال فى القصر ، ورجال فى المناصب الحكومية الكبيرة ، واسماء اميرات ، وزوجات زعماء ووزراء .. شخصيات كثيرة تعمل لى وتقبض منى اجرا سخيا فى صورة هدايا .. وكانت خيرية نفسها هى الرسول بينى وبين هذه الشخصيات .. هى التى تحمل اليهم مطالبى ، وهى التى تحدد قيمة « الهدية » التى يريدها كل منهم ..

وبدأ عبد العزيز يحترس فى معاملاته من بعض هذه الشخصيات ، بعد أن كان يلجأ اليها وهو لا يدرى انها تعمل لحسابى .. وبدأ يحاول ان يشترى البعض الآخر منها ويغريه بأن يعمل لحسابه .. وبدأ يهدد افرادا آخرين بأن يفضحهم

ويشعر بهم .. وخيرية تساعده فى كل ذلك .. انها تقيم له حفلات فى بيتها تدعو اليها كل من يستطيع أن يستفيد منهم .. وتسعى لدعوته فى حفلات الاميرات وتقف بجانبه لتساعده فى التحدث عن نفسه .. لقد أصبحت عميلة له !

ولكن عبد العزيز ليس أنا !

ولا يكفى ان تعمل خيريه لحسابه حتى يحتل مكانى .. ينقصه شىء كثير .. ينقصه ذكائى ، وجراتى المالية ، واعصابى ، واسلوبى ..

ثم ان خيرية اخطأت خطأ كبيرا ، فقد جعلت المعركة بينى وبينها معركة علنيه .. والمعارك العلنية تنقلب دائما على من يثيرها .. لقد عرف كل الناس فى مجتمعنا انها تحاربنى .. عرفوا انها توجه كل سمومها وحبائلها لقتلى .. واثار الناس عنفها وغلها وحقدها الذى لا منطق له ، فبدأوا ينفرون منها .. وبداوا لا يصدقون ما تذيعه عنى .. بل بدا بعضهم يشفق على ويتساءل فى ازدراء عن سر هذه الحرب .. هل كل هذا لان الباشا مزق ثوبها فى حفلة خاصه .. وماله يا سيدى .. كان سكران .. ما هى طول عمرها فى رجليه .. وكلنا عارفين خيريه .. و .. و .. و .. ولم يكن على بعد ذلك الا ان اضبط اعصابى ، وابدو أمام أعضاء النادى فى صوره الرجل المظلوم المعتدى عليه .. حتى اكسب ايسيهم الى جانبى .. لم اكن اتحدث عن خيرية .. ولم اكن اشتمها بكلمه .. ولم أكن اتحداها .. واذا ذكر اسمها امامى ، دافعت عنها .. واذا ذكر احد حديث الحفلة الخاصة ، احنى رأسى على صدرى واسدلت جفنى وقلت وكأنى اتألم : « أنا غلطان .. اعمل إيه .. كنت سكران » !!

أما العملاء الذين انقشت خيرية اسماءهم لعبد العزيز ، فقد جمدوا مرة مؤقتا .. ابتعدوا عنى حوما من أن يفقدوا صحابا الـ وبداوا يلاينون خيرية ويستقطبونها بنفس

الترحاب .. ولكنى كنت اعلم ما فى دخيلة نفوسهم .. انهم يخافونها ، وهم يتربصون بها .. ان العميل عندما تكشف سره يصبح كالذئب الجريح .. يخفى نفسه بين حشائش النفاق الى ان يستطيع ان يتمكن منك ، وينقض عليك بكل ما بقى فيه من قوة ..

ولم يتحول الوزير الشاب الأبله عرمان ناشا عن خيرية كما كنت اعتقد .. لم يكن يكفيه ان يراها عارية فى شقتى الخاصة ليعرف حقيقتها .. وكان يكفيها لكى تحره من انفه ان تكون امه باشا ، وزوجة بك ، حتى لو سارت بعد ذلك عارية فى الشارع .. وقد جرته من انفه .. استطاعت ان تقنعه بانى حاولت ان اعتدى عليها ، فلما قاومتنى مزقت عنها الثوب ..

واقتنع المغفل .. اقتنع انها امرأة شريفة ، كل جريمتها انها حاولت الدفاع عن شرفها .. وبدأ هو الآخر يحاربنى .. وبدأت تدفعه لتثير مسائل فى مجلس الوزراء ، ومجلس النواب ، تعلم انها تضايقنى .. مسائل الضرائب المتأخرة ، ومسائل التسعيرة .. و .. و ..

ورغم كل ذلك كنت استطيع ان اكسب خيرية من جديد ..

لو كنت عاقلا لعرفت انى يجب ان اعيدها الى .. انى لا زلت فى حاجة اليها .. بل انى لا استطيع الاستغناء عنها .. انها قطعة منى .. قطعة من قذارتى ومن اطماعى ، ومن قوتى ..

ولكنى لم اكن عاقلا .

كنت قد فقدت توازنى نهائيا .. كان المجنون الذى يقهقه فى فراغ صدرى ، قد انتصر على .. وكان هذا المجنون يريد ان يعذب خيرية ، وأن يشمت فيها ، وان يضحك لانهيارها .. كأنى كنت اعذب نفسى بها ، واشمت فى نفسى بشماتتى منها ، نعم .. انى لم اكن اسعى لعقاب خيرية وتعذيبها .. بل كنت اعاقب نفسى واعذبها ..

وقضيت اياما طويلة افكر فى خطة واسعة للقضاء على خيرية .. لافلسها .. آن افلاسها قضاء عليها .. انها لن تركع على قدميها الا اذا افلست .. انى اعرفها جيدا .. لا شىء يحيمها ويذلها الا أن تخسر اموالها .. لو فقدت ابنتها أو زوجها فقد تظل واقفة على قدميها .. أما أن تفقد ثروتها التى جمعتها بكل دقائق عمرها ، وبكل عصارة ذكائها ، وبكل عرق جسدها .. ستموت .. ستنتهى !

ولن اقضى عليها وحدها .. سأقضى معها على عرفان باشا .. سأقضى على مستقبله ، والوث ماضيه .. واحطم آماله .. ليس عرفان فحسب .. بل كل هؤلاء الذين يمثلون قطع الطين العفن الذى بنيت به مجدى ..

وبرقت الخطة فى رأسى ..

وتهته المجنون فى فراغ صدرى ، وفرك يديه كأنه مقبل على لعبة مثيرة ، انها خطة واسعة تحتاج الى صبر طويل .. وقد بدات انفذها وحدى .. والنظرة الخبيثة الجبانة تطل من وراء رأسى .. نظرة المجنون .. ولم اشرك معى عبد العظيم فى اعداد هذه الخطة .. ان عبد العظيم لا يزال عاقلا .. انه لم يعد يستطيع أن يتفاهم معى .. انه لا يزال يلح على لاكسب خيرية من جديد واكسب معها عرفان باشا ، واتقى شرهما ..

ان عبد العظيم شيطان .. والشيطان فى حاجة الى انسان عاقل ليتعامل معه .. والشياطين لا تتعامل مع المجانين .. وانا مجنون ، لا اتعامل مع الشياطين ولا الملائكة ..

واهملت كل أعمالى ما عدا هذه الخطة التى اضعها للقضاء على خيرية ..

ثم لاحظت فجأة أن خيرية بدأت تغير اسلوبها فى حربها لى .. ابتعدت عن عبد الرحيم باشا ، ولم تعد تشهر بى ، ولم

بعد تكشف اسراري للناس .. اما صمتت .. وعادت الى ليونتها المريبة .. كأنها اكتفت من الحرب ، واعلنت هزيمتها .

وكان هذا التغيير مفاجئا ، كأنها تلقت وحيا من السماء ..

ثم فجأة ..

ضربتني ..

ضربتني ضربة أفقدتني حوالي خمسين الف جنيه ..

وكنت في هذه الأيام العب في بورصة الأوراق المالية لعبة مزدوجة .. كنت ابيع بعض الاسهم والسندات بكميات ضخمة حتى ينخفض سعرها .. ويخاف المضاربون على اسهمهم وسنداتهم . فيتهافتون على البيع مثلي .. ثم اعود انا نفسي واشترى ما بعته مضافا اليه ما باعه باقي المضاربين .. وبهذا اكسب مئات من الاسهم والسندات بثمن بخس واستطيع بها أن احكم من قبضتي على الشركات مصدرة هذه الأسهم والسندات .. وطبعا كنت ابيع باسم واشترى باسم آخر .. وكان المفروض أن تحاط هذه اللعبة بالسرية التامة . وان تتم في ثلاثة او اربعة ايام على الأكثر قبل ان تنفضح .

وبدأت العملية ..

القيت بألفى سهم مرة واحدة للبيع في البورصة ، باسم سمسار يهودي .

وانخفض السعر ، بعد نصف ساعة

وكان المفروض ان يقبل الناس على بيع اسهمهم في نفس الجلسة . خوفا من ان ينخفض السعر اكثر ..

وفعلا بدأ البعض يبيع ..

وانخفض السعر اكثر بعد نصف ساعة اخرى ..

ثم كان المفروض أن اشترى كل هذه الاسهم في ختام جلسة اليوم التالى ، ولكن قبل ختام الجلسة الاولى بربع ساعة تقدم

سمسار ، واشترى كل الاسهم التى القيت بها ، واتقى بهت الخائفون ..
وذعرت ..
وحاول اعوانى أن يعرفوا اسماء العملاء الذين اشترى هذا السمسار لحسابهم ، ولكنه أصر على الاحتفاظ بسره .. اصر اصرارا يدعو الى الريبة ..
وقضيت ليلى والمجنون يصرخ فى صدرى ، مطالبا بالانتقام .. الانتقام ممن ؟ .. لا ادرى .. ولكن هناك شخصا يتحدانى .. قد يكون عبد العزيز باشا .. وقد يكون غيره ..
وفى اليوم التالى تأكدت انه ليس هو عبد العزيز ..
انه عدو آخر .. مجهول ..
وحاولت أن اجازف ببضعة آلاف سهم أخرى لأنقذ الثلاثة آلاف سهم التى فقدتها فى اليوم السابق .. ولكنى قبل أن اعطى أوامرى للسمسار توقفت .. لابد ان احدا قد افشى سر اللعبة .. من هو ؟ .. لابد أن يكون شخصا يعرفنى جيدا .. شخصا يعيش فى اعمالى .. هل يكون السمسار ؟ .. مستحيل ، ان السمسار ليست له مصلحة فى افشاء العملية ، ان مصلحته فى نجاحها ..
وناديت عبد العظيم ، وفاجأته قائلا :
ــ متكر مين ؟
ولم يهتز عبد العظيم ، وقال فى هدوء :
ــ افتكر مين ايه ؟
قلت :
ــ عمليه امبارح اكتشفت .. مين اللى كشفها ؟
قال وهو لا يزال محتفظا بهدوئه :
ــ دى عايزه تحقيق ..
قلت وأنا اكاد اتهمه بعينى :

ـ طب انفضل اعمل تحقيق ، ووريني شطارتك !

وخرج دون أن ينظر الي ..

واصدرت اوامري الى السمسار بالتوقف عن العملية .. وجلست احسب خسارتي .. انها تصل الى حوالى خمسين الف جنيه .. وهذا المبلغ ليس ثمن الاسهم التى بعتها .. انما لا نحسب خسارتنا بالنقود التى تخرج من جيوبنا فعلا ، بل نحسبها بقيمة العملية كلها .. اى بقيمة راسمالى مضافا اليه قيمة الارباح التى كانت منتظرة ..

وبعد اغلاق البورصة بساعة واحدة ، دق جرس التليفون في مكتبى .. واذا بصوت خبرية يبعث ناعما ساخرا يقطر سما :

ـ متشكره قوى يا باشا على الهدية بتاعة امبارح .. الفين سهم انما نقطوا سكر .. مرسى قوى .. اوريفوار !

ثم القت بسماعة التليفون في وجهى

انها خيرية التى اشترتها ..

ولكنها لا تستطيع ان تشترى وحدها .. لابد ان معها شريكا اطلعها على سر العملية وموّلها ..

من يكون هذا الشريك ؟

وفكرت طويلا .. ودمى يغلى ، واعصابى تتمزق ..

واخذت استعرض صور الناس المحيطين بى .. صور السماسرة ، ومديرى شركاتى ، واعضاء مجالس الادارة .. وكلما تمرت امامي صورة ، استبعدتها .. ان الذى يتحدانى ويذيع اسرارى يجب ان يكون انسانا شره اقوى من شرى .. انسانا شبع منى ، مبدأ يبعثر فى .. انى لا ارضى ان اتهم احد هؤلاء السماسرة او هؤلاء المديرين ، انهم احقر من الاتهام .

اذن من يكون ؟

لابد ان يكون شخصا يعلم بسر العملية ..

ثم لابد ان يكون على علم باسلوبى فى عمليات البورصة ..

ثم لابد ان يكون صديقا لخيرية صداقة وطيدة تجعله يطمئن الى التواطؤ معها ..

هل يكون عبد العظيم ؟

نعم ..

لا يمكن أن يكون الا عبد العظيم .. هو وحده من بين من حولى الذى يستطيع ان يتحدانى فى تذارتى .. لقد شرب معى الطين جرعة جرعة ، وتلوثت دمائى ودماؤه بسم واحد ..

وهو منذ ان اغضبت خيرية وهو غاضب على ، كأنه احس بأنه سيكون الفريسة التالية لحنوبى .. بل انه بدا يتمرد على قبل ذلك ، ومنذ ان اكتشف نزوتى فى الانتقام من محمد افندى السيد بعد أن مات .. الانتقام من عائلته .. منذ هذه الايام وهو يتحدانى .. لم يعد طيعا كما كان .. لم يعد يحتمل صفعاتى وشلاليتى .. لقد احس انى لم اعد مأمون الجانب ، فبدأ يعد نفسه للاستقلال عنى ، والعمل لحسابه الخاص ..

وربما شيء آخر ..

ربما اراد ان يحطنى على راسى حتى افيق من حنوبى .. لعله بعد أن يئس من أن يحد من تصرفاتى المجنونة ، اراد ان يوقعنى فى خسارة حتى انتبه الى نفسى والى تصرفاتى ..

ربما ..

ولكنه قطعا عبد العظيم ..

اذن ، فقد تضامن عبد العظيم وخيرية ضدى .. وهو تضامن خطير ، أخطر من تضامن خيرية مع عبد العزيز باشا .. ان عبد العظيم يعرف كل اسرارى .. كلها .. ويعرف عقليتى واسلوبى فى العمل .. انه يستطيع .. من طول ما عاش معى .. ان يقرا افكارى وينطق بلسانى .. والفرق الوحيد بينى وبينه هو فرق فى الشخصية .. هذا الاطار الذى يحيط بالفرد ويحدد قيمته فى اعين الناس ويسمى الشخصية .. وهناك شخصيات

تستطيع ان تندفع وتشق طريقها حتى تصل الى الصف الاول .. الى زعامة ، او الى مجد .. كشخصيتي .. وهناك شخصيات لا تستطيع ان تتعدى الصف الثاني ابدا ، مهما كانت قيمة ذكاء صاحبها ! وعبقريته ، او شجاعته ، ومهما حاول صاحبها ودمع في سبيل محاولته .. انها شخصيات تحتاج لمن يكمل نقصها .. شخصيات لا تحتمل مواجهة الناس وحدها ، ولا تكفي للمرء مقعد في الصف الاول .. وهذه هي شخصية عبد العظيم .

ولم اكن استطيع ان اواجه عبد العظيم باتهامي له ؛ فليس عندي دليل ضده .. واتهامه سيكون بمثابة اصابة الوحش بجرح دون قتله .. والوحش المجروح اشد خطرا .. انما كان يجب ان اعد له ضربة قاتلة .. تقتله هو وخبرية معا ..

وبدأت افكر في خطة جديدة .. خطة اوسع واقسى من الخطة التي كنت افكر فيها للقضاء على خبرية واعوانها .. وبدأت احترس من كل من حولي .. حتى سكرتيري الخاص لم اعد اطمئن له .. انهم كلهم مرءوسون لعبد العظيم ؛ وكلهم يخضعون لعبد العظيم .. لقد منحت عبد العظيم سلطات واسعة في مكتبي حتى اصبحت انا نفسي سجين هذا النفوذ .. واصبحت كل الاداة التي اعمل بها خاضعة له .. اداتي لا امسكها الا بيده ، وهذا خطأ كبير وقعت فيه ، فلم احسب حساب اليوم الذي يمكن ان يتمرد فيه عبد العظيم ..

وبدأت ارى تصرفات عبد العظيم حيالي ، بعين جديدة .. عين السخط .. كل حركة منه بدأت افسرها تفسيرا عدائيا .. نظراته .. لفتات وجهه .. انه يتعمد ان يختصر مقابلته معي كل صباح .. انه لا يبلغني كل شيء ، لعله يخفي عني اشياء كبيرة وخطيرة .. انه لا يلهف على قضاء الليل معي كما كانت عادته .. انه يتصل بمديري الشركات من وراء ظهري ... و ... و ..

وبدأت العلاقة بيننا تتخذ شكلا رسميا بحرا .. علاقة

رئيس مرءوسه .. وبدا العداء بيننا يتكشف ، ولكن شخصيته الضعيفة امامى كانت تجبره على ان يخفى هذا العداء تحت مظهر ذليل خانع كريه ..

ولم يعد عبد العظيم يذكر جيرية امامى او يثير موضوعها ، رغم انى كنت اعلم انه يقابلها .. ويتعمد ان يقابلها سرا .

ولم يعد يثير موضوعك وموضوع أمك .. لم يحدث الا مره واحدة ان سألنى وهو يحمى عداءه وراء ذله :

— المبلغ بتاع ست تفيده تحليه زى ما هو الشهر ده ؟

وقلت وانا اطل عليه بعينين ملؤهما الاحتقار :

— تفتكر ايه ؟

قال :

— اللى تشوفه سعادتك ..

قلت وانا لا ازال أحتقره :

— سعادتى عايز يسمع رايك ؟

قال فى نفاق ذليل :

— والله انا باشوف نخلى المبلغ زى ما هو .. زمانهم حدوا على العيشه اللى هم عايشين فيها ..

قلت فى هدوء :

— ولما ده رايك ، بتسالنى ليه ؟ .. ايه اللى آثار الموضوع ده دلوقت ؟

قال وكأنه يرد طعنتى :

— انا كل شهر باسأل سعادتك السؤال ده ، قبل ما نصرف لهم حاجة ..

وفعلا كان عبد العظيم يسألنى هذا السؤال كل شهر ، ولكن كراهيتى له جعلتنى اشك فى سؤاله ..

انه لا يخطىء ..

انه لا يترك لى مكانا لثغرة اطعنه .

وكان هذا يغيظني منه أكثر ..

وفي هذه الاثناء جاء خالك من الاسكندرية وقابل عبد العظيم بناء على طلب امك ، ليحادثه في موضوع الزواج .. زواجه المزيف من امك .. وكان عبد العظيم قد امتنع عن زيارتكم ، ولم احاول انا ان ادفعه اليكم .. حتى يئست امك ، وبدات تشك في امر هذا الزواج ، ثم علقت يأسها بخيط ضعيف من الوهم ، فطلبت من اخيها ان يذهب لمقابلة عبد العظيم .. وما كاد يفاتحه في الموضوع ، حتى صرخ فيه عبد العظيم :

ـ انتم صدقته ان الجواز ده صحيح ؟ ! انتم مجانين ؟ ! اتجوز اختك علشان ايه ؟ .. فيها ايه علشان اى راجل يتجوزها .. جمالها ولا عينيها المعمصين ؟ ..

وفتح عبد العظيم خزانة في جدار مكتبه ، واخرج وثيقتي الزواج المزيف ، وعاد يصرخ :

ـ اتفضل يا سيدي ، وآدي ورقة الجواز ..

ثم اخذ يمزق الورقتين بيديه في حقد وعصبيه ، كانه يمزق وجهي .. وخالك واقف امامه كالابله لا يستطيع ان ينطق ،

وعاد عبد العظيم يقول

ـ اظن فهمت دلوقت .. الجوار ما كانش جواز .. ده كان نكته .. كان الباشا ايامها عمه يضحك .. والمأذون اللي شفته حضرتك ماكانش مأذون .. كان ممثل .. ولو كنتم عاقلين كنتم فهمتم كده من الاول .. كنتم فهمتم ان عبد العظيم ما يتجوزش واحدة زي تفيده ..

وأحنى خالك رأسه ، وهم ان ينصرف .. ولكن عبد العظيم استوقفه ثم جلس وشد نفسا عميقا من الهواء ، كانه يطفيء لهيب حقده الذي انفلت منه رغم انفه ، ثم قال في هدوء :

ـ الكلام اللي سمعته ده مش عايزك تقوله لحد .. لا لاختك .. ولا للباشا ..

وقال خالك وهو يقاوم ذله :

— ازاى يا بيه .. لازم اقول لها .. ده حرام عليك .. دى ست غلبانه .

قال :

— لو قلت لها حاتلاقى النيابة وراك .. انت عارف كويس، انى اقدر اوديك فى داهيه ..

وانتفض خالك وقال وكلمته ترتعش :

— وديني فى داهية .. الداهية اللى حاتوديهما ارحم من اللى باشوفه منكم .. انتم .. انتم ..

وابتسم عبد العظيم وعاد يقول

— هدى نفسك بس .. انا اصلى كنت عصبى المهرده .. انما مش حصلش سيره ، والدور الجاى لما تيجى حاتقطع قدامك ورقه ثانية .. ورقة تساوى اربعة آلاف جنيه .. وما تنساش انك محتاج لوظيفتك .. والدور عليك علشان تترقى :

وهدأ خالك .. انه تهدم حتى لم يعد يستطيع ان يحتمل كرامته ، وقال :

— ده حرام .. حرام يا بيه ..

واتسعت ابتسامة عبد العظيم ، وقال :

— خلاص اتفقنا يا اسماعيل افندى ، وباذن الله حاعوضك خير .. صدقنى .. واول ما حاترجع اسكندرية حتلاقى الترقية مستنياك ..

وخرج خالك ، ولم يبلغ امك بما سمع او راى ..

سكت حتى عن هذا ..

ولم اسمع انا بهذا الحديث الا بعد فترة طويلة .. بعد ان كانت قصتكما تنتهى .. ولو كنت سمعت بها فى حينها لما فعلت شيئا .. لما همنى .. لم يعد يهمنى منكم شىء .. لا انت ،

ولا امك ، ولا خالك .. لقد سكت الشيء الذى كان يتحرك فى صدرى ويربطنى بكم .. سكت .. مات .. وترك مكانه فراغا يتهته فيه مجنون ..

***

واخذت اعمل فى تنفيذ خطتى .. وكنت ذكيا فى غاية الذكاء .. ولكنى لم اكن عاقلا .. لو كنت عاقلا لما فكرت فى هذه الخطة اطلاقا ، بل فكرت فى القضاء على خيرية وعبد العظيم وبقية اسلحتى التى اعمل بها ، لقد كنت مجنونا .. وكان ذكائى ذكاء المجانين ..

وقررت ان اسافر الى الخارج لتنفيذ الخطة من هناك .. كنت استطيع ان انفذها وانا فى مكتبى فى القاهرة .. ولكنى — كما قلت — لم اعد اطمئن الى أحد فى مكتبى ..

وفى جنيف استطعت ان اتفق مع احد كبار الماليين هناك .. ان الفرق بين كبار الماليين والنصابين فرق ضئيل جدا . كالفرق بين اليد اليمنى واليد اليسرى .. كلاهما يد ، ولكن احداهما فى اليمين والأخرى فى اليسار .. كبار الماليين فى اليمين وفى حمى القانون . والنصابون فى اليسار وضد القانون ..

وكانت الخطة التى عرضتها على المالى الكبير خطة نصب ..

خطة انشاء شركة عالمية وهمية لاقامة مصنع للسيارات والثلاجات وآلات الراديو فى مصر يغطى سوق الشرق الأوسط كله .

وأى مالى كبير لا يتردد فى انشاء اى شركة وهمية ما دامت ليست فى بلده ، ولا فى البلاد التى يحتفظ فيها برءوس أمواله .. ان النصب على الدول الصغرى — كمصر — يعتبر شطارة ماليه فى قاموس الماليين الكبار .. واذا كان هذا المالى الكبير يهوديا ، فان العملية فى هذه الحالة تصبح بالنسبة له عملا وطنيا فى خدمة اسرائيل ..

وكان على ان اتخذ كل الاحتياطات لتبدو هذه الشركة صحيحة ، فان عبد العظيم ليس فريسة سهلة .. انه تربيتى ، وهو يعلم في الشئون الماليه وشئون النصب قدر ما أعلم ..

ولذلك بدأنا في تأسيس الشركة في جنيف .. دون أن يبدو فيها اسمى .. واصدرنا أسهمها ، واشتريت ثلاثين في المائة من هذه الأسهم بأسماء مختلفه .. انا اشتريت من نفسي ، ومن أموالى المهربه الى الخارج .. ان خمسين في المائة من اموالى مهربة في الخارج .. انى استطيع ان اترك مصر في اى لحظة وأعيش في اى بلد في العالم عيشة أصحاب الملايين .

وطبعا لم تعلن هذه الشركه في الخارج ، حتى لا يتقدم احد لمساهمة فيها ثم نقع تحت طائلة القانون بعد ان تنكشف لعبتنا .. انما اعلن عنها في مصر .. اعلانات صغيره .. مجرد اخبار .. حتى تبدو شركه محترمة ليست في حاجة الى دعاية ..

ووصل مندوب الى القاهره ، وانا لا أزال في جنيف .. وصل يحمل تعليمات مفصلة دقيقه عن الضحايا الذين وكل بافتراسهم ..

واتصل المندوب برجال البنوك في القاهرة .. ثم اختار احد كبار المحامين كمستشار له .. وبدأ يتصل بدوائر الاعمال ، ويسهر في نادى السيارات .. وبدأت الصحف تتحدث عنه كثيرا .. بعضها يتحدث عنه بالثمن ، وبعضها يتحدث عنه بسلامة نية ، وبلا ثمن .. خدمة للقراء .. هذا النوع من الصحف الذى يهب صفحاته لبعض الناس لمجرد انهم اغنياء !

وعرف الرجل خيرية ..

وكانت خيريه على رأس قائمة الضحايا ، فأولاها كل ثقته ، وكل اهتمامه ، واعتمد عليها في تقديمه الى المالين المصريين !!

وفرحت خيرية بهذا الاهتمام .. واعتبرت نفسها قد وقعت على صيد جديد .. وتطوعت بالدعوة للشركة ، وتأييد مطالبها ..

وعن طريق خيرية عرف الرجل عبد العظيم .. ولكن عبد

العظيم لم يتهافت عليه كما تهافتت خيرية .. انما أخذ الموضوع بحرص .. وارسل الى مكتبنا فى باريس يطلب معلومات دقيقة تفصيليه عن الشركة ، وعن مموليها ، وعن البنوك التى تتعامل معها .. و .. و ..

واجبت انا بنفسي ــ وانا فى جنيف ــ على خطاب عبد العظيم ، دون ان يدرى .. ارسلت له كل البيانات التى تطمئنه ، وكان أكثر ما طمأن عبد العظيم ان الشركة قد اسست فعلا فى جنيف ، وان اسهمها قد غطيت .. بما قيمتــه عشرون مليــون فرنك سويسرى ، اى حوالى مليونين من الجنيهات المصرية ..

واقتنع عبد العظيم بالشركة ..

اقتنع الى حد ان فكر فى ان يأخذ الصفقة كلها وحده دون ان يشركنى فيها ..

والح عبد العظيم على المندوب ان يعمل على نقل مركز الشركة الى القاهرة .. وكان يلح حتى تكون له الفرصة ليحتل مقعدا فى مجلس الادارة .. وتظاهر المندوب بالتردد .. ثم تظاهر بانه على اتصال بجنيف لاخذ موافقتهم على اقتراح عبد العظيم .. ثم تظاهر بان المؤسسين يرحبون بنقل مركز الشركة الى القاهرة ، ولكن بعد فتح باب الاكتتاب وتغطية الأسهم بواحد وخمسين فى المائة على الأقل من الاموال المصريه كما تقضى القانون المصرى ..

وفتح باب الاكتتاب .. والشركة قانونيه لا شائبة فيها .. وغطى الاكتتاب فى ايام ..

دفع عبد العظيم نصف مليــون جنيه .. اى نصــف ثروته تقريبا ..

ودفعت خيرية حوالى ربع مليون جنيه .. اى كل ثروتها بعد ان باعت كل ما تملكه من اسهم أخرى ..

ودفع عبد العزيز باشا .. ودفع حسنين باشا شهاب .. هذا القطانى الفارغ .. ثم دفع عرفان باشا ايضا .. و .. و ..

وهللت الدوائر المالية كلها ..

وهللت الصحف ..

وهنأ رئيس الوزراء نفسه ، واصدر تصريحا قال فيه ان حكومته بدات اولى الخطوات الايجابية نحو تصنيع مصر !

لم يداخل واحدا من كل هؤلاء العباقرة اى شك فى ان كل الاوراق سليمة .. حتى الاتفاقات مع المصانع الاوربية التى ستقوم باقامة المصنع قد اعدت ، ولا لبس فيها ..

وبدات بعد ذلك اجراءات لنقل مركز الشركة الى القاهرة ؛ واعلانها شركة مصرية ..

وبمجرد ان تمت هذه الاجراءات على الورق ، حلت الشركة التى اقمناها فى جنيف ، واصبحت انا والمالى الكبير بعيدين عن اى مسئولية امام القانون السويسرى .. واستردتت ثمن الأسهم التى اشتريتها .. واصبحت اسهما لا تساوى ثمن الورق الذى كتبت عليه .

ثم عدت الى مصر ..

عدت بعد ان بقيت فى اوربا اكثر من ستة شهور ، اشرف على تنفيذ الخطة التى لم يبد فيها اسمى !

واستدعيت عبد العظيم بمجرد وصولى وقلت له قبل أن يهنئنى بسلامة الوصول :

ـ اشتريت اد ايه من اسهم الشركة الجديدة ؟

وارتبج لسانه ، وقال متلعثما :

ـ والله انا اشتريت لنفسى بس ..

وصرخت :

ـ لنفسك .. لنفسك ازاى .. انت بتشتغل لحسابك ولا ايه .. ازاى ما تشتريش باسم الشركة ؟ !

قال وهو لا يزال يتلعثم :

ـ والله اصلى كنت مستنى سعادتك تيجى .. وبعت الك

خمس تلغرافات ما ردتش على .. ماكانش ممكن اتصرف لوحدى فى مسألة زى دى .. وللأسف ان سعادتك اتأخرت ..

وادعيت الهدوء والاسى وقلت :

ـ زى بعضه .. اما انت اتغيرت يا عبد العظيم .. عمرك قبل كده ما اشتغلت لحسابك .. طول عمرك مخلص للشركة .. اما زى بعضه ، انا اعتبر الأسهم اللى اشتريتها لحسابك كأنها بتاعتى ..

وقال وهو يحاول ان يخفى خبثه :

ـ دول تحت امرك .. وانا مستعد ابيعهم للشركة دلوقت حالا ..

قلت :

ـ لا .. خليهم لك ولأولادك .. بس احب اقول لك انهم اسهم كويسين .. والشركة دى شركة قوية .. انا سمعت عنها فى كل حتة فى اوربا ...

وخرج عبد العظيم وهو يخفى شماتته تحت ابتسامته ..

وبدات بعد ذلك عملية تهريب الأموال لحساب المندوب ..

ولم تنقص ستة أشهر أخرى حتى كانت كل اموال الشركة الجديدة قد هربت فى صورة تحويلات على البنوك الأجنبية باسماء عملاء وهميين فى الخارج .. ومجلس الادارة يجتمع وينفض ويقر تحويل هذه الأموال ، دون ان يفهم شيئا .. والمندوب اليهودى يتلاعب برءوسهم ، ويريكم بمجموعة ارقام واسماء واصطلاحات ، فلا يملكون الا الموافقة حتى لا ينفضح غباؤهم ..

وفجاة اختفى المندوب من مصر ..

واختفت معه كل اموال الشركة ..

وقامت ضجة ..

ضجة اطاحت بالوزارة .. فسقطت .. وتناقلتها صحف العالم ، واضحكت قراءها على اغبياء مصر ..

واعلن المالى السويسرى انه لم يسمع بهذه الشركة ولم يشترك فيها وان التوكيل الذى يحمله المندوب موقعا باسمه . كان توكيلا مزورا .. وفعلا كان مزورا ..

وحاولت خيرية الانتحار ، وانقذتها ابنتها شوشت ..

وانكمش عبد العظيم .. صغر .. وصغر .. حتى اصبح يدخل مكتبى منحنيا كانه يسعى لتقبيل حذائى ..

ودارى حسنين باشا شهاب وعبد العزيز باشا فضيحتهما ، وحاولا ان يدعيا اللامبالاة . ثم اخذا يبحثان عن مصدر لابتزاز الاموال يعوضان به خسارتهما ..

وابتعد عرفان باشا عن الجو السياسى ، وافتتح مكتبا متواضعا للمحاماة ..

واطلق خليل بك الرصاص على نفسه .. ومات ..

وقهقه المجنون فى صدرى ..

قهقه فى صوت مدو .. فظيع .. كصراخ آلاف من النساء اجتمعوا ليشيعوا آلافا من الرجال بعدد الجنيهات التى هربت من مصر ..

— ٢٢ —

وخفتت الضجة التى اثارتها فضيحة الشركة العالمية الوهمية .. وبدأ الضحايا يلعقون جراحهم ، ويبحثون عن أى باب يطرقونه ليعوضوا خسائرهم .. ثم تنبهوا فجأة الى انى الوحيد الذى لم اقع فى الخدعة الكبرى .. انا الوحيد الذى لم تصبنى جراح .. فالتفوا بعيونهم حولى .. عيون الشك ، والحقد ، والكراهية ، والاتهام .. وانا اشرب من هذه العيون ليرتوى المجنون الذى يقهقه فى صدرى .. يرتوى من حقدهم ، وكراهيتهم ، ومن الدماء التى تنزف من جراحهم ..

وقلت لعبد العظيم صبيحة يوم اعلان الفضيحة :

— أنا آسف يا عبد العظيم .. ما كانش حد ممكن يعتقد ان شركة زى دى تطلع شركة نصابين ..

ورفع الى عبد العظيم وجهه .. وكان اصفر فى لون الموت ، وقد تهدمت ملامحه وتساقط بعضها على بعض حتى بدا ككتلة مجمدة من الدموع الصفراء .. ثم رفع الى عينيه .. عينين ملؤهما شك يحاول عبثا ان يخفيه ، وقال فى صوت ضعيف :

— الحمد لله ان سعادتك فضلت بعيد عن المصيبة دى ..

قلت وانا أحاول ان ادارى شماتتى :

— مسألة حظ .. مجرد حظ ..

قال ، وقد طاف بعينيه بريق عابر يفضح حقده :

ــ فعلا .. سعادتك طول عمرك محظوظ ..

قلت :

ــ وانت كنت محظوظ معايا يا عبد العظيم ، ويوم ما اشتغلت لوحدك سابك الحظ .. بعد كده ما تشتغلش لوحدك ابدا .. آدى انت شفت اللى بيجرالك من غيرى .

وسكت طويلا ثم قال وهو يتنهد كأنه يلفظ آخر أنفاسه :

ــ لك حق يا باشا ..

وهم أن يقوم من مقعده ، ثم عاد وجلس قائلا :

ــ سعادتك مش كنت قلت انك سمعت عن الشركة دى ف أوربا .. سمعت عنها ايه ؟

قلت وانا أواجهه بعينى كأنى أعرف الشك الذى يراوده ولا أخافه :

ــ سمعت انها شركة جامدة .. كان فيها اسماء جامدة . ورءوس أموال جامدة .. انا عمرى ما شفت عملية نصب اتعملت بالشكل ده ، وبالدقة دى ..

وعاد عبد العظيم يتنهد ، ثم قال وهو يقوم من مقعده :

ــ انما برضه أنا كنت مغفل ..

قلت وانا ابتسم له :

ــ بكره تعوض يا عبد العظيم ..

قال فى أسى :

ــ العمر كله ما بقاش يكفى للعوض ..

وخرج وهو يترك وراءه رسحا ثقيلة من الاتهام .. اتهامى .. وكان لدى عبد العظيم اكثر من دليل يؤكد له هذا الاتهام .. أقربها انى لم ارسل له برقية وانا فى أوربا آمره بأن يشترى لى أسهما فى هذه الشركة ، ما دمت قد سمعت عنها وآمنت بسلامتها .. ولكن كل هذه الادلة ليست قابلة للاثبات .. ان عبد العظيم لا يستطيع أن يعلنها ، ولا ان يواجهنى بها ..

وقد انحرفت علاقتى بعبد العظيم بعد ذلك انحرافا حادا .. لقد اصبح ذليلا كالكلب ، ولكنى لم اعد أعتمد عليه .. لقد احسست بانى تحررت منه .. احسست بانى أستطيع ان اعيش دون حاجة اليه .. احسست ان فى داخلى شيطانا اكبر من شيطانه ..

ثم انى لم اعد آمن له بعد ان طعنته فى جنبه هذه الطعنة الحادة .. انه لا بد يفكر فى الانتقام منى ، واذا لم يحاول أن ينتقم منى ، فسيحاول — على الأقل — أن يعوض خسارته على حسابى ..

وبدات اقرب الى شخصا آخر .. مدير مكتبى .. انه رجل متمصر .. ولد فى لبنان ، وعاش فى مصر ، ويحمل الجنسية الفرنسية ، وكانت له نفس عقلية عبد العظيم ، ولكنه كان اقل منه حراة ووقاحة .. كان عقربا جبانا يلدغ لدغته بعد تردد كبير ..

ولم يعترض عبد العظيم وهو يرى مدير مكتبى يحتل مكانه منى .. لقد عاد خسيسا كما بدأ حياته .. كل ما يهمه أن يجمع من الأموال ما يغطى خسارته .. وكان دنيئا فى جمع هذه الأموال .. اصبح يأخذ رشوة من كل موظف يعين فى احدى الشركات ، نظير تعيينه .. واخذ يتقاسم مع رؤساء العمال ما يقتطعونه من الاجور لانفسهم .. واخذ يبالغ فى العمولة التى يطالب بها لنفسه على مشتريات الشركة .. تماما ، كما كان يفعل فى بدء حياته عندما كان يشتغل معى فى مقاولات الجيش البريطانى ..

وقد سكت عليه .. لم احاول ان اقفه عند حده ، او احاسبه على ما يبتزه من اموال .. انه مهما تمادى فلن يعوض خسارته .. انه يحتاج الى ثلاثين سنة اخرى ليعوض خسارته بهذه الطريقة الرخيصة الخسيسة .. ولو كان عبد العظيم رجل اعمال كامل الشخصية لحاول أن يجازف فى البورصة بما بقى من ثروته ليعوض ما ضاع منها .. ولكنه لم يفعل .. انه اكثر جبنا من أن يفعل

ذلك .. ان شخصيته لا تحتمل مثل هذه المجازفة .. وكانت الضربة التى ضربتها له قد افقدته ثقته بنفسه .. ضربة اقنعته بأنه لا يستطيع ان يكون شيئا الا ذيلا لى ..

وكان عبد العظيم ـ بعد هذه الصدمة ـ لا يزال يتردد سرا على خيريه .. ولكن كلا منهما عرف انه لم يعد ينفع الآخر .. انها لم تنفعه لانه لم يعد يقدم على عمليات كبيره تحتاج الى الاتصال بالشخصيات الكبيرة .. وهو لن ينفعها لأنه لا يستطيع ان يدفع ثمنها .. انه نذل .. بخيل .. مجروح الشخصية ..

وحاولت خيريه ان تكسبنى من جديد ، بعد ان افاقت من الصدمه ، ودق جرس التليفون فى مكتبى ، وسمعت صوتها ناعما وقد شحنته بكل رقتها المليئة ، وقالت فى دلال :

ـ حسين .. وحشتنى يا خاين ..

قلت فى شماتة :

ـ ازيك يا خيرية ؟ .. ازى صحتك دلوقت ؟ !

قالت :

ـ صحتى كويسه .. بس اعصابى .. ما تعرفش دوا للاعصاب ؟ ..

قلت وانا اكاد اضحك :

ـ احسن حاجة تسافرى تغيرى هوا ..

قالت وهى تمط فى كلماتها :

ـ انا ماقدرش اسافر الا لما تصالحنى !

قلت :

ـ وانا عمرى خاصمتك ؟ .. ده انا ما استغناش عنك أبدا ..

قالت :

ـ طيب حاشوفك امتى ؟

قلت :

ـــ مشغول اليومين دول يا خيرية .. اول ما امضي حاضرب لك تليفون ..

قالت وهي تتنهد كأنها تستجير بالله :

ـــ ما تبقاش قاسي يا حسين .. خليك معقول .. كفاية كده !

قلت والجنون يتقلب مرحا في صدري :

ـــ وحياتك مشغول يا خيريه .. اسمعى على اليومين دول !

ووضعت سماعة التليفون وانا أضحك .. اني قاس فعلا ، وانا سعيد بقسوتي !

ولم اتصل بها بعد ذلك .. ولم ادعها الى بيتي .. اني مضغتها ولفظتها بقايا .. مضغتها كما مضغتك ، وكما مضغت امك ، وكما مضغت عبد العظيم ..

وقد عرفت خيرية انها لن تعود الى .. عرفت انى لن اعوضها عن خسارتها .. وبدأت تتخبط في محاولة استرجاع ثروتها .. انها لا تزال محتفظة بمظهر الثراء .. ولا تزال محتفظة بأصدقائها .. الاصدقاء الكبار .. ولكن الصدمة كانت قد هزتها .. اتلفت اعصابها ، وافقدتها شخصيتها هي الاخرى .. وكان حقدها على نفسها عن طريقها .. كانت تحقد على حقدا أسود .. كانت هي الاخرى تتهمني بأني سبب مصيبتها ، وبأني مشترك في جريمة الشركة العالمية الوهمية ..

وذهبت الى النادى في احدى الليالى ، ولاحظت أن خيرية جالسة مع زوجها على غير عادتها ، وبينهما همس طويل .. والرجل لا يبدو سعيدا .. يبدو عصبيا يتململ في جلسته ، ويفرك شاربه بأصبعه .. ووجهه محتقن .. ثم فجأة قام من مقعده ، وسار متجها الى في خطوات غاضبة ، وعيناه متقدتان كأنه مقبل على ارتكاب جريمة ..

وبسرعة قدرت الموقف .. ان خيرية قد ملأت صدر هذا

الرجل الأبله سحار حقدها علي .. ربما قالت له انى حاولت أن أغازلها ، وانه يجب أن يؤدبنى .. وشريف بك لا يمانع فى ان أغازل زوجته ، ولكن بشرط رضائها .. وبشرط الا ازعجه بمغازلتى لها .. اما أن تشكو له زوجته من مغازلتى ، وتعكر عليه صفو سعادته بشكواها ، فانى ولا شك استحق التاديب .. وربما قالت له حرية أى شيء آخر .. ولكن يبدو انها تحاول أن تسبب فضيحة لى .. أن يضربنى زوجها فى وسط النادى ، وامام عينيها ، حتى تطفىء نارها ..

ووصل شريف بك الى مائدتى ، ووقف فوق راسى وشاربه الذى فى لون الفضة يهتز ، ويشق وجهه الأحمر كأنه خنجر يعلقه بين أسنانه ، وصاح فى غضب ، وفى صوت يكاد يصل الى الشارع :

— اسمع يا باشا .. أنا ما اسمحش ان ..

وقاطعته فى هدوء :

— مالك زعلان كده .. علشان ما اتغلبت فى البلياردو النهارده الصبح ؟

وسكت الرجل ، وتعلقت عيناه بشفتى ، ثم قال وقد هدأ صوته قليلا :

— بتقول ايه ؟

قلت وانا لا ازال محتفظا بهدوئى :

— باقول انك اتغلبت فى البلياردو .. غلبك الامير محسن .. ولد لسه عنده عشرين سنة ، يغلب بطل كبير زيك ؟ ..

قال وقد بدا يغضب من جديد :

— محسن ما غلبنيش .. احنا طلعنا كيت . اسأل كل واحد !

قلت :

— هو بيقول انه غلبك ..

قال كأنه طفل عنيد يهم بالبكاء :

ـــ ما علبنيش .. ما علميش .. مش ممكن يقلبني ..

قلت :

ـــ على كل حال ان اتفقت معاه انا نعمل مباراة الجمعه الجايه .. وحاقدم كاس لبطل النادي .. انما لسه مش عارف التفاصيل .. تفتكر نخليها مبـــاراة عامة ، ولا في البليـــاردو الانجليزى بس ؟ .

قال :

ـــ انا باشوف أولا ان ..

وقاطعته :

ـــ اقعد يا شريف بك .. اتفضل .. احنا عايزين نعملها مباراة جامدة قوى .

وجلس بجانبي شريف ، واخذنا نتحدث عن تفاصيل مباراة البلياردو .. وهـــدأ الرجل .. وعادت الى وجهـــه ملامح السعادة ..

ولمحت بطرف عيني خيرية ، وهي تقوم غاضبة ، وتخرج من النادي وهي تكاد تقلب الموائد في طريقها ..

وتنبه شريف بك بعد مدة الى أن زوجته قد خرجت ، وتذكر انه كان ثائرا علي ، وانه كان قد قرر بينه وبين نفسه أن يعتدي علي .. أن يصرعني .. فعاد وجهه يتجهم من جديد .. وسكت عن حديث البلياردو مرة واحدة .. ولكنه لم يستطع أن يستعيد حماسه للاعتداء علي ، فقام فجأة ، وهو يقول :

ـــ بعدين .. بعدين .. مونســوار ..

وقضى أعضاء النادي ليلتهم يتندرون على خيرية وزوجها .. الغيور !!

وكان اتهامي بأني مشترك في جريمة الشركه الوهمية قد انتشر في كل الأوساط المالية .. ولكن أحدا لم يستطع أن يثبت اتهامه .. ان الدليل الوحيد القاطع هو اني لم اشتر اسهم هذه الشركة ،

ولم اخسر مالى فيها كما خسروا .. وهو دليل لا يكفى .. انه ليس دليلا اطلاقا .. ولكنهم بدوا جميعا يحاربوننى فى الخفاء .. واشترك معهم فى حربى أعضاء مجالس ادارة شركاتى الذين اساسهم حريمتى ، وعلى رأسهم حسين باشا شهاب .. القنطاس الفارغ .. لم يستقيلوا من مجالس الادارة .. لقد أصبحوا أحوج مما كانوا الى المكافآت التى ادفعها لهم .. ولكنهم كانوا يقبضون هذه المكافآت دون أن يعملوا .. دون أن يستعملوا نفوذهم لمصلحتى ، بل أصبحوا يستعملون هذا النفوذ الكبير ضـــد مصالحى ..

واحتملت هذه الحرب .. احتملتها كالكلب المسعور .. أعض كل من يقترب منى .. ولم أكن أعلم أن الكلاب المسعورة يمكن أن تكون سعيدة الى هذا الحد .. لقد كنت سعيدا جدا وانا اعض كل من حولى .. ووصلت سعادتى الى القمة عندما غرزت اسنانى فى لحم حسين باشا .. ان لحمه لذيذ .. لحم اشتهيته منذ التقيت به ..

وكنت قد انشأت مصنعا هزيلا للمنتجات الصوفية ، وكان الأمل الوحيد أمام هذا المصنع هو أن ترفع الحكومة الضريبة الجمركية على الأصواف المستوردة من الخارج ، حتى يضطر الناس الى أن يشتروا بالسعر الذى افرضه عليهم .. ولم يكن انتاج هذا المصنع يكفى الناس جميعا .. ورفع الضريبة الجمركية على الصوف المستورد ، معناه أن يموت الناس من البرد ، والا يلبسوا الاصواف .. ولكن كان هذا هو الحل الوحيد اذا أردت لهذا المصنع ان يكسب ، بل ان يعيش ..

وكان المفروض ان يستغل حسين باشا نفوذه لدى الحكومة لترفع هذه الضريبة الجمركية الى ثلاثة اضعافها بحجة حماية الصناعة الوطنية .. ولكنه لم يستغل نفوذه .. بل انه كان يحارب المشروع فى الخفاء .. وكلما اجتمع مجلس الادارة وعد بأن

يعيد الكرة ، واخذ يتهم الحكومة بالتكاسل والتفريط فى حماية المصانع الوطنية ..

وفاجات مجلس الادارة يوما بقرار حل الشركة ..

ويفتوا ..

ولكنى أكدت لهم أن الشركة سيعاد تكوينها بعد تسوية الخسائر التى لحقتها نتيجة عدم حماية منتجاتنا ..

وخرج حسنين باشا ، وقد عرف انى ضربته ..

واعدت تكوين الشركة دون أن يكون بين اعضائها سعادته .. طردته .. طردته من جميع شركاتى .. والقيت به فى الشارع .. وتركته يبدأ حربا صريحة ضدى ، ويقف فى صف واحد بجانب خيرية ، وبجانب عبد العظيم .. بجانب الذى مصمتهم وبصقتهم بقايا

وكنت فى غمار هذا الجنون قد سددت أذنى عن أصوات تنبعث من الشارع .. أصوات كالزئير تعلو رءوس ناس لا أعرفهم .. ناس فقراء .. ناس يقتربون وفى ايديهم هراوات ليطاردوا بها الكلب المسعور ..

— ٢٣ —

كان من عادة سكرتيري الخاص أن يجمع لي قصاصات الصحف التي يكتب فيها عني أو عن احدى شركاتي أو عن واحد من خصومي ؛ ويرتبها في دوسيه يضعه على مكتبي ، لأراه أول شيء في الصباح ..

ونحن — رجال الأعمال — نهتم كثيرا بما ينشر عنا في الصحف .. كل الصحف .. حتى الصحف الاقليمية الصغيرة التي لا يشعر بها قراء القاهرة .. وليس معنى ذلك أننا نؤمن بقوة الصحافة ، أو بأنها السلطة الرابعة كما يقولون .. لا .. اننا أعلم الناس بالصحف وكيفية ادارتها والموارد المالية التي تعتمد عليها .. ولدى كل منا قائمة بأسعار الصحف وأصحابها ورؤساء تحريرها ومندوبيها .. ان كلا منهم له ثمن في بورصة سرية يرتفع وينخفض حسب خطورة المعلومات التي تحصل عليها الصحيفة ، وحسب قيمتها في السوق .

ولكننا — رغم ذلك — نهتم بقراءة ما ينشر في الصحف ، لنتحسس السر الذي يختفي وراء السطور .. اننا لا نقرأ الأخبار والمقالات كما يقرؤها بقية الناس ، اننا نقرؤها بعقل واع وافق يتسع ليحلل كل كلمة ، ويبحث عن معانيها الخفية ، وعن مصدرها والموحي بها .. اننا نعتبر كل صحيفة مكتب تجسس يعمل لحسابنا .. ماذا نشرت هجوما أو أخبارا تمسنا

كشفت بذلك عن اتجاهات تفكير أعدائنا ، أو كشفت عن موضع نقص فى أعمالنا نسرع الى تلافيه .. واذا نشرت مدحا فينا استفدنا أيضا .. فان أحدا لا يمكن أن يمتدحنا الا كان وراءه غرض يسعى الى تحقيقه ..

وبدأت فى قراءة القصاصات ..

وفجأة سقطت عيناى على مقال كبير بعناوين حمراء :

« أسرار فى الصحراء .. شركة مصرية تمتص دماء العمال .. هل تعرف الحكومة أن فى مصر بلدا يسمى القصير » .. وبعد ذلك مقال كالنار عن شركة مناجم القصير .. كلمات كالسكاكين تغمد فى وجهى ..

وتحملت الكلمات .. ولكن ما لم أتحمله هو الأرقام .. أن المقال مزود بأرقام .. دقيقة صادقة مفروض أنها أرقام سرية .. أرقام تفضح الشركة وتكاد تقضى عليها .. ونحن لا نخاف الناس الذى يتكلمون ، ولكننا نخاف الناس الذين يحسبون بالأرقام ..

واكثر من ذلك ..

ان كاتب المقال يكشف عن المالك الحقيقى للشركة .. انه أنا .. وهو يسمينى باسمى ..

ــ من هو كاتب المقال ؟

انه عادل .. والمقال يحمل توقيعه ! واستدعيت عبد العظيم وصرخت فى وجهه ، وقد بدا المجنون يزمجر فى صدرى :

ــ الواد اللى اسمه عادل ده ، لسه موظف فى شركة القصير ؟

وأجاب عبد العظيم وظهره قد أحناه الذل :

ــ لا يا افندم .. استقال .. خرج من المستشفى وقدم استقالته ، وطلب تسوية مكافأته !

قلت وأنا لا زلت أصرخ :

ــ وما قلتليش ليه ؟

قال ونظراته تقطر سما :

— سعادتك ما سألتنيش .. من مدة وسعادتك لا تنده لى ولا بتسألنى عن حاجه ..

ونظرت اليه كأنى أغمد عينى فى قلبه ، وقلت فى غيظ :

— وحضرتك اديته مكافأة اد ايه ؟

قال وهو يبتسم ابتسامة صغيرة يتملقنى بها :

— ولا مليم .. وده يستحق حاجه بعد اللى عمله !

قلت فى حدة :

— طيب اتفضل من غير مطرود !

وخرج الرجل الذليل ..

وناديت مدير مكتبى ، وطلبت منه ان يتصل بالجريدة التى نشرت المقال ويدفع ثمن سكوتها ..

الجريدة اسمها « الشعب الحر » .. وهى جريدة تتاجر بالفضائح ، والكلمات الضخمة .. والشعارات الشعبية .. ورغم ذلك سعرها فى البورصة السرية رخيص .. ان اصحابها من الدناءة والجهل بحيث لا يستطيعون ان يرفعوا سعرهم .. ان رفع السعر يحتاج الى ذكاء والى حد معين من التعفف ، حتى فى البورصة السرية ..

وقبضت الجريدة الثمن .. وسكتت !

ومضت أيام ثم جاء مندوبها يحمل مقالا آخر معدا للنشر كتبه عادل أيضا .. ومشحون أيضا بالارقام .. وطلب ثمنا جديدا والا اضطر الى نشر المقال .. ودفعت الثمن مرة اخرى .. انه ثمن تافه لا يستحق المجادله .. ولكن المندوب طلب شيئا آخر .. قال انه فى حاجة الى ان يبرر امتناعه عن النشر امام عادل وأمام القراء .. ولذلك فهو يرجو ان نقدمه الى المحاكمة فى جنحة مباشرة ، حتى يتخذ من تقديمه الى المحاكمة عذرا كافيا يبرر به امتناعه عن النشر ..

لا تدهشى .. هذا ما كان يحدث فى تلك الايام !

ورفعنا على الجريدة قضيه ، وانا اضحك .. ولم احاول أن اثير هذه القضيه جديا .. انما تركتها تؤجل .. وتؤجل .. حتى ماتت .. ان القضايا الصحفية ، حتى لو كسبناها تسيء الى موقفنا وتفتح في وجوهنا ثغرات نحرص على ان تظل مغلقة ..

ولكن عادل لم ييأس ..

لقد ذهب بمقاله الى جريدة أخرى .. مجلة صغيرة لم أكن قد تعاملت معها من قبل ، لانها لم تتعرض لى من قبل .. وعندما بحثت عن اسمها في البورصة السرية ، لم أجد لها اسما .. وعندما حاولت ان ادفع لها الثمن لم اجد لها ثمنا .. انها مجلة غبية قنوع .. لا تقامر في البورصة السرية !

ويومها اكتشفت أن هذه البورصه التى نعتمد عليها في حاجة الى تعديل الاسماء التى تضمها .. وأن مصر قد ازدحمت في غفلة منى بكثير من هذه المجلات الغبية القنوع التى لا تعرف طريقها الى بورصتنا السرية ..

وفضلت السكوت ..

ان عادل سيقول كل ما عنده في مقال أو اثنين ثم ينتهى .. لن يجد شيئا آخر يقوله .. ثم ينساه القراء ..

ولكن عادل لم ينته ..

انه يكتب كل اسبوع .. وفي كل اسبوع يجد ارقاما صادقة ارقاما كالسكاكين يغمدها في وجهى ..

من اين ياتي بهذه الأرقام ؟

لقد عرف الأرقام الخاصة بشركة القصر ، لانه كان موظفا بها .. ولكنه بدأ ينشر أرقاما عن شركاتى الاخرى .. أرقاما سرية لا يمكن أن يزوده بها اصدقاؤه العمال .. لابد أن الذى زوده بها ، واحد قريب منى .. واحد يعرف اسرارى .. قد يكون عبد العظيم ، وقد يكون حسنين باشا شهاب .. وقد يكون واحدا من اعضاء مجالس الادارة .. هؤلاء الأغبياء .. انهم

لا يعلمون أنهم عندما يصلون فى محاربتى الى هذا الحد انما يقضون على وعلى أنفسهم .. يقضون على النظام الذى يتكسبون فى نطاقه ويرتفعون به الى قمة البلد .. انهم لا يعلمون أن الحرب بيننا يجب أن تظل دائما محصورة بيننا ، بعيده عن الناس .. بعيدة عن الملايين الذين يسيرون فى الشارع .. انهم لا يعلمون أن هذه الملايين لو ادخلناها بيننا ، او لو استعان بها واحد منا على الآخر فسيقضى علينا كلنا .. ان من صالح اللصين اذا اختلفا الا يستدعى أحدهما رجل البوليس والا قبض عليه هو الآخر ..

ولكن هذا ما حدث ..

لقد بدأ اللصوص يستعينون برجل البوليس ..

بدأت الرأسمالية تقضى على نفسها بنفسها ..

وعادل لا يزال يكتب مقالاته .. ويجد فى اعدائى من رجال الاعمال مصادر تزوده بأسرارى .. والمجلة التى يكتب فيها يرتفع توزيعها اسبوعا بعد اسبوع .. والمجلات الأخرى بدأت تسير وراءه .. ثم لحقتها الصحف اليومية .. ان اصحاب الصحف اكتشفوا أن تملق الشعور الوطنى ، يرفع التوزيع ويدر عليهم ربحا أكثر مما كانوا يقبضونه بتعاملهم فى البورصة السرية .. فبداوا يتزايدون فى اثارة الشعور الوطنى .. لم تبق الا جريدة أو جريدتان واقفتين معنا .. مع النظام الذى نعيش فيه .. النظام الذى يحمينا من الشعب ..

والهدير يقترب ..

هدير صاخب مخيف ..

والجنون فى صدرى بدأ ينكمش فى خوف وجبن ..

ولجأت الى الحكومة .. كانت حكومة الاغلبية .. حكومة الشعب .. آن بين وزرائها اصدقاء لى .. اصدقاء ادفع لهم ، واشتريهم بمالى .. وقد لجأت اليهم لافتح عيونهم على المأساه

وعلى وشك أن يتغلب عليهم ..
التى تقترب منهم .. منا حسبما .. أن الشارع يفلت من أيديهم
ولكن وزراء حكومة الأغلبية كانوا فى ظلام أطماعهم وجشعهم لا يرون ولا يسمعون .. ولا يشعرون .. ان الملك معهم ، والانجليز معهم .. وهذا يكفيهم ليثبتوا فى الحكم ويمعنوا فى جشعهم .. ان الشارع لم يعد له حساب عندهم ..
ورغم ذلك ، ومرضاة لى ، فقد صدر أمر بمصادرة المجلة التى يكتب فيها عادل .. وبالقبض على عادل .. وما كاد هذا الأمر يصدر حتى علا الهدير .. اتحد الشعب كله فى قبضة واحدة ، سارت فى الشارع تهدد ..
واحست الحكومة بالخطر ..
وافرجت عن الجريدة المصادرة ..
ولم يمكث عادل فى السجن سوى أربعة أيام ، خرج بعدها بطلا .. وقد طالت اظافره واصبحت اقوى على خمش وجوهنا ..
ثم حاولت الحكومة ان تشدد قبضتها على الناس .. أن تستعيد سلطاتها على الشارع بكل الطرق ، فاعدت قانونا للصحافة يحميها ويحميني .
وابتسم لى صديقى الوزير قائلا :
ــ اطمئن يا باشا .. احنا حنعرف ازاى نادبهم !
واطمأننت فعلا . ولكن اطمئنانى لم يدم سوى أيام .. ثم ما كاد مشروع الصحافة يعلن ، حتى كشف الشارع عن أسنانه الحادة .. واصبح الهدير فى صوت الرعد .. ورغم ذلك فقد تحدت الحكومة الأسنان التى تكاد تنهشها ، وقدمت المشروع الى البرلمان .. فاذا بأغلبية الأعضاء يتخلون عنها .. نفس الأعضاء الذين ينتمون الى الحزب الحاكم .. أعضاء بعضهم لا يزال يؤمن بالشارع وبما يسمونه حرية الصحافة ، واعضاء عجزت الحكومة عن ان تحقق كل أطماعهم ، وسحبت الحكومة المشروع ..
وانتصر الشارع ..

ثم بدأت الحكومة تتبع سياسة ذات وجهين .. تتملق الشارع من ناحية ، وتتملق الملك والانجليز وأنا ، من ناحية أخرى ..

ولكن الشارع لا يهدأ ..

من الذي يحرك الشارع ؟

لا أحد يدري .. ان في الشارع جمعيات سياسية كثيرة ، وأحزابا صغيرة ، ونقابات ، وهيئات ، وشيئا اسمه « الهيئة العليا للعمال والطلبة » وجماعات ارهابية تغتال وتطلق الرصاص وتقذف القنابل .... وعادل .. وكثيرين مثل عادل .. ولكن ليس هناك واحد بالذات أو جمعية واحدة بالذات ، تسيطر وحدها وتستطيع أن تدعى زعامة الشارع .. ان الشارع يقوده وعى .. وعى لا يتمثل في شخص واحد ، ولا في هيئة واحدة .. وعى فطرى أثارته كتابات الصحف ومزايداتها الوطنية والفساد الجاهل في أداة الحكم ، وضيق الناس وفقرهم ..

ومر عامان والشارع يتمرغ في حرية لم يشهدها منذ اعلان الحرب الثانية .. حرية لا يحدها شيء ..

وأنا حائر ..

انى أستطيع أن أتعامل مع أى نظام .. مع أية حكومة .. انى أعرف كيف أشكل مصالحى مع الظروف التى تحيط بى .. ولكن هذه الأيام لم يكن في مصر نظام ولا حكومة بمعنى الكلمة .. لم أكن أجد شخصا أطمئن الى التعامل معه ..

ثم فجأة اتجه الشارع الى القتال ..

ان الحفاة والطلبة الصغار قرروا محاربة الانجليز .. بالسلاح !

هؤلاء الأغبياء ..

كيف يحاربون الانجليز ، وليس لهم زعيم يقودهم ، وليس لهم حزب يصممهم ، وليست لهم خطة حربية ينفذونها .. كيف يحاربون الانجليز ووراءهم حاكم يطعنهم في ظهورهم ..

اليس هناك من ينقذهم من هذه الحرب .. من هذه المذبحة ؟
اليس هناك من يشفق على هؤلاء الحماة والطلبة الصغار ؟
لا ..
لقد ذهب الصغار والحفـــاه المضللون بايمانهم وفى ايديهم بنادق كلعب الأطفال .. ذهبوا ليموتوا .. فقط ليموتوا .. والحكومة من ورائهم تريدهم تضليلا ، فتشعل من حماسهم لتتخذ منهم اداة تهدد بها الملك حتى يبقيها فى الحكم ..
وانا ..
وانا اتبرع من مالى للكتائب التى تكونت لتحارب الامبراطورية البريطانية فى القتال .. ان الأطفال يطرقون بابى وفوق ظهورهم بنادق وفى جيوبهم خناجر ، ويطالبونني بالتبرع .. فأتبرع خوفا وجبنا وأنا أعرف مصيرهم .. انى اتبرع بثمن قبورهم .. كلهم سيموتون .. كلهم مضللون ..
والملك أيضا يتبرع .. انه أيضا يخاف .. وهو لن يضيره تبرعه حتى يكسب هتافا باسمه من هذه الشفاه البريئة المضللة فى ايمانها .. وسيبقى تبرعه دائما وهميا .. انه لن يدفع شيئا .. فقط سيعلن تبرعه !
وكان لابد ان نصنع شيئا لنقف هذه المهزلة ..
ان الأطفال والحماة يموتون ..
وموتهم لا يهم أحدا .. ولكن المهم ان الانجليز بداو يغضبون .. وبداوا يتذكرون قصة الناموسة التى قتلت فيلا .. وهم اذا غضبوا فقدوا ثقتهم فى الملك ، وفى الحكومة ، وفى الرءوس التى تحدد نظام الحكم فى مصر ..
كان يجب أن نفعل شيئا لنحمى انفسنا من غضب الانجليز ..
وفعلنا ..
حرقت القاهرة ..
ووقفت أشاهد ألسنة النار وانا افرك كفى كأنى أتدفأ بها ..

والمجنون فى صدرى يقهقه .. قهقهة النصر .. النصر على الحفاة والأطفال الصغار ..

واعلنت الحكومة الاحكام العرفية ..

وعرفت المحاربون فى القنال أن النار فى ظهورهم ، فكفوا عن اطلاق النار ..

ولم يخسر اصحاب العمارات والمتاجر التى حرقت شيئا ، انهم فرحوا بحرقها .. ان مصر ستدفع لهم ثمن ممتلكاتهم مضاعفة .. ستدفعها من دم هؤلاء الذين حاولوا طرد الانجليز من القنال .

واقيلت الحكومة ..

وجاءت حكومة أخرى ..

وساد الشارع هدوء كاذب ، ومنع التجول ، ورجال الجيش يصرخون فى وجه كل عابر : « قف .. من انت » ؟ !

وبدات اعيد تنظيم اعمالى .. انى فى حاجة الى صديق جديد يستطيع ان يحمينى ويحمى مصالحى .. لم تعد الاحزاب كلها تنفعنى بعد أن فقدت سيطرتها على الحكم .. لم يعد زعيم ولا قطب من اقطاب السياسة ينفعنى ، فكلهم قد فقدوا نفوذهم واصبحوا اضعف من ان استند اليهم ، واضعف من ان يواجهوا المارد الجديد الذى انتصب واقفا فى الشارع ..

ليس هناك الا شخص واحد استطيع ان اعتمد عليه ..

شخص مستقر ..

الملك ..

نعم .. لماذا لا اجعل من فاروق عميلا لى .. انه انسان قبل ان يكون ملكا .. وهو انسان خسيس كما أعرفه .. والفرق بينه وبين اى خسيس آخر هو فرق الثمن ..

وكان فاروق يكرهنى ، لأنه لم يكن يستفيد منى .. كنت لا العب معه القمار ، ولا اشركه فى مشاريعى ، وأجاهر باعتمادى على الانجليز ..

ولكنى اعرف كيف اكسب حبه .. كيف اجعله يتيم بى ؟

وبدات اتردد على صالة اللعب فى نادى السيارات .. انه هناك كل ليلة يجلس على مائدة الباكاراه ، او مائدة البوكر .

وبدات ادعو رجال الملك ، واغرقهم بالهدايا .. الى ان وضعوا لى مقعدا على مائدة الملك ..

وبدات العب ..

واخسر ..

وكنت اخسر للملك موقاحة ، حتى اشعره بانى اتعمد الخسارة ، وحتى ازيد اطماعه فى .. كان الورق يصل الى يدى فلا انظر فيه .. ثم انتظر الى ان ينظر جلالته فى ورقه ، واقول فى برود :

ــ جلالتك تكسب !

ولم يكن يرفض مكسبا ..

كان يكسب منى فى الليلة الواحدة ما بين الف وخمسة الاف جنيه .. وفى بعض الليالى كان يصر على ان يرفع مكسبه الى عشرة آلاف جنيه ..

ثم دعوته الى شقتى الخاصة ..

ووفرت له هناك كل مباذله .. وانا انظر اليه وهو ينظر الى ، وكل منا يعتبر الآخر ضحية له ..

وفى احدى هذه الليالى ملت على كارم باشا ــ صفى الملك وحبيبه ــ وقلت له :

ــ انا عندى مشروع جديد .. مشروع كبير .. انما مش ممكن يتم الا فى رعاية مولانا ..

وقال فى لهجته الوقحة :

ــ انت عارف مولانا ما يهمش الا بالحاجات الجامدة ..

قلت وانا ارخى عينى حتى لا يجرحه احتقارى :

ــ دى حاجة جامدة قوى .. بس الشرط الاول ان الوزارة

تنشال .. دى وزارة معقدة وما حدش عارف يشتغل معاها أبدا ..

— ويا ترى حاتكسب كام من المشروع ده ؟

قلت وقد بدأت المساومة :

— مش كتير .. يمكن مليون ، ولا مليون ونص !

قال وهو يضحك ضحكة كالنهيق :

— بأه علشان مليون ونص عاير تشيل وزارة بحالها ؟ ..

قلت :

— البركة فيك يا كارم باشا .. ولو جيت للحق ، دى وزارة ما تساويش مليم !

قال وهو يبتسم ابتسامة لزجة :

— نتكلم فى الموضوع ده بكره .. بس اتوصى بسيدنا الليلة !!

وخسرت لسيدنا فاروق فى هذه الليلة خمسة آلاف جنيه ..

وفى مساء اليوم التالى جاء كارم باشا ليرسب الى البشرى . لقد قبل الملك ان يقيل الوزارة على شرط ان ادفع له مليون جنيه .. مليونا كاملا ..

وبهت .. انه مبلغ ضخم .. ولكن بهتى بدأت تزول عندما قدرت الارباح التى يمكن أن اجنيها عندما اسيطر على الحكم سيطرة صريحة مباشرة .. انا الذى اقيل الوزارة .. وانا الذى أضع الوزارة .. انا الذى اسيطر على الجيش وعلى البوليس .. انا الملك .. انا صاحب الجلالة .. ومن ورائى الانجليز يسندون ظهرى ..

وسال لعاب المجنون الذى يعيش فى صدرى وقلت لكارم :

— بس مين حيألف الوزارة الجديدة ؟

قال فى سرعة :

— اللى تختاره .. عندك كارته بلانش يا اكسلانس .. بس فيه شرط واحد .

قلت وقد بدأت أحلامى تنقبض :
— كثير ! ..
قال وابتسامته أصبحت أوسع من شفتيه :
— المليون جنيه تدفعهم فى سويسرا .. مش هنا .. فرنكات سويسرى يا حبيبى ..
وقبلت ..
ان الملك يهرب أمواله .. وأنا أهرب أموالى .. كل الناس تهرب أموالها .. وليس فى هذا الشرط شىء عجيب ..
وعاد كارم يقول :
— وشرط ثان ..
قلت :
— ايه كمان
قال :
— خمسة فى الميه لحسوبك !
قلت :
— قبل ..
قال :
— أنا مش طماع .. حاقبضهم هنا .. اكمل بيهم ثمن العمارة !
وتمت الصفقة بسرعة .. واشترطت أن يتم دفع نصف المبلغ الآن والنصف الثانى بعد تأليف الوزارة الجديدة بشهر ..
وأقيلت الوزارة بعد أيام ..
ورشحت الرئيس الجديد .. أنا الذى رشحته .. ولا تندهشى .. لقد رشحت حسنين باشا شهاب .. انى لم أجد أرخص ضميراً منه .. وعندما يعود الى الحكم ، وهو يعلم انى أنا الذى أعدته ، سيعود كالحذاء القديم ..
وبدأ حسنين باشا يختار وزراءه ..

وقامت ازمة عند اختيار الوزراء ..

واشتدت الأزمة ..

ان جميع السياسيين يحاربون الوزارة الجديدة .. انهم يرتكبون نفس الخطأ .. يتنازعون على الدفة والمركب تغرق .

انهم لا يقدرون ان العاصفة ستهب وستقتلهم جميعا .. وخير لهم ان يستسلموا لى من أن يستسلموا لغضب الشارع ..

ولكنهم لا يستسلمون .. اطماعهم لا تزال تعمى عقولهم ..

وانتابتنى ثورة عاتية .. وأنا احاول ان احل الأزمة الوزارية واجمع عدد كافيا من الوزراء حول حسنين باشا .. ولا استطيع ..

وانتابت الملك نزوة من نزواته ، فطرد حسنين فجأة .. وكلف غيره بتاليف الوزارة ..

وخسرت ..

خسرت مرة اخرى للملك ..

وكان يجب أن استرد خسارتى ، فانقلبت عليه .. على جلالته ، وسلطت كل قواى لأهدم من قواه ..

ولم تستطع وزارة ملكية أن تعيش اكثر من شهر .. وتوالت وزارة بعد وزارة .. وكل وزارة امد لها بنفس الحبل الذى اخنقها به ..

لقد اصبحت مثلهم ..

مثل كل السياسيين ورجال النظام الذى يقوم على وعلى امثالى .. اعمتنى اطماعى كما اعمتهم اطماعهم ، فلم اعد ارى المستقبل .. ولا السحب التي تتجمع فوق رءوسنا ..

كان المجنون خلال هذه الأيام قد طغى على .. لم يترك فى عقلى ولا فى عواطفى ما يدفعنى اليك .. ولم يكن يدفعنى اليك الا هذا الشيء الذى يتحرك فى صدرى ، فلما أسكت المجنون هذا الشيء ، لم يعد هناك ما يربطنى بك .. لم يعد فى شيء يحاول أن يكون شريفا فأهملتك .. انك فقط من ضحاياى .. واحدة من ملايين الضحايا التى أتلذذ بعداوتها ونقمتها على

ولو كنت استطعت ان استولى على والدك كما استوليت عليك .. لو كنت استطعت أن أسيطر عليه واخضعه لعقليتى ، لاسترحت طول حياتى .. لما عانيت هذا القلق الذى عانيته منذ التقيت به .. ولكن والدك فر منى .. ابتعد عنى .. اما انت ، فقد احتلتك ، وانتقمت فيك من قلقى .. واسرفت عليك .. قتلت الشيء الذى يتحرك فى صدرى ، فلم يعد يقلقنى ..

وفى خلال هذه الأيام ، لم يعد يذكرنى بك الا قائمة مصروفاتى الخاصة التى ترفع الى فى أول كل شهر ، ويسجل فيها المبلغ الذى خصصته لك ، أنت وامك .. وكنت أنظر الى هذا الرقم طويلا .. واغتاظ .. انكما تكلفاننى كثيرا .. انكما اغلى نزوة من نزواتى .. وكنت افكر فى أن اخفض هذا المبلغ الذى ادفعه لكما كل شهر .. ثم اعدل عن تفكيرى ريثما أجد وسيلة للتخلص منكما .. ولكنى لم اكن أدرى أين ألقى بكما .. كنت كمن تجمعت

فى شدقيه مصقة ويتحرج أن يقذف بها فى الشارع أمام الناس .. كنت لا ادرى اين القى ببقايا مضغتى ..

وعندما عدت الى القاهرة بعد أن قضيت ستة شهور فى اوربا .. راجعت قائمة مصروفاتى الخاصة ثم قررت ان أزوركما .. أنت وامك .. ذهبت اليكما كأنى صاحب خرابة اريد ان اعاينها لأزيل انقاضها وأبنى مكانها بناء جديداً ..

وفاجأتنى رائحة الخرابة .. لقد أصبحت الشقة خرابة فعلا .. كل ما فيها خراب .. الأرائك الأوبيسون قد اكلح لونها .. والمقاعد المذهبة قد سقط منها الذهب .. وكوم من الثياب المغسولة فوق السجاد العجمى .. وفتح لى الباب السفرجى وهو مرتد جلبابا عاديا .. انه لم يعد يكلف نفسه ارتداء الزى الخاص الذى يرتديه اثناء خدمة اسياده .

ووجدت أمك ..

لقد عادت الى ارتداء السواد .. وطرحتها محكمة الوضع فوق رأسها ، بحيث لا تكشف عن شعرها .. وكل شىء فيها حزين مستسلم كأنه ميت .. وعيناها ميتتان ، وشفتاها ، ولحم عنقها مهدل كاللحم الميت ...

ورفعت الى عينين منطفئتين .. وهمت ان تقوم لتحيتى ولكنها لم تستطع ، فمدت الى يدها مصافحة ، وهى تقول :

— والنبى تعذرنى يا سعادة الباشا .. مش قادره اقوم !

وصافحتها فى امتعاض ، والتفت اليك .. كنت بجانبها .. حزينة مستسلمة انت الاخرى .. صفراء .. كأن نقطة الدم التى نزفت منك كانت كل ما فيك من دم ..

وقلت لكما فى صوت غليظ قاس :

— مالكم قاعدين زى الندابات كده ؟

ولم ترد واحدة منكما ..

وعدت أقول لكما فى صوت اكثر غلظة وقسوة :

— ما تتكلموا .. حصل حاجة .. خرستم ليه ؟ !

ورفعت الى عينيك .. عيناك اللتان كنت اخافهما .. ولكنى لم اعد اخافهما ، فنظرت فيهما بكلتا عينى ، وقلت وانا أواجهك بكل جنونى :

ـ مالك يا هدى .. حصل ايه ؟!

وأجبت فى صوت ضعيف كالتنهيد :

ـ ما حصلش حاجة ..

قلت كأنى أصرخ :

ـ امال مالكم مبوزين كده ؟

قالت امك دون ان تنظر الى :

ـ آدى احنا عايشين .. هوه لازم نضحك علشان نعيش !

قلت وانا اصرخ فعلا :

ـ امال انا باصرف عليكم ليه .. الفلوس اللى بتاخدوها بتعملوا بيها ايه ؟ .. أنا حبيت ارتبكم .. حبيت أعلمكم تلبسوا كويس ، وتاكلوا كويس .. وتتمسحوا وتضحكوا .. انما يظهر ان الواطى عمره ما يعلا ..

وقمت أنت بسرعة دون ان تردى على ، وهرعت الى غرفتك .. وانا انظر وراءك والمجنون يقهقه فى صدرى .. ان بصقتى تفر منى !

وظلت امك جالسة صامتة .. فعدت اقول لها وانا احاول ان اخفض من صوتى :

ـ عبد العظيم ما فاتش عليكم ؟

قالت دون ان تهتز :

ـ لا ..

قلت :

ـ ما اتصلتيش بيه ؟

قالت :

ـ اتصل بيه على ايه ؟ .. ما بقاش له لازمه !

قلت :

ـ ازاى .. ده جوزك !
ورفعت لى عينيها المنطفئتين ، وقالت فى صوت ضعيف :
ـ حرام عليك يا باشا .. كفاية باه اللى اتحمل فى .. ربنا يسامحك !

قلت مبهوتا :
ـ يسامحنى على ايه .. هو عبد العظيم قال حاجة ؟ !
ـ اخويا قال لى على كل حاجة .. الله يسامحكم ..

قلت دون ان احس بالشفقة عليها :
ـ على كل حال احمدى ربنا انك فقت من السكر اللى كنت فيه !

قالت :
ـ باحمده وباشكره .. الذى لا يحمد على مكروه سواه

وقمت واقفا ، وقلت فى حدة :
ـ انا اللى غلطان .. ما كنش لازم اهتم بناس زيكم !

وخطوت نحو الباب .. ثم فجأة وقعت عيناى على صورة كبيرة على الحائط .

انها صورة والدك ..

نفس الصورة التى أنزلتها أمك من مكانها عندما دفعها ذكاؤها الساذج الى محاولة الزواج منى ..

لقد أفاقت من ذكائها ..

افاقت بعد أن حطمتها ، وحطمتك معها .. وعادت تحن الى الزوج القديم .. الى الرجل الفقير البسيط .. محمد افندى السيد ..

وتمهقه المجنون .. ولم استطع ان اكبت قهقهته فى صدرى ، فانطلقت من بين شفتى ضحكة عالية وانا انظر الى الصورة المعلقة

فوق الجدار .. ثم خرجت وضحكتى لا تزال تتجاوب فى البيت الخرب . كأنها صراخ الشياطين ..

وفى اليوم التالى ناديت مدير مكتبى وأمرته ان يخفض مخصصاتكما الى خمسين جنيها فى الشهر .. بعد ان كانت مائة وخمسين .. انكما لم تعودا فى حاجة الى كل هذا المبلغ .. ان أمك تدخره .. ان ذكاءها الساذج لا يزال فيه بقية تلح عليها أن تستغلنى .. ولن اسمح لها باستغلالى .. لم نعد نملك شيئا نستحق من اجله ان اتركها تستغلنى ..

ثم عدت افكر فى التخلص منكما .. فكرت أن انقلكما الى شقة أخرى أرخص من هذه الشقة .. وبعد أن تستقلا ، اترككما وشأنكما تدبران أمركما ..

ولكنى لم انفذ ما فكرت فيه ..

الهتنى المعارك التى كنت اخوضها عنكما ، بل انهتنى عن تتبع اخباركما . ولم اعد اقرأ التقارير التى يرفعها عم جابر ، بواب العمارة ، عن تحركاتكما .. ولو قرأتها لعرفت ان عادل قد جاء اليك .. زارك فى البيت .. فى بيتى أنا ..

لقد جاء وبصحبته ثلاثة شبان ليحموه اذا سلط عم جابر عوانه عليه .. ثم اقتحم العمارة ، وصعد اليك .. ولم ينتظر حتى يسمح له بالدخول ، بل ازاح الخادم الذى فتح له الباب من امامه ودخل ..

واستقبلته أمك دهشة ، واحكمت وضع طرحتها على صدرها كأن انسانا من عالم غريب قد انتصب امامها .. عالم تركته منذ زمن بعيد .. عالم يعترف بالحياء وتغطى فيه النساء صدورهن امام الرجال ..

وانحنى عادل يقبل يد أمك .. انه لا يدرى شيئا عن الخطيئة التى تحملها هذه اليد .. وربما كانت يد الأمهات فى العالم الذى أتى منه عادل ، اطهر دائما من أن تلوثها الخطيئة .. وسحبت

امك يدها بسرعة كأنها تخشى أ. يشم عادل منها رائحة الخطيئة .. ثم نكتت ..

وقال عادل في صوت متهدج .. والسمرجي واقف خلف الباب ليسجل كلماته وينقلها الى في تقرير :

ــ وحشتينا يا عمتي .. والدنى متسلم عليكي وبيسأل عنك ..

وقالت امك من بين دموعها :

ــ عادل .. والله فيك الخير يا سي عادل ..

ثم عادت تجهش بالبكاء ..

وخرجت انت من غرفتك .. خرجت اليه مسرعة كأنك تجرين وراء حلم .. ثم وقفت مشدوهة ! ثم انطلقت من بين شفتيك صرخة :

ــ عادل ..

ووقف قبالتك ينظر اليك في حنان ، وقال في همس :

ــ هدى .. الحمد لله .. الحمد لله !

ولم يأخذك بين أحضانه .. ولم يلمس يدك .. ظللتما واقفين وعيونكما تهتزان كأنكما تنفضان عن حبكما غبار الزمن ، أو كأن كلا منكما يسأل الآخر عن حبه ، الى أن دعتكما الأم الباكية الى الجلوس ..

همس عادل كأنه يخاف أن يفضح سره أمام أمك :

ــ ما كنتيش بتردي على جواباتي ليه ؟ .. انا بعت كتير ..

وقلت انت وشفتاك ترتعشان فوق وجهك الأصفر :

ــ جوابات .. ما جانيش منك جوابات .. آخر جواب جه من زمان .. من زمان قوي .. ورديت عليه ..

قال وكأنه اكتشف سرا :

ــ ماستلمتيش ولا جواب ؟ !

قلت في حياء :

ــ جواب واحد من يوم ما سبنا شبرا ..

وصمت طويلا كأنه اكتشف شيئا لم يكن يعرفه ، ثم التفت الى أمك ، قائلا : .

ــ أنا جاى اخطب هدى يا عمتى .. أنا بعت أمى من تلات سنين عشان تخطبها .. وادور ده جاى بنفسى ..

وصاحت هدى كأنها تحميك من مصيبة :

ــ لا .. لا .. مش ممكن !

ونظر اليك فى تعجب وقال كأنه لا يصدق اذنيه :

ــ لا ليه ؟ .. ده وعد وعشنا بيه طول عمرنا !

واجهشت بالبكاء كأنك اكتشفت فجأة أنه لا يزال هناك بقية من دموعك ، وقلت :

ــ أنا ما يتنفعش اسمع لك يا عادل .. ما اقدرش .. ما اقدرش احورك !

قال وهو يحنو عليك بعينيه :

ــ كل شىء بيتصلح يا هدى .. المهم ان ربنا جمعنا تانى ..

قلت فى يأس :

ــ فيه حاجات كتير مش ممكن تتصلح .

قال فى اصرار :

كل حاجه حا تتصلح .. كل حاجه حا تتصلح !

ثم همس فى صوت خفيض :

ــ أنا باحبك يا هدى .. ما قدرتش انساك وانسى حلمنا احنا الاتنين .. كان كل يوم بيفوت باحبك اكتر ..

وأسرعت دموعك فوق خديك ، وقلت وراسك منكس :

ــ أنا مش هدى اللى بتحبها يا عادل .. أنا هدى تانيه ..

وقالت أمك دون ان تسمع حديثكما ، وهى تمسح دموعها بكم ثوبها :

معلهش يا خويا .. ربنا يعوضك خير .. والنبى انت سيد الناس يا سى عادل .. اما نعمل ايه فى البخت ..

واخذ عادل ينقل عينيه بينكما ، ثم قطب جبينه وقال غاضبا :

ــ انا عاير اعرف الباشا ده وضعه ايه فى البيت .. بدى اعرف عمل فيكم ايه ..

وقالت امك بسرعة وكانها ذعرت

ــ ولا حاجه .. ولا حاجه يا احويا .. ده كان صاحب المرحوم جورى ، وبيرد جميله عليه .. وكل الناس عارفه .

والتفت عادل اليك وقال :

ــ هدى .. ايه اللى غيرك من ناحيتى .. عاجباك العيشة هنا ..

قلت ودمعك فوق خديك :

ــ لا .. لا .. ياريت ارجع شبرا .

قال :

ــ ايه اللى غيرك من ناحيتى امال ؟

ونظرت اليك ثم خفضت عينيك ، وقلت فى صوت خافت وفى حياء يمزق ياسك :

ــ ما تغيرتش .. عمرى ما تغيرت !

قال :

ــ ومش راضيه بى ليه ؟

وقلت :

ــ سيبنى افكر يا عادل .. ارجوك تسيبنى افكر .. انا كنت قطعت الامل منك .. كنت يائسة .. ما فكرتش انى فى يوم حاشوفك تانى .. سيبنى اتلم على نفسى ..

وقام عادل قائلا :

ــ انا مستنيكى فى البيت .. ولو ما قدرتيش تيجى البيت ، حافوت كل يوم من قدام العمارة ، شاورى لى وانا اطلع لك ..

وخرج وانت صامتة ..

وما كاد يخرج حتى سقطت فوق صدر امك تبكين .. وهى

تبكى معك .. تبكيان شيئا فقد منك .. نقط حمراء سقطت منك فوق ملاءة بيضاء ..

ما أغباك ..

ما اغبى هذه الطبقة التى تنتمين اليها .. ماذا يحدث لو ذهبت اليه وانت لا تملكين هذه النقطة الحمراء ..

ولكنك غبية ، وامك غبية ، وكل الفقراء اغبياء .. ونحن نعيش على غبائكم ..

ولم تذهبى الى عادل .. لم تقبلى أن تقــدمى له جســدا مشروحا ، منزوف الدم .

ولم تطلى عليه من الشرفة ، وهو يمر كل يوم امام العمارة وعم جابر البواب يتربص به ..

الى ان كان صباح ..
صباح ٢٣ يوليو بالذات ..

وقمت من النوم على صوت حرس التليفون يدق بجانب فراشي . وصوت مدير مكتبى يقول لى فى صوت مبهور :
ـــ الجيش عمل ثورة .. واحتل القاهرة !
الجيش !!!
ما دخل الجيش فى كل هذا .. لقد كان الجيش يقف منذ شهور فى الشوارع ليحمينا من الناس .. فكيف يقوم بثورة ؟ !
وذهل المجنون الذى فى صدرى ..
واحسست انى فى حاجة الى تفكير طويل ، لافهم ..
وجلست فى بيتى .. لم اذهب الى مكتبى .. انتابنى خوف شديد لا ادرى سببه ، احسست انى لو خرجت الى الشارع ، فسيقابلنى جندى يصرخ فى وجهى : « قف .. من انت » ، وعندما اقول له اسمى ، يطلق على صدرى الرصاص ..
جلست اتلقى الاخبار ، واستمع الى الاذاعة المصرية .. الى بيانات الثورة .. واحاول ان افهم ..

وفى الساعة الواحدة ، جاء عم جابر بواب العمارة والح فى مقابلتى ، وعندما وقف امامى قال كأنه يبلغنى خبرا خطيرا :

ـ الست نفيده وبنتها سابوا العمارة .. خدوا حاجتهم ومشيوا .. يظهر عزلوا ..

ورفعت اليه عينى فى بلادة ..

ونظرت الى شفتيه اللتين انطلق منهما الكلام .. وانا لا زلت احاول ان افهم .

وبدا عم جابر يروى لى تقريره عن كيفية خروجكم من العمارة ..

لقد جاء عادل فى الصباح بين فريق من اصدقائه ، واقتحم العمارة مرة ثانية ، وصعد اليك .. وازاح الخادم من طريقه .. ثم قال لكما ــ انت وامك ــ كأنه قائد منتصر يلقى اوامره الأخيرة :

ــ انا جاى آخدكم شبرا ..

وقالت امك فى اسى :

ــ شبرا .. ما خلاص .. ما بقاش لنا حد فى شبرا ..

وقال عادل :

ــ لكم انا .. وامى .. واختى .. والجيران .. خلاص .. من هنا ورايح ما فيش باشوات ..

وقلت انت :

ــ عادل .. و ..

وصرخ فى وجهك :

ــ ما تتكلميش .. مش وقت كلام .. الثورة قامت . والبلد هايجه .. ولازم تنزلوا معايا دلوقت ..

وعدت تقولين :

ــ خلينى اتكلم يا عادل .. لازم اقول لك على كل حاجة ..

وقال وهو لا يزال يلقى اوامره :

ــ مش عاوز اسمع حاجه .. مين هدومك يا عمتى .. ولا خليهم !

ونظرت انت الى امك ..

ونظرت امك اليك ..

وكان امك قد قررت فجاة ان تستغنى عن الخمسين جنيها التى ادمعها لها كل شهر .. قررت أن تتخلى عن بقية ذكائها الساذج .. كان الثورة قد مستها هى الاخرى وفتحت امامها باب امل جديد . فقامت وقمت معها ثم دخلتما وارتديتما ثيابكما .. وخرجتما وامك تسير وهي تتاوه كانها تسير على سكاكين ..

وشهد عم جابر ثلاثة يخرجون من العمارة ..

شاب يرتدى البنطلون وقميصا مفتوحا ، ويحمل صرة ملابس ..

وفتاة ذابلة صفراء ..

وامراة مهدمة تسير فى خطا ثقيلة ، وتتاوه كانها تسير على سكاكين ..

والشمس تسقط على الثلاثة . كانها تتسلمهم من شقاء كبير ..

وفهمت ..

فهمت أن عادل اخذك منى ..

انى كنت على وشك ان التقى بك انت وامك فى الشارع ، ولكنى لم اكن مستعدا ان ياخذك منى احد .. خصوصا عادل بالذات !

انى قد القى بفتات مائدتى الى فقير ، ولكنى لا اقبل ان يغتصب هذا الفقير فتات مائدتى رغما عنى .. وقد اسرع بالآف الجنيهات لاحدى الجمعيات ولكنى لا ارضى أن تتكون جمعية لاغتصاب قرش واحد من نقودى ..

وقد اغتصبك عادل منى .. اغتصب فتات مائدتى ..

وشعرت بالهزيمة ..

لقد اخذك محطمة ، ورغم ذلك فانى اشعر بالهزيمة .. الهزيمة امام الفقراء .. أمام ملايين من الشبان يرتدون البنطلونات والقمصان المفتوحة ..

وشعرت بالمجنون يئن فى صدرى .. انه لا يتهته .. انه فقط يئن كالقط الجريح .. انه خائف .. انه لم يعد يواجه عادل وحده .. انه يواجه ثورة الملايين ..

ورفعت جفنى عن عينى وقلت لعم جابر فى صوت ضعيف :

ـــ اقفل الشقة وماتخليش حد يخشها الا بأمرى !

وظل عم جابر واقفا أمامى برهة ، كأنه لا يصدق عينيه وهو يرانى أستقبل الخبر بهذا الهدوء والصمت ، ثم هز كتفيه وانصرف عنى .. وعدت أحاول أن أركز ذهنى فيما يجرى حولى .. لعلنى أفهم .. ولعلنى أجد لى طريقا بين الأحداث ..

ولم أخرج من بيتى فى المساء .. مساء ٢٣ يوليو .. ومر بى ليل طويل قضيته ارسم فى خيالى صورا جديدة لنفسى .. صورا تقبلها الثوره .. انى استطيع ان اتشكل فى صور كثيرة .. انى رأسمالى .. هل تعرفين ما هو الرأسمالى .. انه أسلوب مرن فى الحياه والعمل ..أسلوب يمتد وينكمش ويلتوى كالثعبان .. ان الرأسمالى يستطيع أن يكون ديموقراطيا ، ويستطيع أن يكون فاشستيا ، ويستطيع ان يكون اسلاميا أو استعماريا ، أو وطنيا .. أو أى شىء .. كل ما يريده هو ان يجد ثغرة يتنفس منها .. ثغرة يمد منها يده فيعتصر الناس ويحمل من عصارتهم ذهبا يحتفظ به فى خزائنه ....

ان « الرأسمالى » ليس معناه الرجل الغنى .. انما معناه أسلوب معين فى العمل .. العمل الفردى .. وقد كنت رأسماليا منذ كنت مقترا .. منذ تخرجت من مدرسة الفنون والصنائع .. لأنى كنت انسانا فردا ، لا ارى الا نفسى .. لا أرى الآخرين ، ولا اشفق على الآخرين .. والفرد عندما لا يرتبط بالآخرين يستطيع أن يتشكل فى أى صورة تعجبه .. وقد تشكلت فى صور كثيرة منذ ذلك اليوم .. كنت رجل الانجليز ، ثم كنت رجلا وطنيا بعد ثورة ١٩ ، ثم كنت صديقا للوفد وصديقا للأحرار الدستوريين ،

وصديقا للملك .. وفى كل هذه الصور لم تكن هناك الا حقيقة واحدة وهى انى .. راسمالى !!

ولكن اية صورة من هذه الصور معجب هذه الثورة الجديدة ؟

واجهدت فكرى ..

لم اين افكر فى شىء آخر .. لقد اجلت معركتى مع عادل ، واجلت احساسى بالهزيمة ، الى ان استولى اولا على هذه الثورة . الى ان البس الزى الجديد واندس به بين الثائرين ..

وكان يجب ان افهم اولا ماذا تريد الثورة ؟

وفى اليوم التالى ذهبت الى مكتبى .. والدبابات تحتل الشوارع . وليس فوق الدبابات جنود فحسب ، ولكن فوقها ناس مدنيون يرتدون الجلاليب .. انها دبابات تحمل الشعب .. والشعب يهتف فى فرح ..

واخفيت وجهى خلف الجريدة وانا داخل السيارة التى تحملنى الى مكتبى .. كنت لا ازال خائفا .. لا ادرى لماذا

وبدات فى مكتبى اتصل باصدقائى .

اتصلت بالانجليز ..

واتصلت بالسراى ..

واتصلت بالاحزاب ..

انهم كلهم مطمئنون .. الانجليز يقولون : لا تخف .. ليس هناك خطر .. والسراى تقول : لا تخف .. انها ثورة من اجل مطالب الضباط ، وسنجيب مطالبهم .. والاحزاب تقول : لا تخف .. انها ثورة قامت من اجلنا وستسلمنا الحكم ..

لقد خدعوا جميعا ..

خدعتهم الثورة ، وصدقوا البيان الاول الذى اذاعه الثوار وقالوا منه ان هدف الثورة هو تطهير صفوف الجيش من المفسدين والمرتشين !

واردت ان اخدع نفسى مثلهم .. ولكنى امتاز بحاسة تجعلنى

اشم من بعيد .. وقد شممت ريحا لا اطمئن اليها !

وقررت ان اصبر .. انى لم اياس .. لقد مرت بى ثورات كثيرة ، ولن تكون هذه الا ثورة أخرى .. !!

وارتفع هدير صاخب فى الشارع الذى يقع فيه مكتبى .. وقمت وانزويت فى جانب من النافذة ونظرت الى الشارع ..

انهم آلاف من المتظاهرين .. وهم يهتفون .. يسقط الخونة .. يسقط المفسدون .. يسقط العملاء ..

واشتعلت النيران فى صدرى ..

انهم يقصدوننى .. انا الخائن .. انا المفسد .. انا العميل !

صبرا يا كلاب .. سانتقم منكم .. انتظروا حتى استولى على ثورتكم .. ساشتريها بمالى .. كما اشتريت ثورة ١٩١٩ ، وكما اشتريت ثورة ١٩٣٤ .. ثم بعد ذلك سابيعكم كالعبيد واسترد اضعاف ما دفعته ..

وابتعدت عن النافذة .. وامرت مدير مكتبى ان يتصل بمدير الأمن العام ، ليرسل من يحمينى من المتظاهرين .. واعتذر مدير الامن العام .. انه لا يستطيع ان يتحرك .. لانه مثلنا جميعا لا يدرى أين يتحرك ..

ولم يكن المتظاهرون فى حاجة الى بوليس .. لقد انصرفوا عنى .. قالوا رايهم فى وانصرفوا .

وعدت الى افكارى ، احاول ان اكتشف الطريق ..

وفى اليوم التالى ذهبت الى مقر قادة الثورة .. كان كل الكبار يذهبون الى هناك ، يقدمون انفسهم ، ويضعون كفايتهم فى خدمة الضباط الشبان .. لماذا لا اذهب انا الآخـر .. قد لا اكسب شيئا ! ولكنى بذلك اكون قد رسمت خطا فى الصورة الجديدة التى احاول ان ابدو بها .. صورة تصير الثورة ..

ولم يمنعنى احد من الدخول .. ان كل الناس يدخلون .

والحرس الواقف على الباب يبدو مطمئنا كأن الثورة أقوى من كل اعدائها .. كأن أحدا لن يستطيع ان يدخل الا ليستسلم ..

ووجدت نفسي بين ناس كثيرين كلهم يبتسمون .. وضباط كثيرين . كلهم يبتسمون ايضا .. وحاولت ان افهم شيئا .. حاولت ان اعرف اشخاص الثوار .. ولكني لم افهم شيئا ، ولم اعرف احدا .. كلهم يبدون كأنهم قادة ، وكلهم يبدون كأنهم مجرد جنود .. وكلهم يتكلمون كلاما عاما لا استطيع ان اتبين منه شيئا ..

وعدت ..

عدت وانا احس كأني اهنت نفسي .. أنا . حسين باشا شاكر . بعد هذا العمر الطويل .. اسعى لحفنة من الضباط الصغار ..

وبعد يومين عزل فاروق ..

واحسست انى عزلت معه ..

ان فاروق ليس شخصا .. انه نظام .. وقد عزل النظام ..

ان الملك لا يمثل شخصا . والاستعمار لا يمثل دولة . والاقطاع لا يمثل افرادا .. ولكن كل هذا يمثل معنى .. معنى الاستقلال .. معنى حرية الفرد في ان يهزم الآخرين ، ويرتفع على اكتاف الآخرين .. كل ذلك يمثل فلسفة في الحياة .. فلسفتي انا ..

وقد قضى على هذه الفلسفة ..

لماذا لا يتدخل الانجليز .. لماذا لا تتجمع الأحزاب وتحمى النظام الذي عزل ؟ ..

ولكن .. لقد خدعتهم الثورة مرة ثانية ..

اعتقد الانجليز انهم بسكوتهم على عزل فاروق سيرضون الثورة . ويخدعونها ، ثم يضعونها في جيبهم .. واعتقد كل حزب ان عقبة ازيلت من طريقه . وانه يستطيع ان يرتفع الى الحكم

على اكتاف الثورة .. حتى رجال السراى انفسهم خدعوا . واعتقدوا انهم بتخلصهم من سيدهم القديم سيجدون سيدا جديدا اسهل قيادا ..

انا وحدى الذى احسست انى عزلت مع فاروق ..

احسست انى اصبحت وحدى بلا نظام يحميني ..

لقد قطع الراس ، ولن يستطيع الذنب ان يعيش طويلا ..

ورغم ذلك فقد تجلدت .. حاولت ان اخدع نفسى مرة ثانية .. حاولت أن استرد ثقتى بنفسى وقدرتى على التشكل بمختلف الأشكال !

وفى هذه الأيام جاءت زوجتى الانجليزية من انجلترا .. وفرحت بعودتها .. نظرت الى وجهها المكتنز ككتلة الشحم ، تنطبس فيها شفتاها وانفها وعيناها .. وذراعاها الحمراوان كانهما فخذا خنزير مسلوق .. وفرحت .. احسست ان بريطانيا العظمى كلها قد جاءت لتقف بجانبى ..

ولم تحاول زوجتى ان تخفف من مصيبتى .. جاءت كانها وراء خطة عاجلة تسعى الى تنفيذها .. وكانت تسالنى اسئلة كثيرة عن الحالة ، ولا تناقشنى فيها ، ولا تقول رايها ..

وقضت اياما وهى مشغولة .. مشغولة جدا .. ولا أدرى فيم هى مشغولة ..

وانا سادر فى تفكيرى فى الثورة ، واتجلد حتى تهدا هذه الحوادث من حولى .. انى لا استطيع ان اعمل وسط الحوادث المضطربة .. وسط كل هذا الضجيج .. لقد تعودت ان اعمل فى الأيام الراكدة .. الأيام التى ينصرف فيها عنى حماس الجماهير .. كل ما كنت اعمله فى تلك الأيام هو محاولة معرفة اشخاص قادة الثوار .. كنت اسال .. والح فى السؤال .. فاذا قيل لى اسم واحد منهم .. سالت عن اسم ابيه واسم جده .. ثم لا اعرفه ولا اعرف كيف اصل اليه

وفجأة ، في صباح احد الايام من الاسبوع الثاني للثورة عرض عدد كبير من أسهم شركاتي للبيع في البورصة ..

وهوى السعر ..

انه خراب ..

من الذي عرض هذه الأسهم للبيع ؟

انها زوجتي .. زوجتي الانجليزية !

ان هذه الأسهم تملكها .. لم تكن تملكها ملكية خالصة .. ولكني كتبتها باسمها ، باتفاق بيني وبينها على الا يكون لها حق التصرف فيها ..

وهرعت اليها صارخا :

ــ أيتها المجنونة .. انك تفلسينني !

ونظرت الى في هدوء بارد ، وقالت :

ــ انى اصفى أملاكى في مصر ..

ومددت اصابعى نحوها كانى اهم بان اخنقها ، ثم عدت وكمشت اصابعى ، وقلت متوسلا :

ــ لماذا ؟ .. لماذا ؟ .. ان الحالة ليست خطيرة الى هذا الحد .. ان الثورة لم تأخذ منا شيئا .. اننا لا زلنا كما كنا ..

ولم تهتز وهي تراني لأول مرة في حياتها متوسلا اليها .. وقالت وهي لا تزال محتفظة ببرودها :

ــ سأعود غدا الى انجلترا ..

ولم استطع ان اقنعها بان تعدل عن رايها .. ولم احاول ان ارفع ثمن الأسهم في البورصة .. وبدات اضع خطة جديدة .. خطة اوحت الى بها زوجتى .. سأترك ثمن الاسهم يهبط الى آخر حدود الهبوط .. ان ذلك سيهز الثورة ، وينبهها الى خطورة الحالة الاقتصادية ، فتلجأ الى لأعينها .. ستلجأ الثورة الى بدل أن ألجأ اليها .. وفي نفس الوقت سألحق بزوجتى في

انجلترا ، وابقى هناك الى ان تستدعينى الثورة ، فاذا لم تستدعنى اكون فى مأمن منها ..

وسافرت زوجتى ، بعد أن اتفقت مع وكيل يهودى على تهريب اموالها اليها .. وبدأت استعد لالحق بها .. ولكنى فوجئت بعد ايام بزيارة اثنين من الضباط لى فى مكتبى .. اثنين لا اعرفهما ، ولم اسمع باسمهما .. ولم يقل لى سكرتيرى الا انهما ضابطان .. وسمحت لهما بالدخول لمجرد انهما ضابطان ..

واستقبلتهما بابتسامة كبيرة .. ان الثورة بدأت تلجأ الى !

وسكت الضابطان طويلا ، ثم بدءا يتحادثان معى عن الحالة الاقتصادية ، ثم قال احدهما فى ادب جم ، وصوت فيه نبرة حاسمة :

ــ القيادة ترجو سعادتك انك تستقيل من مجلس ادارة شركة الصناعات ..

ونظرت اليه فى غباء ..

انى لم افهم ..

واعاد الضابط كلامه وهو لا يزال محتفظا بهدوئه وادبه الجم .. وقلت وانا اتحدث من خلف ذهولى :

ــ ليه ؟

قال :

ــ والله مجرد اجراء مؤقت ..

قلت وقد بدأت افيق من ذهولى :

ــ اجراء مؤقت ليه ؟

قال فى هدوء :

ــ والله ده كل اللى اقدر اقوله ..

وقلت وانا احاول ان اقلده فى هدوئه :

ــ آسف .. ما اقدرش .. دى اكبر شركة فى مصر ، واستقالتى منها معناها القضاء عليها ..

وقال الضابط في هدوء :

— زي ما تشوف سعادتك !

وانصرف الضابطان بلا ضجيج ، وهما يبتسمان ..

وتركوني وأنا اغلي .. ماذا يريدون .. ماذا يريد هؤلاء المغرورون .. بأي حق يطالبونني بالاستقالة .. بأي قانون .. ان القانون معي .. ومجلس الادارة معي .. والجمعية العمومية معي .. ليرفعوا قضية .. سأكسبها .. اني دائما اقوى من القانون ، واقوى من القضاء .. وساجمع الدنيا عليهم .. سأقنع الانجليز بعزلهم .. بعزل الثورة .. وسأشل مصر كلها .. لن يجد الناس ما يلبسونه ، ولا ما يأكلونه ، ولن يجدوا عملا .. ساجعل جنيهات مصر تقف في الهواء جامدة لا تستطيع ان تتحرك الا بأمري .. و .. و ..

وفوجئت في اليوم التالي بخبر نشر في الصحف بأن مجلس ادارة شركة الصناعات قد حل ، وعين بدلا منه مجلس مؤقت ..

هؤلاء المجانين ..

الا يعرفون من انا .. انا حسين شاكر .. انا سعادة الباشا .. انا المليونير .. انا القوى الجبار ..

ودرت اتخبط بين مختلف الجهات احاول ان استرد مكاني في شركة الصناعات .. ورأسي مشتعل كالنار ..

ولكن .. ان الدنيا تغيرت .. لأول مرة احس ان الدنيا تغيرت .. ليست هذه هي الدنيا التي كنت أسيطر عليها بنفوذي وجبروتي .. انها دنيا اخرى .. وقررت وأنا الهث ، ان احني رأسي الكبير للدنيا الجديدة ..

وبدأت ابحث عن ضابط .. أي ضابط .. لعله ينقذني .. واستطعت أن اصل الى واحد ، لم اكن اعرفه من قبل ، ولكن قيل لي ان له نفوذا كبيرا في القيادة .. واستطعت ان اتوصل الى دعوته لتناول الشاي في بيتي .. وجاء .. جاء مبتسما كأنه يزور

صديقا حميما .. وجلس امامى فى غاية الادب .. ان ادب هؤلاء الضباط يكاد يقتلنى .. وبدات احدثه عن الحالة الاقتصادية ، وعن جهودى الطويله لانعاش الاقتصاد المصرى .. و .. و .. وعن ضرورة عودتى الى مجلس اداره شركه الصناعات .. الى عرشى الذى خلعت منه .. ان الملوك يعزلون عن عروش يرثونها ولا يتعبون فى صناعتها ، ولكنى عزلت عن عرش صنعته بايدى وبذكائى وباعصابى ..

وقال الضابط فى هدوء :

ــ ان الثورة لا تنوى الاستيلاء على الشركة ، بل فقط ستديرها وتوجهها وتحفظ لك كل حقوقك فيها ..

هذا المحول .. هل يدرى معنى ما يقول ؟

ان الثورة ستدير الشركة .. رضينا .. ولكن ستديرها لصالح من ؟ ! هذا هو السؤال الاهم .. هذا هو الحد الفاصل بينى وبين الثورة ..

ان الثورة ستدير الشركة لمصلحة الناس ، ولمصلحة مصر .. كما يروق مصر .. ولكنى كنت ادير الشركة لمصلحتى أنا .. أنا وحدى .. وليهلك الآخرون !

وقلت وانا اخفى عينى تحت جفنى حتى لا يبدو دهائى :

ــ الموضوع ده يمس كرامتى .. ورجوعى لشركة الصناعات باعتبره أمر مهم جدا بالنسبة لى .. رجوعى يساوى فى نظرى عشرة آلاف جنيه .. واكثر من كده .. عشرين الف جنيه !

ورفعت جفنى لاتحقق من تأثير كلامى على حضرة الضابط ..

هل فهم ما أعنيه ؟

ان اقدم له رشوة عشرين الف جنيه ليعمل على اعادتى الى شركة الصناعات .. لابد انه فهم .. انه يبتسم .. انه مبلغ

جسم بالنسبة لضابط لا يزيد مرتبه على اربعين جنيها في الشهر .. نعم .. انه يبتسم .. لابد انه قبل الرشوة ..

وبادلته الابتسام . كأني اهز يده مهنئا نفسي ومهنئا له بالصفقة ..

اني داهية ..

الحمد لله . اني لازلت داهية ..

وقال الضابط في هدوء ، ووجهه جامد ، وابتسامته لا تزال بين شفتيه :

— أما اشوفك ..

وانصرف ..

ونمت ليلتها نوما سعيدا ، وبكرت في الذهاب الى مكتبي ، وبدات احرك اعمالي التي كنت وقفتها منذ يوم الثورة ..

وفي الساعة الثانية عشرة تماما .. سمعت هدير سيارات كثيرة تقف امام مكتبي .. سيارات جيب .. وجنود وضباط على رؤوسهم قبعات حمراء اقتحموا المكتب ، ومعهم فريق آخر من الموظفين المدنيين .. ثم دخل الى ضابط .. نفس الضابط الذي كان معي بالامس .. ونظرت اليه في فزع وقلت مبهور الانفاس :

— حصل ايه ..

قال وهو مبتسم .. نفس ابتسامة الامس :

— حصل خير .. بس عايزين نراجع دفاتر سعادتك !

قلت وقد اشتد فزعي :

— تراجعوا دفاتري !! ليه ؟!

قال في هدوء

ــ استلمنا بلاغ بيقول ان الحسابات المقدمة من سعادتك لمصلحة الضرائب مزورة .. ومع البلاغ بيان بالحساب الدقيق ..

قلت :

ــ مش معقول .. مش معقول واحد زيى يزور .. انا مش تاجر صغير علشان ازور .. انا .. انا .. اقدر اشوف البلاغ ده ؟

وفى هدوء وضع الضابط على مكتبى دوسيها كاملا مليئا بالأرقام ..

انى اعرف هذه الأرقام ..

انها ارقامى ..

ارقام الحساب السرى الخاص بارباحى .. وكل شركة فى مصر لها حسابان ، حساب مزيف تقدمه لمصلحة الضرائب ، وحساب سرى تسجل فيه ارباحها الحقيقية وتحتفظ به لنفسها ..

من اين حصلت الثورة على هذه الارقام ؟ ..

ليس هناك من يعرفها الا انا .. و .. عبد العظيم ..

انه عبد العظيم !!

هذا المجنون .. انه لا يدرى انه مشترك معى فى مسئولية التزوير ، الا يعلم أن ما قد يصيبنى سيصيبه ..

واحسست بالنار تندلع فى رأسى .. نار لم أحس بها من قبل ، ولا قبل لى على احتمالها ..

وتماسكت ، وقلت وانا اضغط على كل اعصابى حتى ابدو هادئا :

ــ البلاغ ده كاذب .. لازم تسجنوا اللى قدمه لكم .. وعلى كل حال اتفضلوا فتشوا فى دفاترى زى ما انتم عايزين .

ونظرت فى وجه الضابط ، ابحث عن رأيه فى الرشوة التى عرضتها عليه .. فلم اجد الا ابتسامته التى لا تفتر ..

وخرج الضابط ، واستوقفته قبل ان يخرج قائلا :

— تحب استنى هنا لغاية ما تراجعوا الحسابات ولا اقدر اروح البيت ؟

قال فى هدوء ، وادب جم :

— لا .. اتفضل سعادتك روح البيت لو حبيت ..

وذهبت الى البيت ، وانا اشعر براسى كطاسة من النحاس المحمى ..

ماذا سيفعلون بى ؟ !

انهم لو طالبونى بضرائب على ارباحى الحقيقية خلال العشر السنوات السابقة ، فمعنى ذلك انهم سيطالبوننى بحوالى عشرة ملايين من الجنيهات !

معنى ذلك ان تستولى الحكومة على جميع شركاتى سدادا للضريبة ..

معنى ذلك ان افلس ..

لماذا لم اسافر مع زوجتى ، واعفى نفسى من كل هذا الهم ؟ !

لماذا لا اسافر غدا ؟ .

ولكن لابد لى من تاشيرة خروج من مصر حتى استطيع السفر . فهل يمنحونى هذه التاشيرة ؟

واذا لم يمنحونى التاشيرة . هل استطيع ان افر فى طائرتى الخاصة .. نعم ، استطيع .. سآمر طيارى الخاص بان ينتظرنى فى مطار الاقصر ، ومن هناك استقل اى طائرة الى لندن !

وكنت افكر ، وراسى كطاسة من النحاس المحمى ..

واتصلت بالتليفون بطيارى الخاص ، وامرته ان يطير الى الاقصر ، وينتظرنى هناك ..

ثم بدات أجمع اوراقى ، وادس بعضها فى حقيبة ، واحرق البعض الآخر .. وانهمكت بين اوراقى حتى طلع علىّ الليل ..

ثم استلقيت على مقعد وحاولت ان اغفو ..

ولم استطع .... وتمت اجوب فى انحاء القصر . كانى مجرم تطارده اشباح جريمته .. وطاسة النحاس المحمى فوق راسى .. وصهد لافح يحرق عينى .. واعصابى تتمزق . كانها يشد بعضها بعضا .. وانفاسى تضيق كانى سأموت .. وقرصات حاده تترك لحمى ، كأن عشرات من الزنابير تقرصنى .. وتعذبنى ..

وفى الساعة الثالثة صباحا فوجئت باضواء قوية تطوف سوامذ القصر .. ثم سيارات جيب محملة بالجنود تدخل الى الحديقة ..

ثم فوجئت بجنود مسلحين يقفون امامى ، واسلحتهم فى وجهى . وضابط يتقدم منى ، ويبتسم فى ادب .. :

وحاولت أن اتكلم .. فلم استطع ..

حاولت ان اتحرك فلم استطع ..

وجحظت عيناى .. انى احس بهما جاحظتين .. وارتعشت شفتاى .. انى احس بهما ترتعشان .. وسمعت اصواتا تخرج من شفتى .. اصواتا ممزقة غير مفهومة .. وطافت بين اللهب المندلع فى راسى خيالات مخيفة .. السجن .. قضبان .. ظلام .. ظلام .. ظلام كثيف .. ثم احسست بجسدى الثقيل يقع على الارض ..

ثم لم اعد ادرى ..

***

وافقت لاجد نفسى فى فراشى .. بجانبى ممرضة فى ثياب بيضاء تبتسم لى .. وباب الحجرة مغلق ..

وحاولت ان اتكلم .. ولكن لسانى ثقيل .. ثقيل جدا .. لا استطيع ان احركه ..

وحاولت ان ارفع ذراعى .. ولكن ذراعى ثقيلة .. ثقيلة جدا كظن من حديد .. لا استطيع ان ارفعها ..

وحاولت ان اهز قدمى .. ولكن قدمى ثقيلة .. ثقيلة جدا كالجبل .. لا استطيع ان اهزها ..

ونظرت الى الممرضة فى فزع .. رأيت فى عينيها لمسة عطف واشفاق واحسست بقطرات ساخنة تسيل على خدى ..

انها دموعى .. دموعى انا ..

انى ابكى .. لاول مرة ابكى ..

انى مشلول ..

- ٢٦ -

كان مجلس قيادة الثورة قد أصدر أمرا باعتقالى .. ثم لما وقعت مريضا اكتفوا بأن اعتقلونى فى بيتى .. ان على باب غرفتى ضابطا يجلس حاملا فى جنبه مسدسا .. وفى بهو الدور الاول يجلس جنديان مسلحان .. ولكنى لست سجين البيت ، ولست سجين هذا الضابط وهذين الجنديين .. انما انا سجين جسدى .. سجين هذا الجسد المشلول الذى لا يتحرك .. انه أضيق سجن .. أضيق من القبر ..

لقد سبق الله الثورة بلحظات ، فأمر باعتقالى فى جسدى .. وانا لا اطيق هذا الاعتقال ..

أريد أن أموت ..

الموت يا رب ..

ولكن ربى لا يرحمنى .. انه يطيل حياتى لأتعذب .. لأتعذب بتفاهتى .. انى لم اعد سوى شىء ملقى على سرير .. شىء يرفعونه ويضعونه .. ويعرونه ويلبسونه .. ويناولونه الطعام فى فمه .. شىء لم يعد فيه من معانى الحياة سوى عينين تغضبان حينا ، وتتوسلان حينا .. ثم تعجزان عن الغضب ، وعن التوسل ، فتبكيان ..

انا .. حسين شاكر .. انا الذى أطلقت حيويتى لتملأ كل دقيقة من عمرى .. انا الذى كنت أبخل بنفسى على النوم .

انا القوى الجبار .. انا الفحل .. انا الذي قبضت على الدنيا بيدي وعصرتها بأصابعي ، وجعلت من عصارتها شرابا لأطماعي .. انا الذي كنت امضغ الناس وابصقهم بقايا .. انا .. اصبحت هذا الشيء الملقى على سرير لا يستطيع حراكا ..

يا رب .. خذ ثروتي وامنحني كلمة استطيع أن انطق بها ..

يا رب .. انى لا اريد نفوذا ، اريد فقط القدرة على ان ارفع ذراعي ..

يا رب .. انى لا اريد من دنياك سوى متر واحد استطيع ان احرك فيه قدمي ..

يا رب .. انى اعرف انك تعد لى عذابا كبيرا في الآخرة ، فاعفني من عذاب الدنيا .. وخذني اليك !

ولكني لا اموت ..

وبدأت افكر في الانتحار .. ولكن كيف .. انى لا استطيع ان احرك ذراعي .. ولا استطيع أن أصل الى اداة اقتل بها نفسي .. كل ما استطيعه هو ان ارفض الطعام ، وارفض الدواء .. كنت اهز رأسي بعنف كلما همت المرضة أن تضع في فمي طعاما أو دواء .. ويسقط الرذاذ على صدري ويلوث وجهي ولكن المرضة لا تيأس .. انها تستعين بالخادم وتضع في فمي ما تريده بالقوة .. لم اعد استطيع شيئا ، حتى الانتحار ..

وكانت تنتابني احيانا ثورة .. ثورة مشلولة داخل جسدي المشلول .. ثورة كل قدرتها ان تنظر شررا بعيني ! وأن تهز رأسي هزات عنيفة فوق الوسادة ، وتطلق من حنجرتي اصواتا قبيحة كخوار ثور مذبوح .. فكانوا في هذه النوبات يستدعون الطبيب ليحقني بمخدر .. وانام .. او اموت موتا مؤقتا ..

واخيرا استسلمت ..

استسلمت للعذاب ..

ولم اكن اعاني آلاما في جسدي .. انه كتلة من اللحم والشحم والعظام ، لا تحس ولا تتألم .. ولكن عذابي كان من عقلي ..

إن عقلي لا يزال صاحيا يرقب كل شيء .. يرقب جسدي المشلول .. ويرقب روحي السجينة داخل جسدي .. ويرقب الضابط الذي يجلس عند باب غرفتي في جيبه مسدس .. يرقب كل ذلك ، ويفكر .. يفكر كثيرا .. يفكر في حدة كأن خلايا مخي تتجمع وتعصر نفسها .. ثم لا تجد حلا .. لا تجد حلا لجسدي المشلول ، ولا لروحي الحبيسة ، ولا لهذا الضابط الذي يجلس عند باب غرفتي ..

لو كان عقلي مشلولا هو الآخر لاسترحت .. ان العقول المشلولة تريح أصحابها ، والعقول الصاحية التي تعجز عن أن تجد حلا هي التي تعذب أصحابها .. انها عقول أشبه بأسود في أقفاص من حديد ، تروح وتهدر داخل الاقفاص دون أن تجد ثغرة تنفذ منها ..

وكان الضابط يدخل الى غرفتي بين الحين والآخر ، ويحييني باحترام ، ويسأل الممرضة عن صحتي ، ثم يبتسم لي في أدب ، وينظر الى في حنان .. كأن ليس بيني وبينه عداوة .. كأنه ليس سجاني .. كأنه يفرض أني أعذره وأعذر ثورته ..

كيف أعذر هذا الشاب المغرور ؟ !

كيف أعذر هذه الثورة المجنونة التي تتصور أن مصر تستطيع أن تعيش من غيري ؟ !

ورغم ذلك ، ففي فترات يأسي ، كنت أجد عقلي ينظر الى ما حدث لي ، من وجهة نظر الثورة .. كأني أصبحت أحد الثوار .. وكنت في هذه اللحظات أعذرهم .. نعم ، كانت تمر بي لحظات ، أعذر فيها الثورة ..

كنت أرى أن هذه الثورة قامت ضدي .. ضدي أنا وحدي .. لم تقم ضد الملك ، فالملك هو الشعار ، وأنا الحقيقة .. ولم تقم ضد الأحزاب ، فالأحزاب كانت الأداة ، وأنا كنت المنفذ ..

انها ثورة قامت على الفساد .. والفساد لا ينحصر في أحلامي

بضعة ملايين من الجنيهات .. الفساد لا يقاس بالارقام .. ولكنه يقاس بأسلوب العمل .. وعندما تبدأ الثورة العاقلة في البحث عن الفساد لا تسأل أعداءها : كم ربحت ؟ ولكنها تسأل : لمصلحة من تعمل ؟ ! فقد يكون هناك شخص يربح الكثير ، ولكنه ليس مفسدا ، لانه يعمل لمصلحة الناس ، ولا يستغل احدا ، ولا يمتص دماء أحد .. وقد يكون هناك شخص يربح القليل .. القليل جدا .. ورغم ذلك فهو مفسد ، لأن أسلوبه في العمل أسلوب الفساد .. انه يعمل لمصلحته الشخصية ضد مصلحة الناس ، ويمتص دماء الناس ..

هذا هو منطق الثورة العاقلة ..

وهو منطق تستطيع ان تقنعني ، عندما أفكر تفكيرا مجردا عن أطماعي ومصالحي الخاصة .. ولكني لا أستطيع أبدا أن أفكر تفكيرا مجردا عن أطماعي .. ثم اني لا أومن بأن هناك ثورة عاقلة .. ان كل الثورات التي شهدتها كانت ثورات ساذجة .. ثورات تقوم ضد الاحتلال الانجليزي .. لا .. ليس ضد الاحتلال ؛ بل فقط ضد شكل الاحتلال .. وكانت هذه الثورات تجمد بمجرد أن يتخذ الاحتلال شكلا جديدا ، والاحتلال كرأس المال ، يستطيع ان يتخذ عدة أشكال .. ويستطيع أن يلبس أردية مختلفة في ألوانها .. انه يستطيع ان يرتدي زي قسيس ، وزي شيخ ، وزي حاخام ، وزي ملحد .. ان الاحتلال هو رأس المال ..

ولم أكن أنتظر من هذه الثورة أكثر مما فعلته الثورات الأخرى .. أن تطلب فقط تغيير شكل الاحتلال .. ولكني خدعت في هذه الثورة عندما قستها بالثورات الأخرى .. وكذلك خدع فيها الانجليز .. وما كنا لنخدع فيها لو عرفنا منذ اليوم الأول قادتها الحقيقيين .. لو عرفنا أن ليس من بين هؤلاء القادة وزراء سابقون ولا احد من ملاك الأرض كما كان قادة ثورة ١٩١٩ مثلا ..

انهم كلهم من أولاد صغار الموظفين ، وصغار التجار ، وصغار المزارعين .. انهم أولاد الطبقة الوسطى الصغيرة .. انهم مثلك ومثل عادل .. أولاد محمد افندى السيد الموظف الصغير الذى استعصى على ، وتعفف عنى .

ولن تكتفى هذه الطبقة بتغيير شكل الاحتلال .. انها طبقة لها مصالح مرتبطة بمصالح الفلاحين والعمال .. مصالح تتعارض مع مصالحنا ومع أطماعنا ومع أسلوبنا فى العمل .. وكان من المنطق .. منطق هذه الثورة .. أن تقضى على أطماعنا ، وعلى أسلوبنا ..

وعندما كنت انظر الى الثورة بمنطقها ، كنت أستريح .. وكنت أشعر بالشىء الذى فى صدرى يهدأ ، ويبتسم لى ..

لقد عاد هذا الشىء يتحرك فى صدرى ..

خيل الى يوما انى قتلته .. تخلصت منه .. وسكن مكانه مجنون يملأ فراغ صدرى بقهقهته ..

ولكن ، لا ..

ان هذا الشىء لا يموت أبدا .. انه لم يمت عندما مات والدك محمد افندى السيد ، ولم يمت عندما اعتديت عليك ، والمجنون الذى سكن مكانه ظل يكمش جبنا وخوفا من الثورة ، حتى تلاشى .. ذاب .. واذا بهذا الشىء لا يزال حيا فى صدرى .. يتحرك .. ويقلقنى .. ويعذبنى ..

وبدأت المعركة من جديد ..

معركة بين ذكائى الذى صنعت به مجدى على جثث ضحاياى ، وبين هذا الشىء .. الشىء الذى يسميه البعض : الضمير ..

كان ضميرى يهدأ وهو يناقش الثورة من وجهة نظرها ، ثم لا يلبث ذكائى أن يتمرد عليه ويبدأ فى الدفاع عن أطماعى .. « لماذا تسميها أطماعا .. انها خدمات .. خدمات جليلة أديتها لوطنك وللناس .. لقد انشأت لهم كل هذه الشركات .. واوجدت

عملا لهذه الألوف من العمال والموظفين .. فماذا كانت تساوى مصر من غيرك .. واين كان يذهب هؤلاء العمال والموظفون .. لولاك لكانوا الآن يشحذون .. يقول امك كسبت أرباحا هائلة .. وايه يعنى .. هذا اقل ما تستحقه .. تقول امك تعاونت مع الاستعمار .. وايه يعنى .. لقد كان الجميع يتعاونون مع الاستعمار .. ولو كانت هذه الثورة منصفة لأقامت لك تمثالا ، لانهم يحسدونك على مالك ، وعلى نجاحك ، وعلى ثرائك .. انها ثورة اشعلها الحقد الشعبى على الناجحين .. حقد العبيد الذين يعجزون عن أن يكونوا أسيادا .. يجب أن تكره هذه الثورة .. اكرهها ، وقاومها .. حاول أن تحمى نفسك ، وتحمى اموالك منها » ..

كان ذكائى يقول لى هذا الكلام .. وانا اعلم انه ذكاء عاجز .. لم يعد يستطيع شيئا .. عاجز وهو حبيس هذا الجسد المشلول .. وقد ابعدت عنه كل ادواته التى كان يعمل بها .. ابعدت الأحزاب ، وابعد الملك ، وابعد خدام اطماعى ، وتخلى عنى الانجليز بعد أن خدعوا فى الثورة ..

وهذا الضابط يدخل الى غرفتى ، ويحيينى باحترام ، ويسأل الممرضة عن صحتى ، ثم يبتسم لى فى ادب ، وينظر الى فى حنان ..

انه يكاد يقتلنى ..

وانى ارى فى وجهه صورتك ، وصورة والدك محمد افندى السيد ، وصورة امك تفيدة ، وصورة ملايين من ضحاياى .. الملايين الذين كنت ابتز قوتهم عندما أرفع الأسعار ، وابتز قوتهم عندما اهبط بسعر القطن ، وابتز قوتهم عندما اهوى بأجور العمال ..

كلكم هذا الضابط ..

الفرق الوحيد هو أن هذا الضابط فى جنبه مسدس .. ولن أستطيع أن أخدعه ، كما خدعتكم ..

يخيل الى ان هذا المسدس فى يدكم جميعا ..

انكم جميعا مسلحون ..

واسلحتكم موجهة الى صدرى ..

ورغم ذلك فهذا الضابط لا يزال يبتسم لى .. كأن المسدس الذى فى جنبه سلاح للحب ، وليس سلاحا للحقد والانتقام .. والثورة تعاملنى برفق ورحمة كأنى أتفه من أن أكون عدوا لها .. كأنها واثقة من انتصارها الى حد أن تشفق على أعدائها ..

وقد وفرت لى الثورة كل وسائل العلاج — على حسابى طبعا ! — وبدأ الشلل ينحسر عن نصفى الأعلى .. بدأت شيئا فشيئا أحس بذراعى .. أحسست كأن جيوشا من النمل تمشى فوقها .. ثم مع الأيام اختفت جيوش النمل ، واستطعت أن أحرك ذراعى ..

وابتسم الأطباء ..

وابتسم الضابط الذى يحمل المسدس .. كأنه لا يخاف اذا ما حركت ذراعى ..

ومع الأيام بدأت أحس أنى أستطيع أن أحرك لسانى .. كان مجرد احساس يدفعنى الى تركيز ارادتى فوق لسانى .. ثم فجأة فى صبيحة أحد الأيام ، قال الطبيب وهو يفحص فوق صدرى :

— قلبك سليم .. زى ما يكون قلب شاب عنده عشرين سنة . وطول ما قلبك بالقوة دى ، ضرورى حاتخف ..

وحركت لسانى ، ولم أكن أنتظر أنى سأنطق به شيئا .. حركته كمجرد محاولة من ملايين المحاولات التى أجريها كل يوم ولكنى سمعت صوتى .. سمعته بعد أن غاب عنى ستة أشهر .. سمعته وهو يقول :

ــ متشكر .. متشكر يا دكتور !

واسم الطبيب ..

وابتسم الضابط ..

وابتسمت ابتسامة كبيرة ، واخذت اكرر كلمة « متشكر .. متشكر » .. كأنى عدت الى الحياة ..

كانت فرحة عمري .. فرحة لم احس بها في حياتي ابدا .. ان كل ما جنيته من ايامي لم يفرحني قدر فرحتي بكلمة تخرج من لساني المشلول ..

ولكن قلبي السليم لم يستطع ان يدفع الحياة الى نصفي الاسفل ..

انى لا زلت مشلولا ..

لا زلت شيئا ملقى على السرير .. يرفعونه ويضعونه ، ويعرونه ويلبسونه .. كل ما حدث أن هذا الشيء اصبح يتكلم .. وعندما استطعت ان اتكلم ، اكتشفت انى لا استطيع ان اقول شيئا .. لا استطيع الا ان اقول « حاضر » .. حاضر للطبيب .. وحاضر . للمرضة .. وحاضر للضابط الواقف على بابى .. حاضر .. حاضر .. حاضر .. انى لم اعد استطيع ان اقول « لا » .. ولم يعد من حقى ان ارفض ما يملى على .. دائما « حاضر » . واقولها في استسلام وضعف ..

ان الشلل ليس في نصفي الأسفل ، فحسب .. انه في روحي ايضا .. شلت روحي ، واصبحت روحا عاجزة جبانة ، تنطوى على حقدها .. وكانت تمر بى لحظات اتمنى فيها أن اصرخ .. ان العن .. ان اقول رايي بصراحة في هؤلاء الضباط .. ولكن الجبن كان يكبت صراخى ويحيله الى ابخرة ساخنة تحرق دمى ، وتذيب اعصابى .. واكتم الالم الدفين ، ثم ابتسم ، واحنى رأسي الكبير ، واقول : حاضر !

ولم تدم فترة اعتقالى في بيتى طويلا .. لم تدم اكثر مما

استغرقته عملية مراجعة دفاترى ، ثم أصدرت قيادة الثورة أمرا باستيفاء قيمة الضرائب المستحقة على ، من الاسهم والسندات التى املكها .. وبذلك اصبحت الحكومة هى صاحبة الحق الأول فى كل شركاتى .. استولت على شركة الصناعات .. امتها .. ولكنها لم تؤممها تطبيقا لمبدأ من مبادىء الثورة ، ولكنها أممتها استيفاء لديونها على .. وباقى الشركات ايضا اصبحت للحكومة اغلبية الاسهم ، فاصبحت بذلك صاحبة الحق فى ادارتها .. وطردتنى !

واهتزت دوائر الاعمال فى مصر لهذه القرارات ..

اهتزت مصر كلها ..

وقيل انها ثورة شيوعية .. وبدأ رجال الاعمال يهربون ، والذى لا يهرب بنفسه ، يهرب أمواله الى الخارج ، والذى لا يستطيع ان يهرب أمواله يجمدها .. ان الأموال المجمدة اشبه بالجثث الميتة .. وكان رجال الاعمال يحاولون ان يجعلوا من مصر جثة ميتة لا تجرى فى عروقها دماء .. اى لا تجرى فى عروقها أموال ..

وكنت اعلم — ورجال الاعمال يعلمون — ان هذه الثورة ليست شيوعية .. اننا نعرف طبيعة الثورات الشيوعية .. وهى ليست طبيعة هذه الثورة .. ورغم ذلك فقد اردنا ان نشيع حالة من الذعر فى السوق الاقتصادية ، واردنا ان يقتنع العالم بأنها ثورة شيوعية .. لعل بريطانيا تتحرك ضد الثورة .. او لعل أمريكا ايضا تتحرك ضد الثورة ..

وبدأت بريطانيا تتحرك ..

وبدأت أمريكا تتحرك ..

ولكن الثورة لم تخف .. لم تجبن .. ان هؤلاء الشبان لا يخافون حتى بريطانيا وأمريكا .. ان اعصابهم لا تهتز ، ولا تتخلى عنهم .. انهم لا يزالون يحاولون خداع بريطانيا وأمريكا

.. وقد كنت اعتقد ان قوة الثورة في السلاح الذي تحمله .. ولكن هذا السلاح لا يقاس بالسلاح الذي تحمله بريطانيا وامريكا .. فكيف تستطيع الثورة أن تتحداهما وتستمر في خداعهما .. أي قوة تستند اليها .. انها لا تعتمد الى دولة اجنبية ، ولا تستند الى جيش اجنبي ، ولا تستند الى احزاب .. انها تعتمد فقط على الناس .. على الشعب .. وقد كان الشعب موجودا دائما ، ولكننا لم نكن نعتمد عليه .. كنا نعتمد على الملك ، وعلى الانجليز ، وننسى أن هناك قوة ثالثة .. وربما لم ننسها ، ولكننا لم نكن نؤمن بها ، لم نكن نعرف كيف نستغلها ..

وفي نفس الوقت بدأ شبان الثورة يتخذون قرارات جريئة حاسمة لحماية الاقتصاد القومي .. لقد اصدروا أمرا يمنع المصانع من التوقف عن العمل ، ويمنعهم من الاستغناء عن العمال حتى لو ادعى اصحاب المصانع الخسارة ، وبدأوا يخرجون مدخرات النقابات والهيئات ويوظفونها في الميادين الاقتصادية ، حتى يتغلبوا على محاولة رجال الاعمال تجميد السوق .. و .. و .. و .. والناحية الوحيدة التي فشلوا فيها هي اجتذاب رءوس الأموال الأجنبية الى مصر .. لقد اصدروا عدة قرارات تمنح رءوس الأموال الأجنبية عدة امتيازات ورغم ذلك لم يدخل مليم واحد الى مصر .. فقد كنا — نحن رجال الأعمال — قد نجحنا في تشويه سمعة الثورة في الخارج ..

ولم تأبه الثورة كثيرا برءوس الأموال الاجنبية .. استمرت في طريقها واثقة بنفسها ، متمالكة كل اعصابها ، وبلغ من ثقتها أن اطلقت سراحي ..

اني حر الآن ..

حر في أن أخرج من البيت ، ولكني مشلول القدمين ، لا استطيع أن اخرج .. وليس لي نصيب من الدنيا الا هذه المساحة الضيقة الجامدة التي اطل عليها من نافذة حجرتي ..

وحر في ان استقبل من اشاء من الزوار .. ولكن احدا لا يريد ان يزورني .. الكلاب الذين اطعمتهم ، وعودتهم على ان يقبلوا مواضع قدمي ، كلهم تخلوا عني .. لا يريد احد منهم ان يزورني .. كل منهم يتبرأ مني وينكر نعمتي عليه ..

وانا حر في ان احادث من اشاء في التليفون .. ولكن احد لا يريد أن يحادثني ، ماذا اتصلت باحد رد علي في جفاف ، أو انكر نفسه عني .. انا الذي كنت اعتبر اتصالي بالتليفون مع احد منة انعم بها عليه .. انا الذي كان لا يوجد من يرد علي في التليفون الا واقفا على قدميه يرتعد من الرهبة ، وبجانبه زوجته تتقصع كأنها ترسل الي اغراءها عبر اسلاك التليفون ..

وانا حر في ان اعمل ، ولكني لا اجيد الا نوعا واحدا من اساليب العمل .. اسلوب لا استطيع الآن ان اباشره ..

ن الثورة افرجت عني فعلا ، ولكن الناس لم يفرجوا عني .. لقد حبسوني في دنيا بعيدة عنهم .. دنيا من فراغ هائل .. دنيا ليس فيها احد .. اني اتمنى ان ارى اى احد ، حتى لو كان عبد العظيم ..

ولكن اين عبد العظيم ؟

لقد اعتقد المعلم انه يستطيع ان يخدع الثورة ، فوضع نفسه في خدمتها .. في خدمة السيد الجديد .. ووضع بين يدى هذا السيد كل الأسرار التى اختزنها طوال الأعوام الطويلة التى قضاها معي .. ليست اسراري وحدي ، بل اسرار كل رجال الأعمال واسرار الشركات وأسرار البورصات .. وسكتت عليه الثورة وقربته حتى استنزفت كل اسراره .. وخيل للبعض — في هذه الفترة — انه اصبح من اصحاب النفوذ في العهد الجديد ، فالتفوا حوله .. يسيرون في ركابه .. ثم اقتنع عبد العظيم نفسه انه أصبح من اصحاب النفوذ .. اصبح حسين شاكر الثورة .. وثقل عليه الغرور حتى اختل توازنه .. نسي نفسه ..

ونسى الثورة .. وتحرر من حرصه فبدأ يعمل بنفس الأسلوب القديم .. ولم احقد على عبد العظيم وأنا اسمع عن سطوته الجديدة ، بل تمثيت فى قرارة نفسى ان يخدع الثورة .. وان يستشرى فساده .. لو استطاع عبد العظيم أن يخدع الثورة ؟ فانه — دون أن يتعمد — سيخدعها لحسابنا ، وسيعيد الينا كلنا نفوذنا وسطوتنا .. وبعد ذلك من السهل القضاء على عبد العظيم .

ولكن فجأة ، وجد عبد العظيم نفسه فى السجن ..

قبضت عليه الثورة لتحاسبه على فساده القديم والجديد .. وضربة ؟ !

لقد قامت تتنفس هى الأخرى فى الفترة التى لمع فيها نجم عبد العظيم .. ثم لما سجن عبد العظيم اختفت .. واختفى معها فريق كبير لا يستطيع ان يعيش الا فى الضوء الملوث الذى ينطلق من حول امثال عبد العظيم .. ان حيرية الآن زوجة .. مجرد زوجة .. وتقلصت أطماعها الى حد الاكتفاء بعشيق يرضى بما بقى معها ، ويجود عليها ببعض الهدايا المتواضعة .. وزوجها لا يدرى لماذا اصبحت زوجته مجرد زوجة .. ولا يفهم شيئا مما يجرى حوله .. لا يفهم سر تعاسته .. لماذا لا يضحك الناس فى نادى السيارات ؟.. ولماذا لا يلعبون البلياردو ؟.. ولماذا انكمش الرخاء من بيته ؟ .. انه لا يدرى الا انه تعيس ، ولا يستطيع ان يفر من تعاسته ..

وبقية الباشوات ، أعضاء مجالس ادارة شركاتى ، اين هم ؟

انهم ينطوون مثلى على حقدهم ، وقد قبض على واحد منهم وقدم آخر الى المحاكم فانكمش الباقون ودخلوا جحورهم والناس تتساءل : هل لا يزالون احياء .. وانا افتح الجريدة كل صباح فأقرأ أن احدهم قد مات ، فأدهش لانه كان لا يزال حيا !!

اننا كلنا أموات ..

اننا مجمدون كالموت ..

ولكن الشيء الذى فى صدرى لا يموت .. انه حى كما لم يكن حيا ابدا .. انه ينطلق كالمارد ليحاسبنى على عمرى ، حسابا قاسيا لا يرحم فيه شللى ..

وصور حياتى سوالى امام هذا المارد ميثور ويضغط على صدرى حتى يكاد يكتم انفاسى ويصرخ حتى يكاد يمزق رئتى ..

ان ذكائى لم يعد ينفعنى .. لم يعد يستطيع ان يحمينى من هذا المارد .. لقد كنت كلما ارتكبت جريمة وحاول هذا المارد ان يحاسبنى عليها ، اعقبتها بجريمة اخرى ، اسمل فيها ، حتى اسكته .. وهذا المارد يحاسبنى اليوم عن كل جرائمى .. ولا استطيع ان ارتكب جريمة اخرى لاهرب من حسابه ..

لقد تكشفت حياتى كلها امامى ..

حياة بشعة ..

ونظرت الى ما كنت اعتقد انه نجاح واذا بى اكتشف انه فشل .. والى ما كنت اعتقد انه نفوذ ، فاذا به ضعف .. والى ما كنت اعتقد انه هيبة وجلال ، فاذا به سمحة كاذبة ..

انى انسان فاشل ..

فاشل منذ يومى الأول ..

كل هذا الثراء وكل هذا السلطان الذى حققته .. وانا فاشل .. فاشل .. فاشل لانى لم استطع ان اكون سعيدا ..

انى لم اكن سعيدا فى اى يوم من حياتى ..

لقد كنت عنيفا .. كنت حقودا .. كنت قاسيا .. كنت غنيا .. كنت اقيم فى قصر .. وكنت اركب سيارة .. ولكنى لم اكن ابدا انسانا سعيدا ..

كنت آخذ ما اريد .. ولكنى لم اسعد ابدا بما اخذته .. فقد كنت اعتقد ان السعادة هى فيما المسه بيدى ، لا فيما يسمو بروحى .. وما المسه كنت افقد لذته بمجرد ان ارفع عنه اصابعى

.. الاكل .. التصور .. المال .. الاجساد .. كل هذه اشياء لا تعيش الا لحظات ولا تثير الا شهوة الحيوان ، ثم لا تترك اثرا وراءها الا فراغا يدوى فيه الجشع والطمع والحقد ..

ان السعادة هى سعادة الروح ، وقد كانت روحي شقية ، فقيرة ، خاوية ..

فشلت فى ان اسعد روحى ..

والانسان الناجح الذى اعرفه هو محمد افندى السيد .. لانه كان انسانا سعيدا .. سعيدا برضائه عن نفسه .. باحترامه لنفسه .. وسعيدا ببيته .. سعيدا بزوجه ، وبابنته .. سعيدا بالحب .. وانت ايضا .. انك سعيدة .. رغم كل شىء .. ورغم جسدك المشروخ الذى لوثته بجنونى .. فانت سعيدة .. ولا ادرى ان كنت تزوجت عادل ام لم تتزوجيه ، فان اخباركما قد انقطعت عنى منذ مدتما الى شبرا .. لم اعد اراك ولكنى اسمع صوتك فى اعماق ضميرى ، ولم اعد ارى عادل ولكنى اسمع صوته فى كل قرار تصدره الثورة ..

وكل ما اعلمه عنكما انكما لابد ان تكونا سعيدين .. لانكما تعيشان فى الحب ..

نعم ، الحب ..

انى لم احب ابدا .. هذا صحيح ، انى لم احب ابدا .. لم احب امراة .. ولم احب الناس .. لقد عشت لنفسى فقط .. حتى نفسى لم احبها .. وانما عشت لاحطمها بذكائى الشرير ..

نعم ، لم احبها .

وقد تمنيت هذا الحب عندما رايتك .. تمنيت ان احبك كما احبك والدك .. وتمنيت ان احبك كما احبك عادل .. ولكنى لم

استطع .. كان شرى اقوى من حبى .. فحطمتك .. وحطمت الحب ..

ولكنى الآن احبك ..

احبك بعد ان اكتشفت الحقيقة التى تاهت عنى .. بعد أن اكتشفت ان السعادة هي الحب .. حب الناس .. حب المجتمع .. السعادة ، هى مجتمع سعيد .. انى لا استطيع ابدا أن اكون سعيدا وحدى .. يجب أن يسعد الناس من حولى حتى يوفروا لى السعادة .. ان السعادة شعاع ينطلق من النفس ليلتقى بشعاع ينطلق من نفوس الآخرين ، فتتم الدورة ، وتتولد السعادة ..

ولكنى عرفت ذلك بعد ما انتهى نصيبى من الدنيا .. لم يعد لى ايام اعوض بها شقائى..

***

حبيبتى هدى ..

هذه آخر مرة ادعوك فيها حبيبتى .. انى اموت .. انى احس باصابعى تتراخى فوق قلمى .. واحس بالسطور تغيب فى غبار اشبه بالرماد .. وانفاسى تضيق .. وشىء حاد يسكننى فى قلبى .. وآلام كالقرصات تبرىء لحمى ، وتفكك عظامى .. انى احس بالشلل يزحف من فوق ساقى ليبتلع بقية جسدى .. انى اموت ..

لقد تعذبت كثيرا قبل ان اموت ..

تعذبت بحياتى التى خلتها انتصارا ..

وتعذبت بحياتى بعد الثورة التى خلتها هزيمة .. وتعذبت بهذا المارد الذى ينتصب فى صدرى ليحاسبنى .. تعذبت بالفراغ الهائل الموحش الذى القيت فيه جثة مشلولة ..

وقد مضى على ستة اشهر وانا اكتب اليك .. لقد قال لى الاطباء ان الكتابة تترسى من الموت .. هؤلاء الاغبياء .. انهم لا يعلمون انهم بذلك يغروننى بالكتابة ..

لماذا كتبت اليك ؟ !

انى كما قلت لك لا اطمع فى صفحك .. ان جرائمى اكبر من الصفح .. حتى صفح الله ..

الله ..

آه لو عرفت الله قبل ان اختار طريقى فى الحياة .. آه لو آمنت به .. فلعلى كنت الآن سعيدا .. وربما وجدت الحب .. ولكنى لم اعرفه . ولم اومن به .. لقد عشت وحدي . لا اقبل ان يشاركنى احد حياتى ، حتى الله ..

لماذا اكتب اليك ؟ !

لست أدري ..

ولكنى استرحت وانا اكتب اليك .. استرحت وانا اقول لك الحقيقة .. كل الحقيقة ..

ربما كتبت اليك ، فقط لتعرفى الحقيقة .. الحقيقة التي كانت تائهة عنك .. وعن الناس ..

انها رشوة أقدمها لله .. انى ارشوه باعترافى لك .. فهل يقبل الله الرشوة ؟

يبدو انى لا اتوب أبدا .. فانى لا زلت اتحدث بلغة رجال الاعمال ..

وربما استرحت انت أيضا بهذه الحقيقة .. انك على الاقل تعرفين الآن انه ليس الله الذى شرح جسمك وحطم امك .. انه الشيطان .. انه انا ..

وداعا ..

وداعا يا املى الكبير الذى لم اصل اليه أبدا ..

وداعا .. وحاولى أن لم تصفحى عنى أن تفهمينى .. ان

تفهمى انى رجل حاولت ان اكون شريفا فلم أستطع ..
وداعا مرة ثانية ..

لن أقتلك ، حتى لا الوثك .. سأوقع خطابى وشفتاى محرومتان .. نعم سأوقع خطابى .. انها آخر مرة اضع فيها توقيعى على ورقة ..

سأو . . . .

. . . .

الفصـــل بعــد الاخــير

وتوقف حسين شاكر عن الكتابه ، والساعة الثالثة صباحا .. والنار مشتعلة في المدفأة .. والقصر هادىء ..

ومال برأسه المكسر فوق الوسادة ، واختلط بياض شعره بياض الملاءة ، ثم بعد يبدو فوق الوسادة الا كتلة من اللحم الازرق ، فيها تجاعيد سوداء كأنها عينان .. وفيها شيء بارز ذو لون قاتم كأنه أنف ، وفيه قطعتين من اللحم المهدل المعفر كأنهما شفتان ..

وتنهد حسين شاكر في صوت محشرج ، كأن تنهدته خرجت من ثقب في رقبته .. ثم تحامل على نفسه وعاد يرفع رأسه من فوق الوسادة .. وقد بدا مرتعشة انتثرت فوقها بقع غامقة كأنها تراب الزمن .. وامسك بالورقة وقربهــا من عينيــه المكدودتين ، وقرأ السطور الاخيرة .. ثم رفع قلمه بين أصابعه الضعيفة ، وحاول أن يكتب ..

انه سيكتب سطرا واحدا ، ثم يوقع .

يوقع !!

لقد تعود أن يتردد كثيرا قبل أن يوقع .. بل انه في كثير من صفقاته الضخمة كان يرفض أن يتعامل بتوقيعه حتى يظل

حرا في نقص استقلاله .. ان توقيعه هو أعز ما يملك .. ان كل جهاده وثمرة كل حياته تركز في هذا التوقيع .. ان هذا التوقيع كان يساوى ملايين الجنيهات .. يساوى أقوات شعب كامل .. يساوى سلطات جبارا ..

والآن سيوقع !!

لماذا ؟ !

وحاول الا يجيب عن هذا التساؤل .. حاول أن يغمض عينيه ويوقع ..

ولكن .. لا .. لا ..

ان رأسه يدوى بكلمة لا .. وصوت انتزع كل ما بقى من قواه يصرخ فيه « لا توقع .. لا توقع .. لماذا تفضح نفسك .. لماذا تترك للتاريخ وثيقة اتهامك .. انك لا تتهم نفسك فحسب .. انك تتهم نظاما عشت محدك فيه .. تتهم مبدأ للحياة عشت به .. دع التاريخ يخدع بك كما خدع في كثير من العظماء .. دع التاريخ يخدع في هذا النظام وفي هذا المبدأ .. ان المعركة لم تنته بعد ، وسيأتى بعدك ناس يحاولون أن يسيروا في الطريق الذي سرت فيه .. فلا تسد في وجوههم الطريق ، دعهم يحاولوا أن يعيدوا هذا النظام وينصروا هذا المبدأ ، وربما افلحوا .. وربما انتصروا على هذه الثورة وانتقموا لك منها .. ان المعركة لم تنته .. انها ليست معركة محصورة في شخصك .. انها معركة تتجدد مع الحياة ، وتنتقل جيلا بعد جيل .. واذا كنت قد هزمت ، فسيأتى بعدك خليفة لك قد ينتصر ، ويومها سيكتب عنك التاريخ انك كنت بطلا .. وانك كنت زعيما .. وانك بنيت الاقتصاد المصرى .. لا توقع يا مجنون .. يا مغفل .. ان كنت فقدت أملك في الحياة ، فلا تضيع أملك في التاريخ .. ولا تضيع أمل من يأتى بعدك من المؤمنين بك ... » .

ولمعت عينا حسين شاكر لمعانا قويا مخيفا كانه استرد لحظة من شبابه الجبار .. ثم مال بنصفه الأعلى وفتح درجا بجانب سريره ، وأخرج الاوراق التى استغرقها خطابه ، ثم اعتدل فى رقدته ، واخذ يقرأ فقرات مما كتبه .. وصوت فى داخله يصيح : « ما هذا الجنون .. كيف كتبت هذا الكلام .. لماذا كتبته .. ارضاء لضميرك !! وما جدوى الضمير الآن .. ارضاء لله !! ان الله لن يغفر لك ولو ملأت سطح الارض بهذا الكلام !! لا .. لا يا مجنون .. لا تترك وراءك هذه الوثيقة المشينة .. دع المعركة تستمر .. دع المعركة تستمر الى آخر الحياة » ..

وأحس حسين شاكر بلذة خبيثة تندلع فى صدره ، وبحرق المارد الذى كان يتولى حسابه ..

أحس بنشوة المعركة التى كان يخوضها طول حياته ..

أحس بالحقد يزغرد فى صدره ويملأ كيانه .. كان الشياطين اجتمعت حوله لتقيم له حفلة ..

وفى قوة طارئة جمع الاوراق بين يديه ، ثم مال بجسده والقى نصفه العلوى من فوق السرير ، وارتكز بصدره على الأرض .. ثم شد نصفه الأسفل ــ نصفه المشلول ــ اليه .. فسقطت ساقاه فى صوت كئيب كانه دقة على باب الجحيم .. ثم أخذ يزحف فوق كوعيه ويشد نصفه المشلول وراءه .. وعيناه لا تزالان تلمعان بهذا البريق المخيف .. ورغوة كرغوة الصابون تسيل من بين شفتيه .. الى ان وصل الى المدفأة والقى فى نارها بكل الأوراق التى كتبها ..

وظل يرقب النار وهى تلتهم السطور ، وتحيلها الى سواد ..

وانفاسه تتهدج كانها تخرج من منفاخ مثقوب ..

وسعل سعالا حادا ، وخرج من بين شفتيه مزيد من الرغاوى .. ثم شهق شهقة حادة ، كأنه أصيب بطعنة ..

وجحظت عيناه وسط وجهه الأزرق ..

وسقط على الأرض ..

ومات ..

والنار تأكل الحقيقة ..

« تمت »

مكتبة مصر (سعيد جودة السحار وشركاه) تقدم

أشهر رواد القصة في الأدب المصري الحديث :

احسان عبد القدوس

(١) صانع الحب
(٢) بائع الحب
(٣) أنا حرة
(٤) الطريق المسدود
(٥) أين عمري
(٦) النظارة السوداء
(٧) في بيتنا رجل
(٨) لا أنام
(٩) منتهى الحب
(١٠) لا تطفيء الشمس
(١١) شيء في صدري
(١٢) زوجة أحمد
(١٣) البنات والصيف
(١٤) لا شيء يهم
(١٥) أنف وثلاث عيون
(١٦) شفتاه
(١٧) لا .. ليس جسدك
(١٨) عقلي وقلبي
(١٩) بئر الحرمان
(٢٠) علبة من صفيح
(٢١) ثقوب في الثوب الأسود
(٢٢) بنت السلطان
(٢٣) سيدة في خدمتك
(٢٤) نساء لهن أسنــ بيضاء
(٢٥) الرصاصة لا تزال في جيبي
(٢٦) لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص
(٢٧) الوسادة الخالية
(٢٨) دمي ودموعي وابتسام

نجيب محفوظ

(١) همس الجنون
(٢) عبث الأقدار
(٣) رادوبيس
(٤) كفاح طيبة
(٥) القاهرة الجديدة
(٦) خان الخليلي
(٧) زقاق المدق
(٨) السراب
(٩) بداية ونهاية
(١٠) بين القصرين
(١١) قصر الشوق
(١٢) السكرية
(١٣) اللص والكلاب
(١٤) السمان والخريف
(١٥) دنيا الله
(١٦) الطريق
(١٧) بيت سيء السمعة
(١٨) الشحاذ
(١٩) ثرثرة فوق النيل
(٢٠) ميرامار
(٢١) خمارة القط الأسود
(٢٢) تحت المظلة
(٢٣) حكاية بلا بداية ولا نهاي
(٢٤) شهر العسل
(٢٥) المرايا
(٢٦) الحب تحت المطر
(٢٧) الجريمة
(٢٨) الكرنك
(٢٩) حكايات حارتنا
(٣٠) قلب الليل
(٣١) حضرة المحترم
(٣٢) الحرافيش

عبد الحميد جوده السحار

السيرة النبوية ـ محمد رسول الله والذين معه

(١) ابراهيم ابو الانبياء
(٢) هاجر المصرية ام العرب
(٣) بنو اسماعيل
(٤) العدنانيون
(٥) قريش
(٦) مولد الرسول
(٧) اليتيم
(٨) خديجة بنت خويلد
(٩) دعوة ابراهيم
(١٠) عام الحزن
(١١) الهجرة
(١٢) غزوة بدر
(١٣) غزوة احد
(١٤) غزوة الخندق
(١٥) صلح الحديبية
(١٦) فتح مكة
(١٧) غزوة تبوك
(١٨) عام الوفود
(١٩) حجة الوداع
(٢٠) وفاة الرسول

القصص الدينى للأطفال :

الحلقة الأولى : قصص الانبياء	١٨ قصة
« الثانية : « السيرة	٢٤ قصة
« الثالثة : « الخلفاء الراشدين	٢٠ قصة
الحلقة الرابعة : « العرب في اوربا	٢٤ قصة

روايات وقصص واقاصيص :

(١) ابو ذر الغفارى
(٢) بلال مؤذن الرسول
(٣) في الوظيفة
(٤) سعد بن ابى وقاص
(٥) همزات الشياطين
(٦) ابناء ابى بكر
(٧) في قافلة الزمان
(٨) اميرة قرطبة
(٩) النقاب الازرق
(١٠) المسيح عيسى بن مريم
(١١) اهل بيت النبى
(١٢) محمد رسول الله
(١٣) قصص من الكتب المقدسة
(١٤) صدى السنين
(١٥) حياة الحسين
(١٦) الشارع الجديد
(١٧) صانعو التاريخ الامريكى
(١٨) صانعو الاقتصاد الامريكى
(١٩) وكان مساء
(٢٠) الذرع وسيقان
(٢١) المستنقع
(٢٢) ليلة عاصفة
(٢٣) الحصاد
(٢٤) جسر الشيطان
(٢٥) النصف الآخر
(٢٦) السهول البيض
(٢٧) ام العروسة
(٢٨) قلعة الإبطال
(٢٩) وعد الله واسرائيل
(٣٠) عمر بن عبد العزيز
(٣١) الدستور من القرآن العظيم
(٣٢) هذه حياتى
(٣٣) الشهيد
(٣٤) ذكريات سينمائية

علي أحمد باكثير

(١) اخناتون ونفرتيتي
(٢) سلامة القس
(٣) وا إسلاماه
(٤) قصر الهودج
(٥) الفرعون الموعود
(٦) شيلوك الجديد
(٧) عودة الفردوس
(٨) روميو وجولييت
(٩) سر الحاكم بأمر الله
(١٠) ليلة النهر
(١١) السلسلة والغفران
(١٢) الثائر الأحمر
(١٣) الدكتور حازم
(١٤) أبو دلامة
(١٥) مسمار جحا
(١٦) مسرح السياسة
(١٧) مأساة أوديب
(١٨) سر شهرزاد
(١٩) سيرة شجاع
(٢٠) شعب الله المختار
(٢١) امبراطورية في المزاد
(٢٢) الدنيا فوضى
(٢٣) أوزوريس
(٢٤) دار ابن لقمان
(٢٥) قطط وفيران
(٢٦) إله إسرائيل
(٢٧) هاروت وماروت
(٢٨) الزعيم الأوحد
(٢٩) جلفدان هانم

الملحمة الإسلامية الكبرى ((عمر)) :

(١) على أسوار دمشق
(٢) معركة الجسر
(٣) كسرى وقيصر
(٤) أبطال اليرموك
(٥) تراب من أرض فارس
(٦) رستم
(٧) أبطال القادسية
(٨) مقاليد بيت المقدس
(٩) صلاة في الإيوان
(١١) عمر وخالد
(١٢) سر المقوقس
(١٠) مكيدة من هرقل
(١٣) عام الرمادة
(١٤) حديث الهرمزان
(١٥) شطا وارمانوسة
(١٦) الولاة والرعية
(١٧) فتح الفتوح
(١٨) القوي الأمين
(١٩) غروب الشمس

محمد عبد الحليم عبد الله

(١) لقيطة
(٢) بعد الغروب
(٣) شجرة اللبلاب
(٤) شمس الخريف
(٥) غصن الزيتون
(٦) من أجل ولدي
(٧) سكون العاصفة
(٨) الماضي لا يعود
(٩) ألوان من السعادة
(١٠) أشياء للذكرى
(١١) النافذة الغربية
(١٢) الضفيرة السوداء
(١٣) حافة الجريمة
(١٤) الوشاح الأبيض
(١٥) الجنة العذراء
(١٦) خيوط النور
(١٧) الباحث عن الحقيقة
(١٨) البيت الصامت
(١٩) أسطورة من كتاب الحب
(٢٠) للزمن بقية
(٢١) جولييت فوق سطح القمر
(٢٢) قصة لم تتم

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الايداع ٧٨/٣٣٩٠
الترقيم الدولى x — ٢٤٦ — ٢١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه